كرستوفر هيبرت

المرأة في حياة نابليون



ترجمة: عمر سعيد الأيوبي

المرأة في حياة نابليون

كرستوفر هيبِرت

ترجمة: عمر سعيد الأيوبي

الطبعة الأولى 1434هـ 2013م

DC204 .H5312 2012
Hibbert, Christopher, 1924 - 2008
[Napoleon]

المرأة في حياة نابليون / تأليف كرستوفر هيبرت؛ ترجمة عمر سعيد الأيوبي.- أبوظبي هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2012.

ص 484 ؛ 13×20 سم.

ترجمة كتاب: Napoleon: his wives and women

تدمك: 978-9948-17-140-9

1 - نابليون، الأول، إمبراطور فرنسا، 1769-1821.

2 - فرنسا-تاريخ-نابليون الأول، 1769-1821.

أ-أيوبي، عمر سعيد.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:

Christopher Hibbert

Napoleon: His Wives and Women



www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

المرأة في حياة نابليون

المحتويات

قائمة الصور الإيضاحية

- بولين بورغيز، منحوتة نفّذها أنطونيو كانوفا © غاليري بورغيز، روما/ مكتبة بريدجمان للفنون، لندن.
- إليزا بونابرت، دوقة توسكانيا الكبيرة وابنتها نابوليون- أليزا. صورة رسمها بيترو بنفينوتي © قصر فونتنبلو، سيان إيه مارن/مكتبة بريدجمان للفنون، لندن.
- كارولين مورا، صورة رسمها فرانسوا باسكال سيمون، بارون جيرار © كرستيز لندن/مكتبة بريدجمان للفنون، لندن.
- يواكيم مورا، صورة رسمها فرانسوا باسكال سيمون، بارون جيرار © المتحف الوطني في سان مارتينو، إيطاليا/مكتبة بريدجمان للفنون، لندن.
- نابليون أمام قصر ماليزون، 1804، صورة رسمها فرانسوا باسكال سيمون، بارون جيرار © قصر ماليزون، باريس/مكتبة بريدجمان للفنون، لندن.
- شارل موريس دي تاليران بيريغور، صورة رسمها بيار بول برودهون © قصر فالنكاي، باريس/مكتبة بريدجمان للفنون، لندن.
- الإمبراطورة جوزفين في ماليزون، صورة رسمها فرانسوا باسكال سيمون، بارون جيرار © متحف الفنون الجميلة، رون/بيتر ويلي/ مكتبة بريدجمان للفنون، لندن.
- صورة للمغنية غراسيني، رسمتها لويس إليزابيت فيغي ليبرون © متحف الفنون الجميلة، رون/بيتر ويلي/ مكتبة بريدجمان للفنون، لندن.
- ماري لاكزنسكا، كونتيسة والوفسكا، صورة رسمها فرانسوا باسكال سيمون، بارون جيرار © قصر فرساي، فرنسا/مكتبة بريدجمان للفنون، لندن.

- ماري ولوفسكا صورة رسمها روبير لوفيفر © أرشيف هولتون.
- مارغريت جوزفين وايمار، الممثّلة الآنسة جورج.
- مدام ريكامييه، صورة رسمها جاك لويس دافيد © اللوفر، باريس/ مكتبة بريدجمان للفنون، لندن.
- رسم تفصيلي لتتويج الإمبراطور نابليون والإمبراطورة جوزفين بحضور البابا بيوس الثاني عشر، 1804، صورة رسمها جاك لويس دافيد © اللوفر، باريس/مكتبة بريدجمان للفنون، لندن.
- رسم تفصيلي لنابليون بونابرت مستقبلاً ملكة بروسيا لويزا في تلسيت، 1807، صورة رسمها نيكولا لويس فرانسواغوس © مجموعة خاصة/ مكتبة بريدجمان للفنون، لندن.
- نابليون بونابرت مع أبناء وبنات إخوته على شرفة قصر سان كلو، 1810، صورة رسمها لويس دوسيس © قصر فرساي، فرنسا/مكتبة بريدجمان للفنون، لندن.
- طلاق الإمبراطورة جوزفين، صورة رسمها هنري فريدريك شوبان © مجموعة والاس/مكتبة بريدجمان للفنون، لندن.
- رسم تفصيلي لدخول نابليون وماري لويز حدائق تويليري يوم زفافهما، 1810، صورة رسمها إتيان بارثلمي غارنييه © قصر فرساي، فرنسا/ مكتبة بريدجمان للفنون، لندن.
- ترجّل نابليون وماري لويز في أنتويرب، 1810، صورة رسمها لويس فيليب كريبان © مؤسسة دوزن ثييه متحف فريدريك ماسون، باريس/ مكتبة بريدجمان للفنون، لندن.
- ماري لويز ترسم صورة لنابليون، صورة رسمها ألكسندر منجود © قصر فرساي، فرنسا/مكتبة بريدجمان للفنون، لندن.

- رسم كاريكاتوري يظهر نابليون وملك روما، كاريكاتور من صنع جورج كروكشانك © متحف فيكتوريا وألبرت، لندن/مكتبة بريدجمان للفنون، لندن.
- نابليون وماري لويز وملك روما، 1812، صورة رسمها ألكسندر منجود © قصر فرساي، فرنسا/مكتبة بريدجمان للفنون، لندن.

شكر وتقدير

إلى الدكتور ديفيد تشاندلر، المستشار التاريخي للجمعية النابليونية الدولية، وريتشارد جونسون من هاربر كولنز، وبروس هنتر، من ديفيد هايهام أسوشيتس، وفرانك جيل، والدكتور فرانسيس شيبارد، والدكتور فيليب أنوين، والكابتن غوردون فيرغِسون، وديانا كوك، أتوجّه بالشكر على المساعدة التي قدّموها بعدّة طرق. وقد ساعدتني جولييت دافيس في اختيار الصور الإيضاحية للكتاب، وقامت مريان ريد بتحريره. كما تكرّم هامش فرانسيس بقراءة التجارب الطباعية، وأعدّت زوجتي الفهرس الشامل.

وأدين كثيراً للبروفسور تي سي دبليو بلاننغ، أستاذ التاريخ الحديث في جامعة كمبريدج لقراءته الكتاب بعد تنضيده وتقديم كثير من النصح لتحسينه.

كرستوفر هيبِرت

شجرة عائلة بونابرت

جوزيف	نابليون الأول	لويس	لوسيان
جوزيف (1844–1768) ملك نابولي ملك إسبانيا تزوج جولي كلاري (1845–1771)	نابليون الأول (1821–1769) تزوج (1) جوزفين تاشر دي لا باغيري (1814–1763) أرملة ألكسندر، فايكونت بوهارنيه (94–1760) ووالدة يوجين، دوق لوكتنبرغ (1824–1781) وأورتنس (1837–1783) تزوج (2) ماري لويز النمساوية (1847–1791) والدة نابليون II ملك روما ودوق رايخشتادت (32–1881)	لويس (1846–1778) ملك هولندا تزوج أورتنس دي بوهارنيه (1837–1783) والدة نابليون III إمبراطور الفرنسيين (1873 –1808)	لوسيان أمير كانينو (1840–1775) تزوج (1) كاثرين بوييه (1800–1773) تزوج (2) ألكسندرين جوبرتون (1855–1778)

اعترف نابليون ضمناً بأربعة أبناء غير شرعيين:

ألكسندر ولوفسكي، ابن الكونتيسة ماري ولوفسكا،

شارل ليون، ابن إليونور دينويل،

طفل من ألبين دي مونثولون،

وطفل من مدام دي بِلابرا.

إليزا دوقة توسكانيا الكبيرة (1820-1777) تزوجت فِليتشي باكيوشي (1841-1762)	جيروم ملك وستفاليا (1860-1784) تزوج (1) إليزابيت باترسون (1879-1785) (أبطل الزواج) تزوج (2) الأميرة فريدريكا كاثرين من فيرتمبرغ (1835-1782)	بولين (1825-1780) تزوجت (1) فيكتور إيمانويل لكلير (1802-1772) تزوجت (2) كاميلو، أمير بورغيز (1832-1775)	كارولين (1839-1782) تزوجت يواكيم مورا ملك نابولي (1815-1767)

1
الكريولية

«إنها تتوق لرؤية باريس ولديها طبع رائع»

كتبت روز كلير تاشر دي لا باغيري La Pagerie عند ولادة طفلتها الأولى في حزيران/يونيو 1763، «رزقنا الرب ابنة خلافاً لما نأمل به». وكان والد الطفلة، جوزيف تاشر دي لا باغيري، يرغب في ولد ربما يتقلّد مثله وظيفة حاجب في قصر فرساي- بعيداً عن مزرعة قصب السكر التي تملكها العائلة في جزيرة مارتينيك في الهند الغربية. وكانت الأم تأمل في أن يرضى زوجها بمولد الصبي من زواج غير سعيد، ما دفعه إلى البحث عن المسرّات في فورت رويال، عاصمة مرتينيك، حيث عُرف عنه أنه يمضي قسماً كبيراً من نهاره في لعب الورق ويُعتقد أنه يقضي لياليه في الفراش مع عشيقته السوداء.

لم يكن جوزيف يكترث كثيراً بمزرعته. وكان والده قد أبحر من فرنسا في سنة 1726 يحدوه أمل كبير في أن يجني ثروة على غرار ما سعى إليه كثير من الكريول- الهنود الغربيون المتحدّرون من أصول أوروبية. لكنه لم يكن مزارعاً ناجحاً، وكذا ولده، وعندما وُلد حفيده، كانت أرباح المزرعة قد تراجعت بحدّة، في حين هبط عدد العبيد الذين يُستدعون للعمل في المزرعة في الخامسة والنصف صباحاً من 150 إلى أقل من 50 عبداً.

في ليلة 13 آب/أغسطس 1766، لجأ هؤلاء العبيد وعائلة لا باغيري إلى منزل حجري للوقاية من الأعاصير عندما هبّت رياح عاصفة مدمّرة صاحبتها موجة مدّية على الجزيرة فقتلت أربعمئة شخص وجرفت مطحنة

العائلة ومساكن العبيد وجميع المباني الخشبية الأخرى في المزرعة، وسوّت قصب السكر وأشجار المانجو والقشطة والطرفاء وفاكهة الخبز بالأرض.

لم تُعد عائلة لا باغيري بناء المنزل الخشبي الكبير، وأصبح الطابق العلوي للمصفاة، فوق المكنات التي تسحق القصب، منزل روز التي كانت في الثالثة في ذلك الوقت. وبعد سبع سنوات، وولادة أمها ثلاث فتيات أخريات، أرسلت روز إلى مدرسة دير الراهبات في فورت رويال حيث تعلّمت كيف تتصرّف كما ينتظر من فتاة شابة في فرنسا، وكيف تغني وترقص وتعزف البيانو، وكيف تستخدم المروحة وتجري محادثة مهذّبة. لكن لم تكن تعلّق أهمية كبيرة على التعليم الأكاديمي.

عندما بلغت روز الرابعة عشرة، تركت المدرسة في فورت رويال وأخذت تتطلّع إلى مغادرة مارتينيك والتوجّه إلى فرنسا لتحيا حياة أكثر إثارة. وقد أتاحت لها تلك الفرصة عمتها ديزيريه، عشيقة الكونت فرانسوا دي بوهارنيه الذي عيّن حاكماً لمارتينيك وعدة جزر قريبة. وكانت قد تزوّجت ألكسِس رينودان، أحد مساعدي فرانسوا دي بوهارنيه De Beauharnais، للتستّر على تلك العلاقة. لكن زوجها اكتشف علاقتها غير الشرعية بالحاكم وجلدها بوحشية ثم عاد إلى الوطن للحصول على انفصال قانوني، فلحقته ديزيريه إلى فرنسا لتقديم دعوى مقابلة والحصول على بعض المال. وبعد ذلك بقليل، أبحر فرانسوا دي بوهارنيه وزوجته إلى فرنسا أيضاً، حيث توجّهت السيدة بوهارنيه للعيش في الريف في أرض عائلتها في ما استقرّ زوجها في باريس مع عشيقته ديزيريه رينودان.

وفي غضون ذلك، عملت ديزيريه على ترتيب زواج بين إحدى بنات أخيها وابن عشيقها. وبناء على ذلك طلبت من أخيها جوزيف وزوجته أن يرسلا إحدى بناتهما على الأقل لتصبح عروساً لألكسندر، وكان في

السادسة عشرة والنصف في ذلك الوقت. ظن ألكسندر أن ثانية بنات لا باغيري، كاثرين، وعمرها اثنتا عشرة سنة، هي الأكثر ملاءمة له بعد أن تتلقى تعليماً جيداً في باريس. لكن كاثرين توفّيت بالسلّ قبل إجراء الترتيبات. وبما أن شقيقتها روز في الرابعة عشرة والنصف من العمر، وسنّها قريب من سنّ ألكسندر، فقد تم اقتراح أختها الصغرى. لكن روز لم تحتمل تجاهلها بهذا الشكل، فانتابتها نوبات متكرّرة من البكاء ما اضطر والدها إلى الكتابة إلى عائلة ألكسندر:

> أخشى أن ابنتي البكر ستنزعج من تفضيل أختها الصغرى عليها، وكانت قد طلبت مني مراراً أن آخذها إلى فرنسا. إنها تتميّز ببشرة رائعة، وعينين جميلتين، وذراعين جميلتين، وموهبة موسيقية غير عادية. إنها تتوق للذهاب إلى باريس، وذات طبيعة عذبة. لو كان الأمر عائداً لي لأحضرت الابنتين بدلاً من واحدة، لكن كيف يمكن أن نبعد الفتاتين المتبقيتين عن أمهما التي حُرمت للتوّ من ابنتها الثالثة؟

وهكذا أبحر جوزيف تاشر دي لا باغيري وابنته روز وعبد محرّر يدعى يوفيمي إلى أوروبا على متن السفينة «إي دي فرانس» في سنة 1779، وكانت بريطانيا قد أعلنت الحرب على فرنسا في السنة السابقة. وبعد رحلة مخيفة استغرقت ثلاثة أشهر لعبور المحيط الأطلسي في طقس رهيب، وخوف مستمر من أن يعترض الأسطول الإنجليزي السفينة أو أن يستولي عليها القراصنة، نزل جوزيف المتعب ومرافقاه في برست، حيث توجّه إلى الفراش على الفور في انتظار وصول شقيقته وصهر المستقبل، ألكسندر دي بوهارنيه، اللذين انطلقا من باريس ما إن سمعا بوصول

السفينة «إي دي فرانس».

لم يخب ظنّ ألكسندر من مظهر عروسه، التي كانت لا تزال تحت تأثير ترجّح السفينة في مياه الأطلسي الهائجة. وقد قال ألكسندر لوالده: «ربما تبدو الآنسة دي لا باغيري أقل جمالاً مما توقّعت، لكن يمكنني أن أؤكّد لك أن لطفها وعذوبة طبعها سيفوقان ما قيل لك عنها». غير أنه لم يعجب كثيراً بالفتاة التي أصبحت الآن في السادسة عشرة، كما أوحى الوصف. بدت والحقّ يقال لطيفة لكنها خرقاء وسمينة، وكان يمكن أن يرفضها لولا أن رفضه سيسبّب الانزعاج لعرّابتها ديزيريه، التي عاملته بلطف منذ وفاة أمه.

أما ألكسندر، فقد كان شاباً وسيماً، معتداً بنفسه بلباسه العسكري، وفخوراً بلقب فايكونت والمركيز الذي أنعم على والده رسمياً الآن. وكان يجتذب النساء على الرغم من سلوكه المتفاخر والمتصنّع للفضيلة، وراضياً عن كونه عشيقاً لعدة نساء أدرج أسماءهن ومراتبهن في قوائم إشباعاً لغروره– إحداهن ولدت له ابناً، وهي الكونتيسة لور دي لا توش دي لونغبريه.

إلى جانب التفاخر الاجتماعي، كان ألكسندر دي بوهارنيه يباهي بثقافته وتتلمذه على معلّم أبناء أخي دوق دي لا روشفوكو، الكاتب والمصلح الاجتماعي، ويحمل بعض آرائه التي تأثّر بها من دون أن يشاركه الآراء التي يمكن أن تضرّ بمركزه الاجتماعي.

لم تكد روز تصل إلى فرنسا حتى تزوّجت من ألكسندر في 13 كانون الأول/ديسمبر. وبعد ذلك عاد إلى فوجه في بريتاني، ثم قدم إلى باريس بضعة أيام، وفي وقت لاحق من الشهر، ترك روز وعاد إلى بريتاني ثانية.

2
الزواج المشؤوم

«أرجو أن ترحلي إلى دير للراهبات».

بدت روز راضية تماماً. وكانت مسرورة كما توقّعت في باريس حيث أقامت مع عمّتها ديزيريه والمركيز، عشيق ديزيريه، في القسم القديم من المدينة في شارع ثفنو. ولا بد من الاعتراف بأنه كان منزلاً بارداً ومعرّضاً لتيّارات الهواء، كما أن غرفه غارقة بالعتمة التي ألقتها عليها المباني المرتفعة في الجانب الآخر من الشارع الضيّق، وغالباً ما تهبّ عليها الروائح الكريهة المنبعثة من المدابغ والسوائل وقطع الجلد والدماء المتدفّقة من أكشاك الجزّارين ببطء نحو المصارف. لكن يبدو أن روز لم تكن منزعجة، في تلك الأيام المبكّرة من الزواج، من هذه المنغّصات التي يحفل بها المنزل في شارع ثفنو. وحتى عندما خاب أملها في الذهاب إلى قصر فرساي بسبب الطبيعة الغامضة للقب الذي يحمله زوجها، فقد كان هو، لا هي، الأكثر سخطاً لخيبة الأمل المشتركة.

نادراً ما كان يتواجد في المنزل، وعندما يحضر لم يكن يخفي انزعاجه من تصرّفات زوجته الخرقاء وافتقارها للتعليم. واقترح عليها أن تتعلّم نصوص المسرحيات المعاصرة، وأن تدرس التاريخ الروماني حتى تستطيع التحدّث مع الأشخاص الذين يخجل من تقديمها إليهم. فهي على حالها هذه، ليست أكثر من «كائن» ليس لديه ما يقوله له.

لكن بمرور الوقت، وفي مناسبات نادرة، عندما يعود بعد قضاء أسابيع بعيداً عن شارع ثفنو في مهام عسكرية، أو مع نساء أخريات في الغالب

الأعمّ، كان يأخذ زوجته أحياناً في جولات في المجتمع الباريسي: الصالونات التي يرتادها الوجهاء، وحفلات الاستقبال التي تقيمها عشيقة دوق دورلينز d'Orléans الجذّابة والرقيقة إلى حدٍّ ما، فِليسِتي دي جنليس de Genlis، في القصر الملكي Palais Royal، وصالون السفارة السويدية الذي ترأسه جرمين دي ستال de Staël، ابنة المموّل السويدي جاك نِكَر، وزوجة السفير السويدي، والأديبة الأريبة والمحدّثة اللبقة التي كان دوق ولِنغتون يجثو على ركبته أمامها في إيماءة غير معتادة، والتي قال عنها: «إنها امرأة ممتعة جداً إذا عرفتَ أن تحافظ على مرحها وأبقيتها بعيدة عن السياسة. لكن ذلك ليس سهلاً. فهي تحاول دائماً التحدّث عن شؤون الدولة. وقد أبلغتها غير مرة، 'أنني أكره التحدّث في السياسة'؛ وأجابت، 'التحدّث في السياسة عندي بمثابة حياة'».

في مثل هذه الرفقة، كانت روز، الفايكونتيسة دي بوهارنيه، مراقبة مفتونة في البداية، وليست مثالاً على تأثير النساء على الرجال، ما أزعج زوجها لأنها تتوقّع منه الاهتمام بها. واشتكى من أنها «أصبحت تغار وتريد أن تعرف ما أقوم به». ولفرط انزعاجه مما وصفه بحبّ التملّك لديها ونزقها، وافق على اقتراح عرّابته بأن يذهب في جولة بمفرده إلى إيطاليا، حيث كتب رسائل إلى الوطن لا يعبّر فيها عن السعادة في جولاته بقدر ما يعبّر عن حسده ممن كانوا محظوظين في البقاء.

وعندما عاد إلى باريس وسكن منزلاً جديداً قرب ضاحية سان أونور، قرّر الذهاب بسرعة إلى الخارج ثانية– إلى جزر الهند الغربية هذه المرة، للخدمة مع فوجه بغية اكتساب بعض الخبرة في القتال ضدّ الإنجليز توطئة لتقلّد منصب أرفع.

رجته روز– التي ولدت له صبياً، يوجين، في 3 أيلول/سبتمبر 1781،

وكانت حبلى بطفلهما الثاني، أورتنس- ألا يغادر فرنسا بسرعة ثانية، لكنه ردّ برسائل مشاكسة شاكياً من نصيبه ومن زوجة لا تكتب إليه بانتظام، خلافاً لزوجات الضبّاط الآخرين. وكتب لديزيريه يخبرها بأن الكونتيسة لورا دي لا توش دي لونغبريه، والدة طفله غير الشرعي، ستبحر في السفينة نفسها التي يبحر على متنها، وطلب منها أن تعتني بابنهما وابن الكونتيسة الآخر في أثناء غيابهما وترسل أيضاً، كما اقترحت الكونتيسة، مجموعة من لعبة اللوتو لتشغل وقتها خلال الرحلة الطويلة. وكتب لزوجته: «أخشى أن زواجنا أصبح في حالة سيّئة، ولا تلومي إلا نفسك».

وصلت لاحقاً رسائل غاضبة إلى باريس من جزر الهند الغربية، وصفها فيها زوجها بأنها «أحقر الكائنات»، وأنه علم أن سلوكها في مارتينيك كان فاحشاً، وأنها وُجدت في أحضان حبيبها ليلة مغادرتها إلى فرنسا. وتساءل: «ماذا عساي أن أظن في طفلك الثاني الذي ولد بعد ثمانية أشهر وبضعة أيام من عودتي إلى روما؟ أقسم بالسماء أنه طفل شخص آخر. أرجو أن ترحلي إلى دير للراهبات فور تسلّمك هذه الرسالة. هذه كلمتي الأخيرة في هذا الموضوع وما من شيء في العالم يمكن أن يحملني على تغييرها».

وتبع ذلك رسائل أخرى على المنوال نفسه، توبّخ زوجته وتتأسّف على نفسه، وتعلن عن «سلوكه الفاضل»، على الرغم من أن رجلاً أقام في منزله في فورت رويال حبس زوجته في غرفتها اقتناعاً منه بأن الفيكونت أغواها.

وأشار إلى أن سلوكه مخالف تماماً لسلوك زوجته غير المخلصة. وقد تضرّرت صحّته كثيراً، وأصبحت رجلاه ضعيفتين بسبب حالته النفسية الارتيابية. وتدهورت حالته كثيراً. غير أنه لم يكن مريضاً جداً عند الذهاب

مع ابنه يوجين، الذي أجبر على إعادته إلى أمه ثانية بأمر من رئيس محكمة باريس. وبعد ذلك طالب بإعادة المجوهرات التي أعطاها لزوجته وأثاث منزلهما.

وبما أنه لم يتمكّن من تقديم الدليل على الاتهامات الخطيرة التي كالها لسلوك زوجته، فقد اضطر للتراجع عنها، وقبول أبوّته لابنتهما، أورتنس، ودفع نفقة لروز مقدارها خمسة آلاف ليرة في السنة. وبعد تسوية كل هذه الأمور بما يرضي روز، انتقلت إلى دير بِنْثِمون الكائن في ناحية عصرية من باريس، وهو مؤسسة مريحة تقدّم غرفاً لسيدات الطبقة العليا اللواتي يحتجن إليها، لسبب أو لآخر، للانعزال المؤقّت عن العالم الخارجي. وهناك، في سنّ الحادية والعشرين، شرعت في التعلّم المتأخّر، وراقبت الشابات الأرستقراطيات المحنّكات اللواتي وجدت نفسها في صحبتهن واستمعت إليهن، ولاحظت الموضوعات التي يتحدّثن فيها وطريقة حوارهن، وقلّدتهن في حركاتهن الرشيقة وإيماءاتهن المغوية، واكتسبت بحّة جميلة أضفت عليها عذوبة جرس صوتها الكاريبي الذي لا يخفي لفظ حرف الراء مزيداً من الفتنة، بل إنها تمكّنت من إنقاص وزنها وامتلاءات وجنتاها، وتخلّصت من مشيتها المتمايلة قليلاً التي تميّز عبيد مارتينيك.

بعد أن لبثت روز في بِنْثِمون أكثر من سنة بقليل، انضمّت إلى ابنها يوجين، وابنتها أورتنس، وعمّتها ديزيريه رينودان، وعشيق عمّتها، المركيز دي بوهارنيه، في فونتنبلو، حيث كانوا يعيشون في ضائقة مالية نوعاً ما. وكانت روز المبذّرة والمسرفة تفتقر إلى المال أيضاً، مع أنه لم يكن في وسع كل من التقى بها في ذلك الوقت، وأعجب بأناقة فساتينها المسايرة للموضة، الافتراض أن الحال كذلك.

ساد اعتقاد عامّ بأنها لم تشترِ جميع هذه الفساتين من مالها. وسرت شائعات في فونتنبلو بأن هذه المرأة الفاتنة والمستفزة، والمنفصلة عن زوجها، ليست على علاقة فقط بدوق دي لورج، وهو شخصية شهيرة في البلاط في القصر الملكي القريب، وإنما بالفارس دي كويني أيضاً. وافتُرض أيضاً أن ارتباطها بأحد الرجلين، إن لم يكن بكليهما، هو السبب الذي دفعها إلى اصطحاب ابنتها معها، وترك يوجين في رعاية مدام رينودان في فونتنبلو، عندما غادرت على عجل فجأة ذات يوم إلى لو هافر، حيث ركبت على متن سفينة تجارية لعبور المحيط الأطلسي إلى مارتينيك.

ويبدو أنها وجدت هناك عاشقين آخرين في أوساط الضبّاط في القاعدة البحرية في فورت رويال، ومن بينهم الكونت سيبيون دي رور. وكتب عنها ضابط آخر: «برغم أنها ليست جميلة بالضبط، فإنها جذّابة بسبب ذكائها ومرحها وتهذيبها... وهي لا تهتم للرأي العامّ... وبما أن مواردها المالية محدودة جداً، وأنها شديدة الإسراف، فقد كانت مضطرة في الغالب للاستعانة بجيوب المعجبين بها».

لبثت في الجزيرة سنتين إلى أن حُذّرت من أن العبيد الثائرين والجنود الفرنسيين الذين تمرّدوا وانضمّوا إليهم، يهدّدون بمهاجمة فورت رويال، فآثرت السلامة هي وابنتها على متن سفينة الكونت سيبيون دي رور، «لا سَنْسيبْل». وفي تشرين الأول/أكتوبر 1790، بعد رحلة استغرقت قرابة شهرين، وصلتا إلى طولون.

3
المواطنة بوهارنيه

اعترفت أنها «أكسل من أن تنحاز إلى أي جهة».

وجدت روز وابنتها فرنسا في حالة ترقّب. في السنة الماضية، كان حشد كبير من الأشخاص قد هاجم سجن الباستيل الباريسي، رمز القمع والاضطهاد، وأطلقوا النزلاء الأربعة المتبقين فيه. ومنذ ذلك الوقت تركّز انتباه البلد على الجمعية الوطنية بينما انتظر الشعب بدء الفصل الثاني من فصول المسرحية.

كان رئيس الجمعية في تشرين الأول/أكتوبر 1790، الشهر الذي عادت فيه روز من مارتينيك، زوجها السابق، مستمتعاً بالفرصة التي أتاحت له الآن إلقاء سلسلة من الخطابات المملّة.

غالباً ما كانت روز دي بوهارنيه، التي لم تعد فيكونتيسة بل مواطنة وفقاً لقرار اتخذه النبلاء الفرنسيون الليبراليون بالتخلّي عن ألقابهم، تُشاهَد وهي تستمع إلى مداولات الجمعية في رواق مدرسة ركوب الخيل في قصر تويليري، حيث كانت تُعقد الاجتماعات. كما كانت تحضر صالوني جيرمين دي ستال وفلِيستي دي جنليس فضلاً عن الاجتماعات في غرف الاستقبال في منزليهما التي يعقدها فريدريك كيربورغ، أمير سالم الألماني الراديكالي، وشقيقته الأمير أماليا.

مع أن الآراء المعبّر عنها في هذين الصالونين كانت قوية، لم يصدر عن روز دي بوهارنيه ما يشير إلى أنها تقرّها أو لا تقرّها. وكما اعترفت هي نفسها، فإنها كانت «أكسل من أن تنحاز إلى أي جهة». وقد لاحظت في

وقت لاحق امرأة تعرفها أن اهتمامها سرعان «ما ابتعد عن بحث الآراء المجرّدة». لكن عندما يلائمها الأمر، كانت تتظاهر بالاهتمام بذكاء بما يقال وتعرف جيداً، كما شهد بذلك شارل موريس دي تاليران، رجل الدولة والسياسي، متى تلتزم الصمت بدلاً من أن تفضح جهلها أو سذاجتها.

بالإضافة إلى رواق الجمعية الوطنية، كانت روز دي بوهارنيه تشاهد أيضاً في معارض الأكاديمية، حيث كانت من بين الصور المعروضة صورة من الكانفا لزوجها يحدّق فخوراً، بأنفه الروماني الطويل فوق ذقنه البارزة.

كانت روز تصادفه بين الحين والآخر في أثناء جولاتها في المدينة، وكانا يبحثان بطريقة ودية في أمور ابنيهما اللذين يحبّهما بالتأكيد. لكنها لم تستطع إقناعه بزيادة مدخولها الذي أصبحت بأمس الحاجة إليه الآن. ومع ذلك، فقد تدبّرت العيش عيشة حسنة في منزلها في شارع سان دومينيك الذي تقاسمته مع صديقة لها تدعى ديزيريه أوستن، وإعالة أسرة تضم غلاماً، ومربية لأورتنس، وعبداً محرّراً يدعى يوفيمي أحضرته معها من مارتينيك.

اتبعت روز «لغة عامّة الشعب وسلوكهم»، كما قال أحد معاصريها، فاكتسبت صداقات متعاطفة في أوساط الراديكاليين، مستغلّة اسم زوجها السابق، الذي انتخب مرتين رئيساً لنادي اليعاقبة، وبعد تعيينه قائداً عسكرياً على جبهة فرنسا المعرّضة للخطر، صارت توقّع رسائلها «لاباغيري بوهارنيه، زوجة المارشال».

وعلى غرار آبي سييس Abbé Sieyès، وهو عضو بارز في المجلس التشريعي أجاب عندما سئل عما فعله في الشهور التي تلت الثورة الدموية، «بقيت حياً»، بقيت روز دي بوهارنيه على قيد الحياة. نجت من الهجوم

على تويليري في صيف 1792 ومجازر أيلول/سبتمبر التي تلت. وشاهدت إقامة المقصلة التي أنهت حياة الملك في ساحة الثورة في 21 كانون الثاني/يناير 1793، وتحمّلت أيام الرعب التي قطع فيها رأس والد طفليها أيضاً في سنة 1794 بعد فشله في منع سقوط مينتز أمام جيش التحالف الذي حرّضت تجاوزات الثورة على إنشائه.

عندما فرض قانون المشبوهين عقوبة الإعدام على النبلاء السابقين وعائلاتهم الذين لم «يظهروا ولاءهم المستمر للثورة» أو الذين اتهموا بالإدلاء بملاحظات «تحطّ من شأن المؤسسات الجمهورية وممثّليها المنتخبين»، رأت روز أن من الأفضل لها مغادرة باريس إلى أن تحصل على شهادة المواطن الصالح لنفسها ولابنيها، وهي الشهادة التي يتطلّبها القانون الجديد. وعندما عرضت عليها صديقتها ديزيريه أوستن بيتاً يبعد بضعة أميال عن باريس، غادرت إلى كرواسي مع أورتنس ومربيتها، ماري لانوي، ويوفيمي. وانضمّ إليهم ابنها يوجين، الذي كان والده قد أرسله إلى مدرسة في ستراسبورغ، كي يتدرّب على مهنة النجارة– وفقاً لمرسوم ثوري– في حين تدرّبت أورتنس على مهنة «الخياطة» على يد مربّيتها.

على الرغم من أن نصل المقصلة كان لا يزال يتحرّك هبوطاً وصعوداً بناء على أوامر محكمة الثورة التي لا ترحم، والتي وصفها توماس كارلايل Carlyle بالانقباض– الانبساط الذي لا يتوقّف، فقد أعادت روز أسرتها إلى باريس بعدما تمكّنت من الحصول على شهادة مواطنة صالحة من خلال صلاتها بأصدقاء نافذين مثل جان لامبير تاليان Jean Lambert Tallien، العضو البارز في لجنة السلامة العامّة.

غير أنها بكّرت في العودة إلى باريس. ففي ليلة 21 نيسان/أبريل 1794،

طرق ثلاثة أعضاء من اللجنة الثورية باب بيتها في شارع سان دومينيك، حاملين معهم أمراً باعتقال «المرأة بوهارنيه، زوجة الجنرال السابق، والمرأة أوستن». فتّشوا المنزل بحثاً عن أوراق تجرّمها، وعندما لم يعثروا على شيء، كرّروا البحث في الليلة التالية عندما عثروا في العلّية على أوراق مختلفة كان ألكسندر قد أرسلها إلى روز لتحفظها له. فاعتُقلت ونُقلت إلى السجن المعروف باسم لو كارم Les Carmes، حيث كان السجناء في أثناء مجازر أيلول/سبتمبر يجرّون إلى غرف منتنة مضاءة بالمشاعل والشموع ليواجهوا مجموعات من القضاة الذين يعتمرون قبّعات حمراء ويرتدون مرايل الجزّارين ويجلسون حول طاولات تتناثر عليها الأوراق وسجلات السجون والقناني والغلايين وجرار التبغ. كانت أيديهم العارية مخطّطة بالدم وموشومة برموز مهن كل منهم. ولا تزال جدران السجن تحمل علامات الدم المترشرش من جثث ضحاياهم.

دُفعت روز إلى السجن المزدحم بنحو سبعمئة رجل وامرأة ينتظرون الإعدام. كان قليل من النبلاء في أوساطهم: معظمهم من التجّار، وقليل من المهنيين، من بينهم مكتبي وموسيقي وصيدلاني. وسرعان ما انضمّ إليهم الجنرال الوسيم لازار هوش Hoche .

كان هوش، وهو ابن عامل إسطبل في الخدمة الملكية عمل سائس خيل قبل أن يلتحق بالحرس الفرنسي، من جنرالات الثورة اللامعين الذين قادوا المجنّدين من عامة الشعب العديمي الخبرة بنجاح كبير. وقد عيّنته لجنة السلامة العامة، في السادسة والعشرين من العمر، ليقود جيش موسل Moselle في العام السابق، لكن منافسه الجنرال شارل بيشغرو Pichegru، وهو من طبقة الفلاحين كان رقيباً أولاً في فوج للمدفعية عند اندلاع الثورة، اتهمه بالخيانة. ولذلك اعتُقل هوش بناء على وشاية بيشغرو،

وأبدى السلوك المرح المألوف عنه في انتظار محاكمته أمام المحكمة الثورية. وعلى الرغم من أنه لم يمضِ على زواجه شهر واحد من فتاة في السادسة عشرة أحبّها وشغف بها، فإنه سرعان ما جمع الحبّ بين هذا الجنرال الشاب الجذّاب و«المواطنة» ذات العلاقات الكثيرة [روز]، في جوّ الإثارة الجنسية الذي انتشر في السجن.

لم يستمرّا على هذه الحال طويلاً. فخلال أسبوع أو اثنين، اقتيد هوش من السجن ليواجه المحكمة الثورية وفي نهاية تشرين الثاني/نوفمبر أطلق سراحه بناء على أوامرها وتسلّم قيادة جيش برست Brest.

كانت روز وحيدة برفقة مخاوفها. وقضت معظم الوقت باكية، خلافاً للنساء الأخريات في السجن الأقدر منها على التحمّل، أو تحاول يائسة معرفة بختها بورق التارو.

كانت الثورة خارج سجن لو كارم تكاد تصل إلى ذروتها. ففي غمرة الشهر الذي عرف في التقويم الثوري الجديد باسم تيرميدور، أخذت السلطة تفلت من يدي مكسميليان روبسبيير Robespierre الذي انتخبه المؤتمر الوطني رئيساً في حزيران/يونيو. وبعد أن أطلق النار على نفسه محطّماً فكّه، أعدم في 28 تموز/يوليو 1794 مع واحد وعشرين شخصاً من أنصاره بالمقصلة أمام حشد مبتهج في ساحة الثورة. فانعطفت الثورة فجأة نحو اليمين.

خرجت روز من السجن، وكانت من أوائل ثلاثة آلاف سجين أطلق سراحهم في أواخر آب/أغسطس. ونظراً لأن ديزيرية أوستن بقيت في السجن، اتفقت روز مع صديقة كريولية أخرى، مدام دي كريني، على استئجار شقّة في شارع الجامعة. وسرعان ما غرقت في الدين واقترضت المال من كل من وافق على إقراضها، حتى من مربية أورتنس التي أقرضتها

مدّخراتها، ومن الجنرال هوش، الذي أرسل إليها رسائل حبّ عاطفية أيضاً ردّت عليها بعبارات لا تقلّ لهفة، على الرغم من أنها لم تكن مخلصة له تماماً بحيث مالت إلى الاستسلام، كما يقال، للتودّد الفظّ لأحد سائسي الخيل لديه.

لم يكن الوقت مناسباً للافتقار إلى المال في باريس. ففي نهاية عهد الإرهاب خلعت المدينة عنها فجأة الكآبة والتشاؤم ودبّت فيها حياة المرح والإثارة. أعيد افتتاح المسارح، وامتلأت المقاهي، وانتشرت قاعات الرقص وبيوت الدعارة في كل مكان. وتسابق التجّار الانتهازيون والمضاربون، الذين ينفقون الأموال بسرعة مثلما كسبوها، في الشوارع مع نسائهم في عربات مزركشة إلى المطاعم الفاخرة، وأوكار القمار، وأماكن التسلية واللهو التي أصبحت غرفها الخاصة، وفقاً لأحد تقارير الشرطة، «أوكاراً للفجور والرذيلة». وسار الشبّان المنعّمون jeunesse dorée، من الطبقة المتوسّطة وطبقة الحرفيين، في الشوارع حاملين معهم عصيّاً مثقلة بالرصاص لترهيب «الساكيلوت» sansculottes (فقراء الطبقة الثالثة)، مرتدين زياً مكوّناً من معاطف متوسّطة الطول، وسراويل ضيّقة، وربطات عنق عالية جداً، وتغطي خصل الشعر الطويلة آذانهم بينما يجدلون شعرهم خلف رؤوسهم. وظهر المتأنّقون المعروفون باسم «إنكرويابل» incroyable (المدهشون) الذين يتصنّعون التأتأة ويرتدون أغرب الأزياء في حدائق تويليري، وشوهدوا وهم يستمتعون بالحفلات على متن القوارب في نهر السين بصحبة «مارفيلو» merveilleuses (الرائعات) اللواتي يرتدين ملابس قليلة كاشفة شديدة الغرابة ويضعن شعوراً مستعارة من مبتكرات فن صناعة الباروكات. وفي حفلات الضحايا، حيث التسلية فوضوية ومرعبة في آن، كان الضيوف الذين هلك أقرباؤهم في عهد الإرهاب

يسرّحون شعورهم كما لو أنهم مستعدون لنصل المقصلة، ويضعون أشرطة رفيعة حمراء حول أعناقهم. وكانوا يحيّون بعضهم بعضاً بطأطأة الرأس بحدّة كما لو أن رؤوسهم المقطوعة تسقط في سلّة الجلاد.

تدبّرت روز دي بوهارنيه العيش في هذا المجتمع، بل ازدهرت أحوالها، باقتراض المال كلما أمكن، وإقامة علاقات مع أصدقاء جدد ونافذين، والحرص على المحافظة على صداقاتها القديمة. وفي حين شارف كثير من الباريسيين على المجاعة في شتاء سنة 1794 المخيف، عندما تجمّد نهر السين من الضفّة إلى الأخرى، كان يمكن مشاهدة الناس في الشوارع يقطّعون الأسرة للحصول على حطب يطهون به الطعام القليل الذي يستطيعون شراءه، والطوابير الطويلة المصطفّة خارج أفران الخبز لشراء أرغفة مما يسمّى خبزاً توزّع بالحصص، وهو تلفيق معجّن مصنوع من النخالة والفاصوليا، رفضه كلب البارون دي فرينيللي، فرماه على الجدار فالتصق به.

لم تبلغ روز دي بوهارنيه حدّ الجوع. فقد أصبح من المعتاد أن يُحضر الضيوف معهم خبزهم وخمرهم وشموعهم عندما يتناولون العشاء في بيوت بعضهم بعضاً، لكنهم اتفقوا على ألا تفعل روز ذلك لأنها لا تستطيع. ولم يكن منتظر أيضاً أن تحتفظ بعربة تقلّها في المدينة، لذا فإن جان لامبير تاليان، الذي لعب دوراً بارزاً في الإطاحة بروبسبيير، وبول بارا Barras، وهو ضابط سابق، ساحر وماجن، نبيل المحتد قاتل بشجاعة قبل أن يصرف من الخدمة، وابن عم المركيز دو ساد وخليفة تاليان كرئيس للجمعية الوطنية، أمّنا لها عربة وزوجين من الجياد.

كانت روز على علاقة ممتازة بزوجة تاليان الشابة الجميلة، تريزا، عشيقة بارا السابقة، وغالباً ما كانت تشاهد في منزل الزوجين تاليان، لا

شوميه، حيث كانت الضيفات اللواتي يتبعن الأزياء الكلاسيكية المحدثة كمضيفتهن، يظهرن وهن يرتدين سترات يونانية ضيّقة، وفساتين كاشفة كذلك الذي ارتدته فورتونيه هاملان وهي تضع عطراً ثقيلاً وسارت به مكشوفة الصدر في الشانزلزيه.

وجدت روز في لا شوميه المجتمع الذي تحبّ وتشعّ فيه. وفي هذا المكان التقت برجل يوصف بأنه «ربيب بارا الإيطالي الصغير»، نابليون بونابرت، وكان في ذلك الوقت عميداً بنصف أجر في السادسة والعشرين من العمر.

4
الفتى الكورسيكي

«إنه فخور وطموح جداً»

في كل عام في عيد صعود السيدة العذراء، يُحتفل بالقدّاس في الكاتدرائية التي بنيت في القرن السادس عشر في أجاكسيو، عاصمة كورسيكا. وفي يوم 15 آب/أغسطس 1769 الشديد الحرارة، كان هناك سبب آخر للاحتفال: فهو يصادف الذكرى السنوية الأولى «لإعادة توحيد» الجزيرة مع فرنسا بعد أن ظلت من ممتلكات جمهورية جنوا قرنين من الزمن. في ذلك اليوم القائظ من آب/أغسطس في الكاتدرائية، كانت توجد بين جماعة المصلّين، مثلما توجد في كل يوم لفترة قصيرة على الأقل، لتيزيا بونابرت، زوجة المحامي كارلو ماريا دي بونابرت البالغة تسع عشرة سنة. فجأة شعرت، على غير المتوقّع، بأولى آلام المخاض. فأسرعت في الخروج من الكاتدرائية وتوجّهت إلى منزل حجري كبير في شارع ماليربا القريب ووصلت في الوقت المناسب لتضع طفلها، الولد الثاني، على أريكة في غرفة أسفل الدرج. في وقت لاحق من ذلك اليوم قدم كاهن إلى منزلها وتقرّر تعميد الطفل من دون تأخير. وقد مُنح اسم نابليون، على اسم خال له توفّي مؤخّراً، وهو أيضاً اسم شهيد مصري مجهول، نيبولوس. وأطلق على الطفل في الأسرة اسم «نابوليو».

كانت الأم تبدو ضعيفة، ذات ملامح باهتة، وشعر غامق، وعينين سوداوين واسعتين، وأنف أرستقراطي، خجولة لكنها تتسم بالعزم والقدرة والاقتصاد الشديد، وقد تزوّجت في سنّ الرابعة عشرة. وصفها

أحد المراقبين الفرنسيين بأنها «أكثر نساء أجاكسيو جاذبية على الإطلاق». لم تكن تبتسم كثيراً، وتتحدّث الإيطالية بلكنة كورسيكية.

جاءت أسرتها، راموليني، من لُمباردي في الأصل، وكانت فخورة بأن تعدّ من بين أسلافها كونتات كول ألتو. لكن جدودها المتأخّرين استقرّوا في كورسيكا منذ نحو 250 سنة. كان والدها مهندساً مدنياً توفّي وهي لا تزال طفلة. فتزوّجت والدتها بعد ذلك بقليل من ضابط سويسري يخدم في البحرية الجنوية، الكابتن فرانز فِش Fesch، الذي أصبح ابنه، جوزيف فِش، كاردينالاً وسفيراً لفرنسا في روما.

يتحدر آل بونابرت من أرومة إيطالية أيضاً، حيث كان أحد أسلافهم، غوغليلمو دي بونابرت، عضواً مميّزاً في مجلس فلورنسا في القرن الثالث عشر. وكان نابليون يقول: «كنا نعتقد أننا لا نقلّ عن آل بوربون شأناً، وفي الجزيرة كنا كذلك حقاً. هناك نسّابون يرجعون عائلتي إلى الطوفان، وهناك أشخاص يزعمون أنني من العامّة. والحقيقة تكمن بين الاثنين. عائلة بونابرت عائلة كورسيكية صالحة، غير معروفة كثيراً لأننا لم نخرج من الجزيرة إلا ما ندر، لكننا أفضل بكثير من المغرورين الحمقى الذين أخذوا على أنفسهم تشويه سمعتنا». وقد علّق عدوّه الكاتب الدبلوماسي والرومانسي، فرانسوا رينيه دو شاتوبريان Chateaubriand، ساخراً أن نابليون كان «شديد الإسراف بالدم الفرنسي لأنه لا يمتلك منه قطرة قط في عروقه».

أبحر عضو من العائلة في القرن السادس عشر إلى كورسيكا، عندما كانت الجزيرة مستعمرة جنوية، على أمل تحقيق الثروة إذا لم يكن المجد. وكان سليله كارلو، زوج لتيزيا، شاباً طويلاً درس الحقوق في بيزا، اتسم بحسن الأخلاق، لكن غلب على طبعه الغرور والاستهتار، وأظهر طموحاً

اجتماعياً وميلاً إلى المكائد. وأصبح معروفاً بأناقة ملابسه والسيف الذي يتمنطق به كدليل على نبل محتده: اشتُهر في الجزيرة باسم «بونابرت العظيم» وأضاف بنفسه إلى اسمه لفظة دي الأرستقراطية. واعتاد ارتداء سترات حمراء كرزية، وأحذية ذات بكلات، وجوارب مطرّزة، وسراويل حمراء داكنة حتى الركبة، وشعراً مستعاراً ذا شريط أسود. لقد كان يهتمّ كثيراً بحسن مظهره.

بعد سنتين من زواجه، أخذ زوجته للقاء باسكال باولي Paoli، قائد المحاربين غير النظاميين الذي عمل طوال حياته لطرد الجنويين من كورسيكا. كانت رحلة طويلة وشاقّة على ظهر الحصان إلى مقرّ قيادة باولي في كورتي، وهي بلدة صغيرة على المرتفعات في وسط الجزيرة. أعجبت لتيزيا بالقائد الوطني العظيم، واجتُذب بدوره إلى ابنة الستة عشر ربيعاً فدعاها إلى لعب الورق معه فهزمته.

ترك كارلو انطباعاً جيداً لدى باولي، فطلب منه التوجّه إلى روما نيابة عنه ليضمن ألا يتخذ كرسي البابوية، الذي منح كورسيكا وكابرايا إلى جنوا، إجراءات انتقامية عندما يُشنّ هجوم على جزيرة كابرايا الجنوية لسحب القوّات الجنوية بعيداً عن الموانئ الكورسيكية التي لا يزال الجنويون يحتفظون بها. استمع الفاتيكان بتعاطف إلى ما طرحه كارلو، لكن جنوا عرضت بيع كورسيكا إلى ملك فرنسا، فنزل عشرة آلاف من قوّاته في الجزيرة للاستيلاء عليها.

بعد أن عاد كارلو إلى كورسيكا، غادر أجاكسيو ثانية للالتحاق بباولي واصطحب لتيزيا معه. وسط الشجيرات الكثيفة المتشابكة الدائمة الخضرة، هزم المحاربون غير النظاميين الكورسيكيون القوات الفرنسية التي انسحبت من الجزيرة بعد أن سقط خمسمئة منها في الأسر وأُلحق

العار بقائدها. غير أنهم عادوا في السنة التالية بأعداد مضاعفة وبإمرة قائد أكثر كفاءة وأشدّ عزيمة.

غادر كارلو أجاكسيو ثانية- مصطحباً لِتيزيا، وكانت حبلى بنابليون وتحمل طفلها الأول غيسِب بين ذراعيها- إلى منطقة الأشجار الكثيفة وأنزل أسرته في كهف بجبل روتوندو، أعلى بقعة في الجزيرة. وقد كتبت لاحقاً أنها كلما خرجت من الكهف، «أزّ الرصاص أمام أذني. لكني كنت أثق بمريم العذراء التي كرّست لها طفلي الذي لم يولد». في أواسط أيار/مايو، تسلّق ضابط فرنسي جبل روتوندو تحت حماية علم أبيض. كان يحمل رسالة من قائده: في أعقاب هزيمة باولي في بونت نوفو، سقطت كورتي بيد الفرنسيين، وأبحر باولي إلى المنفى في إنجلترا. جميع الكورسيكيين المسلّحين أحرار في العودة إلى بيوتهم.

قبل كارلو العرض وقفل عائداً مع لِتيزيا وغيسِب إلى أجاكسيو. وبحلول ولادة نابليون استُبدل علم فرنسا المكوّن من أزهار الزنبق على خلفية زرقاء بعلم كورسيكا.

بدا نابليون ضعيفاً وضئيل الحجم في البداية- وُلد فجأة قبل الأوان- فخشيت أمه أن يموت، كما حدث مع اثنين من أطفالها من قبل، لكنه سرعان ما نما وأصبح أكثر قوة، حيث كان يتغذّى من ثدي أمه فضلاً عن مرضعة، زوجة بحّار تدعى كاميلا إيلاري.

خلافاً لأخيه الكبير الهادئ والخجول، غيسِب، نما نابليون ليصبح ولداً صخّاباً، غالباً ما يستفزّ غيسِب إلى مباريات مصارعة صاخبة على الأرض إلى أن أخرجت والدتهما جميع قطع الأثاث من إحدى الغرف وتركت الطفلين هناك ليتصايحا ويتخاشنا قدر ما يحب نابليون. غير أنها

لم تكن أماً مفرطة التسامح، فأصرّت على الاستحمام اليومي، والحضور المنتظم للقداديس، وغالباً ما كانت تضربهما عندما يصبحان مزعجين أو يتشاقيان. كان نابليون نفسه، كما اعترف لاحقاً، متمرّداً وحروناً في طفولته. وعن ذلك يقول: «كنت أضرب غيسِب ثم أجبره على أداء واجبي المدرسي في البيت. وإذا عوقبت وأعطيت خبزاً بسيطاً فقط لآكله، كنت أقايضه بخبز الكستناء الخاص بالراعي، أو أتوجّه إلى مربّيتي التي تعطيني قليلاً من الحبّار الذي أحبّه كثيراً».

ويذكر تعرّضه لضرب شديد ذات مرة:

كانت جدتي مسنّة جداً ومحدودبة [كما أخبر ابنه خارج الزواج ألكسندر ولوفسكي]، وبدت لي ولشقيقتي بولين [ولدت في سنة 1780] مثل عرّابة جنية مسنّة. كانت تسير بمساعدة عصا، وعلى الرغم من أنها تحبّنا وتعطينا الحلوى، فإن ذلك لم يمنعنا من السير خلفها وتقليدها. غير أنها أمسكت بنا ونحن نفعل ذلك وأبلغت أمنا التي رغم محبّتها لنا لم تكن تطيق التصرّفات الخرقاء. عوقبت بولين أولاً لأن رفع التنّورة وخفضها أسهل من فكّ أزرار البنطلون. حاولتُ في تلك الليلة الإمساك بي أيضاً لكنني هربت. وفي الصباح أبعدتني عنها عندما حاولت أن أقبّلها. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم قالت: «نابليون، أنت مدعو للعشاء في بيت الحاكم. اذهب وغيّر ثيابك». صعدت إلى أعلى وبدأت أخلع ثيابي. لكن أمي كانت مثل قطّة تنتظر فأراً. دخلت الغرفة فجأة، وأدركتُ متأخّراً أنني وقعت في الشرَك الذي نصبته لي واضطررت للخضوع لضربها.

كانت والدة نابليون، كما قال عنها: «صارمة وحنونة في آن معاً»، وأقرّ من دون تردّد بتأثيرها في تطوّر شخصيته. فقال: «ربّتني أمي تربية ممتازة. وأنا أدين لها بالكثير. لقد غرست فيّ الفخر». كان الوالد يخشى في بعض الأحيان من أن تكون زوجته صارمة جداً مع الأولاد، لكنها أصرّت على أنها هي المسؤولة عن تربية الأطفال لا هو. لقد كانت متأمّرة على طريقها.

شهد نابليون طفولة سعيدة وأسرية جداً على العموم. وكان البيت الكبير الداكن واسعاً لكنه مشغول بأكمله خلف النوافذ المغلقة. عاش نابليون ووالداه وأشقّاؤه في الطابق الأول. وشغلت الطابق الأرضي حماة لِتيزيا وعمّ يدعى لوتشيانو، وهو رئيس شمامسة أجاكسيو، وغالباً ما كان يُقعده النقرس. وأقام في الطبقة الثانية أبناء عمومة مختلفون، وكانوا في بعض المناسبات مجموعة مشاكسة يسرّ كارلو التخلّص منهم لو استطاع إلى ذلك سبيلاً. وقد تحوّلت العلاقات بين العائلتين من سيّئ إلى أسوأ بعد أن ألقي طست من فضلات المياه على أحد فساتين لِتيزيا المنشورة لتجفّ في الأسفل. على الرغم من أن لِتيزيا حرصت على ألا يسرف آل بونارت في معيشتهم، فإنهم عاشوا حياة ميسورة جداً. فقد ورث كارلو كرمين جيّدين ومرعى وأرضاً زراعية عن والده، في حين أحضرت لِتيزيا عند الزواج أكثر من ثلاثين فدّاناً ومطحنة، وفرناً كبيراً يخبز فيه خبز الذرة المطحون في مطحنة الأسرة. وكان الحليب والجبن يأتي من ماعز الأسرة، والزيت من زيتونها، وسمك التونة من الصيادين الذين يصطادون بالشباك في خليج أجاكسيو. وكان العمّ لوتشيانو يفاخر بأن آل بونابرت «لم يدفعوا قطّ مقابل الخبز والخمر والزيت». غير أن نابليون لم يكن مهتماً كثيراً بالطعام– باستثناء الكرز الذي يتلذّذ في تناوله. وبخلاف ذلك، يأكل

ما يوضع أمامه من دون حماسة أو تعليق.

عندما بلغ الخامسة، أرسل إلى دار حضانة تديرها الراهبات، وكان على الرغم من حرص أمه يصل إليها وثيابه ملتوية وجواربه متكوّمة حول كاحليه، وهو ممسك بيد فتاة تدعى جياكومينيتا. وقد أفضى ذلك إلى ظهور بيت من الشعر يغيظه به الأطفال الآخرون، ويسخر من جواربه التي تسقط على كاحليه وحبّه لجياكومينيتا:

نابليون ذو الجوارب السائبة

يحبّ جياكومينيتا

كان ذلك يثير غضبه فيرشق من يكايدونه بالحجارة أو يهجم عليهم ملوّحاً بقبضتي يديه.

ومن دار الحضانة أرسل إلى مدرسة للأولاد تعلّم فيها قراءة الفرنسية والإيطالية وكتابتهما، فضلاً عن الحساب الذي أحبّه وتفوّق فيه. وفي إجازات العطلة الصيفية، كان والداه يأخذان الأطفال إلى إحدى المزارع في التلال أو إلى منزل قرب البحر، وتُركبهم أمهم على الحصان ما إن يتمكّنوا من المشي. وكانت العمّة غَلترودا تأخذ نابليون في جولات ممتطية حصاناً، وتخبره ما تعرفه عن البستنة والزراعة، كما علّمته كيف يقلّم الكرمة، وبيّنت له الأضرار التي ألحقها ماعز عمّه لوتشيانو بأشجار الزيتون. وحصل على نوع مختلف من التعليم من أمه التي كانت تحرم غيسِب ونابليون من العشاء بين الحين والآخر كي «يعتادا تحمّل المشقّة من دون احتجاج». كما أبلغتهما أنهما على الرغم من أصلهما النبيل، فإن عليهما تقديم التضحيات كي يظهرا أمام العالم بالمظهر المتوقّع من النبلاء.

وقالت لنابليون ذات يوم: «عندما تكبر ستصبح فقيراً. لكن من الأفضل أن يكون لديك غرفة جميلة تستقبل فيها الضيوف، وطقم

جميل من الملابس، وحصان جيد، حتى لو اضطررت إلى العيش على الخبز الجافّ». وحضّت أطفالها على الافتخار بأسلافهم. ومع أن نابليون كان يستنكر عندما ينعته أعداؤه «بالكورسيكي» احتقاراً، فإنه لم يكن يخجل من أصوله ولم يحاول البتة إخفاءها مع أنه قال ذات مرّة، «أنا لست كورسيكياً. لقد نشأت في فرنسا، لذا أنا فرنسي».

كما أقنعته أمه بالإيمان بالقدر وبقدرة العناية الإلهية والأرواح في العالم الآخر. وكلما سمعت أخباراً مفاجئة وغير متوقّعة، كانت تصلّب وتتمتم بصوت خافت «يا يسوع»!

ازدهرت أحوال كارلو كمحامٍ تحت الحكم الفرنسي، ومنح مقعداً في المجلس التشريعي الكورسيكي وعضوية مجلس النبلاء الاثني عشر، فأصبح الآن قادراً على تحمّل نفقات مربية للأولاد وخادمتين لزوجته. وقد شعرت بالحاجة إلى مساعدة عندما وُلد طفل آخر، لوتشيانو (لوسيان، كما عرف في فرنسا)، فيما كان نابليون في السادسة من العمر. وبعد ذلك بسنتين ولدت ماريا آنا، إليزا لاحقاً، ثم جاء الابن الرابع، لويجي (لويس)، وابنتان أخريان، ماريا بولا (بولين) وماريا أنونتزياتا (كارولين)، وأخيراً ولد الابن الخامس، جيرولامو (جيروم) في سنة 1784.

لم تفسد الولادات المتكرّرة جمال الوالدة التي أعجب بها الحاكم الفرنسي لكورسيكا، شارل رينيه، كونت ماربوف. كان بمفرده، فزوجته المتقدّمة في السنّ لم تصحبه إلى الجزيرة كما أن عشيقته الفرنسية تركته وقفلت عائدة إلى ديارها. ويقال بأنه أحبّ لِتيزيا حباً جمّاً، لكن يبدو أنها بحكم تديّنها الشديد واهتمامها بواجباتها تجاه زوجها، اكتفت بالاستمتاع بإعجابه بها، على الرغم من أن هناك من يعتقدون أنهما كانا متحابّين وأن لويجي ابنه.

عندما تعهّد الكونت بإيجاد مكانين لغيسِب ونابليون في المؤسسات التعليمية في فرنسا ودفع الأقساط اللازمة، إذ لم يكن لديه أطفال، قبلت لِتيزيا وزوجها هذا العرض بلهفة. وهكذا أرسل الشقيقان إلى مدرسة جيدة في أوتون، ومن هناك كان من المقرّر أن يلتحق غيسِب بكلية للاهوت في إكس Aix بغية دخول الكنيسة، في حين يتعلّم نابليون في الأكاديمية العسكرية في بريان لو شاتو ليصبح عسكرياً.

عندما اتُّخذ هذا القرار بشأن مستقبل نابليون، لم يكن قد أتمّ التاسعة بعد. وبكت مرضعته السابقة التي ظلّت صديقة للعائلة عندما علمت أنه سيغادر المنزل في هذه السنّ المبكّرة. بيد أن أمه لم تظهر مثل هذه العاطفة. ووفقاً للعرف الكورسيكي، اصطحبته وشقيقه غيسِب إلى الآباء العازاريين، وهم جماعة من الكهنة العلمانيين الذين يعيشون تحت نذر دينية، كي يباركه رئيسهم، ثم رافقتهما عبر التلال وبلدة كورت إلى الساحل عند باستيا حيث ركبا سفينة متوجّهة إلى مرسيليا. بدا نابليون خائفاً عند الرصيف: انحنت والدته لتقبّله وتهمس في أذنه، «كن شجاعاً». ومضت أشهر عديدة بعد ذلك قبل أن تشاهد ابنها ثانية.

بدا أن الاثنين بحاجة إلى التشجيع ثانية عندما اضطر نابليون وجوزيف، كما صارا يعرفان الآن، إلى وداع أحدهما الآخر بعدما حان الوقت كي يغادر نابليون المدرسة في أوتون للتوجّه إلى الأكاديمية العسكرية في بريان. بكى جوزيف بكاء مرّاً، ومع أن نابليون لم يذرف دمعة واحدة، فقد حاول أحد المعلّمين في المدرسة مواساة جوزيف لاحقاً وقال له: «لم يظهر حزنه، لكنه حزين مثلك».

في بريان، لم يظهر نابليون براعة شديدة في الرياضيات فحسب، وإنما في التاريخ والجغرافيا أيضاً. غير أن أحد زملائه قال إنه: «لم يكن

يتذوّق دراسة اللغات والفنون». وقد وصف بأنه «رديء جداً» في الرسم والرقص، في حين أنه كان يخطئ في الإملاء. لم يكن بارعاً في الألمانية، بينما يتحدُث فرنسية غير سليمة بلكنة كورسيكية. وأصبح مشهوراً بطبعه الحادّ، واعتماده على نفسه، وكبريائه وغروره، وإحساسه المتزمّت بالوقار، والاستعداد للهجوم. وفي إحدى المناسبات، عندما انتهك أحد قوانين المدرسة وهو في التاسعة تقريباً، أمر أن يعتمر طاقية الشخص البطيء التعلّم، ويرتدي معطفاً بنياً بدلاً من زيه الأزرق، ويأكل راكعاً على ركبتيه عند باب قاعة الطعام. فثار غضبه من هذه المهانة، وقاء فجأة على الأرض، ثم ضرب بقدمه الأرض ورفض الركوع صائحاً: «سأتناول عشائي واقفاً. نحن في أسرتي لا نركع إلا لله، إلا لله، إلا لله»!

كان من الطبيعي أن تفضي ثورات الغضب هذه إلى مزيد من المكايدة، لكن من دون تنمّر على ما يبدو، لأنه قادر جداً على الردّ بعنف على الاستفزازات من هذا النوع. وعندما خاف بعض الفتيان من انفجار صندوق من البارود في أثناء عرض للألعاب النارية في عيد ميلاد الملك، فسارعوا إلى قطعة الأرض الخاصة به في الحديقة، وهي المكان الذي ينسحب إليه بعيداً عن الأولاد الآخرين في الإجازات، وحطّموا السياج وداسوا على شجيرات التوت، هاجمهم وطردهم وهو يصيح مهدّداً ويلوّح بمجرفة. وغالباً ما كان يردّ على السخرية من ضآلة حجمه أو لكنته الغريبة بهذه الطريقة العنيفة، مندفعاً نحو مغايظيه وهو يصيح، «سأجعلكم أيها الفرنسيين تدفعون الثمن». وقد وصفه أحد التقارير عنه بأنه «متسلّط وعنيد». وأشار تقرير آخر إلى أنه «يفتقر إلى اللباقة الاجتماعية». وقد كتب عنه صديقه الوحيد، لويس أنطوان دو بوريان De Bourrienne، الذي أصبح سكرتيره فيما بعد:

> كنت أنا وبونابرت في الثامنة من عمرنا عندما بدأت صداقتنا... كنت الوحيد من بين رفاق الصبا الذين تمكّنوا من التكيّف مع شخصيته القاسية... كانت رغبته الشديدة في اكتساب المعرفة ملحوظة حتى في ذلك الوقت. عندما التحق بالكلية، كان يتحدّث بلكنة كورسيكية فقط وأعطاه نائب المدير دروساً في الفرنسية... [كان رديئاً جداً في اللاتينية] لكن السهولة التي يحلّ بها مسائل الرياضيات أدهشتني تماماً...
> كان حديثه يفتقر دائماً إلى المرح، ولم يكن ودوداً البتة... لم يتحسّن مزاجه بالمغايظة التي يتعرّض لها باستمرار من الأولاد الآخرين الميالين إلى السخرية منه بسبب اسمه الغريب وبلده... لم يكن محبوباً بالتأكيد ونادراً ما شارك في المناسبات الترفيهية المدرسية. واعتاد في أوقات اللعب الانسحاب إلى المكتبة حيث يقرأ كتب التاريخ بشغف كبير. وغالباً ما كنت أذهب للعب مع أصدقائي وأتركه ليقرأ بمفرده في المكتبة.

ذات يوم قدم والداه لزيارته. وقد كان شكل والده الذي يرتدي شعراً مستعاراً مميّزاً مثيراً للإحراج عندما تنحّى جانباً وانحنى بأدب ليسمح للمدير بعبور الباب قبله. لكن أمه كانت كل ما يأمل فيه صبي- صبي كورسيكي في مدرسة يلتحق بها تلامذة الضباط الفرنسيين من عائلات الطبقة العليا. كان شعرها الأسود الطويل مربوطاً خلف رأسها ومغطى بغطاء رأس مخرّم، وفستانها من الحرير الأبيض منقوش بأزهار خضراء. غير أنها لم تكن على ما يرام بعد أن عانت مؤخّراً من حمّى النفاس. ولا تزال تعاني من ألم في جنبها الأيسر، وهو اعتلال أمل زوجها في أن يخفّ

بالعلاج في مياه بوربورن الساخنة.

سمعت بجزع أن نابليون عقد العزم الآن على الالتحاق بالبحرية، وأنه استعداداً للحياة في البحر، اعتاد النوم في أرجوحة شبكية في حجيرته. ذكرت بقلق خطرين من مخاطر الحياة في البحر: احتمالات أن يقتل على متن سفينة والغرق إذا ما ألقي به في البحر. وعندما عادت إلى أجاكسيو طلبت من الكونت دو ماربوف أن يبذل ما في وسعه لثني ابنها عن تحقيق طموحه.

شعرت لِتيزيا بالقلق أيضاً من الحالة الصحية لزوجها: فقد خسر مؤخّراً الكثير من وزنه وتراجعت شهيّته، وبدا عليه الإرهاق وظهرت بقع على بشرته. أُقنع كارلو بالتوجّه إلى إكس، ثم إلى مونبيلييه، لاستشارة اختصاصي. لم يُجده شيء نفعاً وتوفي من سرطان المعدة في شباط/فبراير 1785، قبل شهر واحد من تمام عامة التاسع والثلاثين. وقد تعطلت وظائفه في النهاية فقال نابليون لاحقاً بانفعال للكهنة: «لم يكن هناك ما يكفيه في كل مونبيلييه... فأنهى حياته بورع شديد حتى ظن الجميع هناك أنه قدّيس».

كان نابليون في ذلك الوقت قد غادر بريان، ولم يعد عازماً على الالتحاق بالبحرية، بل توجّه إلى الكلية الحربية في باريس، وهي مؤسسة تقدّر الشعائر الدينية بقدر ما تقدّر التدريب العسكري: كان حضور القدّاس إلزامياً، وكذا تأكيد العماد والاعتراف.

حزن نابليون عند سماع وفاة والده، وخشي أن تجد والدته، وهي الآن أرملة وأماً لثمانية أولاد، مشقّة في تدبّر أمورها في هذه الضائقة. وعندما عرض عليه أحدهم أن يقرضه المال، رفض العرض قائلاً: «لدى أمي الكثير من المصاريف بالفعل، وعليّ ألا أضيف إليها المزيد».

كان فخوراً ومتزمّتاً كما هو شأنه دائماً، لا يحتمل الانتقاد وما يعتبره انتقاصاً من كرامته، ويغضب عندما يُستدرج إلى ما يجعله يشعر بأنه أحمق- كما حدث مثلاً عندما لم يكن قد رأى الثلج من قبل، فطلب أن يعرف من وضع الزجاج في إبريقه.

رويت قصص عن أنه رمى بارودته على رأس تلميذ ضابط متقدّم لاحظ خطأً في تدريب نابليون فضربه على أصابع يده، ورفض تودّد صديق سابق، بيار فرانسوا لوغييه، ابن أحد البارونات، وانتقده لأنه يصاحب شباناً ذوي ميول مثلية. كان قد أبلغ لوغييه: «إن أصدقاءك الجدد يفسدونك، لذا عليك أن تختار بيني وبينهم». وفي وقت لاحق قال: «لقد استهزأت بنصيحتي ورفضت صداقتي. فلا تتكلّم معي ثانية». فردّ لوغييه بالتسلّل خلفه ودفعه فأسقطه. فركض نابليون خلفه وأمسك به من خنّاقه ورمى به على الأرض فاصطدم رأسه بالموقد.

أبلغ نابليون الضابط المناوب الذي جاء لتحذيره: «لقد تعرّضت للإهانة، وثأرت لنفسي. وليس هناك ما أزيده على ذلك». ثم انصرف بطريقة أصبحت في ذلك الوقت من خصائصه المميّزة، يطوي ذراعيه ويميل رأسه إلى الأمام ويمشي بخطوات واسعة.

دفعت ميول لوغييه الجنسية نابليون إلى كتابة بحث ليرسله إلى وزير الحربية عن موضوع تعليم شبّان إسبارطة، معتقداً بوجوب تطبيقه في الكلية الحربية والأكاديميات الفرنسية الأخرى. أرسل المسوّدة إلى مدير المدرسة في بريان، فنصحه بعد قراءتها بألا يتابع هذه المسألة.

وقد وصف تقرير عن تلميذ الضابط الكورسيكي في الكلية الحربية نابليون بأنه «منعزل، ومتكبّر، وأناني... متحفّظ ومولع بالدراسة، يفضّل الدرس على أي نوع من التسلية... ويستمتع بقراءة مؤلّفات الكتّاب

الكبار، ولديه معرفة جيدة بالرياضيات والجغرافيا... وهو شديد الكبرياء والطموح».

5
عاهرة ومزعجة

«المرأة التي يُخشى منها تفتقر إلى السحر».

أصبح نابليون في السادسة عشرة من العمر الآن. وقد اقتصرت علاقته مع النساء حتى ذلك الوقت على أعضاء عائلته وأصدقائهم إلى حدٍّ كبير، ولم تتح له فرص كثيرة لملاقاة فتيات من سنّه. غير أنه شاهد في إحدى الإجازات في باريس ابنتي بانوريا بيرمون Permon، وهي كورسيكية من أصل يوناني، وزوجة جميلة لمقاول يعمل مع الجيش، ووالدة الفتاتين سِسيل ولور. عندما تقلّد نابليون رتبة ضابط بعد بلوغه السادسة عشرة، زار منزل آل بيرمون في ساحة كونتي مرتدياً زي الضابط الجديد وجزمة سوداء طويلة بدت كبيرة جداً على ساقيه النحيلتين. ضحكت الفتاتان عند رؤيته؛ وبما أنه تضايق من ذلك الاستقبال غير الملائم وبدا عندئذ، شأنه دائماً، غير قادر على تحمّل المزاح على حسابه، أبلغته سِسيل أنه بعد أن أصبح من حقّه أن يتمنطق بسيف الضابط، فإن عليه أن يحمي السيدات وألا يغضب إذا ما كايدنه بالمداعبة.

فقال نابليون بفظاظة: «من الواضح أنك ما زلت تلميذة مدرسة صغيرة».

فردّت الفتاة التي تبلغ العاشرة من عمرها: «ماذا عنك؟ أنت مجرّد هّر أبو جزمة».

لكن نابليون حاول في زيارته الثانية للمنزل أن يظهر أنه غير متضايق فأحضر معه نسخة من قصة «الهرّ أبو جزمة» لإحدى الشقيقتين،

وللأخرى نموذجاً صنعه بنفسه «للهرّ» وهو يركض أمام عربة سيّده المركيز كارابا، مع أنه لا يستطيع احتمال تكاليفه. غير أن سخريتيهما لم تُنسَ: فقد حافظ نابليون بعد ذلك بسنوات على وصف لور بيرمون «بالمزعجة الصغير»، وقالت لور بعد مرور عقد كامل عندما أشارت إلى حادثة «الهرّ أبو جزمة» إنها لم تنس قطّ تعابير نابليون عندما تقدّم نحوها وقرصها من أنفها بشدّة بحيث صاحت من شدّة الألم. وقال: «أنت ظريفة أيتها المزعجة الصغيرة، لكنك خبيثة. فلا تكوني كذلك، المرأة التي يُخشى منها تفتقر إلى السحر». ولم ينس نابليون تلك الإساءة قطّ لا في ذلك الوقت ولا لاحقاً. ولم تنسَ لور بيرمون البتة كيف يلوي شفته عندما يغضب، ولا سحره عندما يريد ممارسته.

كان على نابليون بعد أن تقلّد سيفه وحصل على جزمته أن يحدّد الفوج الذي يريد الالتحاق به. فاختار لا فير La Fère، وهو فوج مدفعية يحظى باحترام كبير ويوجد موقعه في ڤالنس على نهر الرون بين مرسيليا وليون، أي الحامية الأقرب إلى كورسيكا.

عاش نابليون في ڤالنس في غرفة في الطابق الأول من بيت تملكه امرأة في الخمسين من العمر، مدام بو. وقد كانت غرفة صغيرة تفتقر إلى الهدوء، حيث تسمع طقطقة كرات البلياردو في الغرفة المجاورة، حانة كافيه سيركل. لكنه أعجب بمدام بو التي كانت تغسل ثيابه وتصلحها، كما أنه استساغ الإقامة في ڤالنس على العموم: كان يدعى مع زملائه الضبّاط إلى منازل الأعيان المحليين. غير أنه نادراً ما لبّى هذه الدعوات لشعوره بأنها لا تليق به. وقد تدبّر المال لتلقّي دروس في الرقص، كما كان يدّخر المال ليسدّد لأمه تكاليف إرسال الثياب إليه بالبريد. غير أن الأموال التي يوفّرها كانت قليلة، وطالما سعى إلى استعارة الكتب إذا أمكن بدلاً

من شرائها.

غالباً ما كان يشعر بالتعاسة بل بميول انتحارية في وحشة غرفته. وقد كتب عن ذلك: «كنت وحدي دائماً، وفي غمرة الكآبة تتركّز أفكاري على الموت... أيّ غضب عظيم يجعلني أتمنّى الهلاك الآن... لا أجد مكاناً لي في هذا العالم... وبما أنني سأموت عاجلاً أو آجلاً، فلماذا لا أقتل نفسي»؟

كان يقرأ كثيراً في التاريخ والنظريات السياسية في الغالب، أعمال مكيافيلي، وكتابات عن ديانة الأزتيك، وحكومة الهند، وروما القديمة، وكتباً عن إنجلترا، وأدهشه صعود البرلمان وتراجع الملكية التي رأى أنه يجب الحدّ من سلطاتها وسلطات الوزراء في فرنسا. كما كتب كثيراً، أوراقاً عن التعامل مع المدفعية واستخداماتها، ومقالات عن «جمهورية» أفلاطون، وعن اليونانيين القدماء والفارسيين، وعن إنجلترا الحديثة واليونان القديمة، وعن «تاريخ العرب في عصر الخلفاء» لماريني Marigny. كان يكتب بسرعة حتى وقت متأخّر من الليل، وغالباً ما يعجز عن فكّ رموز ما كتب في الصباح.

كان يوجز المقاطع التي تثير اهتمامه، ويدوّن قائمة بالكلمات غير المألوفة لديه حتى الآن وحقائق غريبة عن الكتب التي استحوذت على مخيّلته– مثل «فن الحكم على الشخصية من الوجوه» لجان غاسبار لافاتر Lavater. وبعد أن قرأ كتاب ماريني «تاريخ العرب في عصر الخلفاء» كتب، «يقال إن سليمان أكل 100 رطل من اللحم... وإن محمّداً كان أمياً. أعتقد أن ذلك مستبعد. كان لديه 17 زوجة». ونقل عن كتاب بوفون Buffon «التاريخ الطبيعي» بإعجاب ظاهر مقاطع طويلة عن الخصاء والخصيتين– «بعض الرجال يولدون بخصية واحدة، وآخرون بثلاث،

وهؤلاء الرجال أكثر قوة وحيوية». كان اهتمامه بهذه المسائل في ذلك الوقت أكاديمياً إلى حدٍّ كبير.

في ڤالنس، تعرّف إلى عائلة مدام كولومبييه Colombier التي كانت لديها ابنة تدعى كارولين. لكنه علّق على ذلك لاحقاً: «ربما لا يمكن تصديق ذلك: كانت علاقتنا بأكملها لا تزيد عن تناول الكرز معاً». وفي زيارة قصيرة إلى باريس في تشرين الثاني/نوفمبر 1787، عندما كان في الثامنة عشرة، التقى بعاهرة شابة في القصر الملكي في ليلة باردة وأخذها إلى الفراش. لكن يبدو أن هذه التجربة لم تترك لديه أثراً عميقاً. دوّن بالتفصيل الحوار الذي دار معها، والأسئلة التي طرحها: كيف تحتمل السير في الرواق المقنطر في مثل هذا الطقس الرديء؟ ألم تتعب من مثل هذه الحياة؟ ألم يكن هناك عمل آخر ملائم أكثر لصحّتها؟ لا بدّ أنها جاءت من الشمال لتواجه مثل هذا البرد؟ كيف فقدت عذريتها؟ هل غضبت من الضابط الذي سلبها إياها؟ كيف جاءت إلى باريس؟

أخبرته أن ضابطاً آخر أحضرها إلى هناك. وقالت: «هجرني أيضاً. والآن لدي ضابط ثالث. إنني أقيم معه منذ ثلاث سنوات. وهو فرنسي لكن لديه عملاً في لندن. إنه هناك الآن، فلنذهب إلى مقرّ إقامتك».

«ماذا سنفعل عندما نصل إلى هناك»؟

«سندفّئ أنفسنا. هيا، ستستمتع كثيراً».

لم يقل إذا كان قد استمتع أم لا. غير أنه قال إنه يكره البغاء «أكثر مما يكرهه معظم الأشخاص» وطالما «شعر بالتلوّث من نظرات نساء من هذا النوع»، لكن وجنتي هذه الشابة الباهتتين وصوتها الرقيق «تغلّبا على شكوكه على الفور».

عندما انتقل نابليون في حزيران/يونيو 1788 من ڤالنس إلى أُكسون، عرض على أمه أن يأخذ أخاه لويس البالغ أحد عشر عاماً، وكان المفضّل لديه في ذلك الوقت، ليقيم معه من أجل تقليل الأعباء التي تتحمّلها أمه. كما بذل ما في وسعه لمساعدة لِتيزيا بعد أن أوقفت السلطة الأشدّ صرامة، التي أقامها المسؤولون في وزارة المالية في كورسيكا إثر وفاة صديقهم ماربوف، الإعانات المستحقّة لها نظير التحسينات التي أجرتها على أرض العائلة. وكتب رسائل احتجاجاً على السلطات الجديدة في كورسيكا، وتوجّه بنفسه إلى باريس لمتابعة مطالب والدته.

في أعقاب اندلاع الثورة في باريس في السنة التالية، رحّب نابليون بحرارة بالمراسيم التي اتخذتها الجمعية التأسيسية وصياغة دستور جديد. وتوجّه العديد من زملائه إلى الخارج خوفاً أو اشمئزازاً منها، لكنه بقي ليصبح سكرتيراً لجمعية أصدقاء الدستور المحلية وأقسم يمين «عدم السماح لأي قوة أجنبية بغزو التراب الفرنسي أو الموت دون ذلك».

كان يمضي إجازاته في كورسيكا. فأمه التي ولدت ثلاث عشرة مرة، ومات خمسة من أطفالها في المهد، لم تكن في حال صحية جيدة، إذ لا تزال تعاني من الآثار اللاحقة لحمّى النفاس، وتشعر بين الحين والآخر بتيبّس مؤلم في جنبها الأيسر. أخذها إلى غوانيو للمعالجة بالمياه الساخنة هناك، لكنها لم تستفد منها كثيراً. مع ذلك فقد حافظت على جمالها، وبقيت أنيقة دائماً في ثياب الحداد. وقد تلقّت عرضين للزواج، لكنها رفضتهما من أجل أطفالها.

عندما ذهب نابليون في إجازة في أيلول/سبتمبر 1791، كان جوزيف قد أصبح محامياً في ذلك الوقت– في الثالثة والعشرين من العمر، وشخصية ناشئة في الحكومة المحلية. وكان لوسيان في السادسة عشرة، ولويس أصغر

منه بثلاث سنوات. أما جيروم، الولد المزعج والمدلّل، فكان في التاسعة. وكانت كبرى الشقيقات الثلاث، أليزا، في الرابعة عشرة، ولا تزال في مدرسة سان سير، فيما شقيقتها بولين، المفضّلة لدى نابليون، في الحادية عشرة، وكارولين في التاسعة.

حظيت والدتهم بمساعدة خادمة واحدة الآن، سفيريا، تحصل على أجر زهيد– كل ما تستطيع الأسرة تحمّله بعد أن ألغت الحكومة الفرنسية عقداً كان كارلو قد وقّعه معها لزراعة عشرة آلاف شجرة توت من أجل صناعة الحرير.

كان لوتشيانو، عمّ كارلو ورئيس الشمامسة، يمضي معظم وقته الآن في السرير للعناية بمرض النقرس، ومن المعروف أنه يخفي في فراشه حقيبة كبيرة من الذهب الذي جناه من صفقات لا علاقة لها بعمل كبير الشمامسة في الأرض وحيوانات المزرعة والخمر. لكنه يرفض التخلّي عن أي قطعة منه. وقد أُرسلت باولين الفاتنة إلى غرفته في محاولة لأخذ قطعة أو اثنتين في أثناء غفلته، لكنها انتهت إلى الفشل عندما سقطت الحقيبة على الأرض. سمعت لِتيزيا صياح العجوز فصعدت الدرج على عجل لتعرف ما حدث. فأبلغها العمّ لوتشيانو أن الذهب يعود لصديق له وهو إنما يحتفظ به له. جمعت لِتيزيا القطع الذهبية وسلّمتها له. فعدّها بعناية قبل أن يضعها في الحقيبة ويدسّها في الفراش ثانية.

لم يكن أمام العجوز الآن سوى وقت قصير يستمتع به بالراحة التي يمكن أن يجلبها له الذهب المكنوز. وعلى أمل تفريج بعض أعراض النقرس والعلل الأخرى التي يعاني منها، كتب نابليون، الذي لا يزال يكنّ له بعض المحبّة، إلى طبيب سويسري، سيمون تيسو، طلباً للنصح. لكن تيسو الذي ألّف عدداً من الكتب الغريبة التي حظيت بشهرة رغم ذلك–

طرح في أحدها وجهة النظر بأن الاستمناء يؤدي إلى الجنون لا محالة– لم يكن مستعداً للمساعدة. فقد اعتبر الرسالة «قليلة الأهمية» ولم يكلّف نفسه عناء الردّ عليها.

بعد ذلك بوقت قصير، توفّي العمّ لوتشيانو تاركاً ذهبه لأولاد ابن أخيه، ما مكّن نابليون من المشاركة في العمل السياسي المكلف في كورسيكا وتأمين انتخابه قائداً لكتيبة في الحرس الوطني الكورسيكي وهو في سنّ الثانية والعشرين.

عندما عاد إلى باريس، شهد تنامي عنف الثورة، والهجوم على تويليري والأحداث التي أدّت إلى مذابح السجون في 7 أيلول/سبتمبر 1792. قبل المذابح بثلاثة أسابيع، أغلقت مدرسة الدير التي تدرس فيها شقيقته إليزا في سان سير، فخشي نابليون على سلامة شقيقته البالغة من العمر خمس عشرة سنة، وذهب وأحضرها إلى باريس وهي ترتدي زي المدرسة الأسود والقلنسوة المصنوعة من التفتا والمزيّنة بالريش.

كانت أليزا قد غادرت المنزل في الثامنة من العمر وتلقّت تعليماً صارماً في المدرسة التي أنشأتها عشيقة لويس الرابع عشر، مدام دو مينْتِنون. وقد شاهدت أوراس وُلبول الفتيات هناك وهنّ يمشين إلى الكنيسة كل اثنتين معاً بانتظام تامّ، «كل صفّ ترأسه راهبة... للإنشاد طوال القدّاس». لم يكن هناك أي علامات تدلّ في ذلك الوقت على المرأة الواثقة من نفسها التي ستغدو عليها أليزا فيما بعد. في زيارة سابقة قام بها نابليون إلى المدرسة مع مدام بيرمون، جاءت أليزا إلى الغرفة في حالة بائسة وانفجرت بالبكاء. وعندما سئلت عما يزعجها، قالت إنها لا تملك المال للمساهمة في حفلة وداعية تقام لإحدى الفتيات الأخريات. فأعطتها مدام بيرمون بعض المال.

كان نابليون قد رقّي إلى رتبة نقيب في ذلك الوقت، فأخذها إلى الأوبرا، وهي تسلية تبّهتها الراهبات في سان سير إلى تجنّبها لآن مشاهدتها تتنافى مع الحشمة. لاحظ أخوها أنها جلست أولاً مغمضة العينين امتثالاً لتحذيراتهن، لكنها بعد قليل لم تعد قادرة على مقاومة إغرائها فجلست تشاهدها مفتونة بها.

في مرسيليا في طريق العودة إلى كورسيكا، لفت زيها ذا الصليب وزهرة الزنبق المطرّزين على مقدّم فستانها الأسود حشداً مهدّداً أشاروا إليه وإلى قلنسوتها المزيّنة بالريش وصاحوا: «الموت للأرستقراطيين»! فردّ نابليون صائحاً: «إننا مثلكم، لسنا أرستقراطيين» وانتزع القلنسوة عن رأس شقيقته ورماها عليهم. فتلقّفها أحدهم وهتف الجميع استحساناً.

في كورسيكا، اختصم نابليون– الذي لا يجرؤ أحد على معارضته، كما قال أخوه لوسيان– مع المستبدّ باولي الذي عزم بعد عودته إلى كورسيكا على فصل الجزيرة عن فرنسا الثورية التي ارتبط بها آل بونابرت الآن. وبعدما قرّر نابليون الاستيلاء على أجاكسيو لصالح فرنسا، أرسل خطاباً إلى أمه يطلب منها أخذ الأسرة إلى برج خَرِب في كابيتلّو، شرق خليج أجاكسيو، والبقاء هناك في أثناء قصف المدينة. لكنه خشي ألا يكونوا بمأمن في كابيتِلّو، فلحق بهم إلى هناك في قارب صغير وأرسلهم إلى كالڤي، وهي بلدة خاضعة للسيطرة الفرنسية.

بعد أن فشل في الاستيلاء على أجاكسيو، انضمّ إلى عائلته في كالڤي وأبحر معها إلى طولون. نهب أنصار باولي بيت العائلة ومزارعها وفكّكوا المطحنة. وحكم مؤتمر مؤيّد لباولي على آل بونابرت «بالعار والشنار الدائمين».

لم تكن لِتيزيا سعيدة في طولون في البداية، إذ نزلت في مسكن بدائي في قرية لا ڤاليت، وبعد ذلك في بادول ولاحقاً في مرسيليا، حيث كانت غرف العائلة الكئيبة وغير المفروشة جيداً في الطبقة الرابعة تقع في شارع باڤيّون، وهو ناحية فقيرة أعلى مستوى بقليل من حي قذر. لكن بفضل كرِستوفرو ساليسِتي، وهو مواطن كورسيكي، لم يمضِ وقت طويل حتى عثروا على منزل مريح، بالإضافة إلى وظيفة أمين مخزن للوسيان، ووظيفة مساعد مفوّض عسكري لجوزيف، في حين واصل نابليون نجاحه في الجيش.

لكن لِتيزيا حنّت إلى موطنها. لم تكن لغتها الفرنسية الضعيفة التي تتحدّث بها بلكنة كورسيكية مفهومة؛ في حين انتشرت قصص خبيثة عن بناتها اللواتي زُعم لاحقاً أنهن يتصرّفن بطريقة مشينة، «ويمشين في الشوارع في المساء مثل بعض الشابات اللواتي يرتدن شارع سان أونوريه والقصر الملكي».

أصبح نابليون في موقف يمكّنه من مساعدة عائلته مالياً، فاستأجر لها منزل ساليه، وهو منزل ريفي كبير قرب أنتيب، لكن لِتيزيا واصلت التصرّف على الطريقة الكورسيكية، وأصرّت على أن تغسل غسيلها بنفسها. وكانت غالباً ما تقول، وهي أكثر النساء قدرة على التدبير، من يدري كم ستدوم ثروة العائلة الحالية؟

بيد أن بناتها لم تساورهن مثل هذه المخاوف وهن يتنقّلن في الدروب الريفية في عربة زوّدهن بها شقيقهن نابليون الذي أصبح دخله في ذلك الوقت خمسة عشر ألف ليرة في السنة.

6
«الصديقة الفاتنة»

«كيف أمكنك الاعتقاد أن في استطاعتي التوقّف عن حبّك»؟

سرعان ما بدأ نابليون بعد عودته إلى فرنسا يصنع اسماً لنفسه في الجيش، بعد أن كان مكتئباً في ڤالنس ومحبطاً في كورسيكا. فعندما جُرح قائده في أثناء حصار طولون في سنة 1793، تولّى نابليون قيادة المدفعية هناك وأظهر براعة مثالية فرقّي على أثر ذلك إلى رتبة لواء وهو في الرابعة والعشرين. واستخدم منذ ذلك في إعداد الخطط لعمليات الجيش الذي أرسلته الحكومة في باريس لمواجهة النمساويين في إيطاليا. وفي تشرين الأول/أكتوبر 1795، ساعد في إلحاق الهزيمة بأنصار الثورة المضادّة في باريس عندما أمر مدفعيته بإطلاق «وابل القذائف» الشهير على الرعاع– الرعاع الذين طالما كرههم وخشيهم. وقد كتب إلى أخيه جوزيف: «هاجمنا العدوّ في تويليري. فقتلنا عدداً كبيراً منهم. وقتلوا ثلاثين من رجالنا وجرحوا ستين آخرين. كل شيء هادئ الآن. لم أصب بأي خدش كالعادة. لا يسعني أن أشعر بسعادة أكبر». مدّد أربعمئة قتيل في كنيسة سان روش، وتقرّر مستقبل نابليون. أبلغ أخاه جوزيف: «لديَّ مسكن وعربة تحت تصرّفك. وقد أرسلت ستين ألف ليرة ذهباً وفضّة وورقاً إلى العائلة، فلا داعي لأن تشعر بالقلق... أنت تعرف أنني أحيا لأسعد بما يمكن أن أقدّمه لعائلتي».

لم يمضِ وقت طويل بعد ذلك حتى عيّن قائداً للجيش الداخلي. وهو يدين لهذا التغيّر السريع في التقادير لدعم ورعاية الفيكونت بول دي بارا

الذي منحه المؤتمر الوطني صلاحيات دكتاتورية.

أصبح نابليون الآن في موقف يسمح له بالزواج، وأخذ يفكّر جدياً في اختيار عروس له، ويفضّل أن تكون غنية. ووفقاً لبارا، الذي كتب مطوّلاً بعد انقطاع صداقتهما، لم يكن يتورّع عن أن يداهن، بطريقة غريبة جداً، أي امرأة ثرية يعتقد أنها هي أو زوجها في موقع يفيده في التقدّم في مهنته. ومن هؤلاء النسوة زوجة رجل لديه بعض النفوذ– مدام لويس تورو دي لينيير de Lignières، التي يقال إنه أقام معها علاقة وجيزة. وكذلك مدام ريكور التي «أغدق عليها الاهتمام، بمناولتها قفّازيها ومروحتها وإظهار عميق احترامه عندما تمتطي جوادها، ومرافقتها في نزهات المشي وهو يحمل قبّعته في يده، والظهور في خوف دائم من أن تتعرّض لحادث».

كان بارا من عرّفه بامرأة ثرية أخرى، مدام مونتوسييه، وهي امرأة يقال إنها تساوي أكثر من مليون فرنك وتمتلك مسرحاً، وهو أيضاً ماخور، في القصر الملكي. كانت أكبر سناً من نابليون بكثير، وهو أمر لم يعنِ له الكثير. لكن العلاقة بينهما لم تزدهر لسبب أو لآخر.

لم يكن نابليون يسعى وراء المال والمنصب فقط، كما أبلغ أخاه جوزيف، بل إنه «بحاجّة ماسة إلى بيت». وإذا أمكنه العثور على شابّة لديها المال، فذلك أفضل بطبيعة الحال. في صيف سنة 1794، فيما كان مقيماً في منزل الكونت دي لورنتي قرب نيس، ظنّ أنه ربما عثر على هذه العروس في شخص ابنة الكونت إميلي التي يبلغ عمرها ستة عشر عاماً. وكان لديه سبب وجيه للاعتقاد بأن أباها ثري جداً. فطلب يدها للزواج، من دون أن يكون لديه أمل كبير في النجاح على ما يبدو. أبدى والدها تهذيباً في الرفض، معتبراً أن الطلب سابق لأوانه. فالجنرال الشاب يوشك على

الشروع في حملة في إيطاليا، وسيكون هناك متسع من الوقت للنظر في المسألة بعدما يعود بونابرت إلى الوطن. وفي تلك الأثناء، رأى الكونت وزوجته أن من الأفضل إرسال إميلي لتقيم مع أبناء عمومتها في غراس.

في تلك السنة في مرسيليا، تعرّف نابليون عن طريق أخيه جوزيف إلى عائلة تاجر نسيج وصابون ثري يدعى فرانسوا كلاري (زوج إحدى صديقات والدتهما) ولديه ابنتان، جولي، وهي في الثانية والعشرين ويريد جوزيف الزواج منها، وبرناردين يوجين ديزيريه، وهي في السادسة عشرة. كانت جولي شابة عادية قصيرة ذات عينين واسعتين ناتئتين وأنف عريض. وقد وصفت في مرحلة لاحقة من حياتها بأنها «امرأة سوقية صغير الحجم ونحيلة جداً وشديدة القبح، بل منفّرة وكثيرة البثور».

عبّر نابليون عن رأيه بأن جمال الزوجة غير مهم. وقال: «لا ضرورة لأن تكون زوجتانا جميلتين. لكن الأمر يختلف مع العشيقة. العشيقة غير الجميلة أمر رهيب وستفشل في واجبها الرئيسي، بل الوحيد».

اعتُرف أن جولي غير جذّابة البتة، لكنها مهذّبة وذكية.

كانت العائلة تسمّي أختها ديزيريه، لكن نابليون الذي غالباً ما اختار في المستقبل أسماء صديقاته، دعاها يوجين. كانت سمينة وغير جميلة جداً، ذات عينين داكنتين قليلتي البروز، لكنها فتاة ودودة وطيّبة القلب كشقيقتها، ليّنة العريكة وخجولة، صوتها عذب في الغناء، ينتظرها مهر سخي يؤمل به، ولديها ما وصفها نابليون بأنها «أجمل أسنان يمكن تخيّلها» بالإضافة إلى «أجمل يدين في العالم». وكانت اليدان والقدمان الجميلتان من الخصائص التي يرجّح أن يعلّق عليها دائماً. أما يداه، فقد لاحظ خادم لاحق أنهما جميلتا الشكل وأن أظافره تحظى بعناية ملحوظة.

ما من شكّ في أن ديزيريه وجدته جذّاباً، وأنه أعجب بها بالقدر

الكافي الذي دفعه إلى أن يحمل معه بضع خصل من شعرها في مدلاّة. غير أن والدها لم يكن ميّالاً إلى تشجيع هذه الصداقة: ربما يكون لدى الكورسيكي الشاب مستقبل لامع في الجيش، لكنه لا يمتلك كثيراً من المال وشخصيته غير مستساغة. فهو منطوٍ على نفسه، وغير اجتماعي، وكئيب، وقد تناهى إلى مسامعه أنه تحدّث عن الانتحار.

أحبط نابليون من والدي يوجين، فكتب إليها، بعد أن غادر مرسيليا أن طبيعتها العذبة تلهمه بالمحبة، وأنه لا يعتقد أن عليه أن يسمح لتلك المحبّة بأن «تقلّل من عزيمته» بسبب «انشغاله الشديد بالعمل». وتابع بأنها تمتلك موهبة موسيقية وأن عليها أن تطوّر تلك الموهبة بشراء بيانو خاص بها والاستعانة بمعلّم للموسيقى. وقدّم لها بتعالٍ نصيحة تفتقر إلى المعرفة تماماً بشأن أسلوبها في الغناء.

وفي رسالته التالية، بعد خمسة شهور، عاد نابليون إلى موضوعه الموسيقي: اشترك في مجلة للموسيقى نيابة عنها وأرسل لها قائمة بالكتب التي أوصاها بقراءتها. ومضت أربعة أشهر أخرى قبل أن يظهر نابليون في مرسيليا ثانية ويزور منزل آل كلاري.

أصبحت يوجين في السابعة عشرة الآن، وقد قلّ خجلها وتحفّظها لكنها بقيت أنيسة المعشر كسابق عهدها. ولم يمضِ وقت طويل حتى وقع نابليون في حبّها، وأوضح الآن أنه يودّ أن يتزوّجها، وخطّط بذكاء لاصطحابها إلى الفراش. أبلغها: «أنت تشغلين أفكاري دائماً. كيف تظنّين أنني يمكن أن أتوقّف عن حبّك»؟ انزعجت مدام كلاري كثيراً بهذا التطوّر: فابنتها الآن فتاة جذّابة جداً ويبلغ مهرها مئة ألف ليرة، في حين أن نابليون كورسيكي سمج لا يستطيع أن يقدّم لها أكثر من راتبه. كما أن لديها صهراً لا يمتلك المال، ويفترض أنها قالت يكفيني واحد من آل

بونابرت في العائلة.

لم يرتدع نابليون عن مسعاه بتردّد والدتها في قبوله. فكتب إليها بانتظام بعد عودته إلى باريس. وكان يصفها بأنها «صديقته الفاتنة»، وأنه لها طوال العمر. وطلب منها الكتابة له مرة واحدة في اليوم على الأقل. مع ذلك لم تستمرّ هذه الحماسة المتقدة طويلاً بسبب بعده عنها. وسرعان ما أصبح يتلكّأ أياماً قبل التوجّه إلى مكتب البريد لجلب الرسائل التي تتسم بالحزن وتعبّر عن الحنين وانعدام الاستقرار.

بينما كان بعيداً عن مرسيليا، صادف نساء من عالم آخر. التقى بفيكتورين، الكونتيسة دي شاستني de Chastnay، وهي شابة ذكية أثار اهتمامها شحوب وجنتيه، وشعره الطويل غير المغسول، وصمته غير العادي. في أعقاب العشاء، غنّت أغنية بالإيطالية، وعندما فرغت سألته إذا كان لفظها صحيحاً. فأجابها بكلمة واحدة: «لا». وفي اليوم التالي أصبح أكثر وداداً، بل إنهما تحدّثا معاً لمدّة أربع ساعات عبّر خلالها عن آرائه في شتى المواضيع– من شكسبير (ذي المسرحيات التي «يرثى لها») وقصائد أوسيان التي كشف صمويل جونسون أنها مزوّرة (وأعجب بها نابليون كثيراً)، إلى استخدام الباريسيين للمراوح (التي قال إنها تخون مشاعرهم كما أوضحت الممثّلة الآنسة كونستان في مسرح الكوميديا الفرنسية).

التقى نابليون في ذلك الوقت أيضاً بشابة أخرى مثيرة للاهتمام، غريس دالريمبِل إليوت، وهي زوجة طبيب ثري نزق اسكتلندية مطلقّة ربما تكون ابنتها غير الشرعية ابنة أمير ويلز، كما كانت تحبّ الافتراض، على الرغم من أن والد الطفلة يمكن أن يكون أياً من عشّاقها الآخرين. ذات يوم ذهبت هي ونابليون في جولة مشي في حدائق تويليري. لم تكن

الجولة ناجحة: تحدّث عن كرهه للإنجليز وعدم ثقته بهم ورغبته في أن تنشقّ الأرض وتبتلعهم جميعاً. وقالت إن من غير اللباقة قول ذلك في حضورها. وردّ على ذلك بأنه طالما افترض أن الإسكتلنديين يحبّون فرنسا ويكرهون الإنجليز. فقالت إنها تفضّل إنجلترا على إسكتلندا.

7

عند آل بيرمون

«نابليون، هناك رجلان في داخلك».

وجد أحد أخوال سِسيل ولور بيرمون، وهما الفتاتان اللتان أغاظتا نابليون عندما شاهدا جزمته الكبيرة، أنه فتى غير اجتماعي. كانت أول مرة تقع فيها عين هذا الخال، ديمتريوس كُمْنان، على الفتى وهو في الخامسة عشرة من العمر في القصر الملكي عندما تفرّس فيه و«أنفه في السماء». وقد دعاه في ذلك الوقت إلى العشاء، لكن المناسبة لم تكن ناجحة: اقتصر حديث الفتى إلى حدٍّ ما على تبذير زملائه الطلاب، وهم أكثر ثراء وأرستقراطية من المبتدئ الكورسيكي الصغير.

لم يخلق نابليون انطباعاً أفضل عندما أتى للعشاء في وقت لاحق واستُبقي للمبيت في تلك الليلة في منزل آل بيرمون. لكن عندما رأته لور بيرمون ثانية بعد مرور بعض الوقت، شعرت أن هناك شيئاً غريباً يلفت الانتباه فيه. وراقبته من النافذة فيما كان يقترب من فناء المنزل:

> كان مهملاً جداً في مظهره [كتبت لور]، لم يكن شعره جيد التسريح والتزيين ما جعله يبدو رثّ الهيئة... كان يعتمر قبّعة دائرية رثّة مسدلة فوق جبهته، وأذكر شعره المتدلّي فوق قبّة معطفه الرمادي الكبير، الذي أصبح فيما بعد شهيراً مثل ريشة هنري الرابع البيضاء. لم يكن يرتدي قفّازين لأنهما كما يقول ترف عديم الفائدة. وكانت جزمته رديئة الصنع وغير لامعة... وبدت بشرته صفراء وغير معافاة، وقسماته حادّة التقاطيع.

اقترب من المنزل ماشياً مشية خرقاء. ومع ذلك، عندما أصبح في الداخل، فوجئت لور بيرمون في «وجهه من دون أن تتمكّن من تفسير ذلك». عندما ابتسم، أضفت ابتسامته على قسماته، التي ظنّت أنها قبيحة من قبل، سحراً لا يمكن إنكاره.

أصبح نابليون زائراً منتظماً لمنزل آل بيرمون. عندما يكون رائق المزاج يرقص مع لور، كانت في الحادية عشرة في ذلك الوقت، في وسط الغرفة فيما تعزف سِسيل الموسيقى على البيانو. أو كان يجلس قرب المدفأة بعد العشاء ويمدّ ساقيه نحوها، ويعقد ذراعيه على صدره وينادي على السيدة بيرمون ليطلب منها الجلوس قربه والتحدّث عن كورسيكا ووالدته. وكانت تفعل ذلك على مضضٍ لأن الرائحة التي تتصاعد من جزمته القذرة والرطبة عندما يجفّفها اللهب كريهة جداً بحيث تضطر إلى دفن أنفها في منديلها أو تتذرّع بعذر ما لمغادرة الغرفة. وفي النهاية أدرك نابليون ما يبعدها، فصار يطلب من الخادمة أن تكشط الوحل عن الجزمة قبل أن يدخل غرفة الجلوس.

كلما قابل نابليون مدام بيرمون، ازداد إعجابه بها. فقد كانت امرأة جذّابة وحيوية ومسلية، أنيقة المظهر و«لطيفة جداً» على حدّ تعبيره. وقال إنها تحبّ وطنها جداً وتحبّ صحبة الكورسيكيين. ادّعت أنها لم تقرأ إلا كتاباً واحداً في حياتها، القصة التربوية الرومانسية التي كتبها فينلون Fènelon «تلماخوس»، لكنها كانت ذكية وسريعة البديهة.

وجدها نابليون مثيرة، على غرار معظم الرجال الآخرين. وذات يوم زارها في منزلها حاملاً باقة من البنفسج، وبدت هذه الملاطفة غير مألوفة جداً منه، كما قالت ابنتها لور، بحيث لم يكن في وسعهم الامتناع عن الضحك.

وفي مناسبة أخرى، وجد لور وأمها تبكيان: كان السيد بيرمون مريضاً جداً ولا يتوقّع أن يبقى على قيد الحياة. وتوفي بعد يومين. وبعد وقت غير بعيد، أدهش نابليون مدام بيرمون عندما اقترح عليها أن تتزوج فور أن تسمح لها أعراف الترمّل. لم تتمالك مدام بيرمون نفسها من الضحك ثانية. وقالت وفقاً للور: «عزيزي نابليون، دعنا نتحدّث صراحة. أنت تعتقد أنك تعرف سني. لكنك لا تعرف شيئاً في الواقع، ولن أقول لك. فذلك سري. مع ذلك أبلغك أنني في سنّ يتيح لي أن أكون والدتك. لذا وفّر على نفسك هذا النوع من المزاح». لقد كان ذلك «عرضاً سخيفاً».

أصرّ نابليون بطريقة تفتقر إلى اللباقة: «إنني أريد أن أتزوّج، وما عرضته يناسبني من عدة أوجه. فكّري في الأمر». وقال إنه فكّر في المسألة ملياً. وقد بدا عليه الاستياء الشديد عندما أخذ إجازته، ولم يسامحها قط على صدّه.

قبل أن يغادر، ذكّرته بأنه تعهّد أن يحاول تعيين ابن عم لها ضابطاً. وعلى الرغم من أنه بدا راغباً جداً في ذلك عندما فاتحته في الموضوع، فإن لور قالت إنه لم يعد يبدو راغباً في ذلك الآن.

قالت مدام بيرمون: «نابليون، هناك رجلان في داخلك. أرجوك كن الرجل الذي أحبّ وأحترم... ولا تسمح للآخر بالسيطرة عليك». لكنه لم يردّ.

بعد يومين، زار المنزل ثانية برفقة عددٍ من الضبّاط المعاونين. فأثارت مدام بيرمون موضوع ابن عمها ثانية، كما قالت لور، لكن نابليون تنصل من التزامه الآن. فاتهمته بالمراوغة. ردّ بأنها تظلمه. وأخذ يدها ليقبلها مودّعاً، لكنها انتزعتها بعنف فارتطمت بعينه. لم تعتذر عن ذلك، وأبلغته أن الوعود لا تعني شيئاً، «الأفعال هي كل شيء».

قال لها بهدوء مشيراً إلى الضبّاط المعاونين: «إن هؤلاء الشبان يضحكون علينا، ونحن نتصرّف كطفلين». لم تردّ وهي تجذب يدها نحو صدرها كي لا يحاول تقبيلها ثانية. فالتقط قبّعته وانصرف.

بعد عدة سنوات، التقت لور بيرمون بنابليون ثانية في حفل استقبال في تويليري، وكانت في ذلك الوقت متزوّجة من صديقه الجنرال أندوش جونو Andoche Junot.

«آنسة لولو– إنني لا أنسى أسماء الأصدقاء القدامى– أليس لديك كلمة لطيفة تقولينها لي»؟

> تناول يدي [تقول لور جونو] وجذبني نحوه، ونظر إليَّ عن قرب شديد ما جعلني أخفض عيني... أجبت مبتسمة: «لست أنا من يبدأ الكلام يا جنرال».
>
> ابتسم وقال: «محاولة جيدة للتملّص... لديها سرعة بديهة والدتها... بالمناسبة، كيف حال مدام بيرمون»؟
>
> «إنها مريضة يا جنرال، مريضة جداً».
>
> «ذلك مؤسف حقّاً. أرجو أن تبلّغيها تحياتي. إنها عنيدة، عنيدة جداً، لكنها طيّبة القلب وكريمة جداً».

بعد بضعة أيام، دعت مدام بيرمون، بعد أن شفيت من مرضها، الجنرال جونو وابنتها إلى العشاء. تمدّدت على الأريكة بعد العشاء وأبلغتهما أنها ستقيم حفلة راقصة احتفاء بزواجهما الذي جرى مؤخّراً. عرض جونو وضع لائحة بأسماء المدعوين. فاقترحت مدام بيرمون نابليون. عبّر الآخرون عن دهشتهم، لكن مدام بيرمون قالت: «لماذا تبدون مندهشين جداً؟ أتعتقدون أنني سأسعى إلى الثأر لمجرّد أنني كورسيكية؟ إن ذلك لا

يزعجني البتة».

قال جونو: «لا بأس، سآتي لاصطحابك».

«تصطحبني، لماذا؟ إلى أين تريد أن تأخذني»؟

«إلى تويليري بالطبع، لتسليم الدعوة».

«أنت مجنون تماماً يا عزيزي جونو».

«لكن كيف ستجعلينه يحضر بخلاف ذلك»؟

«ماذا تفترض؟ سأرسل إليه دعوة مثل الجميع».

فغر جونو فاه، كما يفعل دائماً عندما يُفاجأ، وتابعت لور روايتها. «أخذ يذرع الغرفة بصمت، وهو ينظر بتجهّم إلى أمي... التي تناولت حفنة من النشوق بوقار».

في اليوم التالي، ذهب جونو ولور وألبير، شقيقها، إلى تويليري حيث استقبلهم نابليون «بابتسامة لطيفة». ثم قال: «ماذا يعني هذا الوفد العائلي؟ لا تنقصه إلا مدام بيرمون. هل يخيفها قصر تويليري؟ أم أنا»؟

ردّت لور: «أرادت مدام بيرمون المجيء معنا، لكنها مريضة جداً كما تعلم ويتعذّر عليها أن تغادر غرفتها».

عندما عرضت الدعوة عليه، قبلها على الفور، وتساءل لماذا يبدون كما لو أنهم يتوقّعون منه أن يرفضها.

أضاف: «إنني أتفهّم تماماً أن مدام بيرمون مريضة. لكن هناك تكاسلاً أيضاً، وهناك أيضاً أمر آخر لا أريد التحدّث عنه. أليس كذلك يا مدام لولو»؟

ثم من دون أن يحاول السيطرة على الدافع الذي غالباً ما يتغلّب عليه، شدّ أذن لور بقوّة حتى طفر الدمع في عينيها، كما حدث عندما قرص أنفها بشدّة حتى نزف.

تلك هي المعاملة الخشنة التي تعرّض لها خدّامه في الغالب. وقد كتب أحد خدمه: «أستطيع أن أؤكّد أنه لم يكن يقرص شحمة الأذن فقط بل الأذن بأكملها، وأحياناً يمسك بالأذنين معاً بطريقة متعمّدة. وفي بعض الأحيان عندما أدخل لإلباسه ثيابه، كان ينقضّ عليّ صائحاً، 'مرحباً أيها الوغد' ويقرصني من أذنيّ معاً بشدّة بحيث أصيح من الألم. وغالباً ما كان يصفعني على وجهي عدة مرات، وبعد ذلك يعتدل مزاجه طوال اليوم».

لم يكن الخدم وحدهم من يتعرّض لهذه المعاملة، بل الجنرالات والنساء والأطفال. وذات مرّة قُرصت أذن الجنرال جونو بشدّة حتى نزفت، في حين أبكى قرص الأذن السيدات في البلاط. وقد بكى أحد أبناء إخوته أيضاً من قرصة مؤلمة، ثم ضُرب بشدّة لإثارته جلبة.

بعد أن غيّر نابليون موعد الحفلة الراقصة في منزل آل بيرمون إلى ليلة ملائمة له، وصل في الوقت المحدّد مرتدياً معطفه الرمادي الذي رفض خلعه مع أن الحرارة في المنزل خانقة. فرحّبت به مدام بيرمون ترحيباً رسمياً «وانحنت أمامه برشاقة».

وبّخها قائلاً: «هل هذه هي الطريقة التي تستقبلين بها صديقاً قديماً يا مدام بيرمون»؟ ومدّ يده نحوها. بدا لطيفاً جداً، مع أن مضيفته كانت أبعد ما تكون عن الودّ رغم التزامها بالأدب. حثّتها ابنتها على أن تبدي مزيداً من الودّ، وأقنعتها لاحقاً بدخول الغرفة التي جلس فيها ضيفها.

تروي لور أنه نهض وتوجّه نحو أمي قائلاً: «حسناً يا مدام بيرمون، ماذا ستقولين لصديق قديم، يخيّل إليّ أنك تنسين أصدقاءك بسرعة».

أجابته بالإيطالية: «لا يمكنني أن أنسى يا عزيزي نابليون أنك ابن صديقتي، وشقيق غيسِب الطيّب، والعزيز لوتشيانو، وباوليتا».

فردّ نابليون: «إذاً، إذا كانت لديَّ أي مكانة في نفسك، فذلك عائد إلى أمي وشقيقي وشقيقتي».

تقدّم بعد ذلك نحو الموقد، فيما جلست مدام بيرمون على الأريكة مقابله، وهي تهزّ قدمها كما اعتادت أن تفعل عندما تنزعج وتوشك أن تفقد اتزانها.

قالت مستعيدة المسألة الخلافية المتعلّقة بتملّص نابليون من منح ابن عمها رتبة عسكرية في اللقاء السابق بينهما: «يمكن أن ينسى المرء شيئاً بعد بضع سنين. هل تقصد إبلاغي أن من الصعب عليك أن تتذكّر بعد بضعة أيام أمراً يؤثّر في المستقبل المهني لشابّ»؟

«هكذا إذاً»، قال نابليون وهو يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ويداه مشبوكتان خلف ظهره. ثم بعد أن تغلّب على انزعاجه، تناول إحدى يدي مدام بيرمون كما لو أنه يريد تقبيلها، وقال وهو يشير إلى أطراف أظافرها المقضومة: «يبدو أنك لا تصحّحين أياً من أخطائك».

فأجابت: «لا، لقد كبرنا معاً».

أصبحت الساعة الثانية الآن. أرسل نابليون في طلب عربته. طلبت منه مدام بيرمون أن يبقى لتناول العشاء. فقال بجفاء كما لو أنه يعتذر: «مستحيل. غير أنني سآتي لرؤيتك لاحقاً». ولم يفعل ذلك قطّ.

8

الصالونات الباريسية

«إنني أحظى بتقدير كبير هنا. لديَّ أصدقاء ومسرّات وحفلات».

قُدّم بونابرت، كربيب لبارا، الذي «لم يكن يعرف غيره هناك»، وفقاً لما قاله، إلى صالونات مدام تاليان، ومدام دو ستال، ومدام ريكامييه Récamier والعديد من المضيفات الأخريات في باريس. وقد أبلغ شقيقه جوزيف أن هؤلاء النسوة «يمسكن بزمام الحكم» على ما يبدو، في حين «جعل الرجال من أنفسهم أضحوكة للحصول عليهن»، و«يعيشون من أجلهن». وهن، كما أبلغ ديزيريه كلاري من دون تبصّر، جميلات مثل شخصيات النساء في القصص الرومانسية القديمة، و«متعلّمات مثل العلماء». إنهن في الواقع نساء مميّزات.

كانت تِريزا تاليان، زوجة جان لامبير تاليان، أحد قادة الانقلاب التيرميدوري بعد سقوط روبسبيير وموته، امرأة فائقة الجمال والظرَف، ولا تزال ترأس صالونها في شومييه. وكانت تظهر مرتدية شعراً مستعاراً ذا ألوان غير طبيعية مدهشة وتؤدّي دور الحكم في مباريات لعبة الكرات، وترتدي ملابس وصفها أحد الشهود «على طريقة الإلهة ديانا، صدرها نصف عارٍ، وفي قدميها صندل، وترتدي إذا جاز القول عباءة يونانية (تونيك) لا تصل إلى ركبتيها». وكما اعتاد تاليران أن يقول لها، كانت تِريزا عادة «تتكلّف التعرّي قدر ما أمكنها ذلك».

وكانت جيرمين دو ستال، زوجة البارون إريك دو ستال هولستاين– السفير السويدي في باريس– وعشيقة لويس، كونت دي ناربون، تعقد

أمسيات الخميس في السفارة السويدية. وقد أعجبت كثيراً بالشاب نابليون، وأسمته «سيبيو وتانكرد، لأنه يجمع بين الفضائل البسيطة لأحدهما والأعمال العظيمة للآخر». ومما يميّز إعجابها المبالغ بالجنرال الشاب أنها كانت تتنحّى جانباً عندما يقترب من قاعة الاستقبال لإتاحة المجال أمام الكولونيل لافاييت Lavalette ليقول: «كيف يمكنني أن أغامر بالسير أمام أحد الضبّاط المعاونين لبونابرت»؟ لكن نابليون لم يبادلها الإعجاب، إذ وجدها مزعجة جداً في تفاخرها ووقاحتها. وذات مرة صاحت فيه عندما كان في حمّامه معلنة: «ليس للعبقرية جنس».

تمكّنت جين فرانسوا جولي أديليد ريكامييه، ابنة الثمانية عشر ربيعاً والزوجة العذرية الفاتنة لمصرفي ثري جداً ومسنّ، والفتاة النرجسية المغرية التي منحت اسمها للسرير التي تتمدّد عليه في النهار بأناقة شديدة، من فرض سطوتها في أحد الصالونات بحيوية لا تقل عن حيوية منافساتها.

وكان من بين تلك المنافِسات فورتونيه هاملان Fortunée Hamelin، وهي شابّة مرحة ومسليّة مماثلة لها في العمر تقريباً اجتذبت العديد من العشّاق على الرغم من أن مظهرها عادي لا يؤهّلها لتوصف بأنها امرأة جميلة. ومن بين هؤلاء العشّاق المغامر الهمام كاسيمير دي مونترون الذي زعمت أنها ضبطته في عناق شهواني مع مدام ريكامييه. لم تكن مدام هاملان نفسها تنفر من مثل هذه المعانقات، وكان عطرها الكثيف الذي تسرف في التعطر به يسبق ظهورها في قاعات الاحتفالات، ويلقى الترحاب من العديد من الشركاء المحتملين المتلهّفين للالتصاق بنهديها المغرين. ومن منافِسات مدام ريكامييه الأخريات إيميه دي كويني Aimée de Coigny التي تزوّجت في الخامسة عشرة من دوق دو فلوري ثم من كاسيمير دى مونترون، الذي أمل في وضع يديه على ما يكفي من المال

لسداد ديونه المتراكمة. وقد تدبّر في أثناء سجنه مع إيمية في سان لازار من رفع اسميهما يومياً من قائمة الأشخاص المحالين إلى المحكمة الثورية بتقديم مكافآت سخية، لا يستطيع دفعها، للمسؤول الذي عُهد إليه مهمة جمعها.

في باريس الترميدورية التي امتلكت فيها النساء مثل هذه السلطة، ظهر نابليون بونابرت بمظهر مخزٍ، بعد أن قرّر تغيير تهجئة اسمه ليقلّل من رسمه الإيطالي(*). وكما لو أنه يتعمّد استفزاز زملائه الضيوف بأزيائهم الرفيعة وزينتهم المفرطة، كان يحضر بشعره القذر وغير المسرّح، ووجهه الذي تبدو عليه ندوب الجرب الذي أصيب به في طولون، من دون أن يستحمّ، فيما لغته الفرنسية شديدة العيوب بحيث لا يستطيع أن يفهمها الضيوف الآخرون أو لا يبالون بفهمها.

كان في لا شوميه أقل الرجال إثارة للإعجاب، وفقاً لما قاله المصرفي غابرييل أوڤرار. بدا في حالة اكتئاب شديد، وأخذ يفكّر ثانية في الانتحار. وقرّر أن هناك شيئاً واحداً يسعى إليه في هذا العالم، وهو الحصول على المال مثلما فعل أثرياء باريس الجدد المضاربون. وبعد الحصول على المال، تحقيق «مزيد من السلطة». كان جوزيف قد اكتسب المال من خلال علاقات عائلته، وقدّم نابليون النصح لشقيقه بشأن كيفية استثماره، مع أنه يفتقر إلى المال والسلطة. كما أنه لم يكن يجتذب النساء. وقد روى صديقه أندوش جونو في وقت لاحق كيف كان نابليون يتحدّث غاضباً في أثناء تجوالهم في باريس عن المنعّمين jeunesse dorée والمغرورين muscadins الذين يتمتّعون «بكل الحظ» مع النساء، وكيف عندما يراهم وهم يتنزّهون أمامه فيما هو جالس مع جونو في مقهى في الهواء الطلق، كان يركل الكرسي

(*) Napoleon Bonaparte بدلاً من Napoleone Buonaparte– المترجم.

أمامه بغضب. لم يكن محظوظاً في الحب كما أعلن بحزن، مشيراً، كما يعتقد بعضهم، إلى مدام تاليان التي رفضت عرضاً تقدّم به إليها «بضحكة متشكّكة»، على حدّ وصف المصرفي غابرييل أوڤرار.

لكن مهنته اتخذت منعطفاً باعثاً للأمل. فبعد حصوله على تقرير طبي لازم، تقدّم للحصول على إجازة كي يتفرّغ لقبول منصب أفضل من قيادة جيش الغرب إذا ما عُرض عليه. تسبّب ذلك في حدوث بعض المصاعب: حكمت لجنة السلامة العامة بأن الطبيب الذي قدّم التقرير غير مؤهّل وبإعفاء نابليون من قيادته لتمرّده وعصيانه الأوامر.

لجأ نابليون إلى طلب المساعدة من بارا فلم يُخِب ظنّه: سرعان ما عُرض عليه منصب في دائرة نافذة تابعة للجنة السلامة العامة في باريس، وتلك خطوة مفيدة في ارتقائه السلطة التي يطمح إليها. كتب لديزيريه في رسالة تعكس تغيّر مزاجه فجأة: «إذا كان في وسعي العيش بسعادة بعيداً عنك، فسأكون كذلك الآن. إنني أحظى بتقدير كبير هنا. لديَّ أصدقاء ومسرّات وحفلات... أقبلك ملايين المرات وسأظل صديقك المحبّ إلى الأبد».

كانت الصديقة الجديدة التي عثر عليها ولم يذكرها عشيقة بول بارا، ماري جوزيف روز دي بوهارنيه، أرملة الفايكونت الكريولي دي بوهارنيه، التي أسماها جوزفين.

9

المغامرات في إيطاليا

«إنه متيّم بي تماماً. وأعتقد أنه يكاد يجنّ»

لم يمضِ وقت طويل على «وابل القذائف» في 5 تشرين الأول/أكتوبر 1795 الذي ساعد في هزيمة مؤيّدي الثورة المضادّة وتأمين مستقبل نابليون، حتى تلقى بونابرت رسالة من جوزفين دي بوهارنيه تؤكّد له فيها شغفها به، وتوبّخه بلطف على إهمالها، وتدعوه إلى العشاء في اليوم التالي. وأنهت رسالتها بكتابة «عمت مساء يا حبيبي، وأرجو أن أعانقك وأحتضنك».

أجاب نابليون على الفور، راجياً أن تصدّقه أنه لم يمنعه عنها سوى واجباته الملحّة، وما من أحد يرغب في صداقتها مثلما يرغب».

غالباً ما كان يرى هذه الأرملة الفاتنة في منزل مدام تاليان، لا شوميه، وفي منزل بارا، وفي بيتها الصغير على الطراز اليوناني المحدث في 6 شارع دو شانتريان، وكان عشيقها بول بارا يدفع إيجاره، كما يفترض على نطاق واسع، وأجور البوّاب، وسائق عربتها، وسائس الخيل، والبستاني، والطاهي، وخدمها في المنزل.

كانت تعطي انطباعاً عن نفسها بأنها ثرية، تمتلك عقارات واسعة في جزر الهند الغربية. وقد كان ذلك على الأقل أحد العوامل التي جعلتها جذّابة في نظر نابليون، الذي ذهب لمقابلة موثّق عقودها للسؤال عن ثروتها المزعومة، قبل أن تتعمّق علاقته بها– ما أزعج جوزفين كثيراً عندما علمت بذلك.

لكنها كانت تمتلك أكثر بكثير من ثروتها المزعومة. وعلى الرغم

من أنها أكبر من نابليون بست سنوات ويصفها الساخطون عليها بأنها «ذاوية» وغارقة في «هِرم مبكّر»، وليست بذكاء صديقتها الحميمة الشابة تِريزا تاليان أو ظرفها وسرعة بديهتها، فإنها تظل شديدة الجاذبية: فهي أنيقة وجميلة الملبس، ولطيفة، ومثيرة، وهادئة، تتكلّم بصوت عذب بلكنة كاريبية. كانت أسنانها رديئة، لكنها تعلّمت كيف تبتسم من دون إظهارها. وفي حين كان نابليون، كما اعترف بنفسه، خجولاً مع النساء، ويزدريهن باعتبارهن غير مساويات للرجال، وإنما «مجرّد آلات لصنع الأطفال»، فإنه شعر بالارتياح مع جوزفين. فقد منحته الثقة، وامتدحته، كما قال: «بكل أنواع المجاملات». كما أنها، كما اعتقد، لم تكن غنية فحسب بل سيّدة عظيمة من النظام القديم ancien regime. وسرعان ما فكّر في الزواج منها: فستساعد الناس– كما قال بارا وهو ينصحه بالزواج منها– في نسيان اسمه الكورسيكي وتجعله «فرنسياً تماماً».

كانت هي نفسها تنظر إلى الزواج المحتمل من هذا الشاب والجنرال الجلف بارتياب. فهو «عاطفي وحيوي» من دون ريب، لكنه «أخرق وذو شخصية غريبة»، رغم أنه والحقّ يقال لم يعد غير جذّاب كما كان في الماضي القريب: أصبح الآن يمشّط شعره بانتظام، ويسرف في رشّ ماء الكولونيا على نفسه، كما تتغيّر قسماته بين الحين والآخر بابتسامة جذابة جداً. لكن على الرغم من وعده الذي لا ريب فيه، فإن مستقبله غير مأمون، وسيكون مستقبلها كذلك أيضاً إذا تزوّجته. كانت تخشى من فقدان حماية بارا، الذي اتخذ بالفعل تِريزا تاليان عشيقة مكمّلة، إذا ما أصبحت زوجة بونابرت. كما أن عائلتيهما لم تكونا راضيتين عن مثل هذا الارتباط، ولم يرضَ عنه موثّق عقودها، راغيدو، الذي أبلغها من الأفضل لها أن تتزوّج متعهداً للجيش لديه الإمكانات التي تجعلها ثرية. واقترح

آخرون غابرييل أوڤرار.

عندما رأى نابليون أن زواجه من جوزفين دي بوهارنيه قد يعزّز مسيرته المهنية، لم تعد تساوره الشكوك بشأن اتخاذها زوجة له. ووقع في حبّها عندما اتخذ ذلك القرار. وفي أعقاب قضاء ليلتهما الأولى معاً، كتب يخبر عن «جوزفين اللطيفة التي لا نظير لها»، جوزفين التي ارتشف من شفتيها وقلبها لهباً أحرقه. وأرسل لها «ألف قبلة»، وطلب منها ألا ترسل له أي قبلة في المقابل لأنها تحرق دمه. وفي وقت لاحق، أبلغ الكونت برتران Bertrand بطريقة أقل رومانسية: «أحببت جوزفين حقاً، لكنني لا أحترمها. لم أتزوجها إلا لأنني اعتقدت أنها ثرية. وقالت إنها كذلك، وتبيّن أنه غير صحيح».

لم تتغلّب جوزفين على تردّدها وتوافق على الزواج من نابليون حتى نهاية شباط/فبراير 1796، وقد أبلغت غريس داريمبل إليوت أنها لا تحبّه حقاً لكنها تعتقد أنه قد يفيد ابنيها. وكان قد أبلغ ديزيريه أنها ما لم تحصل على موافقة والديها الفورية على الزواج– وهي موافقة لا بد من الحصول عليها لأنها قاصر وقد افترض أنها لن تحصل عليها– فإنه مجبر على إنهاء علاقته بها. وردّت عليه في رسالة قصيرة حزينة، تتمنّى له فيها الخير وتؤكّد له أنها لن تحبّ أحداً سواه. وأبلغته أنه دمّر حياتها لكن ضعفها يدفعها إلى مسامحته. «وأرجو أن تهبك المرأة التي اخترتها السعادة التي تستحقّ. ووسط سعادتك الحالية، لا تنسَ يوجين المسكينة، واأسف لحالها».

تم الزواج بجوزفين دي بوهارنيه في حفل مدني في 9 آذار/مارس. وكان في الواقع غير شرعي لأسباب عديدة: لم يكن المسؤول الذي أجرى المراسم مؤهّلاً قانونياً للقيام بذلك؛ والضابط الشاب الذي شهد على توقيع نابليون قاصر، وبالتالي غير مؤهّل أيضاً لأداء ذلك الواجب؛ لم

تقدّم جوزفين شهادة ميلادها متذرّعة بالاحتلال البريطاني لجزر وِندوورد واغتنمت الفرصة لخفض سنها أربع سنوات؛ وادّعى نابليون أيضاً أنه غير قادر على جلب شهادة ميلاده، فقدّم تاريخ ميلاد مماثلاً لتاريخ ميلاد جوزيف ومكان الميلاد باريس بدلاً من أجاكسيو.

انتظرت العروس التي ارتدت عباءة بيضاء من الموسلين مع وشاح ثلاثي الألوان وميدالية مزخرفة بالمينا ومحفور عليها «إلى القدر»— وهي هدية من العريس— ظهور نابليون مع آل تاليان وبول بارا، وجلس إلى جانبها موثّق عقودها. انتظروا في الغرفة الباردة التي يضيئها مصباح من تنك مدة ساعة، ثم ساعتين، ثم ثلاثاً قبل أن يدخل نابليون الغرفة على عجل ويهزّ المسؤول النعسان من كتفه، ويطلب منه إنجاز المراسم، ويقفل عائداً مع زوجته إلى منزله خلال بضع دقائق.

قبل أربعة أيام، كان نابليون قد عُيّن قائداً للجيش في إيطاليا، ما أزعج الضبّاط الأعلى رتبة، وبخاصة لازار هوش الذي رفض الخدمة تحت إمرته في ڤندي، وهو تعيين وُصف بخبث أنه «مهر من بارا». وبعد الزواج بيومين، غادر باريس إلى مقرّ قيادة الجيش في نيس. هناك، التقى بالألوية الذين كانوا على درجات متفاوتة من التردّد في الخدمة تحت إمرته: لويس ديزيه Desaix، وبيار أوغيرو Augereau، وأندريه ماسينا Masséna. وكانوا جميعاً طوال القامة أقوياء البنية وأطول من نابليون الذي وصفه ماسينا لاحقاً بأنه «ضئيل وعليل المظهر»، ورجل حصل على قيادته من خلال نفوذ بارا ونسائه.

وخلال أسابيع، تغيّر رأيهم بالكورسيكي الضئيل الباهت اللون. فقد وجد نابليون الجيش ضعيف القوة، وسيّئ التجهيز، ومتدنّي الأجور. وفي

إحدى خطاباته المِلهمة التي ألهبت الحماسة في صفوف جنوده حملة بعد حملة، يقال إنه وعد بقيادتهم إلى «سهول العالم الخصيبة»، عبر المقاطعات الغنية والمدن العظيمة حيث سيجدون «الكرامة والمجد والثروة». وأتبع القول بالفعل، فنجح في فصل قوات إمبراطور النمسا وملك سردينيا التي تفوق جيشه عدداً. وحقّق انتصارات مدهشة متعاقبة، أرسلت أخبارها إلى الحكومة في باريس، حكومة الإدارة، عن طريق رسل يجوبون سهول لمبارديا بجيادهم السريعة.

لم يحمل هؤلاء الرسل معهم تذكارات النصر- الأعلام والرايات- فحسب وإنما أيضاً سلسلة من الرسائل المعنونة إلى 6 شارع كاثرين والموجّهة إلى مدام دي بوهارنيه التي لم تعتمد اسم زوجها بعد. كان يكتب كل يوم، وأحياناً مرتين في اليوم، بحيث امتلأت جيوبه برسائل غير منتهية وغير مترابطة في الغالب لم يرسلها قط إلى «جوزفين الفاتنة»، و«حبيتي»، و«سعادة حياتي وشقائها». أبلغها أنه لم يمض يوم واحد من دون أن يتدلّه في حبّها، ولا ليلة من دون الحنين إلى ضمّها بين ذراعيه. كان حبّه لها يكبر كل يوم، ويتشوّق إلى تقبيل قلبها فما دون، ما دونه بكثير ويشدّد على الكلمات بحيث ينفذ رأس القلم من الورقة. وأبلغها «ما من امرأة حظيت بحبّ أكثر إخلاصاً وتوقّداً ورقّة». وإذا ما تركته فسيشعر بفقدان «حسنها» أنه فقد كل شيء يجعل الحياة جديرة بالاهتمام.

لم تكن جوزفين تجد الوقت لقراءة كل هذه الرسائل يوم وصولها، لانشغالها بالحفلات، وحفلات التبرّع، وحفلات الاستقبال، والتسوّق، وتقييس ملابسها عند الخيّاط، والزوّار الذين يعجّ بهم مخدعها، والاستمتاع بالشرف الذي تحظى به في أرقى المتاجر باعتبارها زوجة الجنرال الشاب اللامع، والاستقبال الذي تلقاه في المسرح حي يقف المتفرّجون للتصفيق

لها عندما تدخل مقصورتها، وهتافات الترحيب في الشوارع وصيحات استحسان النساء الصاخبات في منطقة السوق المركزية، لِزول Les Halles. وكانت بين الحين والآخر تختار واحدة لقراءة مقطع أو اثنين منها أمام أحد الزائرين. وذات مرة قرأت رسالة أمام الشاعر والكاتب المسرحي أنطوان أرنو Arnault. وفيها كتب نابليون عن غيرته من الرجال الآخرين الذين يستطيعون أن يكونوا برفقتها فيما هو لا يستطيع ذلك، وأضاف: «حذارِ من خنجر عطيل». فضحكت وعلّقت: «إن بونابرت مسلّ».

اشتكى في 24 أيار/مايو: «لم أتلقَّ أي رسالة منك يا جوزفين. وما من أخبار من صديقتي الحميمة... وحبيبتي... هل نسيتني يا ترى»؟ كان الرسل يعودون من باريس من دون أن يحملوا أي رسالة منها. فاستبدّ به الضيق والغيرة. أخذ يعتقد أنها استأنفت علاقتها ببارا، أو ربما وجدت عشيقاً آخر. لم يعد يطيق ذلك فأرسل لها «ألف قبلة على عينيك وشفتيك ولسانك.. من الواضح أن حبّك المزعوم لي لم يكن إلا مجرّد نزوة عابرة». ثم لان ورقّ. «ربما قسوت عليك في الكتابة وأنا غارق في أحزاني».

وفي رسالة أخرى أبلغها: «لم أكن أعتقد أن من الممكن أن أعاني بهذا القدر، وأشعر بمثل هذا الألم، ومثل هذا العذاب الرهيب. لقد أرسلت لك مليون قبلة. تذكري ليس هناك حبّ قوي كحبّي لك... وسيدوم للأبد... اللهب الذي يتصاعد من شفتيك يفنيني... مشاعري ليست معتدلة البتة... إنني في حالة لا توصف... ولعل الحبّ المتوقّد الذي يملؤني أحدث اختلالاً في عقلي».

عندما أحبط من قلة الرسائل التي تكتبها رداً على تدفّق مشاعره المتوقّدة وقصرها، أرسل أندوش جونو إلى باريس مع أعلام الأعداء إلى

حكومة الإدارة وأمر قطعي بألا يعود إلى إيطاليا من دون زوجته. وكتب إليها راجياً: «ستأتين أليس كذلك؟ عليك العودة مع جونو، أتسمعين يا فاتنتي»؟

وأرسل الكولونيل يواكيم مورا حاملاً أوامر مماثلة وسؤالاً حاسماً: «ليس هناك أحد آخر، هل هناك أحد»؟ وتألّم كثيراً عندما سمع لاحقاً أن مورا الوسيم والمغامر الأرعن تباهى بعلاقته الحميمة مع مدام بونابرت، مقدّماً «تفاصيل غير محتشمة لا تليق إلا بقذارة ضبّاط الهوسار [الخيّالة]». يوم وصول مورا إلى باريس بعد أن استهلك عدّة جياد للبريد في الطريق، انكسر زجاج الرسم المنمنم لجوزفين الذي يرتديه بونابرت في شريط حول عنقه، وهو الرسم الذي عرضه بفخر أمام الضباط المستائين عند وصوله إلى نيس. ووفقاً للضابط المساعد، أوغست مارمون، امتقع لون بونابرت وقال مستسلماً للخرافة: «إما أن زوجتي مريضة جداً وإما أنها تخونني يا مارمون».

وكانت تخونه.

كان الكابتن إيبوليت شارل Hippolyte Charles شاباً قصيراً حيوياً، لا يتميّز بالوسامة لكنه جذاب ومرح ومسلٍّ، وعاشق ماهر، يصغرها بتسع سنوات. وقد قالت جوزفين إنه أضحكها، وذلك يتجاوز قدرة نابليون– الذي كانت قهقهاته المجلجلة مزعجة وليست معدية. بدا الكابتن شارل بشعره الأسود اللامع، وعينيه الزرقاوين، وتعبيره المرح، أنيقاً جداً في زي الهوسار وعباءته المطروحة فوق كتفه. كان الرجال يحبّون صحبته، والنساء يستمتعن بها. أما جوزفين فقد أحبّته.

عندما سلّم مورا الأوامر التي تقضي بإعادتها إلى إيطاليا، أبلغته أن

يقول لزوجها إنها لا تستطيع احتمال مثل هذه الرحلة المتعبة: إنها مريضة جداً، وحامل.

عندما تلقّى نابليون هذا الخبر، كان على وشك أن يدخل ميلانو، عاصمة لُمباردي. اكتمل نصره العسكري. فشعر، كما قال، كأن الأرض تطير من تحته، كما لو أنه «مرفوع إلى السماء». مع ذلك، كما أبلغ جوزفين، لم يفكّر ليل نهار في شيء سوى مرضها: «ففقدتُ الشهية، وجافاني النوم، وتخلّيت عن الاهتمام بالمجد أو البلد». كان «يتوق لرؤية بطنها الصغير» الذي سيمنحها من دون شك «مظهراً رائعاً».

وكتب نابليون إلى لازار كارنو Carnot، «منظّم النصر» الذي اعتاد أن يرتدي رسماً مصغّراً لبونابرت تحت معطفه إشارة إلى ولائه، بالإضافة إلى شقيقه جوزيف وبارا كاشفاً عن قلقه وانزعاجه. فبعد استلامه ملاحظة موجزة من جوزفين تفيد بأنها لا تزال مريضة وأن ثلاثة أطبّاء يعتنون بها، أبلغ جوزيف: «إنني يائس. طمئني عن صحة زوجتي. أنت تعرف أن جوزفين هي المرأة الأولى التي أتيّم بها... إنني أحبها إلى حدّ الجنون. لا أستطيع البقاء هنا من دونها». وكتب لبارا: «إنني يائس. زوجتي ترفض القدوم. لا بد أن لديها عشيقاً يستبقيها في باريس».

مضت الأيام والأسابيع من دون أن تكتب له جوزفين أو ترسل ما يفيد أنها قد تأتي إليه. ومالت أفكاره نحو الانتحار ثانية: كتب عن التمدّد ساعتين بين ذراعيها ثم الموت معها. إذا ماتت فإنه سيموت أيضاً «من القنوط».

تحدّث عن التخلّي عن منصبه والعودة إلى باريس ليكون معها. وقال: «إن وجودي سيقهر مرضك... طالما تمكّنت من فرض إرادتي على القدر... من دونك لا يمكن أن أجدي نفعاً هنا... ليس هناك حباً كحبي.

وسيدوم طيلة حياتي».

خشيت حكومة الإدارة من تهديد الجنرال بترك الجيش، فيما يعدّ النمساويون لهجوم مضادّ، فأُرسلت جوزفين على الفور إلى ميلانو. غادرت باكية حتى إن صديقها أنطوان أرنو قال: «بدت كأنها ذاهبة إلى غرفة تعذيب». أمسكت بكلبها، فورتونيه، من طوقه الجلدي، وكان يصحبه أندوش جونو ومساعده إيبوليت شارل. ورافقها أيضاً جوزيف بونابرت، وشقيق ديزيريه كلاري ونيكولا، خادم جوزفين واثنان آخران من الخدم.

اشتكت جوزفين من الحرّ والصداع المستمرّ، وكرهت مغادرة تورين إلى ميلانو، وبدا عليها التردّد عند دخولها قصر سربلوني الكلاسيكي المحدث في ميلانو، الذي ملأه زوجها بالشجيرات المزهرة للترحيب بها. كانت تلك الليلة الثالثة التي يقضيانها معاً.

لكن «يا لها من ليالٍ»، كما كتب نابليون. «سعادتي هي أن أكون بالقرب منك، يا حبيبتي... لا شك أن في شخصيتك بعض العيوب. أخبريني». لكنها لم تكن تشاركه هذه الحماسة. وأبلغت تِريزا تاليان: «أكاد أموت من الملل. زوجي لا يحبني فحسب، إنه يحبّني حتى العبادة. أعتقد أنه سيجنّ».

10

قصر سِربلوني

«وهن لا يراعين الأعراف بحيث يرتدين ملابس تكشف عن الساقين والفخذين اللذين يغطيهما كولون بلون البشرة».

عندما غادر نابليون ميلانو متوجّهاً إلى جيشه في الميدان، لم تظهر زوجته أي ضيق. أرسلت في طلب صديقتها فورتونيه هاملان لمرافقتها في قصر سربلوني، بعد أن اقترضت من زوج مدام هاملان، المموّل، مبلغاً كبيراً من المال قبل مغادرتها باريس. وهو دين لم تسدّده قط مثل كثير غيره في الماضي والمستقبل. ووصل أصدقاء ومعارف آخرون إلى ميلانو، حيث سبب «سلوكهم المتعالي»، كما كتبت إحدى الصحف، بعض الإساءة. «كانت الأذرع والصدور والأكتاف عارية... وتصفيفات شعورهن شائنة: توّجت رؤوسهن بقبّعات عسكرية صغيرة تفلت منها خصل الشعر غير المسرّح. وهنّ لا يراعين الأعراف البتة بحيث يرتدين ملابس تكشف عن الساقين والفخذين اللذين يغطيهما كولون بلون البشرة».

وبمرور الأيام، أخذت جوزفين تستمتع بوقتها، مع أنها افتقدت لهو باريس ومسرّاتها والصديقات اللاتي خلّفتهن وراءها هناك، مثل بارا وآل تاليان. شعرت بالسعادة لأنها محطّ الاهتمام باعتبارها زوجة الجنرال الشاب اللامع. فأقامت الحفلات والسهرات الراقصة، وتقبّلت بلطف المجوهرات والأعمال الفنية التي قدّمها لها رؤساء العائلات الإيطالية الكبيرة على أمل أن تجنّبهم أعمال النهب التي تغاضى عنها نابليون. وأدى هذا النهب إلى

انتزاع العديد من الصور والتماثيل والمخطوطات والفضة وجميع أنواع الكنوز الأخرى من الكنائس والقصور والمدن والقرى الإيطالية، بما في ذلك- من جمهورية البندقية وحدها- الستائر الجلدية المذهّبة من قصر الدوج، واللوح المركزي الفيروني من سقف قاعة مجلس العشرة في قصر الدوج، ولوحة «الزواج في كانا» من دير سان جيورجيو ماغيوري، والجياد البرونزية الأربعة من سان ماركو، وقد زيّنت بعض الوقت قوس نصر الكاروسل في تويليري. بالإضافة إلى فقدان مثل هذه الكنوز، كان لدى الإيطاليين سبب للشكوى من الجنود والضباط والرجال الفرنسيين على السواء الذين ينتهزون الفرص المتاحة لهم للإثراء. وحصلت عائلة بونابرت على حصتها، وقد اعتنى سكرتير نابليون، لويس دي بوريان، نيابة عنه بصندوق كبير مليء بالقطع النقدية الذهبية والفضية.

شعرت جوزفين بالإطراء والاستمتاع في قصر سربلوني فتقبّلت برضا الرسائل العاطفية المتتالية من زوجها الغائب الذي طمأنها بأن حبه الآن «يزيد ألف مرة» عن حبه السابق لها. وعندما يكون معها يودّ «أن يدوم الليل» كي يحتضنها بين ذراعيه، وأنه لا يزال «يتذكّر قبلاتها». وكانت ردودها على تدفّق مشاعره قصيرة لكنه أكّد لها أنها تسعده كثيراً، مضيفاً أنه على يقين من أنها تحبّ الكتابة إليه، وهو ما لا يمكن الافتراض بأنه يعبّر عن الحقيقة.

اطمأن الآن إلى أنها في حالة أفضل بعدما تبيّن أنها ليست حاملاً، لذا أمل أن تنضمّ إليه فور تمكّنها من السفر. وهكذا غادرت ميلانو إلى بريشيا، معلّلة النفس بأن يكون إبوليت شارل هناك، ورافقها أنطوان هاملان، لكنها واجهت مخاطر حقيقية في رحلتها. فقد أجبرهم ظهور

القوات النمساوية المفاجئ في فيرونا على التوجّه بعجلة إلى شواطئ بحيرة غاردا برفقة الخيّالة. وتعرّضت عربتها لإطلاق النار من زورق حربي في البحيرة، فاضطرت إلى الخروج منها مع مرافقها واللجوء إلى خندق والزحف فيه نحو العربة التي اقتيدت بعيداً إلى طريق محمي منخفض. وبعد ذلك تنقّلوا في توسكانيا لمدة تزيد على أسبوع، ووصلوا في النهاية إلى فلورنسا حيث وجدوا ملجأ لدى الدوق الكبير فرديناند الثالث الذي وقّع معاهدة مع نابليون. ولبثوا عند الدوق الكبير إلى أن انتصر بيار أوغيرو على النمساويين في كاستليون في 5 آب/أغسطس 1796، ما مكّنهم من مغادرة فلورنسا والوصول أخيراً إلى بريشيا.

غير أن نابليون لم يعد هناك، إذ غادر إلى مقرّ قيادة جديد أنشئ على بعد أكثر من أربعين كيلومتراً، وترك تعليمات تقضي بأن تنضمّ زوجته إليه. احتجّت جوزفين بأنها منهكة، وآثرت الراحة في الغرف التي أخلاها نابليون وتناول العشاء هناك. دعت هاملان للانضمام إليها. وعندما وصل، فوجئ بوجود إيبوليت شارل وأن المائدة معدّة لثلاثة أشخاص. تناولوا العشاء معاً وغادر الرجلان. بعد بعض الوقت، تذكّر هاملان أنه ترك سلاحه في غرفة مجاورة للغرفة التي تناولوا فيها العشاء، فعاد لجلبه. وهناك وجد حارساً عند باب الغرفة منعه من الدخول.

شعرت جوزفين بالملل بعد عودتها إلى ميلان بناء على طلب زوجها الذي منح نفسه إجازة لمدة ثلاثة أسابيع. فقد اشتاقت إلى الكابتن شارل، وإلى أصدقائها في باريس، واشتاقت إلى ابنيها وصحبة بول بارا المنشّطة. أبلغت نجيّتها وكاتمة سرّها مدام تاليان: «إنني أحبه، ومخلصة له». وقالت إن من الممتع أن يحتفي بها «جميع الأمراء الإيطاليين، وحتى دوق توسكانيا الكبير»، لكنها تفضّل أن تكون إنسانة عادية في باريس.

بقي زوجها «يعبّر عن إعجابه بها طوال اليوم»، وعاملها كما لو أنها «إلهة»، بحيث «من المستحيل أن تجد زوجاً أفضل». غير أن ثمة مناسبات وجدت فيها صعوبة في إخفاء انزعاجها بمناكفتها، وعادته أن يقرصها بشدّة بحيث تطفر الدموع من عينيها، وتقبيلها ومداعبة ثدييها ومعانقتها بحرارة وحميمية حتى عند وجود أشخاص آخرين في الغرفة، بحيث اضطر هاملان لغض بصره، والابتعاد والنظر من النافذة كما لو أنه «يراقب الطقس». وشعر الكونت أندريه ميو دو مِليتو بإحراج مماثل عندما رافق بونابرت وجوزفين في رحلة بالعربة إلى بحيرة ماغيور، وفي أثنائها، كما عبّر عن ذلك بكياسة، أبدى بونابرت «اهتماماً شديداً» بزوجته، وأخذ «حريته الزوجية» مرات عديدة معها.

اتخذت الحملة على النمساويين مساراً سيّئاً، بل إن الفرنسيين تحدّثوا عن الانسحاب من إيطاليا. وعندئذٍ جاءت أخبار انتصارات نابليون في 15 و16 و17 تشرين الثاني/نوفمبر في أركولا أولاً، ثم في 14 كانون الثاني/يناير 1797 في ريفولي، ما ضمن سقوط مانتوا بعد حصار دام ستة أشهر.

أصبحت رسائل نابليون إلى جوزفين التي كتبت في نشوة هذه الانتصارات الحاسمة أكثر عاطفية من ذي قبل. وكتب عن لهفته إلى تقديم الأدلة لها على حبّه المتوقّد، ومشاركتها في الفراش، ورؤية وجهها الرائع ثانية، وشعرها المعقود بشال على طريقة الكريول، و«غابتها السوداء الصغيرة». «ألثمها ألف مرّة وأنتظر بلهفة الوقت الذي ألجها. العيش داخل جوزفين هو العيش في رياض الجنة».

لكن سرعان ما تغيّرت لهجة الرسائل. فبعدما زار ميلانو، تبيّن له أن جوزفين ليست في قصر سربلوني. انتظر عودتها أكثر من أسبوع من دون

جدوى، فكتب إليها سلسلة من الرسائل المعبّرة عن الغضب والإشفاق على النفس والخزي وخيبة الأمل. كتب إليها: «أتوق إلى أن أضمّك بين ذراعيّ. الألم الذي ينتابني لا يصدّق... أخطئ عندما أطلب منك أن تحبّيني كما أحبّك... أنا غير جدير به... عندما أصبح واثقاً من أنها لم تعد تحبّني فسألتزم الصمت، وأتمنّى أن أكون نافعاً لها فحسب... سأستسلم لكل الأحزان، وكل الأسى، لو تمنح الأقدار جوزفين السعادة... آه يا جوزفين».

في أثناء الحزن والاستياء اتبع نابليون سياسة في إيطاليا تتناقض مع رغبات حكومة الإدارة في باريس. بعدما تقدّم وأصبح على بعد تسعين كيلومتراً عن فيينا، وقّع معاهدة أولية مع النمساويين في لوبن، حيث دُهش المراقبون من السلوك المتعجرف للرجل الضئيل الذي يتكلّم الفرنسية بلكنة ثقيلة، ويصدر الأوامر ويمنح بعض التنازلات بثقة مطلقة. كما تجاهل رغبات حكومة الإدارة في باريس وأثار انزعاجها عندما خلع دوج البندقية ودمّر معظم تلك الجمهورية القديمة.

في أيار/مايو، نقل نابليون مقرّ قيادته في أثناء انتظار تسوية تفاصيل حكمه المستبد في إيطاليا من ميلانو إلى القصر الباروكي الضخم في مومبلو. وأعلنت جوزفين، التي كانت تتذرّع بأن صحتها معتلة وتطالب بالعودة إلى باريس، بأنها ستبقى في النهاية في مومبلو، وهو قرار يفترض على نطاق واسع أنه اتخذ لأن مهام الكابتن شارل تتطلّب منه التواجد هناك طوال ذلك الصيف.

كانت الأشهر التي قضتها هناك ممتعة لها. فقد تمكّنت من التمتع بحبّها للأزهار التي أمرت بزراعتها في جميع الحدائق، بالإضافة إلى شغفها بالطيور التي ترفرف وتنساب فوق مياه البحيرة، وتزقزق في الأقفاص

التي أمر زوجها بإقامتها لها. وكانت جوزفين تشاهد في النهار وهي تمشي برشاقتها المعهودة عبر الممرّات المرصوفة بالحصى والمروج المجزوزة بعناية. وفي الليل، تترأس مائدة العشاء في غرفة الطعام مرتدية فستان موسلين أبيض، وعلى رأسها إكليل من اللبلاب، فتأسر الرجال بنظرات عينيها «الزرقاوين الداكنتين»، كما وصفهما أحد المعجبين بها: «نصف المغمضتين تحت جفنيها الطويلين، اللذين يزيّنهما أطول رموش في العالم»، وتحتسي القهوة بعد العشاء على شرفتها وإلى جانبها كلبها.

لم يكن ذلك الكلب فورتونيه الذي بلغت به الوقاحة حدّ أن يعضّ ساق نابليون في أول ليلة يتشارك فيها الفراش مع زوجته. فقد قتل هذا الكلب، الذي تعلّقت به جوزفين بشكل لا يمكن تفسيره، بعضّة من كلب طاهي مومبلو، ما سرّ نابليون الذي عبّر عن أمله يلقى بديل فورتونيه– جرو قدّمه لها الكابتن شارل سراً– المصير نفسه.

رضيت جوزفين الإقامة تحت سقف واحد مع شارل، على الرغم من أن فرص انفرادها به لم تكن كثيرة، لكنها لم تتقبّل أن فكرة رفقة العديد من أفراد عائلة زوجها الذين قرّر الآن أن يقيموا في مومبلو.

من أوائل من وصلوا في إجازة من المدرسة الأيرلندية في سان جرمان، ذا دِرموت أكاديمي، يوجين دي بوهارنيه، ابن جوزفين الذي بلغ عمره في ذلك الوقت خمس عشرة سنة، وجيروم، شقيق نابليون، الذي يبلغ عمره اثنتي عشرة سنة. كما كانت هناك لتيزا، والدة جيروم ونابليون: لم يبلغها نابليون بأمر زواجه من الأرملة بوهارنيه إلا بعد حدوثه، ولم توافق لِتيزيا على الزواج أو عليها. ومع أن جوزفين تصرّفت بمنتهى اللطف مع حماتها واستخدمت أسلوبها الساحر الذي وجده الآخرون ملفتاً، فإن لِتيزيا لم

تستطع أن تبادل كنّتها العنيدة مشاعرها الحارّة. وكذلك لور جونو التي كتبت عنها: «كانت مدام بونابرت امرأة مذهلة، ولا بدّ أنها امتلكت في الماضي جمالاً أخّاذاً... مع أنها لم تعد في ريعان الشباب». ولو أنها امتلكت أسناناً: «لا أقول أسناناً جميلة لكن مجرّد أسنان»، لأصبحت «أكثر جاذبية من معظم معاصريها».

ولم تستطع بنات لِتيزيا الثلاث التغلّب على حيائهن الحذر الأولي في حضور زوجة أخيهم المحنّكة. وسرعان ما تحوّلت غيرتهن غير الخفية إلى كراهية فاعلة.

11

الأخت المفضّلة

«كيف يمكن أن يكون أخي شديد القسوة فيرسلني إلى المنفى وسط الهمجيين والأفاعي»؟

مع أن نابليون كان مدلّهاً بحبّ جوزفين، فإنه شعر في الوقت نفسه بقلق عميق من سلوك شقيقته بولين. فقد كانت في السادسة عشرة تتسم بالشهوانية والعند والجسارة. وقد وصفها الشاعر أنطوان فنسنت أرنو: «أجمل شخص يمكن تصوّره وأسوأهم سلوكاً على الإطلاق. تتصرّف كتلميذة مدرسة فتتحدّث من دون توقّف، وتضحك من دون سبب ولكل سبب، وتخطّئ أبرز الشخصيات، وتمدّ لسانها لزوجة أخيها من وراء ظهرها، وتلكز ركبتي عندما لا أعيرها الانتباه الكافي، تجلب على نفسها بين الحين والآخر نظرات أخيها المخيفة تأنيباً لها على إزعاجها... لكنها مع ذلك، طفلة تبعث على البهجة، مع أنها مجردة من المبادئ. وكانت قادرة على فعل الخير بمحض هواها».

قدّم مترنيخ، الدبلوماسي ورجل الدولة النمساوي، صورة أقصر وأقل تسامحاً عن شخصيتها. كانت الفتاة والحقّ يقال «جميلة قدر الإمكان»، لكنها «تحبّ نفسها وشغلها الشاغل هو المتعة».

وقعت بولين في غرام ستانيسلاس فريرون، وهو رجل متأنّق عديم الرحمة لا يتورّع عن الإثم يكبرها بست وعشرين سنة، اشتُهر بأنه يعاني من السفلس ويحتفظ بعشيقة تمثّل في مسرح الإيطاليين، ولدت له اثنين من أبنائه وستلد ثالثاً عما قريب. كان يكفي وفقاً لرأي أمها، زواج شقيق

بولين لوسيان- وصفته لور بيرمون بأنه «لوسيان الطويل والقبيح الذي يعاني من قصر نظر شديد»- من كاثرين، ابنة صاحب نزل جاهلة وشديدة الخجل، من دون أن يبلغ أمه. لكن كاثرين كانت لطيفة وودودة على أي حال، أما العلاقة مع فريرون فقد كانت أسوأ بكثير.

كان فريرون من النوّاب المفوّهين في المؤتمر الوطني ومدافعاً بارزاً عن مجازر أيلول/سبتمبر. وقد أرسله بارا لقمع الثورة المضادّة في جنوب فرنسا حيث أمر بإعدام مئات المناوئين لنظام اليعاقبة. وعند عودته إلى باريس، أصبح من كبار المشاركين في المؤامرة التي أدّت إلى سقوط روبسبيير وإعدامه، ومن المؤيّدين البارزين لردّ الفعل المناهض لليعاقبة، وكذلك من المنظمين النشيطين لعصابات الشبان المنعّمين jeunesse dorée الذين يجوبون الشوارع بثيابهم الغريبة المظهر ويثيرون الرعب فيها.

عندما علمت لِتيزيا بتعلّق بولين بفيرون المخادع والرهيب ورغبتها في الزواج منه- كان والحقّ يقال وسيماً وقادراً على ممارسة سحره الذي لا ينكر- اتخذت موقفاً متشدّداً. رفضت حتى التفكير في الأمر لأنها مجرّد طفلة والزواج المقترح غير وارد البتة. وكان رأي نابليون كذلك أيضاً. أبلغ شقيقه جوزيف: «أرجو أن ترتّب شؤون بوليت». وكتب أيضاً لبارا، أحد زملاء فريرون، طالباً منه ثني فريرون عن مسعى الزواج من «طفلة في السادسة عشرة فيما هو في سنّ والدها. على المرء ألا يحاول الزواج عندما يكون لديه طفلان من امرأة لا تزال على قيد الحياة».

ألهبت معارضة العائلة للزواج عواطف بولين. فكتبت إلى فريرون، «أحبك كثيراً وسأظل أحبك إلى الأبد... أحبك، أحبّك، أحبّك يا أغلى الأحبة».

أدرك نابليون حدّة ولع شقيقته، فقرّر أن يحضر الفتاة الحساسة

والعاطفية والساذجة إلى مقرّ قيادة الجيش في إيطاليا حيث من المرجّح أن يخمد الشبان الأكثر ملاءمة رغبتها الحارقة في فريرون الذي عيّن في وقت لاحق في جيش الشمال نزولاً عند اقتراح نابليون، وأرسل لاحقاً كمساعد حاكم لجزر الهند الغربية حيث توفي في غضون أشهر.

بعد بضعة أشهر من منع زواج بولين من فريرون، انزعج نابليون، في أثناء عمله في مكتبه في فيلا كريفلّي في مومبلو، من الأصوات الناجمة عن نشاط محموم خلف ستار ما. فنهض ليعرف ما يجري وضبط بولين، وكانت في السابعة عشرة، بالجرم المشهود مع أحد ضبّاطه الشبّان فيكتور إيمانويل لوكليرك. خشي نابليون أن ينتهي أمر شقيقته المغرية والشبقة بين ذراعي رجل شبيه بفريرون، ورأى أنها يمكن أن تستقرّ على من هو أسوأ بكثير من لوكليرك، وهو ضابط ضئيل قد يكون واعداً يبلغ من العمر خمساً وعشرين سنة وابن طحّان ميسور من بُنتوا، فرقّاه إلى عميد وأصرّ على أن يتزوّجا من دون تأخير، ورتّب أمر حصولها على مهر مقداره أربعين ألف فرنك.

بعد أن تزوّج لوكليرك من بولين، شعر بالفخر بأن يصبح صهراً للجنرال العظيم بونابرت، فأخذ على نفسه أن يتصرّف بثقة متبعاً طريقة مشي نابليون نفسه ويديه خلف ظهره ووقفته، مثلما فعل جيروم بونابرت أيضاً، ويده مدسوسة عند خصره تحت المعطف. ومع أن هذه السلوكيات اعتبرت سخيفة، فإن لوكليرك لم يكن سخيفاً. وعندما قرّر نابليون إرسال قوة قوامها ستة وعشرين ألف رجل إلى سان دومينيك، وهي جزيرة من جزر الهند الغربية تضمّ اليوم هايتي وجمهورية الدومينيكان، لقمع حركة الاستقلال بقيادة توسان لوفِرتور، وهو عبد سابق ذو مهارة عسكرية

ملحوظة، اختير الجنرال لوكليرك لقيادتها. كانت زوجته في ذلك الوقت أماً لصبي يدعى درميد لويس نابليون، حيث اسم درميد مأخوذ من الأشعار الملحمية التي يفترض أنها من نظم المحارب والشاعر الغالي أوسيان، الذي لم يمض وقت طويل على ترجمة أعماله إلى الفرنسية، وهي أعمال أعجب بها نابليون كثيراً.

غادرت بولين فرنسا مع زوجها وابنها الصغير إلى سان دومينيك بأسى شديد، وكتبت شاكية إلى إحدى صديقاتها: «كيف يمكن أن يكون أخي شديد القسوة فيرسلني إلى المنفى وسط الهمجيين والأفاعي»؟ وأضافت على طريقتها المعهودة من الخوف من المرض من دون اعتبار للحقيقة: «كما أنني مريضة جداً، وسأموت قبل أن أصل إلى هناك».

لم تمت، لكنها كانت مستاءة جداً في الجزيرة وانغمست في الفودوية(*) كوسيلة لطرد الشرور من غرفة نومها. وفي مدينة كاب هايتن غير الصحية والمتصدّعة، أصيبت بالمرض وشعرت بالتعاسة. اصفرّت بشرتها، وغطّت القروح وجهها وجسدها الجميل، وكانت لا تزال موجودة عند عودتها إلى باريس بعد مدة طويلة.

غير أن زوجها أفاد بأن سلوكها كان مرضياً: «عندما أدركت مقدار رداءة بقائها في بلد لا ترى أمام عينيها سوى مشهد الموت والميّتين، طلبت منها العودة إلى فرنسا، لكنها رفضت قائلة إن عليها أن تشاطرني التقادير، حسنةً كانت أم رديئة».

كانت هذه التقادير سيّئة بالفعل: «إذ لم أشهد منذ وصولي سوى النيران والتمرّد والاغتيالات»، كما أبلغ نابليون. «ولا شيء يمكن أن يطرد هذه

(*) ديانة تقوم على السحر الأسود والطقوس السحرية التي يمارسها السود في جزر الهند الغربية – المترجم

الصور المخيفة من عقلي... إنني أحارب هنا السود، والبيض، وأحارب حتى جيشي الذي فقد الشجاعة... السيدة لوكليرك مريضة، لكنها مثال للشجاعة وتستحقّ حقاً أن تكون شقيقتك».

وسرعان ما أصيب لوكليرك نفسه بمرض خطير، فأخلصت في رعايته بولين التي تسلّمت رسالة تشجيع وتنبيه من شقيقها: «تذكّري أن التعب والمصاعب تهون عندما تتقاسمها المرأة مع زوجها، وتفيد بلدها. حبّبي الآخرين بك بمراعاتهم، ودماثة الخلق، واتباع سلوك لا يُعاب وبعيد عن الطيش. لقد أرسلنا إليك صناديق من الثياب الرائجة التي سيوصلها ربّان سفينة سيرين. ولك مني خالص الحبّ».

توفّي لوكليرك– مثل فريرون– من الحمى الصفراء في تشرين الثاني/ نوفمبر 1802. فقصّت زوجته خصلاً من شعرها لوضعها في تابوته وأبحرت إلى فرنسا، وأمضت جلّ رحلتها وحيدة في قمرتها، تبكي خسارتها، وكتبت لنابليون في ليلة سنة 1803 الجديدة، بعد رحلة استغرقت ثمانية أسابيع عبر الأطلسي: «وصلت إلى طولون بعد رحلة مضنية، وتدهور صحتي. وهذه هي أقل أحزاني. أحضرت معي بقايا زوجي المسكين لوكليرك. أشفق على المسكينة بولين، فهي شديدة التعاسة».

استجاب شقيقها بمنحها علاوة مقدارها ستون ألف فرنك في السنة، وأتاحت تلك العلاوة، إلى جانب المبلغ الضخم الذي خلّفه لها زوجها، العيش عيشة مترفة. وفي طريق عودتها إلى باريس، أمضت بعض الوقت للنقاهة في منزل شقيقها جوزيف، قبل أن تشتري منزلاً مجاوراً، أوتيل شاروست في ضاحية سان أونور، مقابل أربعمئة ألف فرنك. وأصبحت الآن مالكة قصر في الريف، اشتُري جزئياً بالأموال التي أقنعت زوجها الراحل بالحصول عليها عندما لاحت الفرصة في إيطاليا، ويمكن رؤيتها

بين الحين والآخر وهي تركب عربة مزخرفة من مدخل القصر مرتدية ملابس لا تقل غرابة عن حديثها غير المترابط واللطيف. وأصبحت ثانية حديث المجتمع: إصابتها بمرض زهري مزعوم، وتردّدها على «البصّارات»، والاهتمام الذي تقاسمته مع زوجة أخيها جوزفين بأوراق التارو وتفسير أنماط بياض البيض المسكوب في أكواب الماء، والملابس المكلفة التي تشتريها من الخيّاط لويس إيبوليت ليروي، وكرهها لجوزفين، التي كانت تشاهد في الماضي وهي تمدّ لسانها لها، والعلاجات غير المألوفة التي تستخدمها لشكاواها الحقيقية أو الوهمية، بما في ذلك الحقن الشرجية التي تحتوي على الأمعاء المغلية لحيوانات المزارع– كان كل ذلك من الموضوعات المفضّلة للنميمة الباريسية. وكذا كانت سمعتها السيّئة لمغامراتها الجنسية مع العديد من العشاق الذين اشتملوا، حتى قبل مغادرتها إلى سان دومينيك، على ممثّل في المسرح الكوميدي الفرنسي يدعى بيار لافون، والمركيز سيمونفيل، وهو مفوّض سابق في كورسيكا. وقد أبلغ المركيز سيمونفيل البارون مونييه، أحد أمناء سرّ نابليون: «كنت أحد عشّاقها، وأنا واحد من خمسة تقاسموا عطاياها في المنزل نفسه قبل أن تغادر إلى سان دومينيك... إنها أكثر النساء التي يمكنك تصوّرهن فجوراً، لكنها أكثرهن أغراء أيضاً». وقد اعتقد ذلك أيضاً جاك إتيان مكدونالد، وهو ضابط من أصول اسكتلندية أصبح مارشالاً ودوق تارنت: أمضى ثلاثة أيام متتالية معها في غرفة نوم منزل في سان لو. وكان هو وضابطان آخران على علاقة معها في الوقت نفسه.

12
كارولين

«كانت تبرز مخالبها الصغيرة في بعض الأحيان».

أعدت شقيقة نابليون الصغرى، كارولين، وكانت في الخامسة عشرة في سنة 1797، لتتصرّف بطريقة ودودة مع جوزفين التي تكبرها سناً بكثير وتفوقها نشاطاً وحيوية. في ذلك الوقت، كانت كارولين فتاة ذكية وجميلة نالت حظاً جيداً من التعليم في مدرسة التحقت بها أيضاً ابنة جوزفين، أورتنس، معهد سان جيرمان أون ليه الوطني الذي أنشأته مدام جان لويس هنريت كامبان، وهي سيدة فقيرة عملت في البلاط قارئة لبنات ماري أنطوانيت. كانت الطالبات اللواتي يدرسن العديد من العلوم، والمهارات، يرتدين زياً تشير ألوانه إلى الصفوف المدرسية التي التحقن بها. وكان منهجها التعليمي أكثر تنوّعاً من المعتاد في مثل هذه المؤسسات، ويشمل دروساً في موضوعات مثل الجغرافيا والنحو يدرّسها رجل دين، بالإضافة إلى الموسيقى والرقص والرسم وطريقة المشي والسلوك المهذّب الذي كان يراعى سابقاً في قصر فِرساي حيث تنحني السيدات عندما يعطس أحدهم.

قال نابليون لمدام كامبان عند إجراء الترتيبات لالتحاق كارولين بالمدرسة: «عليَّ إبلاغك أنها لا تعرف أي شيء البتة. حاولي أن تجعليها ذكية قدر ذكاء عزيزتنا أورتنس». وهو نصح لو ذكر أمام الفتاتين لما جعل العلاقة مريحة بينهما. ولم تسرّ مدام كامبان البتة عندما جاء أربعة جنود يطرقون باب المدرسة في وقت متأخّر ذات ليلة حاملين رسالة إلى الآنسة

بونابرت من أحد الجنرالات لدى أخيها. كان ذلك الجنرال يواكيم مورا، ضابط الخيالة الوسيم والأنيق الذي يبلغ من العمر اثنتين وثلاثين سنة، وهو الرجل الذي استولى على المدفع في سابلون واحضره إلى حدائق تويليري، ما مكّن نابليون من إنقاذ المؤتمر.

ولد في 25 آذار/مارس 1767 في قرية صغيرة في مقاطعة غويان، وهو أصغر أحد عشر ابناً لمالك صغير والقيّم أيضاً على نزل القرية ومحطة البريد. كان يعتزم إلحاقة بالكنيسة، وأعطي منحة للدراسة في مدرسة سان ميشال. ومن هناك انتقل إلى كلية اللاهوت العازارية في تولوز، ومن ثم حصل على تعليم أفضل مما تيسّر لإخوته. لكن لم يمضِ وقت طويل حتى قرّر أن ليس لديه ميل إلى الكهنوت، والتحق بفوج للخيالة في سنة 1787.

ارتقى في الجيش بسرعة منذ ذلك الوقت. في أيار/مايو 1793، أصبح رائداً في فوج التدخّل السريع السادس عشر، وفي سنة 1796، أصبح معاون نابليون في جيش إيطاليا حيث خدم باندفاع وشجاعة. أصيب بجرح بسيف في ذراعه في مانتوا، وأصيب لاحقاً بطلقة في فمه اخترقت خدّه، كما أبلغ والده، وخرجت من الخدّ الآخر من دون أن تجرح لسانه أو تحطّم أسنانه.

على الرغم من أن نابليون كان يحترم مورا كقائد خيالة مندفع ذي قدرة تبعث على الحسد في الحكم على قوة تشكيلات العدوّ بدقّة ملحوظة، فإنه انزعج عندما سمع أن الرجل، وهو مجرّد ابن قيّم على نزل ذي لهجة ريفية قوية، يريد الزواج من أخته كارولين، التي تصغره بخمس عشرة سنة. لقد كانت طفلة بسيطة جداً، نحيفة وباهتة اللون، لكنها أصبحت الآن شابة جذّابة. وسيأتي وقت، كما قال، قد يتنافس فيه أصحاب السلطة على طلب يدها.

اشتكى أخوها إلى مدام كامبان من «أنها فتاة صغيرة مشتّتة الذهن، لا تأخذ مركزي في الحسبان». كان مورا والحقّ يقال رجلاً شجاعاً، لكن ذلك ليس كافياً. وقد أبلغ نابليون شقيقته كارولين بذلك. اعترف أن الرجل متعلّم قليلاً، فقد رسم في النهاية كاهناً. لكنه يفتقر إلى الذكاء الحقيقي، كما يفتقر إلى التهذيب. وقد أبلغ نابليون أخته غاضباً: «ذات يوم ستعلمين ما يعنيه الذهاب إلى الفراش مع رجل لا يستطيع السيطرة على نفسه وتجدين نفسك وحيدة معه، من دون قميص والرجل عارياً». ثم أضاف: «لا يمكنني بعدما بلغت منصبي الرفيع أن أسمح لأحد أفراد عائلتي بالزواج من شخص مثله».

لكن شقيقها الأكبر، جوزيف، رأس العائلة، وافق على الزواج. وصيغ عقد الزواج نتيجة لذلك وأقنع نابليون بالتوقيع عليه. لكنه رفض حضور الزواج الذي تمّ في 20 كانون الثاني/يناير 1800 في عزبة جوزيف في مورتفونتان.

بعدما سوّيت المسألة، قرّر نابليون أن يكون لطيفاً. فاصطحب معه زميليه القنصلين إيمانويل جوزيف سياس، رجل الكنسية الذي صاغ الدستور الجديد، وبيار روجيه دوكوس، وهو ربيب لبارا، وحضر حفلة أقامها وزير الداخلية، لوسيان بونابرت، في الوزارة على شرف كارولين ويواكيم مورا. قدم نابليون للعريس والعروس شقة جميلة في أوتيل بريون بقصر تويليري، كما حصلا على عقار في الريف في ڤيلييه، يشرف على السين مقابل جزيرة لا غراند جات، وآخر في دو سيفر دفعا مقابله ما يقرب من نصف مليون فرنك (وهو مبلغ استطاعا تدبّره حيث منحت كارولين مهراً كبيراً وحصل مورا على ثروة من أنشطة مريبة في إيطاليا).

بدت عليهما أمارات السعادة واضحة جداً. وكتبت الكونتيسة

دي شاستني عن مظهر مورا الممتع «بوجهه الذي لوّحته الشمس وشعره الأسود... وهو يحمل قفّازي ومروحة الكائنة البيضاء الضئيلة والنحيلة»، أي زوجته. ووصف مورا نفسه كارولين بأنها «أروع امرأة ضئيلة»؛ مع ذلك، على الرغم من صباها فإنها تتمتّع بإرادة قوية. وكتبت مراقبة أخرى، مدام لِنورمان، عن «التناقض بين حسن وجهها الطفولي وشخصيتها الحازمة».

مع أنهما كانا مغرمين في سنوات زواجهما الأولى، فإن مورا لم يكن مخلصاً لكارولين، ولا هي مخلصة له. لقد حملت أطفاله، لكن لم يمض وقت طويل حتى شرعت في سلسلة من العلاقات الغرامية منها، كما قالت أورتنس دي بوهارنيه، واحدة مع معاون زوجها، الكونت دي فلاهو. وأقامت علاقة عاطفية أشدّ مع مترنيخ ومع زوج لور بيرمون، أنوش جونو، الذي كاد يقتل زوجته عندما اكتشف أنها على علاقة مع مترنيخ.

كانت لأورتنس مشاعر متناقضة تجاه كارولين. فهي، كما تقول أورتنس، معلّمة في «فن الاجتذاب والفتنة... لكنها كانت تبرز مخالبها الصغيرة في بعض الأحيان... كانت شجاعة وحازمة وعاطفية، ومحبة للسيطرة، ولا يُخفي السحر الذي يجعل المرء يتوق إلى خدمتها... ولا تستطيع أن تخفي حسدها لكل من ينجح سواها».

ووفقاً لتاليران، فإنها تمتلك «عقل كرومويل في جسد امرأة جميلة. لديها شخصية قوية بالفطرة، وهي لطيفة بقدر ما هي فاتنة وجذّابة. لكنها لا تستطيع إخفاء شغفها بالسلطة».

أدرك شقيقها نابليون هذا الشغف بالإضافة إلى شخصيتها الآمرة. وعندما عيّن مورا في سن التاسعة والثلاثين ملكاً على نابولي، أبلغه نابليون: «بمثل الزوجة التي لديك، يمكنك دائماً أن تغادر إذا ما حملتني

حرب على استدعائك لتكون إلى جانبي. فكارولين قادرة تماماً على أن تكون نائبة الملك».

تزوّجت بولين شقيقة كارولين من الجنرال لوكليرك في مومبلو في اليوم نفسه التي تزوّجت فيه شقيقتها الكبرى، إليزا، من ضابط كورسيكي في الخامسة والثلاثين، الكابتن فِليتشي باكيوشي. وهو رجل يفتقر إلى الشخصية المميّزة أو الموهبة، واعتُبر أنه أفضل كفء تستطيع أن تأمل به إليزا البسيطة والمتأمّرة، وسرعان ما نُقل إلى وظيفة غير متطلّبة كثيراً في مسقط رأسه.

في حين منح نابليون إليزا مهراً مماثلاً لما منحه لبولين، أربعين ألف فرنك، فإنه كان شاكراً لتمكّنه من التخلّص من صهر بليد وتافه، لأن مقرّه في مومبلو أخذ يكتسب السمة الرسمية والكرامة التي يتمتع بهما قصر ملكي.

أصبح على الضبّاط في أركان نابليون الآن الانحناء عند مقابلة أمه أو زوجته أو أي من شقيقاته. ولم يكن هؤلاء الضبّاط يتناولون العشاء إلى مائدة الجنرال الذي تقدّم وجباته على مائدة منفصلة فيما ترقبه عيون الزوّار الذين يسمح لهم بمشاهدته وهو يتناول الطعام على طريقة السماح بمشاهدة الملك لويس السادس عشر إلى مائدته في قصر فرساي.

عندما زار الدبلوماسي الكونت أندريه ميو دي مِليتو مومبِلو في حزيران/يونيو 1797، توقّع أن يجد مقرّ قيادة عسكري لكنه وجد «قصراً رائعاً» بدلاً من ذلك:

> ساد حوله نظام صارم لآداب السلوك [كتب ميو دو مِليتو]...
> وكانت الدعوة شرفاً يُسعى إليه بلهفة، ولا يمكن نيله إلا بمشقّة

كبيرة. لم يكن بونابرت يشعر بأقل قدر من الإحراج من التشريف المفرط التي يحظى به، لكنه كان يتقبّله كما لو أنه اعتاد عليه طوال حياته. كانت قاعات الاستقبال وسرادق كبير أقيم أمام القصر تعجّ دائماً بحشد من الحرس والإداريين ونبلاء إيطاليا المرموقين الذين جاؤوا توسّلاً لنظرة رضا أو مقابلة وجيزة جداً. باختصار، كان الجميع ينحني أمام مجد انتصاراته وغطرسة سلوكه.

ابتعد سلوك نابليون بأكمله الآن عن سلوك الشاب غير المرتّب والسمج الذي عرّفه بارا إلى المجتمع الباريسي. واكتملت ثقته بنفسه واعتقاده بمستقبله الذي يرشده «نجمه». وقد وصف ميو دي مِليتو أحد لقاءاته معه في مومبّلو حيث تحدّث دون انقطاع لمدة ساعتين خلال نزهة في الحديقة. وقال عنه دي مِليتو إنه «رجل مربوع القامة، ذو شعر مربّع القصّة مذرّر بمسحوق يتدلّى بطريقة غير مالوفة تحت أذنيه. كان معطفه مزرّراً حتى ذقنه... وتكشف إيماءاته الحيوية والمتعجرفة عن مشاعر حادّة وفكر عميق. وكان كلامه مقتضباً، وكثير الأخطاء في تلك الأيام».

بل إن رجلاً حازماً جداً مثل الجنرال بيار أوغيرو، وهو ابن خادم باريسي فقير وُصف سلوكه الجلف بأنه «صاخب وسوقي»، وجده مرعباً. وقد سُمع ذات مرة يتمتم وهو خارج من غرفة يستعملها نابليون كمكتب في مومبِلو: «هذا المزعج الضئيل يخيفني ولا أدري لماذا». وكان نابليون يخيف أيضاً الجنرال فاندام الذي أظهر شجاعة ملحوظة في حملة سنة 1793. فقد أعلن فاندام ذات مرة: «أنا الذي لا يخشى الله أو الشيطان، أرتعد مثل طفل عندما أقترب منه».

لكن نابليون لم يكن يعطي هذا الانطباع المرعب بحضور جوزفين. بل إنه يبدو بصحبة زوجته شديد اللباقة والتهذيب واللطف، واثقاً من نفسه وساحراً، وكان قادراً عندما يريد تصنّع الجاذبية.

13
السلام على طريقة بونابرت

«ربما يزعق الإيطاليون قليلاً، لكن لن يكون لذلك أي نتيجة تذكر».

عندما فتح أحد المدافع النار في باريس في الساعة الثالثة من صباح 4 أيلول/سبتمبر 1797، قاد الجنرال أوغيرو، الذي أرسله نابليون قوة قوامها ألفا رجل إلى تويليري واعتقل النواب الذين فازوا بمقاعدهم في انتخابات أجريت مؤخّراً ودعوا إلى جلسة طارئة. ثم زحف أوغيرو إلى لُكسمبورغ، القصر الذي بُني لماري دي مِدِتشي، لاحتجاز عضوين في حكومة الإدارة مختلفين مع زملائهما الراديكاليين– لازار كارنو، المهندس العسكري والمحرّك السابق للجنة الدفاع العام، وفرانسوا مركيز بارِثلمي، وهو وزير مفوّض سابق مطلق الصلاحية في سويسرا انتُخب لحكومة الإدارة قبل ثلاثة أشهر. أُخذ بارِثلمي على حين غرّة في فراشه، وتمكّن كارنو من الهرب بلباس النوم. واعتُقل أيضاً ما لا يقل عن ثلاثة وستين مواطناً ونُقلوا في أقفاص حديدية إلى مستعمرة غويانا، حيث مات العديد منهم من الحمّى. أغلقت العديد من الجرائد، وأصدرت قوانين تحكم بالموت على المهاجرين الملكيين العائدين إلى فرنسا من دون إذن وعلى كل من يتآمر لإعادة الملكية، في حين ألغيت الانتخابات الأخيرة التي أظهرت نتائجها فوزاً حاسماً للمعارضين لليعاقبة.

أقنعت هذه النتائج التي تعكس المزاج الرجعي للبلد المديرين الثلاثة في حكومة الإدارة – بول بارا، وجان فرانسوا روبل، والمحامي لويس ماري دي لا رِفلييه ليبو، حليف روبل وزميله، والمؤيّد لمذهب تأليه الطبيعة

المناهض للمسيحية– بتنظيم انقلاب نفّذه الجنرال أوغيرو بكفاءة وقسوة شديدتين. وعندما أنجز أوغيرو مهمته، شرع هؤلاء المديرون الثلاثة، بالتعاون مع تاليران وصديقته، جيرمين دي ستال، بالتخطيط للمرحلة التالية من الانقلاب.

كان ذلك يحتاج أساساً إلى جنرال يحظى باحترام أعداد كبيرة من القوات الموالية للجمهورية، ويوالي الثورة في الوقت نفسه. وأبرز المرشّحين لذلك الجنرال هوش والجنرال بونابرت.

لكن الجنرال هوش توفّي في التاسعة والعشرين من العمر من ذات الرئة على يدو. لذا فإن الجنرال بونابرت، الذي طمأن المديرين الراديكاليين بالفعل بأنه مستعد لدعمهم بإرسال الجنرال أوغيرو إلى باريس، ظل الرجل الذي من المرجّح أن يقدّم للمديرين الراديكاليين وحلفائهم الدعم الذي يحتاجون إليه. في اليوم التالي للانقلاب، تلقّى رسالة من تاليران، وزير الشؤون الخارجية المعيّن مؤخّراً: «باريس هادئة، لقد كان سلوك أوغيرو مثالياً. من الواضح أنه تعلّم في المدرسة الصحيحة».

أجبر نابليون في ذلك الوقت على البقاء في إيطاليا في باسريانو، مقرّ الدوج الصيفي خارج البندقية، وهو يحاول بتململ إبرام معاهدة سلام مع النمسا، ويقضم أظافره، ويفرط في الشراب على غير عادته، ويستشيط غضباً في بعض الأحيان أو يحاكي الغضب المستعر على المفاوض النمساوي، غراف لودڤيغ ڤون كوبنزل، ويهدّد بتسليمه إلى الجنود الفرنسيين، ويحطّم طقم شاي ثميناً على الأرض، ويصرخ بأن ذلك ما ينتظر الإمبراطورية النمساوية، ويعلن أنها تشبه «امرأة خادم شمطاء يغتصبها جميع من في المنزل»، ويغادر الغرفة مسرعاً، ويتصرّف على العموم مثل رجل فقد عقله، كما أفاد كوبنزل.

في أحيان أخرى، كان يجرّب المداهنة بدلاً من التهديد، ويستعين لهذه الغاية بمواهب زوجته المتملّقة التي وصلت إلى باسريانو، بعد أن أمضت بعض الوقت بمفردها مع الكابتن شارل قبل مغادرته إلى ميلانو في إجازة. كانت مدام بونابرت «مثالاً للطف». فأخذت تدعو أعضاء الوفد النمساوي إلى حفلات العشاء، وتعدّ الغداء على العشب في الريف المحيط. وأبدت اهتماماً خاصاً بكوبنزل، الذي كوّن انطباعاً بأن زوجها- الذي يبالغ في نبل محتده الكورسيكي وصلاتها الأرستقراطية- ينظر إليها بشيء من الرهبة. وكأن نابليون رغب في أن يظهر أن الحال ليس كذلك، فبدأ ذات ليلة على العشاء، بحضور المندوبين الفرنسيين والنمساويين، برمي كرات الخبز على جوزفين. لكن سرعان ما وضعت نظرتها التي أظهرت انزعاجها حداً لهذا القصف المحرج. ولوحظ أن نابليون «طأطأ رأسه وتوقّف».

لم تكن جوزفين سعيدة في باسريانو، رغم سلوكها اللطيف في حفلات التسلية التي أقامتها للوفدين خلال الستة أسابيع التي قضتها هناك في ذلك الصيف. فقد تناهى إلى مسامعها أن عشيقها، الكابتن شارل، يقيم علاقة غرامية مع سيدة إيطالية. واغتمّت أيضاً عندما علمت بوفاة لازار هوش، وخشيت من احتمال وقوع الرسائل التي كتبتها له بأيدي من لا تقصد(*). كما أنها اشتاقت كثيراً إلى باريس وبول بارا. فكتبت له: «أتلهّف لإبلاغك

(*) طالما طلب هوش إعادة رسائل الغرام التي كتبتها له قبل زواجها من نابليون. وسعت اليوم إلى الحصول على تلك الرسائل. ولتلك الغاية لجأت إلى صديق لهوش نجح في الحصول عليها من روسلان دي سان ألبان، الوصي على أرملة هوش التي تزوّجت في سنّ السادسة عشرة ولا تزال قاصراً. وبعد إقدام نابليون على تطليق جوزفين، كتب إليه دي ألبان يبلغه أنه أدى خدمة جليلة لها في الماضي ولم يكافأ عليها قط. فأبعد سان ألبان على الفور إلى موقع بعيد عن باريس. وقد أخذ بثأره بتشويه سمعة جوزفين في الحواشي الملحقة «بمذكرات» بارا التي حرّرها.

عن حبّي لك. اكتب إلى بونابرت تحثّه على توقيع المعاهدة، وعندئذٍ سأعود إلى أصدقائي ثانية على جناح السرعة... إلى اللقاء... أحبّك من كل قلبي... بونابرت يرسل إليك أحرّ التحيّات. وهو لا يزال متيّماً بي».

أخيراً، في أواسط تشرين الأول/أكتوبر 1797، صدّقت أحكام المعاهدة مع النمسا ووُقّع على السلام في كامبو فورميو، وهي قرية قرب أودين. حافظت المعاهدة على معظم الفتوحات الفرنسية في إيطاليا وثبّتت ملكية فرنسا للمقاطعات النمساوية في بلجيكا. واتُّفق أيضاً على أن تضمّ فرنسا الأراضي التي احتلتها في الضفة اليسرى لنهر الراين من بازل إلى أندرناخ. غير أن النمسا منحت أرض البندقية شرق نهر أديج، بما في ذلك إستريا ودلماشيا ومدينة البندقية.

أثار التخلّي عن البندقية، وهي دولة مستقلّة منذ أكثر من ألف سنة، انتقاداً واسعاً، واعتقد كثيرون أن ما يُدعى سلام كامبو فورميو هدنة وليس نهاية للحرب. لكنه لقي ترحيباً حارّاً في باريس حيث ارتفع مقام نابليون وبلغ ذرى جديدة. رأى تاليران أنه يجدر به أيضاً أن يكتب إلى الجنرال رسالة مفرطة في المديح: «لقد حلّ السلام الآن، السلام على طريقة بونابرت. فسرّت حكومة الإدارة وفرح الشعب كثيراً. ربما يزعق الإيطاليون قليلاً، لكن لن يكون لذلك أي نتيجة تذكر. وداعاً أيها الجنرال وصانع السلام! تحياتي لك وإعجابي واحترامي وشكري- الكلمات تخونني، والقائمة يمكن أن تطول إلى ما لا نهاية».

لم يعد وجود جوزفين مطلوباً في إيطاليا، وأصبح بإمكانها الآن التوجّه إلى فرنسا، وهو ما أقدم عليه نابليون في 16 تشرين الثاني/نوفمبر. لكنها قرّرت أولاً زيارة البندقية التي لم تعمّم أنباء مصيرها على نطاق واسع بعد.

تجمّع أهل البندقية، على أمل إرضاء زوجها ولهفة لرؤية زوجة الجنرال الشهيرة، عند النوافذ المشرفة على القناة الكبرى وملأوا قوارب الجندول المتأرجحة لمشاهدتها عند دخولها المدينة، وهتفوا لها عالياً عند مرورها بجانبهم. احتفلت المدينة طيلة أربعة أيام: قدّم لها عرض خاص في الأوبرا، وحفل في قصر الدوج، ودوّت الألعاب النارية في المساء والتمعت في السماء. كان الكولونيل أوغست مارمون، أحد مساعدي نابليون، برفقتها، وكذلك الكابتن شارل على ما يبدو، لكنه اضطر إلى المغادرة إلى باريس على الفور بناء على أوامر نابليون.

من الواضح أن شارل رافقها في قسم من الطريق على الأقل عندما عادت إلى باريس. وبما أنها لم تكن مستعجلة جداً على بلوغ نهاية رحلتها، فقد مرّت عبر بلدان ازدانت وأضيئت تكريماً لها، وتحت أقواس النصر، وألقيت كلمات الترحيب بها، ودوّت المدافع ووصلت إلى مسامعها هتافات الحرس الوطني. وردّت على التهاني التي قدّمت لها: «لقد حقّق زوجي نجاحاً كبيراً لأنه محظوظ بقيادة جيش جميع جنوده أبطال».

كتب ضابط في سلاح الفرسان التقى بها في ذلك الوقت: «مدام بونابرت ليست شابة ولا جميلة. لكنها لطيفة وذات سلوك مميّز... إنها تبكي على نحو متكرّر، عدة مرات في اليوم، ولأتفه الأسباب».

لم تحمل جوزفين معها إلى الوطن تمنيّات الشعب وتهانيه فحسب، وإنما أيضاً صناديق مليئة بالهدايا من الإيطاليين الذين يريدون تملّق الجنرال الفرنسي العظيم، والكنوز التي اشترتها بنفسها لمنزلها في باريس الذي تُعاد الآن زخرفته بسخاء وتكلفة كبيرة– صور وتماثيل وزجاج من البندقية وحرائر وبرونزيات وتحف قديمة. وكان يوجد إلى جوارها في العربة صندوق مليء بالمجوهرات.

14

الحياة في شارع النصر

«أخشى أن نضطر ذات يوم إلى التوسّل إليه للابتعاد عن عزلته المتعمّدة».

عندما عاد نابليون إلى بيته في شارع شانترين، الذي سرعان ما سمّي شارع النصر، صُدم عندما عرف حجم المبلغ الذي أنفق في غيابه بناء على أوامر زوجته. كانت الفواتير التي تنتظرهما هائلة: فقد استخدمت النجّارين الماهرين، الإخوة جاكوب، أبناء النجّار جورج جاكوب، وأرسلت إليهم مئة وعشرين ألف فرنك على الحساب مع تعليمات بجعل المكان «فائق الأناقة». واستمرّت قطع الأثاث في الوصول يومياً تقريباً.

مع أن نابليون دُهش مما أنفق من أموال، فإنه لم يكن لديه ما يقلقه. فقد قدّر أنه ابتزّ خمسين مليون فرنك من إيطاليا، ولم يرسل إلى حكومة الإدارة أكثر من عشرة ملايين فرنك. ومع أن المبالغ التي أنفقها على المنزل في شارع شانترين مفرطة، فإنه سيمتلك ذات يوم أربعة وأربعين قصراً، يكلّف أثاث غرفة واحدة في أحدها أكثر من المئة وعشرين ألف فرنك التي أرسلت إلى الإخوة جاكوب مقابل القطع التي يسلّمونها الآن.

كان أول زوّار نابليون في البيت بول بارا الذي بقي معه إلى ما بعد منتصف الليل. ومع ذلك نهض نابليون باكراً في الصباح التالي وأرسل خطاباً إلى تاليران يبلغه فيه أنه سيأتي لمقابلته في الساعة الحادية عشرة. وقد سرّ عند وصوله لوجود الأميرال بوغنفيل، الملاح الشهير الذي طالما

أعجب به. وكان حاضراً هناك أيضاً جرمين دي ستال، التي لم يكن معجباً بها ورفض التحدّث إليها بتعالٍ. غير أن محادثاته مع تاليران في اجتماعهما الأول كانت مرضية للجانبين. وبعد بضعة أيام، قدّم تاليران الجنرال بونابرت أمام المديرين الذين يرتدون العباءات والأعيان الآخرين في قصر لُكسمبورغ بأنه «ابن الثورة وبطلها».

لم يظهر صورة بطولية مميّزة لمن يرونه لأول مرة هنا. فهو قصير وباهت اللون، يرتدي معطفاً رمادياً مدنياً مزرّراً تحت ذقنه، وبدا مفتقداً للخيلاء المتوقّعة من قائد حقّق انتصارات رائعة. وقد بذل جهداً كبيراً لإبراز مؤهّلاته غير السياسية، وحرص على عدم تقديم نفسه على صورة إسكندر متأخّر. وصل إلى القصر سالكاً طرقاً خلفية في عربة بسيطة لتجنّب الحشود الغفيرة التي تجمّعت في الطرقات الرئيسية لتحيّته. ولعل تاليران حثّه على إبراز سلوكه المتواضع وغير المبالي بالمظاهر الوطنية، إذ إنه أنهى كلمته بالإشارة إلى أن نابليون «يزدري الفخامة والرفاهية والاستعراض». وتابع تاليران: «بدلاً من الخشية من طموحه، أخشى أن نضطر ذات يوم إلى التوسّل إليه للابتعاد عن عزلته المتعمّدة».

ألمح بول بارا، رئيس حكومة الإدارة في تلك السنة، إلى أمر مختلف. فقد أشار إلى القوّات المحتشدة على الشاطئ لغزو إنجلترا، وحثّ الجنرال بونابرت على الزحف إلى ضفاف نهر التيمس «لتطهير العالم من الوحوش» التي تضطهده وتجلب إليه العار: «فليتهدّم قصر سان جيمس ويتحوّل إلى تراب. إن بلدك يرجو ذلك، والإنسانية تتطلّبه، والعالم يطالب به».

هذه هي اللغة التي تستهوي نابليون والتي استخدمها في مخاطبة جيش إيطاليا. وفي حرصه على إبداء التواضع منذ عودته إلى فرنسا، أظهر قدرة عظيمة على التمثيل، وعلى غرار الممثّلين، استاء كثيراً ممن سعوا إلى سرقة

بريقه. ففي هذه المناسبة، عندما اقترب من ختام كلمته لشكر الكلمات التي كالت له المديح، وقفت مدام ريكامييه بثوبها الأبيض لتتمكّن من مشاهدته على نحو أفضل. فتعالت «تمتمات الإعجاب الطويلة» عند ظهورها. التفت نابليون لمعرفة ما الذي سبّب ذلك، وحثّتها نظراته على الجلوس ثانية.

كان ذلك في 10 كانون الأول/ديسمبر 1797، بعد مرور خمسة أيام على عودته إلى باريس. لم تكن جوزفين قد وصلت بعد، ولا بعد أسبوعين عندما دعي خمسمئة ضيف لحضور استقبال وحفل راقص سيعقد في أوتيل غاليفيه على شرفها. لذلك أرجئ الحفل، ما انطوى على «تكلفة إضافية كبيرة»، كما قال فرانسوا جوزيف بيلانجير، المعماري الذي استُخدم للإشراف على تزيين الفندق، وشمل ذلك تكلفة استئجار بنود لا بد من استبدالها، «مثل 930 شجرة». لكنها لم تصل في 28 كانون الأول/ديسمبر، ولم تعد إلى البيت إلا في 3 كانون الثاني/يناير 1798. فأقيم الحفل في الليلة التالية.

كانت مناسبة متلألئة. فانقاد الجميع لضيفي الشرف كما لو أنهما بالفعل الإمبراطور والإمبراطورة كما أصبحا لاحقاً، لكن لم يبدُ الارتياح التام على كل منهما. ومرة ثانية، تقدّمت جِرمين دي ستال إلى الأمام– ما أزعج تاليران كثيراً– لتطرح على نابليون سلسلة من الأسئلة المزعجة، كان آخرها: «من هي أحبّ النساء إليك يا جنرال»؟

أجاب: «زوجتي».

«بالطبع، لكن من هي المرأة، الحيّة أو الميتة، التي تكنّ لها أعظم الإعجاب»؟

«من تلد أطفالاً أكثر».

بعد ذلك تجاوزها وتوجّه إلى قاعة الطعام حيث جلست السيدات إلى المائدة ووقف الرجال خلف كراسيهن. واهتمّ تاليران بنفسه بمدام بونابرت التي كانت أقل لطافة من المعتاد. فقد كانت أفكارها، كما اعتقد بعض المراقبين، مشتّتة على غير العادة.

عاش نابليون وزوجته الآن حياة منعزلة إلى حدٍّ ما في منزلهما في شارع النصر، بناء على رغبته، في تناقض صارخ مع الحياة في قصر سربلوني في ميلانو، حيث قارن الشاعر أنطوان أرنو قاعة استقبال بونابرت ببهو دار الأوبرا في باريس. وقال: «ما من مقرّ قيادة عسكري قط بدا أكثر شبهاً ببلاط ملكي. لقد كان ذلك إرهاصاً لما آل إليه قصر تويليري». كانت تقام حفلات عشاء في شارع النصر، لكن نادراً ما دعي إليها شخصيات سياسية أو عسكرية باستثناء بارا وتاليران. وكان الضيوف على الأرجح أعضاء في أكاديمية العلوم الفرنسية التي دُعي الجنرال بونابرت إلى الانضمام إليها، والكيميائي كلود لويس برتوليه، والممثّل فرانسوا جوزيف تالما، والرسام جاك لويس دافيد. ولم يكن حضور النساء قوياً، مع أن مدام دي ستال كانت تشاهد هناك بين الحين والآخر، فتزعج نابليون بكلامها المسترسل.

في أكثر من مناسبة واحدة، كانت جوزفين تربّت برفق على كتف زوجها عندما يحين الوقت لينهض الضيوف عن المائدة من أجل تناول القهوة، وربما الاستماع إلى أنطوان أرنو وهو يلقي إحدى قصائده الجديدة، أو إلى الموسيقي إتيان ميهول وهو يعزف إحدى مقطوعاته الجديدة. فيطلب نابليون من ضيوفه، في إحدى محاولاته النادرة لإضفاء جوّ من المرح، التنبّه إلى أن زوجته معتادة على ضربه، ما يثير ضحكاً زائفاً.

كان نابليون يأكل بسرعة في حفلات العشاء، كما لو أنه تأخّر على موعد ما. ونادراً ما يعلّق على الطعام، وغالباً ما يبدو أنه لا يلاحظ ما يوجد في طبقه ما لم يتفق أنه لوبيا، وعندئذ يتفحّصه بعناية إذ اشمأزّ ذات مرّة من خيط في أحد قرونها لافتراضه أنه شعرة.

كان يفضّل الطعام البسيط على الأطباق الغنية والمعقّدة ويحبّ على وجه الخصوص طبقاً ابتكره طبّاخه، دونان، في إيطاليا، في أعقاب معركة مارنغو. فقد جاع نابليون، الذي لا يأكل البتة إلى أن ينتهي القتال، وكان بعيداً جداً عن عربات التموين. فأرسل فريقاً بحثاً عن الطعام وعاد بثلاث بيضات، وأربع حبّات طماطم، وست سرطانات نهرية، ودجاجة صغيرة، وبعض الزيت، وبضعة فصوص من الثوم ومقلاة. فابتكر دونان ما أصبح معروفاً باسم مارنغو الدجاج، فاستمتع به نابليون وقال له: «عليك أن تطعمني مثل هذا بعد كل معركة».

كان يتغدّى بمفرده عادة في تويليري، لكن جوزفين تنضم إليه على العشاء في السابعة والنصف. وكان الطعام في كلا الوجبتين بسيطاً، فيما يخفّف الخمر، شامبرتان عادة، بالماء في كأس نابليون. وعلى الرغم من دعوة الضيوف لتناول العشاء مع نابليون وزوجته، فإن الوجبة نادراً ما تستغرق أطول مما يستغرقه الغداء، حيث يُفرغ من الطعام في غضون عشرين دقيقة عادة. ولم يكن يوجين دي بوهارنيه الضيف الوحيد الذي يتحسّب لذلك بتناول وجبة ملائمة قبل أن يجبر على تناول الطعام إلى مائدة زوج أمه.

في الحادية عشرة أو نحو ذلك يقول المضيف: «لنذهب إلى الفراش»، ويصعد إلى غرفة النوم التي يتشاركها مع جوزفين، وفي الشتاء يركل موقد النار بضع ركلات، وهي عادة تؤدي بطبيعة الحال إلى تضرّر أحذيته.

وكان يخلع ثيابه بسرعة، ويرتدي قميص النوم ويضع منديلاً معقوداً على رأسه، ويحرص على إطفاء جميع الشموع في الغرفة بحيث تغرق في الظلام عندما يحين وقت رفع وعاء تدفئة الفراش.

كان الخادم الخاص، لويس كونستان، يوقظه بين السادسة والسابعة، إذا لم يكن مستيقظاً بالفعل. وبعد شرب الشاي أو ماء زهر البرتقال، يتفحّص رسائله قبل أن يأخذ حمّاماً ساخناً جداً، فيما يقرأ له كونستان مستخلصات من الجرائد، ويتوقّف بين الحين والآخر ليفتح الباب ويغلقه من أجل إخراج البخار الذي يتكثّف كثيراً بحيث تتعذّر الرؤية. وبعد ساعة أو نحو ذلك، يحلق نابليون لحيته بعناية بموسى إنجليزية، ويفرك أسنانه بعناية مماثلة، ساعياً من دون نجاح إلى تبييضها بعد تغيّر لونها بسبب ولعه بالعرق سوس. ثم ينظّف لسانه بمقشطة كما كان معهوداً في فرنسا إن لم يكن أمكنة أخرى من أوروبا. وبعد ذلك يرشّ الخادم ماء الكولونيا على ظهره بينما يفرك الكولونيا بنفسه على صدره وبطنه قبل أن يضعها على ثيابه التحتية التي يغيّرها كل يوم. كما يرشّ ماء الكولونيا على منديل يوضع في جيبه اليمنى، فيما توضع علبة النشوق في جيبه اليسرى.

بعد ذلك يتوجّه إلى مكتبه للعمل، فيلقي الأوراق التي لم يعد بحاجة إليها على الأرض من حوله، أو يلقي في الموقد «الأوراق التي لم تثّر اهتمامه أو أزعجته، ويضع واحدة أو اثنتين– ونادراً ثلاثة– جانباً ليقرأها باهتمام كبير».

سرعان ما أدرك كونستان وخدم نابليون الآخرون أن عليهم الاعتياد على طقوس وسلوكيات غريبة لا تتغيّر، فضلاً عن ولع سيّدهم المزعج بالمقالب أو المزاح العملي: إصراره على إشعال النيران في الصيف والشتاء؛ وترتيب الشخصيات الخزفية بعناية على مكتبه ثم التقاطها والعبث بها،

وكسر ذراع أو ساق أحدها بين الحين والآخر؛ وانتفاضاته العضلية غير الإرادية عند التركيز على مشكلة ما، و«هزّ كتفه مصحوباً بتحريك فمه من جهة إلى أخرى» كما وصفه أحد موظفيه؛ وانزعاجه إذا تركت الأبواب مواربة وإذا دخل الخدم الغرفة من دون أن يفتحوها بالقدر الذي يتيح لهم الدخول فحسب؛ وعادته طوال حياته تقريباً قرص الخدين والأذنين والأنف، وأحياناً بشدّة بحيث تبقى الرضوض التي تحدثها على البشرة أسابيع قبل أن تختفي.

15
العاهرة

«أفضل الموت على أن أعيش حياة لا أستطيع تكريسها لك».

كان بارا ضيفاً دائماً على حفلات العشاء التي يقيمها آل بونابرت، وأصبح أشدّ قرباً من نابليون من أي وقت مضى، وأكثر قرباً إليه من أي من المديرين الآخرين (جميعهم يخشونه بدرجات متفاوتة). كما كان بارا على علاقة حميمة بجوزفين دأبه دائماً: ذات ليلة بعد أن كانت تعتزم تناول العشاء في منزله، عاد زوجها باكراً على غير المتوقّع من زيارة إلى موانئ القناة، فكتبت إلى سكرتير بارا: «عاد بونابرت باكراً الليلة الماضية. أرجوك يا عزيزي بوتو أن تبلغ بارا عن أسفي الشديد لعدم تمكّني من تناول العشاء معه الليلة. أبلغه ألا ينساني! ربما تدرك يا عزيزي بوتو موقفي الدقيق أكثر من أي شخص آخر».

كتبت جوزفين أيضاً بعبارات أكثر حميمية إلى إيبوليت شارل(*):

تحادث جوزيف [شقيق زوجها] بالأمس مطوّلاً مع بونابرت وفي أعقاب ذلك سألني إذا كنت أعرف المواطن بودان وإذا كنت قد تدبّرت له عقد تعهّد تموين جيش إيطاليا وإذا كان صحيحاً أن شارل يعيش في منزل المواطن بودان في 100 ضاحية

(*) لم تحرق هذه الرسائل مع بقية رسائل جوزفين إلى شارل، حيث حفظت منفصلة مع أوراقه المالية، ربما كما اقترحت إفانجلين بروس، لأنها تحتوي على إشارات إلى صلة شارل– بعد أن تخلّى عن رتبته في الجيش– بشركة بودان التي سعت جوزفين جاهدة كي تحصل على عقود لتموين جيش إيطاليا. وقد اكتشف لويس هاستيبيه، مؤلّف كتاب «حب جوزفين الكبير» Le grand amour de Josephine (Paris. n.d).. الرسائل في خمسينيات القرن العشرين.

شارع سان أونوريه وإذا كنت أذهب إلى هناك كل يوم. أجبت بأنني لا أعرف شيئاً على الإطلاق عما يتحدّث عنه وأنه إذا كان يريد الطلاق، فما عليه إلا أن يطلب مني ذلك... أجل يا إيبوليت، إنني أكرههم جميعاً [عائلة بونابرت]. إن حبي لك وحدك... يجب أن يروا يأسي من عدم تمكّني من رؤيتك قدر ما أريد. سأقتل نفسي يا إيبوليت. أفضل الموت على أن أعيش حياة لا أستطيع تكريسها لك. ماذا تراني فعلت لهؤلاء الوحوش؟... يجب أن يدركوا كم أشمئزّ منهم... أكرههم جميعاً... لكن مهما أفرطوا في تعذيبي، فإنهم لن يفرّقوا البتة بيني وبين حبيبي إيبوليت... إن حبي لك وحدك... أرجو أن تبلغ بودان أن يقول إنه لا يعرفنني وإنه لم يحصل على عقد الجيش عن طريقي...

سأبذل قصارى جهدي لأراك في النهار. سأرسل بلوندان [خادم تثق به] لإبلاغك عن الوقت الذي أستطيع فيه الهرب لرؤيتك في حديقة مونسو. إلى اللقاء يا إيبوليت، ألف قبلة حارّة لك ومُحبة كقلبي... حياتي عذاب دائم. أنت وحدك من يستطيع إعادة السعادة إليَّ. أبلغني أنك تحبّني، وأنك لا تحبّ سواي. أرسل لي 50,000 ليرة من الأموال الفائضة مع بلوندان. كولو [جان بيار كولو، مصرفي فاسد] يطالبني بالمال. وإلى حين لقائنا أرسل لك ألف قبلة حارّة. إنني لك، بكل كياني.

لم يكن جوزيف، شقيق نابليون، العضو الوحيد في عائلته الذي يأتي إلى باريس. فقد جاءت زوجته معه من روما، حيث عمل سفيراً بعض

الوقت، وكذا شقيقة جولي، ديزيريه كلاري. وحمل معه صناديق مليئة بالكنوز والأموال التي مكّنته من شراء عزبة جميلة في الريف، قصر مورتفونتين، بالإضافة إلى منزل رائع في باريس من تصميم جاك – أنيو غابرييل، مهندس بيتي تريانو في فرساي.

تمكّن شقيق جوزيف، لوسيان، وهو رجل متفاخر لا يقل عنه عداء لجوزفين، من شراء عقار واسع في الريف كتب منه رسائل طويلة إلى نابليون يفصّل له فيها أعمال جوزفين الطائشة الحقيقية والمفترضة. وكانت شقيقاتهما الثلاث على عداوة معها وبقين كذلك. عبّرت إليزا وكارولين تكراراً عن كرههما لها ونمّتا عليها، وأظهرت بولين عداوة مماثلة بين زياراتها لخياطي جوزفين وجواهريها، واستمتاعها بعشّاق «المرأة العجوز» السابقين بين الحين والآخر.

كانت والدة نابليون أيضاً تقيم بارتياح الآن في فرنسا، بعد أن هجرت منزل العائلة في كورسيكا، الذي أعادت بناءه، بعد عودتها إلى الجزيرة مدة من الزمن، وأعادت زخرفته وتأثيثه بالأموال التي أرسلها ابنها. لم تكن تجاهر بمعارضتها لها كما فعلت بناتها. ويفترض أنها كتبت لها، نزولاً عند طلب ابنها أو أمره: «أبلغني ابني عن سعادته، وذلك يكفي لتأمين موافقتي». غير أنها كانت تشير إلى جوزفين «بالعاهرة» في المجالس الخاصة.

لم يكن آل بونابرت وحيدين في السعي إلى إحداث مشاكل بين نابليون وجوزفين. ذات يوم جاءت لويز كومبوان، خادمة جوزفين التي رافقتها في رحلة العودة من إيطاليا، لرؤية الجنرال. وأبلغته أنها فقدت عملها لأن

مدام بونابرت اعترضت على أن تشترك في السرير مع الجنرال جونو عندما توقّفوا لقضاء الليل في النزل. وقالت إن ذلك غير عادل البتة لأن السيدة بونابرت نفسها حرصت على أن يكون الكابتن شارل معها في عربتها وقضيا الليالي في النزل نفسه.

استجوب بونابرت زوجته بشأن ذلك. وفي محاولة لحملها على الاعتراف، قال إنه إذا نام رجل وامرأة في النُّزُل نفسه فإن ذلك لا يستتبع أن يتشاركا الفراش نفسه بالضرورة. كرّرت جوزفين الإنكار وانفجرت بالدموع، ما أنهى الاستجواب في الوقت الراهن. بدا أن نابليون لم يبدِ كبير اهتمام باتهامات جوزيف، لكنه لم يتابع اتهامات لويز كومبوان أيضاً، موجّهاً اهتمامه نحو الخطوة التالية في حياته المهنية، أي غزو مصر الذي اقترحه تاليران كوسيلة لضرب أحد الموارد الرئيسية لثروة إنجلترا وتهديد الطريق إلى الهند.

ظنّ نابليون أن الوقت لم يحن بعد لاتخاذ الخطوات التي تقرّبه من السلطة في فرنسا. وكان قد حاول الاستعانة ببارا كي ينتخب مديراً ثم يقوم بانقلاب، لكن بارا لم يشجّعه على ذلك. وفي الوقت نفسه بدأ نابليون الاعتقاد بأن غزو إنجلترا ليس أمراً عملياً، غير أن البقاء في باريس لم يكن أمراً محموداً أيضاً، إذ أخذ العديد ممن أبدوا في السابق استعداداً كبيراً لامتداح منجزاته يعبّرون صراحة عن اعتقادهم بأنه يريد أن ينصّب نفسه ديكتاتوراً.

كما أنه بدأ يخشى على حياته من مخاطر التعرّض للاغتيال في باريس. ولوحظ أنه لا يخلع مهمازه البتة، كما لو أنه مستعدّ للفرار، وأن خادمه الخاص يراقب بعناية الطعام الذي يتناوله والخمر الذي

يشربه في مآدب العشاء العامّة.

شعر بالاكتئاب من عدم حصوله على التشجيع لشنّ حملة على مصر كما اقترح تاليران. لم يؤيّده من بين المديرين سوى بارا، ولم يكن تأييده حماسياً. قيل إن ثمة خطراً من احتمال أن ينطوي ذلك على حرب مع روسيا، وكذلك مع الإمبراطورية العثمانية التي كانت مصر تابعة لها. وعندما عبّر نابليون عن رأيه أمام المديرين بأن البحرية الفرنسية غير قادرة على غزو إنجلترا وأن الأموال الضخمة اللازمة لذلك غير متوافرة، وعده المديرون بتقديم مزيد من الأموال. وعندما شعر بالإحباط من تردّدهم في النظر في غزو مصر، هدّد بالاستقالة. فقدم له المدير جان فرانسوا روبل قلماً، ودعاه إلى تقديم استقالته. لكن المديرين كانوا يدركون جيداً أنه لن يستقيل، وفي النهاية أذعنوا لمطالبه بشن الحملة على مصر، وكان يأمل أن يحقّق فيها انتصاراً سريعاً وحاسماً يمكّنه من العودة إلى فرنسا وقد تعزّزت شهرته ونضجت الظروف للقيام بالخطوة التالية نحو تحقيق مصيره.

فيما بدأ الإعداد للحملة بسرّية، وذلك أمر ضروري لبقاء أسطول الأميرال نلسون في القناة الإنجليزية، وشُرع في تشكيل لجنة الفنون والعلوم التي تضمّ فنّانين وجميع أنواع العلماء من علماء الفلك إلى رسّامي الخرائط والجيولوجيين لمرافقة الحملة، أخذ نابليون جوزفين للبحث عن بيت ريفي يعودان إليه بعد انتهاء الحملة.

كان في وسعه شراء بيت. لكنه احتجّ أنه في أثناء قيادة جيش إيطاليا لم يكن يمتلك سوى راتبه كجنرال. غير أنه، بالإضافة إلى المهر الكبير الذي قدّمه إلى شقيقتيه الكبريين والمال الذي دفعه بدل إيجار البيت في شارع النصر، وجد الموارد لتعليم شقيقته الصغيرة وشقيقه الصغير في أغلى مدارس فرنسا. مع ذلك، عندما أبدت جوزفين إعجاباً شديداً بأحد

البيوت الريفية التي رأتها، قصر مالميزون– وهو بيت مبني على ضفّة نهر السين خارج باريس قرب بوغيفال في أوائل القرن السابع عشر على موقع كان الأمير الأسود، ابن الملك إدوارد الثالث، قد أحرقه– قرّر نابليون أنه لا يستطيع دفع الثمن المطلوب.

لم يتمكّن نابليون من حسم رأيه بشأن أخذ جوزفين معه إلى مصر. كان هناك من يعتقد أنها لا تريد، وأن رغبتها المعلنة في مرافقته ليست سوى ادّعاء. مع ذلك كان هناك من يفترضون أنها بدأت تدرك مقدار تميّز زوجها والمستقبل الباهر الذي ينتظره، بل إنها أصبحت شغوفة به منذ أن زادت معرفتها به. لا شك في أنها ألحت عليه للسماح لها بالذهاب معه إلى مصر، وازداد إصرارها بعد أن رأت حسن تجهيز سفينة القيادة، أوريان (لدرجة تزويد سريره بعجلات بحيث لا يصاب بدوار البحر الذي يعاني منه عادة عندما يكون في البحر). وعندما جاء الجنرال ألكسندر دوما لرؤية نابليون ذات صباح، فيما كان هو وزوجته لا يزالان في السرير، ومن الواضح أنهما عاريان تحت الغطاء، وجدها باكية. أوضح نابليون أنها منزعجة لأنه لم يقرّر بعد إذا كان سيأخذها معه. وفي النهاية قرّر ألا يأخذها معه، إلى أن تتمكّن القافلة من تفادي أسطول العدوّ على الأقل: في غضون ذلك كان عليها أن تتوجّه إلى بلومبييه في اللورين للاستحمام بمياهها المعدنية التي يقال إنها دواء ناجع في حالات العقم.

أبحر نابليون في 19 أيار/مايو 1798. كان يتوقّع أن تستغرق الرحلة إلى مصر نحو ستة أسابيع، إذا أخذ في الحسبان الاستيلاء على جزيرة مالطا وكنز الفرسان الإسبيتاريين (فرسان القديس يوحنا) على الطريق. لم يغادر نابليون حجرته معظم الوقت، ولم يعانِ من دوار شديد كما كان يخشى.

لكن معظم الجنود المحشورين في الأسفل أصيبوا بدوار البحر، وازدادت محنتهم سوءاً بتناول المياه غير الصالحة والبسكويت المسوّس.

كان نابليون قد أحضر معه مكتبة كبيرة، وكان صديقه وأمين سرّه، لويس أنطوان بوريان، يقرأ له في معظم النهارات من كتب التاريخ، لا سيما تاريخ العالم الإسلامي. وذات يوم سأل يوجين دي بوهارنيه والجنرال برثييه عما يقرأانه وانزعج عندما علم أنهما يستمتعان بقراءة قصّة. فقال لهما غاضباً: «قراءة تليق بخادمات الغرف. على الرجال أن يقرؤوا التاريخ فقط». وفي المساء، كان يتحدّث في كل المواضيع الأخرى مع ضباطه الكبار، ويبحث معهم السياسة، والسياسة الخارجية الفرنسية، والحرب والدين، وتفسير الأحلام، وعمر العالم وكيف يمكن أن يدمّر، وهل توجد حياة في مكان آخر من الكون أم لا.

عندما لم يكن يتحدّث في هذه المسائل أو يقرأ أو يُقرأ له، كان يتحدّث عن جوزفين «بعاطفة لا تقلّ عن حبّه للمجد- مجد فرنسا ومجده الشخصي». وقد علّق بوريان أن جوزفين كانت تستحوذ على تفكيره دائماً. «فحبّه لها يقترب من العبادة».

16

حديث مع جونو

«دهشت عندما اكتشفت أنه يمكن أن يكن غيرة مريرة»

بعد بضعة أيام على الإبحار، قرّر نابليون إجراء ترتيبات لإرسال فرقاطة لجلب جوزفين كي تنضمّ إليه. فقد اشتاق إليها، واشتاقت إليه. ففي رسالة إلى بارا قالت: «أشعر بالاكتئاب لفراقه ولا أستطيع التغلّب على حزني... أنت تعرفه وتدرك كم يستاء عندما لا تصله أخباري بانتظام. آخر رسالة استلمتها منه كانت عاطفية جداً... قال إنني سأنضم إليه بأسرع ما يمكن وأنا في عجلة لإنهاء علاجي [في بلومبييه] كي أكون معه قريباً. إنني مغرمة به على الرغم من أخطائه».

لكن تشاء الأقدار أن تسقط شرفة البنسيون الذي تنزل فيه في بلومبييه على الشارع وتسقط معها، فتصاب بجراح بالغة. وضعت لها الضمادات والكمادات، وأجريت لها حقن شرجية ومغاطس في الحمّامات الساخنة، وانقضت أسابيع وهي تشعر بآلام مبرّحة– لم تكن قادرة كما قالت على «البقاء واقفة أو جالسة أكثر من عشر دقائق» من دون أن يسبّب لها ذلك ألماً شديداً في الكليتين وأسفل الظهر. وأبلغت بارا أن كل ما تفعله هو البكاء وأنه ليس لديه أي فكرة عن حجم معاناتها.

غير أن الآتي كان أسوأ. ففي 19 تموز/يوليو 1798، أكّد الجنرال جونو لنابليون، فيما كانا يسيران معاً إلى جانب واحة في الصحراء، أن جوزفين على علاقة غرامية بإبوليت شارل. امتقع وجه نابليون وقال لجونو وهو يتقدّم نحوه: «لو كنت تهتمّ لأمري لأخبرتني بذلك قبل الآن... جوزفين!

... سأطلقها. أجل سيكون طلاقاً عاماً ومؤثّراً. سأكتب إلى جوزيف لترتيب الأمر... لا أطيق أن أكون أضحوكة في باريس... إنني أحب تلك المرأة كثيراً وأنا على استعداد لأهب كل شيء كي يكون ما أخبرني به جونو غير صحيح». وظلّت الأفكار بشأن خيانة جوزفين تثير في نفسه الكآبة بعد ذلك بسنوات. وكتبت لور جونو في مذكّراتها:

> لم يلفظ نابليون بعد ذلك اسم المسيو شارل قط، ولم يسمح لأحد بأن يتلفّظ به في أثناء حضوره. كان يكره شارل، وقد دهشت عندما اكتشفت أنه يمكن أن يكنّ غيرة مريرة... ذات يوم عندما كان يتمشّى مع الجنرال دوروك، ضغط على ذراع مرافقه، وامتقع وجهه. وكاد دوروك أن يطلب المساعدة إلا أن نابليون أسكته: «إنني بخير، الزم الصمت». كانت قد تجاوزتهم عربة ولمح نابليون شارل بداخلها. وتلك أول مرة يراه فيها منذ الحملة الإيطالية.

بعيد معرفة نابليون بخيانة جوزفين، كتب إلى جوزيف وطلب منه تجهيز بيته الريفي لينتقل إليه عند عودته. كان يعتزم أن يعزل نفسه هناك في الشتاء، وقال إنه بحاجة إلى الاختلاء بنفسه. فقد «سئم من الشهرة» ولم يعد يهتمّ بالمجد. و«استنفد كل شيء» في سن التاسعة والعشرين.

اعترضت بارجة بريطانية في المتوسّط هذه الرسالة إلى جانب رسالة موجّهة إلى جوزفين من ابنها يوجين دي بوهارنيه وجاء فيها:

> يبدو بونابرت تعيساً منذ تحادثه مع جونو... وقد سمعت أن الكابتن شارل سافر في عربتك إلى أن أصبحت على بعد ثلاث مراحل من باريس، وأنك رأيته في باريس، وذهبت إلى المسرح معه، وأنه قدّم لك كلبك الصغير وأنه معك الآن. إنني واثق

من أن كل ذلك شائعات اختلقها أعداؤك. إن نابليون يحبك كعهده دائماً ويتوق إلى لقائك ومعانقتك. آمل أن يُنسى كل ذلك عندما تأتين إلى هنا.

مع ذلك لم ينس نابليون البتة. وفيما لم يتوقّف عن الحديث عن خيانتها، له أصبح على استعداد لخيانتها أيضاً.

كان يوجد تحت سطح السفن الفرنسية التي وصلت إلى خليج أبو قير في وقت سابق من ذلك الشهر نحو ثلاثمئة امرأة. بعضهن– من يقمن بالغسيل ويعملن في المقصف وما شابه– مصرّح لهن رسمياً بالتواجد هناك. لكن على الرغم من الأوامر الصارمة بعدم اصطحاب نساء أخريات وزوجات وعشيقات، هُرّب العديد منهن بثياب أزواجهن وعشاقهن. الجنرال فيرببيه، على سبيل المثال، نقل معه سراً زوجته الإيطالية الجذّابة، كما تدبّر الملازم فوريه من الفوج الثاني والعشرين اصطحاب زوجته بولين معه، وهي امرأة جميلة جداً ذات عينين زرقاوين في الثانية والعشرين من العمر تبدو جذّابة جداً في زي فوج زوجها، سترة زرقاء وبنطلون أبيض ضيّق عند الساقين وواسع عند الفخذين. ويقال إن شعرها الأشقر المربوط بإحكام تحت إحدى قبّعات زوجها يصل إلى خصرها عندما تخلع زيها. وهي الابنة غير الشرعية لطاهٍ يدعى بِليزل ويدعوها أصدقاؤها بِليلوت. وكانت قبل زواجها حديثاً من الملازم فوريه بائعة في متجر للقبّعات في باريس.

لمحها نابليون لأول مرة في الأول من كانون الأول/ديسمبر 1798 عندما اجتمع هو وأركانه لمراقبة تحليق منطاد يمكن أن يطير من بلد إلى

آخر، كما قيل للمشاهدين المصريين. غير أن العرض انتهى إلى كارثة: احترق المنطاد وتحطّمت السلّة على الأرض. وعلّق أحد النظّارة المصريين الذين أريد أن يثير إعجابهم: «إنه مجرّد طيّارة ورقية. لو أن الريح حملته مسافة أبعد لانطلت الحيلة ولادعى الفرنسيون أنه سافر إلى بلد بعيد».

كانت بولين فوريه من بين الذين شاهدوا هذا الفشل الذريع، وسرعان ما لفتت انتباه مساعد نابليون وربيبه يوجين دي بوهارنيه، فأشار عليها إلى أحد رفاقه. سمع نابليون تعليقاتهما فنظر إليها أيضاً. وفي تلك الليلة شاهدها ثانية وأمضى دقائق وهو يرمقها بنظراته التقييمية اليقظة التي غالباً ما تثير الاضطراب والإحراج لدى من ينصبّ اهتمامه عليهم.

عند وصوله إلى القاهرة، عرضت عليه بعض الشابات، وسرت شائعات أنه عُرض عليه شبان أيضاً وأنه قبل أحدهم وانغمس في تجربة جنسية مثلية لم يكرّرها ثانية. أعجب بواحدة من الشابات اللواتي عرضن عليه، أما الأخريات فكن سمينات أو لم تعجبه رائحتهن. كان لدى نابليون حاسّة شمّ حادّة، لكن يبدو أنها لم تكن تثير اشمئزازه في ساحة المعركة. في وقت لاحق في روسيا، عندما دخل سمولنسك، كانت رائحة الجثث مقزّزة جداً بحيث تصيب أصلب الجنود وأكثرهم تجربة بالغثيان. لكن نابليون لم يتأثّر. وقال لأرمان أوغستين لويس، مركيز كولانكور: «أليس ذلك مشهداً جميلاً»، مشيراً إلى اللهب المرتعش للمباني المحترقة وجثث الجنود الروس وسط النيران.

أجاب كولانكور: «إنه رهيب يا سيدي».

قال نابليون: «عليك أن تتذكّر دائماً قول أحد الأباطرة الرومان إن رائحة جثة العدو زكية دائماً».

مع ذلك، قال البارون فان، سكرتير نابليون السابق: «رأيته يبتعد

عن أكثر من خادم لم يدرك أن رائحته هي سبب نفوره منه». وفي مدريد وجزيرة القديسة هيلانة، كان يبعد الفتيات عنه لأنه لا يطيق رائحتهن. وفي إسبانيا، استاء جداً من رائحة إحدى الممثّلات اللواتي قدّمن له بحيث قال: «كاد يغمى عليّ». لكن في مصر، راقت له ابنة الشيخ البكري، وهي فتاة في السادسة عشرة عديمة الرائحة أو ذات رائحة عطرة تدعى زينب. وصارت تعرف باسم مصرية الجنرال إذ افتُرض أنه أخذها إلى فراشه.

يبدو أن والدها الشيخ البكري لم يثر أي اعتراض. وهو رجل يحتسي الخمر كل ليلة وشغوف بعبد وسيم، وربما اعتقد بأن هذه الصلة قد تعود عليه بالمنفعة. غير أن ذلك لم يكن لمصلحة زينة المسكينة: عندما أوشك الفرنسيون على مغادرة مصر، أخذ غلاة المتديّنين يعاقبون النساء اللواتي تخالطن مع الأجانب الكفّار. وأورد عبد الرحمن الجبرتي أنهم أحضروها وأبيها وسألوها عن فعلتها، فقالت: إنني تبت. فقالوا لوالدها: ما تقول أنت؟ فقال: «أقول إني بريء منها»، فكسروا رقبتها.

17
كليوباترا

«يا إلهي، الأمر لا يتعلّق بي»

يبدو أن علاقة نابليون الوجيزة بالمسكينة زينب كانت قد تلاشت، أو ربما انتهت، عندما شعر بانجذاب نحو بولين فوريه، وسرعان ما سعى إلى فصلها عن زوجها. أصدر أوامر إلى الملازم فوريه بالتوجّه على الفور إلى ساحل رشيد. ومن هناك ينقل رسائل مستعجلة (عديمة الأهمية) إلى باريس عن طريق مالطا. وكان عليه أن يبقى في باريس لمدة عشرة أيام، على أن يعود بعد ذلك– ربما يكون نابليون قد سئم من بِليلوت بحلول ذلك الوقت– إلى مصر «بأسرع ما يمكن».

ما إن أوفد فوريه في مهمة على غير رغبته، حتى أرسل نابليون الجنرال أندوش جونو إلى السيدة فوريه لتقديم عرضه. لكن جونو قدّم الرسالة بطريقة فظّة وخرقاء ما حملها على أن تعلن بغضب أنها ستظل مخلصة لزوجها. بعد ذلك أرسل نابليون مبعوثاً يعوّل عليه أكثر بشخص الجنرال غيرود كرستوف ميشال دوروك إلى السيّدة فوريه فقدّم الاعتذار عن تصرّف جونو الأخرق وسواراً ذهبياً قيّماً كهدية.

وبعد ذلك بقليل، رتّب نابليون أن يقيم الجنرال دوبوي، الحاكم العسكري للقاهرة، حفل عشاء دعيت إليه السيدة فوريه وعدة سيدات أخريات. وفي أثناء الحفل، أخضعها نابليون لمراقبة وفحص مكثّفين. وعند الفراغ من الطعام وتقديم القهوة، أوقع الضابط الجالس إلى جانب السيدة فوريه القهوة على فستانها. فاعتذر عن هذه الحادثة المؤسفة

وعرض مرافقتها إلى إحدى غرف النوم حيث يمكنها تنظيف الفستان قبل العودة للانضمام إلى الحفل. وفيما كانت تحاول إزالة البقعة، دخل نابليون الغرفة. ومضى وقت طويل قبل يعاودا الظهور.

في اليوم التالي، أسكنت بِليلوت في منزل مجاور لمسكن القائد العام في حي الأزبكية. وغالباً ما كانت تشاهد هذه المرأة، أصبحت تعرف في ذلك الوقت باسم «كليوباترا»، راكبة عربة بونابرت، برفقة مساعده، وتلك مهمة أعفي منها يوجين دي بوهارنيه بعد اعتراضه إذ يصعب عليه تأديتها مع عشيقة زوج أمه.

لم تجرَ أي محاولة لإخفاء العلاقة التي تباهى بها نابليون انتقاماً من علاقة جوزفين بالكابتن إيبوليت شارل. وكتب الرائد ديتروي في يومياته: «تفيد الشائعات بأن الزوجة الشابة والجميلة استحوذت على خيال القائد العام، وأخذ الجميع يتحدّثون عن تفاصيل استيلائه عليها». وأكّد بوريان أن «هذه العلاقة سرعان ما أصبحت حديث القيادة وموضوع كل نقاش قريباً».

سمع الملازم فوريه عن العلاقة فور عودته إلى القاهرة. وقد كانت هذه العودة أسرع مما يتوقّع الجميع، إذ اعترضت سفينة البحرية البريطانية «ليون» السفينة التي أبحر بها «لو شاسور» على الطريق من الإسكندرية إلى مالطا- وتصرفّ قبطانها بطريقة توحي جيداً بأنه يعرف سبب وجود الملازم فوريه على متن «لو شاسور». سُلّم طاقم السفينة وركّابها إلى الأتراك، في حين أبقي على فوريه وأرسل إلى الإسكندرية ثانية بعد أن تعهّد ألا يؤدي أي عمل مضادٍّ لإنجلترا طيلة الحرب. وفي الإسكندرية، فشلت محاولات القائد العسكري الجنرال مارمون تأخير انتقاله إلى القاهرة حيث سيكتشف من دون شك ما كانت تفعله زوجته في أثناء غيابه القصير.

لم يمضِ وقت طويل حتى اكتشف ما يجري، فكان سلوكه عنيفاً جداً ما دفع بِليلوت إلى طلب الطلاق، فتمّ لها ما أرادت من دون تأخير. وهكذا أصبحت الآنسة بِليزل، كما صارت تدعو نفسها، عشيقة القائد العام. وقد ألمح إلى أنه سيطلّق جوزفين ويتزوّجها بعد أن تلد له طفلاً. وحاولا قدر ما يستطيعان، لكنها لم تحمل. فاشتكى نابليون أمام بوريان من ذلك. وعندما أبلغت بانزعاج نابليون ودعيت للتفكير في مستقبلها المضمون إذا ما ولدت له وريثاً، أجابت: «يا إلهي، الأمر لا يتعلّق بي».

في غضون بضعة أسابيع، غادر نابليون القاهرة لقيادة غزو سورية كوسيلة لمنع العثمانيين من الإغارة على مصر. كانت الآنسة بِليزل تودّ الذهاب معه، لكنه لم يسمح لها في ذلك الوقت، ولا لأي امرأة لاحقاً، بمرافقه إلى الميدان.

لم يتمكّن نابليون من التقدّم في الميدان بنجاح مماثل لما حقّقه في إيطاليا. فقد افتُتحت الحملة بانتصار على المماليك في معركة الأهرامات– كما دعاها نابليون– وانتهت بهزيمة قوة عثمانية في خليج أبو قير– بلغ حجم القوات العثمانية نصف ما زعم نابليون. ولم تحقّق القوة الفرنسية الغازية أي أنجاز مميّز بين هاتين الموقعتين.

في أعقاب دمار الأسطول الفرنسي بأكمله تقريباً أمام سفن الأميرال نلسون في معركة النيل، عانت قوات نابليون من سلسلة من النكسات– حوّلت بعد ذلك إلى انتصارات في تقاريره إلى الإدارة– وارتكبت العديد من الفظاعات المشينة. فعندما استسلمت حامية يافا، سلبت المدينة ونهبت، وذبحت الحامية، بمن في ذلك النساء والأطفال. فقد استسلمت الحامية التي يبلغ قوامها نحو ثلاثة آلاف رجل بعد وعد بالإبقاء على حياتهم،

لكنهم قُتلوا بعد ذلك طعناً بالحراب أو إغراقاً بناء على أوامر نابليون الذي تذرّع بنقص الذخيرة لإطلاق النار عليهم والمؤن لإطعامهم.

وأظهر نابليون، الذي ظلّ غاضباً من دون شك لمعرفته بخيانة زوجته المذلّة له، قسوة مماثلة عند عكا حيث أصيب أمام أسوارها ما يقرب من ألفي جندي فرنسي بجراح أو بالطاعون. فعرض القائد البحري البريطاني نقل الجرحى إلى سفنه، لكن رُفض هذا العرض لأن نابليون يرفض أن يقدّم الشكر لعدوّه مهما كانت الأسباب. وكتب أحد الضبّاط عن ذلك: «أدمي قلب جيشنا لاضطراره إلى ترك الجنود الذين أصيبوا بالطاعون. لقد توسّلوا إلينا ألا نتركهم... فأقدم العدو على قطع رؤوسهم ما إن رحلنا».

كان لا بد من ترك مزيد من الجرحى والمصابين بالطاعون، الذين رغب نابليون في تسميمهم، فيما تقدّم ما تبقى من الجنود المنهكين على طول طريق العودة الوعرة التي بدت طويلة جداً إلى القاهرة. وقد كتب عن ذلك بوريان: «شاهدت ضباطاً ذوي أطراف مبتورة يرميهم حاملوهم عن الحمّالات. وشاهدت جرحى ومصابين بالطاعون يتركون على قارعة الطريق... لقد أحاط بنا الموت والناهبون والحارقون من كل جانب... وأضاء رجالنا الغاضبون طريقهم بإحراق البلدات والقرى... أحرق الريف بأكمله... وحجبت أعمدة الدخان الكثيف الشمس... كان البحر عن يميننا والصحراء عن يسارنا وخلفنا، وهي الصحراء التي خرّبناها في أثناء تقدّمنا».

لم يبلّغ شيء عن ذلك إلى الإدارة. أفاد الجنرال نابليون بونابرت استباقاً لعودته: «لا نحتاج إلى شيء هنا. إننا مفعمون بالقوة والعافية والروح المعنوية العالية». وتم التغاضي عن أي سوء سلوك في الحملة أو ألقيت تبعته على الآخرين. وكما قال بوريان:

لم تنقل رسائل بونابرت الحقيقة الكاملة البتة عندما كانت تلك الحقيقة غير مواتية وعندما كان في موقف يتيح له إخفاءها. وكان ماهراً في إخفائها أو تحويرها أو كتمانها ما أمكن ذلك. بل إنه غيّر مراراً رسائل الآخرين ثم أعاد كتابتها كلما اختلفت آراؤهم عن رأيه أو كان من المحتمل أن تسيء إلى سمعته وأعماله... لم يتردّد في إخفاء الحقيقة التي يمكن أن تلطّخ شهرته. واعتبر أن من الحماقة عدم القيام بذلك.

لم يكشف عن نية نابليون العودة إلى فرنسا أمام السيدة فوريه. وكان قبيل أن يبحر في حالة مزاجية مرحة وهو يتمشّى في حديقة قصر المملوك محمد بيه الألفي، ويتحدّث إلى مساعديه ويتركهم بين الحين والآخر ليداعب السيدة فوريه بقرصة مؤلمة. ولم يخبرها عن نيته مغادرة مصر عندما ودّعها وقبّلها على عجل، وربّت عليها وقرصها إحدى قرصاته المؤلمة وطمأنها إلى أنه سيعود بعد بضعة أيام.

عُهد إلى الجنرال كليبر بقيادة الجيش. وكان يكره نابليون وعلى استعداد لقبول طلب السيدة فوريه وإعادتها إلى فرنسا حيث سيحرج وجودها عشيقها السابق من دون شك. وهكذا عادت إلى فرنسا في سنة 1800. رفض نابليون رؤيتها عند عودتها، لكنه منحها عدة مبالغ مالية وبيتاً كبيراً خارج باريس مباشرة. كانت لا تزال شابة في أوائل العشرينيات وجميلة جداً، وسرعان ما تزوّجت من ضابط سابق خدم مع الجيش العثماني، هنري دي رانشوب، ويبدو أنها لم تكن على وفاق تام معه. وظلت في فرنسا، فيما خدم في عدة مناصب قنصلية في الخارج في إسبانيا والسويد، وأقامت في البداية في البيت الذي قدّمه لها نابليون، ثم في كرابون في

هوت لوار. وكانت تشغل وقتها في الرسم والعزف على الهارب وكتابة الروايات. صدرت أول رواية لها رومانسية تاريخية بعنوان «لورد ونتوورث»، والثانية على شاكلتها– «سيدة القصر في القرن الثاني عشر» *Une chatelaine du douzieme siècle*– لكنهما لم تثيرا أي اهتمام في عالم الأدب.

بعد فشلها كروائية، وحصولها على الطلاق من الرائد دي رانشوب، أبحرت إلى البرازيل بصبحة جان أوغست بيلار، وهو ضابط سابق في الحرس الإمبراطوري. وعادت بمفردها ناقلة مجموعة من الأخشاب النادرة التي باعتها محقّقة ربحاً كبيراً. وقد شجّعها نجاح هذه المغامرة، فتكرّرت زياراتها إلى أميركا الجنوبية إلى أن استقرّت في سنّ التاسعة والثلاثين في فرنسا بصورة دائمة.

أصبحت غريبة الأطوار بمرور السنين، تجلس عند نافذة بيتها في كرابون وهي تدخّن الغليون، وتصحب معها كلباً إلى الكنيسة أيام الآحاد، وكثيراً ما كانت تخرج مرتدية ثياب الرجال. كما احتفظت بالعديد من الحيوانات المنزلية، بما في ذلك الببغاوات والقرود (فضلاً عن الكلاب) التي كانت تتراكض وتطير في الغرف وتنبح وتصيء وتزعق، ما يثير إزعاج صديقاتها. ومن بينهن النحّاتة والرسامة ماري روزالي بونهور، وهي امرأة غريبة الأطوار مثلها، ترتدي أيضاً ثياب الرجال، وتحتفظ بلبوة وتعرضها في صالونها حيث توجد لوحاتها الشهيرة، ومنها «معرض الجياد» الموجودة الآن في متحف متروبوليتان للفنون في نيويورك. وقد عُرضت لأول مرة في سنة 1853 واشتراها في وقت لاحق كورنيليوس فاندربيلت مقابل مبلغ فاق كل ما دفع لشراء أعمال مماثلة في ذلك الوقت.

توفّيت بولين دي رانشوب، عشيقة نابليون السابقة، في سنة 1869

عن تسعين عاماً. وقد بقيت على قيد الحياة نحو نصف قرن بعد وفاة نابليون. وفي أثناء وجود نابليون في المنفى في جزيرة القدّيسة هيلانة، تحدّث عن لقائه بها بعد سنوات من عودتها من مصر في حفلة تنكّرية. وقد عرفها على الرغم من تنكّرها وذكّرها أنها كانت تُعرف باسم كليوباترا في مصر. وزعم على غير المحتمل أنها لم تتعرّف إليه، لكنّها تحدّثت بمحبّة عن «القيصر».

18
عودة الجنرال

«لن أسامحها البتة».

أصبحت علاقة جوزفين بونابرت بالكابتن إيبوليت شارل معروفة الآن في فرنسا، وكذلك تعاملاتها مع شركة بودان الفاسدة المشتبه بها منذ وقت طويل، فازدادت عزلتها وكآبتها وهي تنتظر متلهّفة عودة زوجها من مصر. لوحظ على سبيل المثال مقدار كآبتها في مأدبة عشاء في لكسمبورغ، حيث جلست إلى جانب تاليران الذي تجاهلها، وانشغل طوال المأدبة بصديقتها تريزا تاليان الجالسة إلى جانبه من الناحية الأخرى. فوقفت وغادرت الغرفة باكية قبل انتهاء تناول الطعام.

كما كانت ترزح تحت ديون ثقيلة. غير أن ذلك لم يمنعها من شراء قصر مالميزون مع مزرعته وثلاثمئة فدان تضمّ أرضاً صالحة للزراعة ومروجاً وكرماً وبستاناً وغابة بأكثر من ثلاثمئة وخمسة وعشرين ألف فرنك، وهو مبلغ زوّدها به بارا أو غابرييل أوڤرارد أو اقترضته من مصدر آخر.

لم يعدّل شراء هذا العقار من مزاجها، ولا تجدّد علاقتها بالكابتن إيبوليت شارل الذي عاد من إيطاليا، حيث كان يعمل لعائلة بودان، ونزل في مالميزون. وكان يختفي عن عيون الزوار القادمين إلى القصر، لكن ليس عن المخبرين الذين يطلعون نابليون على كل حركاتها وخطواتها.

كتبت عن «وضعها التعيس». وتوسّلت لبارا ألا يتركها، وأن يضحي من أجل الصداقة بربع ساعة للمجيء لرؤيتها أو السماح لها بالمجيء إليه،

وألا يرفض منح هذه المكرمة لزوجة صديقه. ودعت الأباتي السابق، إيمانويل سياس، الذي عيّن مديراً مؤخّراً وأخذ يستعيد نفوذه السابق لمقابلتها في مالميزون، لكنه أوضح أنه يرفض ذلك.

لكن بمرور الأسابيع وانتعاش حظوظ اليعاقبة ونفوذهم، ومع هزيمة الجيوش الفرنسية في الميدان وتصاعد مطالب نادي اليعاقبة الذي أعيد تأسيسه بإعادة نصب المقصلة، نما شعور في البلاد، التي أصبح اتجاهها الآن مضاداً للثورة على نحو متزايد، بأن الدكتاتورية وحدها سبيل الخلاص من الفوضى.

بدأ التحضير لانقلاب. وقد شارك في ذلك بارا وتاليران وسياس ولوسيان بونابرت وجيروم غوهييه، رئيس حكومة الإدارة في ذلك الوقت، وجوزيف فوشيه- وزير الشرطة الذي كان رجل دين سابقاً على غرار تاليران وسياس- وأخذوا جميعاً يفكّرون في استدعاء رجل يستطيع أن يعيد النظام أولاً ثم النصر ثم السلام.

اعتقد فوشيه، مثله مثل غوهييه، أن بونابرت هو الرجل الملائم. فزارا السيدة بونابرت في مالميزون. وكان غوهييه، وهو رجل رزين ومع ذلك يحتفظ بمفكّرة خاصة للنساء اللواتي أغواهن، يتوجّه إلى بيتها في باريس كل يوم تقريباً عندما تكون هناك، ربما على أمل إقناعها بأن تسمح له بأن يضمّ اسمها إلى قائمته.

لكن كلما اقترب موعد عودة زوجها من مصر، ازداد توتّرها وانعزالها. وقد أبلغت بارا: «اشتدّ خجلي حتى بتُّ أخشى العالم الكبير. وعلى أي حال، إنني تعيسة جداً ولا أريد أن أكون موضع شفقة أحد... إنني بحاجة إلى التحدّث إليك طلباً للنصح. أنت مدين بذلك لزوجة بونابرت، وصداقته معك».

وكتبت ابنتها أورتنس في رسالة إلى أخيها يوجين: «إنها تحيا حياة منعزلة جداً في ماليزون، ولا تستقبل سوى السيدة كامبان وأنا. لم تقم سوى حفلتي عشاء كبيرتين منذ رحيلك. دعي المديرون وجميع أعضاء أسرة بونابرت لكن الأخيرين يرفضون دائماً القدوم... أؤكّد لك أن أمي حزينة جداً لأن العائلة ليست على وداد معها، وهو ما يزعج زوجها الذي تحبّه حباً جمّاً. وأنا على ثقة من أن أمي كانت ستذهب إليه لو أنها على يقين من إمكانية الوصول إليه، لكنك تعرف أن ذلك متعذّر الآن».

لم تصل هذه الرسالة إلى يوجين، ولا الرسالة التي كتبتها جوزفين إلى نابليون الذي كان قد غادر مصر في ذلك الوقت ويتوقّع وصوله إلى باريس عما قريب، حيث أمضى، كما قال لمدام ريموسا لاحقاً، وهي وصيفة جوزفين: «أجمل أوقات حياتي لأنها الأكثر مثالية. ففي مصر، وجدت نفسي متحرّراً من عقبات الحضارة المزعجة. وغمرتني الأحلام. وجدت نفسي أؤسس ديناً جديداً، وأتقدّم إلى آسيا، وأمتطي فيلاً، وأرتدي عمامة على رأسي، وأحمل قرآناً جديداً وضعته ليتلاءم مع احتياجاتي».

أبحر نابليون من الإسكندرية وسط ليلة ظلماء في 22 آب/أغسطس 1799، بعد أن خلّف الجنرال كليبر في مصر، على رأس جيش وصفه قائده السابق بأنه لا يقل قوة بكثير عما كان عليه في بداية الحملة، لكنه تقلّص في الواقع إلى النصف. وقد رافقه، إلى جانب طبّاخه وسكرتيره، مملوك شاب يدعى رستم رضا كحارس شخصي وخادم وقوّاد، ويوجين دي بوهارنيه، وثلاثة مساعدين آخرين، والجنرالات مورا، وبيرثيه، ودوروك، ولان، ومامون. وتعمّد ترك أندوش جونو، الذي أبلغه عن علاقة جوزفين الغرامية، في مصر.

تمكّنت السفينة «ميرون» من التملّص من سفن البحرية الملكية التي تجوب مياه المتوسّط ووصلت بأمان إلى أجاكسيو، حيث اضطر نابليون للبقاء هناك أسبوعاً هدأت فيه الرياح فضاق ذرعاً وخشي أن يتخلى عنه الحظ فيصل إلى باريس بعد فوات الأوان ولا يتمكّن من الاستيلاء على السلطة. غير أن ثقته عادت إليه عندما نزل في فريجوس، إذ ساعدته روايته المضخّمة عن انتصاره على الجيش التركي في ضمان استقباله استقبال الأبطال. وقد تحقّق له ذلك وتحوّلت رحلته شمالاً عبر فرنسا إلى مسيرة مظفّرة وضمن له الهتاف والتهليل والفرق الموسيقية التي استقبلته في باريس في 14 تشرين الأول/أكتوبر استمرار شهرة اسمه وقوته.

عندما وصل إلى بيته في شارع النصر ولم يجد جوزفين هناك، استشاط غضباً وهو يبحث عنها في الغرف الخالية. وفي تلك الليلة ذهب لرؤية بارا، وأكّد له أنه سيطلّقها. وكان أخواه جوزيف ولوسيان، اللذان توجّها إلى ليون لاستقباله، قد شجّعاه على التخلّص منها وانتزعا منه تعهّداً بالقيام بذلك وعدم الاستماع إلى توسّلاتها.

«لن أسامحها البتة»، صاح في وجه المصرفي جان بيار كولو الذي زار المنزل ووجده يلقي الحطب في الموقد ويؤكّد على كلماته بمحراك النار. فتح أبواب خزائنها وأمر خادماً بإنزال جميع محتوياتها إلى الحمّال.

كانت جوزفين تأمل كما قالت في أن تصل إليه قبل أن يحصل أخواه على فرصة لإيغار صدره عليها، فأسرعت هي وابنتها أورتنس للقائه في ليون حيث أبلغت أنه عبر البلدة بالفعل في طريقه إلى باريس. وبعد يومين، وصلتا إلى باريس منهكتين من الرحلة وتوجّهتا إلى المنزل في شارع النصر. فأبلغهما البوّاب أن لديه أوامر تقضي بعدم إدخالهما. فتجاهلتا الرجل وأسرعتا إلى المنزل حيث أبلغتهما إحدى الخادمات الخائفات أن الجنرال

أقفل غرفة ارتداء الملابس على نفسه. رجته جوزفين أن يسمح لها بالدخول لتشرح له كل شيء. فلم يأبه بها. فتابعت التوسّل. وكذا فعلت أورتنس وشقيقها يوجين، الذي نزل إلى أسفل من غرفته في الطابق العلوي، وعندما أنهكت جوزفين أغمي عليها. وأخيراً، بعد ما وصفه بوريان بأنه «ثلاثة أيام من الحَرَد العسكري»، فُتح الباب. فدخلت جوزفين وأغلقت الباب خلفها. كان في وسع أورتنس ويوجين سماع صوت زوج أمهما الغاضب، وتوسّلات أمهما الباكية. أبلغها أن ليس في وسعها العيش معه ثانية، وأن عليهما العيش منفصلين طيلة ما تبقى لهما من العمر.

عندما جاء لوسيان إلى المنزل في صباح اليوم التالي لتقديم مزيد من التفاصيل عن سوء سلوك جوزفين، وجدها ونابليون معاً في الفراش.

في الأيام القليلة التالية، فيما كان السياسيون والجنرالات يتحدّثون ويحيكون الخطط، وفيما حثّ الجنرال برنادوت على ضرورة محاكمة بونابرت عسكرياً لتخلّيه عن موقعه العسكري، وأبلغ سياس غوهييه بوجوب رمي «الرجل الضئيل الوقح» بالرصاص، وأجرى المديرون محاولة متردّدة لإخراجه من باريس بسؤاله عن الجيش الفرنسي الذي يريد قيادته، وأثار بارا استياءه باقتراح عودته إلى قيادة جيش إيطاليا، وفيما كان كثير من السياسيون وضبّاط الجيش يدخلون البيت رقم 6 في شارع النصر ويخرجون منه (ويظهر أمامهم رستم بمظهره البديع والغامض مقدّماً المرطّبات على صينية بصمت بين الحين والآخر)، سعى نابليون إلى تقديم نفسه كرجل معتدل، وجندي من دون طموح سياسي، وشخص يتحاشى أضواء الشهرة، وزوج قانع يمكن مشاهدته جالساً أمام الموقد وهو يلاعب زوجته النرد.

أدّت جوزفين دورها في التمثيلية طواعية وبرعت في أدائه. فقد صرفت

الانتباه بوجودها في البيت عن المؤامرات والمناورات التي تجري سرّاً في بيتها. وأتاحت صداقتها لغوهييه، رئيس حكومة الإدارة في ذلك الوقت الذي كان يزورها عصر كل يوم تقريباً ويتحدّث إليها بصراحة، لنابليون اكتشاف ما يريد أن يفعله المديرون الآخرون. كما مارست سحرها– وإن يكن بنجاح أقل مما حقّقت مع غوهييه– على جان باتيست برنادوت الذي أمضى ذات يوم أربع ساعات مسافراً مع الزوجين بونابرت إلى بيت جوزيف الريفي.

لم يكن نابليون شاكراً لزوجته على المساعدة التي قدّمتها له فحسب، وإنما أكثر سعادة برفقتها من ذي قبل إلى حدّ أنه أبلغ تاليران عن السعادة الغامرة التي يشعر بها. فيما وجدت جوزفين بدورها أن زوجها «أكثر ودّاً من ذي قبل».

في 8 تشرين الثاني/نوفمبر 1799، اكتملت كل ترتيبات القيام بانقلاب، بمساعدة جوزفين. وأبلغ كبار الضبّاط كل بمفرده بالقدوم إلى 6 شارع النصر في الساعة السادسة والنصف من صباح اليوم التالي. وأبلغ بارا الذي كان ينتظر قدوم نابليون في الحادية عشرة من تلك الليلة أنه أصيب بصداع ولم يتمكّن من القدوم. وقال نابليون لبوريان: «سننجز عملنا في الغد».

19
الانقلاب

«كان هناك ضجيج يصمّ الآذان».

لم ينجز العمل بسهولة. بدا نابليون هادئاً تماماً عندما تحدّث إلى الضبّاط الذين بدؤوا يتجمّعون قبل الفجر في منزله، حيث استقبلتهم السيدة بونابرت لكنها بدت أقل ارتياحاً من زوجها. كان بينهم بعض المتردّدين في دعم الانقلاب المزمع. ومن بين هؤلاء جان باتيست برنادوت، الذي لم يرتدِ البدلة العسكرية مثل الآخرين وأعلن أنه «لن يشارك في التمرّد». غير أنه تعهّد بعدم معارضة ما يعتزم نابليون القيام به. وعندما غادر البيت، أمر جوزيف بونابرت باللحاق به وضمان التزامه بما تعهّد به.

وعد الجنرال فرانسوا لِفِبرڤ، الحاكم العسكري لباريس، بدعم نابليون بعد أن أكّد له أن بارا يقف إلى جانبهم، وخرج من غرفة نابليون بخيلائه المعهود. بيد أن رئيس حكومة الإدارة، جيروم غوهييه، أبدى حذراً شديداً. كان قد طُلب من جوزفين أن ترسل لغوهييه وزوجته دعوة عاجلة إلى مائدة الفطور في الثامنة صباحاً. فكتبت له: «لا تخذلني. عليّ أن أبحث معك أموراً في غاية الأهمية». شعر غوهييه بالقلق من نبرة الرسالة وخشي من التوقيت المبكّر المحدّد، فقرّر عدم المجيء وأرسل زوجته بمفردها، ما أثار انزعاج نابليون. وقال لبوريان في وقت لاحق من ذلك اليوم: «لم يأتِ غوهييه، لقد عسّر الأمر على نفسه».

شعر بوريان بالقلق من طريقة تطوّر الانقلاب، على الرغم من أنه بذل ما في وسعه لطمأنة جوزفين التي سعت من دون نجاح إلى معرفة ما يجري

بالضبط. ومع مرور الوقت، اتضح التوتّر على زوجها، وتراجعت الثقة التي كانت بادية عليه قبل ذلك، على الرغم مما قاله لبوريان قبل أن يأوي إلى الفراش: «مضى اليوم بصورة جيدة. وسنرى ما يخبّئ الغد». في تلك الليلة نام نابليون بوجود مسدّسين إلى جانب السرير.

في اليوم التالي، 10 تشرين الثاني/نوفمبر، بدا أكثر تخوّفاً من ذي قبل. بعد نزوله أرسلت جوزفين رسالة تدعوه فيها إلى غرفتها. فردّ: «سأصعد، لكن اليوم ليس للنساء. إنه يوم خطير جداً».

تبيّن أن الأمر كذلك بالنسبة إليه. عندما بدا النوّاب الذين استدعوا إلى القصر في سان كلو خارج باريس أقل استعداداً بكثير للتعامل مع الأزمة مما أمل فيه، دخل غاليري أبولو غاضباً لإلقاء خطبة حماسية شرسة غير مترابطة في بعض أجزائها، وبدا ممتقع الوجه من الغضب. أعلن أمامهم: «سأسلّم السلطة ما إن تزول هذه المخاطر. فأنا لا أريد إلا أن أكون الذراع اليمنى لأي حكومة تنتخبونها».

استُقبل خطابه بالهتاف وتعالت الصيحات «الأسماء، الأسماء، نريد أسماء المتآمرين». وفيما استطرد نابليون متلعثماً، ووجهه ينزف حيث حكّ وجنته في أثناء احتدامه، هدّد باللجوء إلى «رفاق السلاح الشجعان». وصاح قائلاً: «تذكّروا، أنني أزحف مصحوباً بإله النصر وإله الحظّ». وأعلن أن هناك رجالاً في الخارج مستعدّين للقتال من أجله وأنه يستطيع أن يرى حرابهم. فهمس له بوريان وهو يشدّه من ذراعه مذعوراً من الانطباع الذي يحدثه: «أنت لا تعرف ما تقول أيها الجنرال».

سمح نابليون له باقتياده إلى الخارج، لكنه تسلّم رسالة في الفناء من فوشيه، وزير الشرطة، وتاليران الذي عاد إلى وزارة الخارجية وكتب يخبره بوجوب عدم إضاعة أي لحظة، وأن الوقت قد حان لاتخاذ الإجراء

الحاسم. عندئذ تقدّم يحيط به الجنود إلى الأورونجاري حيث نهض النوّاب الخمسمئة المنتخبون حديثاً لسنّ القوانين مرعوبين من هذا الاقتحام غير القانوني. وترك بعضهم مقاعدهم وهم يلوّحون بقبضاتهم في وجهه ويلكمونه على صدره ويمسكون بتلابيبه. ويصيحون: «جرّدوه من حقوقه القانونية! ليسقط الدكتاتور»! بدا الذهول عليه وأوشك أن يغمى عليه، فسحبه أربعة من حرّاسه إلى خارج القاعة.

عندما سمع بقية الرجال ما حدث للجنرال، طلبوا غاضبين منه أن يصدر الأوامر بإخلاء الأورونجاري من الغوغاء. وعندما تواصلت صيحات «جرّدوه من حقوقه القانونية!» في الداخل وتناهت إلى مسامعه عبر النوافذ، أدرك أن عليه التصرّف حتى إذا اقتصر ذلك على إنقاذ نفسه. فقرّر مناشدة المئات من حرس مجلس الخمسة الذين بدوا متردّدين في مساندته، وبعث رسالة إلى أخيه كي يخرج لمساعدته.

كان لوسيان يترأس الجلسة التي تزايد صخبها بصفته رئيساً للمجلس، ويقاوم مطالب التصويت على اقتراح يعلن أن الجنرال أصبح خارجاً على القانون. فاستجاب لطلب أخيه وخرج من القاعة على الفور، وتوجّه معه إلى حرّاس المجلس.

خاطبهم لوسيان قائلاً: «إن رئيس المجلس يعلن أمامكم أن الغالبية العظمى للمجلس تتعرّض الآن لإرهاب بعض النواب. وهم مسلّحون بالخناجر... وربما يتلقّون المال من إنجلترا». وأضاف أنه جرت محاولة لاغتيال الجنرال الذي أضفى شحوب وجهه قوّة على هذا الإيحاء.

تردّد الحرّاس في البداية، لكن عندما صوّب لوسيان سيفاً نحو صدر أخيه وصاح: «أقسم أنني سأقتل شقيقي إذا ما فكّر في التصدّي لحرية الفرنسيين»، فإنهم سمحوا لأنفسهم بالاقتناع بأكاذيبه، ووقفوا فيما تقدّم

رتل من الجنود بقيادة يواكيم مورا نحو الأورونجاري وقرعت الطبول وثبّتت الحراب. عندما شاهد النوّاب الجنود وهم يقتربون فرّوا من المبنى، وقفز العديد منهم من النوافذ وركضوا باتجاه الحديقة.

في غضون ذلك، قرّرت السيدة لتيزيا الذهاب إلى مسرح فايدو بصحبة مدام بيرمون، ولور ابنة مدام بيرمون، وبولين لوكليرك. وما إن رُفعت الستارة حتى خرج مدير المسرح من الكواليس ليعلن عن محاولة اغتيال الجنرال بونابرت في سان كلو. عندما سمعت مدام لوكليرك ذلك، كما قالت لور بيرمون: «أطلقت صرخة شديدة اجتذبت انتباه جميع الحاضرين إلى مقصورتنا على الرغم من الجلبة التي أحدثها الخبر. وواصلت السيدة لوكليرك الصراخ، فيما سعت والدتها التي تأثّرت مثلها من دون شك إلى تهدئتها، مع أنها لم تستطع حمل كوب الماء الذي قدّمه لها خادم المقصورة من شدّة تأثّرها».

مالت والدة نابليون، وهي «ممتقعة الوجه كتمثال من رخام»، نحو ابنتها التي انهارت على مقعدها وبدت على وشك الإغماء. صاحت فيها طالبة منها التوقّف وجذبتها نحو المخرج. ثم شقّتا طريقهما عبر الحشد إلى الخارج وتمكّنتا من إيجاد عربة تقلّهما إلى شارع النصر، حيث امتلأ «فناء منزل نابليون والشارع بالجياد والراجلين الذين يتدافعون ويصيحون. كان الضجيج يصمّ الآذان» كما روت لور فيرمون. أدركت من الصياح في الشارع أن الانقلاب قد نجح، وسيصبح نابليون واحداً من ثلاثة قناصل للجمهورية الفرنسية، والآخران هما سياس والمحامي روجيه دوكوس. جاء اسم نابليون في نهاية قائمة الثلاثة، لكن لم يشك أحد أنه هو الذي يحظى بالأهمية. ولاحظت مدام بيرمون «أن هناك سمكة كرّاكي

وستلتهم السمكتين الأخريين». وهذا ما حصل في الواقع إذ سرعان ما أصبح نابليون القنصل الأول.

كانت جوزفين تنتظر الأخبار بلهفة، بعد أن أخافتها الشائعات بشأن محاولة اغتيال زوجها، وهي الشائعات التي أكّدها نابليون في إعلان أملاه على بوريان ويذكر فيه أن «عشرين قاتلاً مسلّحاً» هاجموه «مستهدفين قلبه بخناجرهم».

عندما وصل إلى البيت لطمأنة جوزفين وإبلاغها بما حدث، سألها إذا كان برنادوت المخادع قد وفى بوعده بعدم التدخّل. إذا لم يفعل فإنه لن يستطيع الثأر منه للأسف لأن زوجة برنادوت هي شقيقة زوجة جوزيف وستقف العائلة بأكملها ضدّه. واشتكى أن من الصعب على المرء «النظر في الروابط العائلية».

في أعقاب تناول الفطور في صباح اليوم التالي، غادر نابليون وجوزفين شارع النصر لينزلا في قصر لُكمسبورغ، حيث عمل جاهداً لاختيار أعضاء الحكومة، وإعداد دستور جديد، والتعامل مع المشاكل المتشعّبة التي تواجه البلد في الداخل والخارج بحيث نادراً ما كانت جوزفين تشاهده في النهار، باستثناء تلك المناسبات التي يضيق فيها ذرعاً من الاضطرار لسماع سياس وهو يفصّل آراءه بشأن الطبيعة الدقيقة للدستور، فيندفع إلى قضم أظافره وطعن ذراعي الكرسي بمطواة صغيرة، ثم يهرب من الغرفة ويرتقي الدرج متوجّهاً إلى مقرّ زوجته.

غير أنه كان سعيداً، ويتجوّل وهو يصفّر ويغني نشازاً بصورة مثيرة للإزعاج. وبعد أن خلبه سحر جوزفين والدموع التي ذرفتها ندماً، لم يعد الطلاق وارداً لديه. وقد تعهّد ألا يقابل «بليلوت» ثانية، ووعدت أن تبقى

مخلصة له من الآن فصاعداً.

أصبحت تخشاه أكثر الآن. وقد ذهبت فيكورين دي تشاستني إلى حدّ القول إنها «كانت ترتجف أمامه كورقة الشجر عندما يظهر». لا شك في أنها امتثلت للسلوك الذي يطلبه منها باعتبارها زوجة القنصل الجديد: عليها عدم الارتباط ثانية بأصدقائها السيّئي السمعة الذين يجب عدم السماح باستقبالهم في ماليزون؛ وأن ترتبط بمختلف الجمعيات والفعاليات الخيرية؛ وعندما تذهب إلى المسرح، يجب أن ترتدي ثياباً محتشمة وألا تعرض الكثير من مجوهراتها؛ وعليها التغلّب على ميلها الفاضح إلى التبذير.

عندما أخبره تاليران أن الناس في باريس يتحدّثون عن ديونها، طلب من بوريان أن يعرف مقدارها ويبيّن له جميع الديون المستحقة، قالت خائفة: «لا أستطيع ذلك يا بوريان، أنت تعرف أنه قد يصبح عنيفاً جداً. ولا يسعني أن أواجه غضبه».

كانت تدين بأكثر من مليون فرنك، لكن ليس عليها الاعتراف بذلك المبلغ: «هل يستطيع بوريان إبلاغه أن المبلغ ستمئة ألف فرنك»؟ اعترض بوريان لأن نابليون سيصدم عند إعلامه بمبلغ الستمئة ألف فرنك، ومن ثم يمكنها الاعتراف بالرقم الحقيقي الأكثر ارتفاعاً بكثير. غير أن بوريان التزم بالإقرار بالستمئة ألف فرنك، وراجع مع نابليون الفواتير وصدما عندما اكتشفا، على سبيل المثال، أنها اشترت في موسم صيف واحد ثماني وثلاثين قبعة، فضلاً عما تبلغ قيمته ألفي فرنك من ريش مالك الحزين. وفي سنة أخرى اشترت ألف زوج من القفازات وأكثر من ذلك من الجوارب التي كانت تغيّرها ثلاث مرات في اليوم، وتختار زوجين جديدين كل مرة. غير أن نابليون طلب من بوريان تسديد الحسابات، وقد تمكّن بوريان من القيام بذلك بمساومة الدائنين.

20
أيام مالميزون

«لم أشاهد بونابرت سعيداً كما شاهدته في مالميزون إلا في ميدان القتال»

مع أن نابليون كان شديداً مع جوزفين قدر ما يستطيع ذلك، فإنه عندما تسنّى له الوقت لقضاء بضعة أيام معها في مالميزون بدا راضياً جداً وباسماً بحيث لم يعد عليها أن تشعر بالخوف والحذر في أثناء وجوده. وذات مرة عندما رأته عند النافذة يصوّب على إوزّة في البحيرة، رجته ألا يطلق النار مع أنه كان رامياً سيئاً جداً ومن المرجّح أن يخطئ الهدف على أي حال. فأذعن نابليون وأنزل بندقيته. لكن أفيد في مناسبة أخرى أنه عندما اقترح صيد بعض الحيوانات في الحديقة، توسّلت إليه جوزفين باكية ألا يفعل ذلك. وقالت: «الحيوانات لديها صغارها وهذا ليس موسم صيد». فردّ غاضباً: «يبدو أن كل شيء هنا كثير الإنجاب إلا السيدة».

نادراً ما أظهر نابليون النكد في مالميزون. فكان يستمع بصبر عندما تعزف جوزفين على الهارب، مع أنها لا تجيد العزف، ولا تعرف سوى مقطوعة واحدة، وفقاً لما يقوله سكرتيره مينفال. ويبدو أنها كانت تنصت له بصبر عندما يستعرض أفكاره بصوت مرتفع، فيما تعبث بشغل الإبرة.

كانت تحبّ طيورها في مالميزون، التمّ والصقور والببغاوات والنعام والغزلان المصرية، كما أحبت الحيوانات الأخرى التي جمعتها هناك، الظباء، وحمر الوحش والقردة وغنم المرينو والكناغر والسناجب الطائرة. والأهم من ذلك أنها أحبت الحدائق التي كانت تسير عبرها مع زوجها بعد

العشاء في الغالب. وقد بنت فيها البيوت الزجاجية وملأتها بجميع أنواع النباتات الدخيلة، وغالباً ما كانت تعرض على زوارها الخطمية والتوليب النادر، والمكحّلة المزدوجة، والأزهار التي ربطتها بانتصارات زوجها، زنبق النيل وبنفسج بارما وورد دمياط. وكانت تمضي مع نباتاتها وقتاً مماثلاً لما تمضيه مع صورها وثيابها، ولا تتردّد البتة عند شراء بصلة واحدة بثلاثة ألاف فرنك. كتبت إلى الوكلاء في لندن تطلب منهم أن يحضروا لها عيّنات من حدائق كيو، وإلى أمها في مارتينيك تطلب ما يوجد في الجزيرة من نباتات دخيلة وبوغنفيلية مدارية وياسمين وأوركيد.

وأخذ السفراء والرحالة وعلماء النبات الفرنسيون يرسلون إليها النباتات أو يقدّمونها لها أيضاً بعدما عرفوا عن اهتماماتها من زوجها الذي أرسل إليها ما لا يقل عن ثمانمئة نبتة في أثناء حملة في سنة 1809 عن طريق المستكشف وعالم الطبيعة الألماني ألكسندر فون هُمبولدت، وعالم النبات الفرنسي إيميه بومبلاند الذي قدّم لها ستة آلاف عيّنة من أميركا الجنوبية. وأصبح عالم النبات المرموق شارل فرانسوا بريسو دي ميربل مديراً للحدائق في مالميزون في سنة 1803، السنة التي ظهر فيها أول جزء من كتاب إتيان بيار فنتينا «حدائق مالميزون» (Etien Pierre Ventenat *Jardins de la Malmaison*)، في حين قدّم الرسام البلجيكي المولد، بيار جوزيف ريدوتيه ألواح الطباعة الملونة لكتاب بومبلان «وصف النباتات النادرة المزروعة في مالميزون» (Bonpland *Description des plantes rares cultivées a Malmaison*). كما أنه نقش صوراً لورود جوزفين التي بلغ عدد أنواعها مئتين.

بدا نابليون راضياً في مالميزون كما لم يبدُ من قبل في أي مكان في فرنسا. فاشترى نحو خمسة آلاف فدان من الأراضي المحيطة التي تضمّ

كروماً، وأدخل تحسينات على مباني المزرعة ووسّعها، وبنى ثكنات للحرس القنصلي، وشيّد بناء مستديراً مقبّباً كانت تقدّم فيه الوجبات في بعض الأحيان على موائد محاطة بالأزهار والنباتات في الأحواض، وأحضر صوراً ومنحوتات من إيطاليا لتعرض مثل تذكارات النصر مقابل الجدران، وكلّف آن لويس جيروديه تريوسون برسم سلسلة من اللوحات الجدارية التي تصوّر مشاهد من قصائد أوسيان التي أحبّها كثيراً. وجمعت جوزفين المصوّرات الزيتية ولوحات الألوان المائية، وتمكّنت على مر السنين من جمع معرض رائع وباهظ الثمن. وقد أخبرت مدام دي لا تور دو بان ذات مرة أن لديها أعمالاً فنية قدّمها لها أنطونيو كانوڤا. غير أن مدام دي لا تور دو بان اعتقدت أنها أمّنتها لنفسها بحدّ سيف نابليون في إيطالياً.

أجبرت جوزفين في نهاية المطاف على أن تطلب من معمارييها بناء معرض للأعمال الفنية يبلغ طوله 30 متراً، يؤدي إلى حجرة الموسيقى. ويمكن أن يشاهد هناك مجموعة مدهشة من التماثيل والتماثيل النصفية والأحجار الكريمة المنقوشة والميداليات، فضلاً عن لوحات لعظماء من مايكل أنجلو ودا ڤنشي إلى رمبراندت وڤرمير وتيتيان، ومن رافاييل وڤيرونيز ودوريه إلى هولبيان وكلود لوران وبوسان.

في المساء، عندما يفرغ من العمل، كان نابليون يستمتع بلعب الشطرنج أو الألعاب الصاخبة مع الأطفال ويشارك في الأداء المسرحي والتمثيلية التحزيرية، ويصطفي لنفسه أفضل الأدوار. وعندما لا يتاح له الوقت لحفظها، كان يشاهد أداء الآخرين، غالباً بإدارة الممثّل التراجيدي فرانسوا جوزيف تالما، ويعلّق، منتقداً دائماً، على فريق التمثيل الأكثر موهبة منه– يوجين دي بوهارنيه وأورتنس ومساعده الماركيز دي لورِستون.

وعندما لا توجد أعمال مسرحية للمشاهدة، كان نابليون يتكلّم

بإسهاب مع الأصحاب المجتمعين عن موضوعات شتى في العلوم أو الآداب أو الفنون، أو يروي قصصاً خارقة أو مسرحية، أو وفقاً لما قالته كلير دي رايموسات: «يعتصم بصمت مطبق... وينصت لمعزوفات موسيقية بطيئة وناعمة... ويشرد ذهنه في الأماني، وعندما يعود إلى الواقع يصف الأحاسيس التي انتابته ويحلّل مشاعره».

وتقول لور جونو: «كان يحب كل ما يقوده إلى أحلام اليقظة، كساعة الشفق، والموسيقى الكئيبة. وقد رأيته منفعلاً مع صفير الرياح، ويتحدّث مغتبطاً مع هدير البحر، ويعبّر عن اعتقاده بأن الأشباح الليلية ليست جميعها بعيدة عن التصديق. لقد كان لديه ولع في الخرافات».

ويقول بوريان: «لم أرَ بونابرت سعيداً كما رأيته في مالميزون إلا في ميدان القتال». لا شك في أن أيام حكومة القناصل كانت من أسعد أيام حياته. وقد كتب سكرتيره الخاص، مينڤال، الذي كان معجباً به كثيراً، عن «أجمل ابتساماته» وتعابيره التأملية الهادئة والعابسة»:

> لم أستطع التغلّب على دهشتي عندما وجدت مثل هذه البساطة في عادات رجل مثل نابليون. لقد توقّعت أن أجده متعجرفاً وذا مزاج متقلّب، لكنني وجدته بدلاً من ذلك صبوراً ومتساهلاً ويسهل إرضاؤه، وهو ليس متطلّباً ومرحاً لكن مرحه صاخب في الغالب... وغالباً ما يكون ضحكه مجلجلاً ومتكلّفاً... غير أن الألفة من جانبه لا تدعو إلى مبادلته بالمثل. فقد كان نابليون يمرح مع الرجال من دون الاختلاط بهم...
>
> كان يوقظني في منتصف الليل عندما يضطر إلى الاستيقاظ، وحدث في بعض الأحيان أن عرضت عليه وثيقة للتوقيع في المساء فقال: «لن أوقعها الآن. احضر الليلة في الواحدة أو في

الرابعة صباحاً وسنعمل معاً...
عندما يدخل مكتبه قبلي، كنت أجده يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ويداه خلف ظهره، أو يتناول بعض السعوط من العلبة... وعندما ينهي إملاءاته، وأحياناً في وسطها، كان يرسل في طلب شراب مثلّج... ثم يعود إلى الفراش وينام على الفور... وبعد ساعة من النوم، يستيقظ صاحياً ورائق التفكير كما لو أنه نام الليل بطوله بهدوء. وما إن يستلقي حتى تجلس زوجته عند حافة السرير وتبدأ بالقراءة بصوت مرتفع. وكان يستمتع في الإنصات لها لأنها تحسن القراءة.

لم يكن كل مستخدميه يجدونه صبوراً كما ادعى مينڤال. فقد وصف لويس مارشان، الذي خلف لويس كونستان كوصيف له، تعرّفه المخيف إلى نوبات غضب نابليون:

> في أول يوم لي في خدمة الإمبراطور [نابليون] طلب مني بعض الشاي. أرسلت المشرف على الملابس لإحضار الشاي من المطبخ، فأحضر صينية عليها كل ما يلزم. حملتها إلى الإمبراطور فصبّ لنفسه فنجاناً، ووضع السكر فيه، وكان يوشك أن يشرب منه عندما سأل: «من أين جاء هذا الفنجان»؟ عندما أخبرته من المطبخ، رمى الفنجان على الحائط وحطمه. وقال: «في المستقبل لا تستخدم إلا الأشياء المخصصة لهذه الغاية» أخذت على حين غرّة واعتذرت عن جهلي. كان هذا الدرس الأول قاسياً. ولم أعرف الحصانة من الرهبة التي يوحي بها الإمبراطور.

غير أن مثل هذا النوع من نوبات الغضب لم يكن معتاداً في ماليزون.

فعلى غرار مينفال، وصف مارشان سيده بأنه «متساهل ولطيف»، وأنه كان هناك «دائماً سبب وجيه لغضبه». وأنكر «الروايات السخيفة» عن قسوته ونوبات الصرع التي تنتابه وتجعله صعب المراس، والشائعات الواسعة الانتشار بأنه يرتدي درعاً تحت بدلته.

الحق يقال إن نابليون «لم يكن معتاداً على القول إنه راضٍ. بل يبدو أنه لا يهتم كثيراً بالجهود التي تبذل لإرضائه، أو يقابلها بعدم المُبالاة. لكنه إذا لاحظ الاستياء على أحدهم بعد أن يؤنّبه، فإنه يتوجّه إليه ويفرك أذنه أو يشدّها. وذلك يعني الصفح».

روى مارشان في مذكّراته ما لاحظه عن عادات نابليون ونقاط ضعفه، وما يهواه وما يكره. وكتب عن العناية الشديدة «بأناقة» يديه وأظافره وأسنانه، وعاداته الغناء نشازاً عندما يكرّر الكلمات نفسها مراراً، وولعه بالبطاطا وكرهه للفاصوليا، ولا مبالاته بالخمور الفاخرة، وسعادته بالمكوث في مغاطس الاستحمام الساخنة: «كان معتاداً على المكوث في الحمّام ساعة ونصف الساعة، وأحياناً ساعتين. وبعد ذلك يأوي إلى الفراش نحو ساعة ويتدثّر بملاءات ساخنة... وعندما يخرج من شقته، يناوله وصيفه الأول قبعته المثلثة. فيأخذها بيد واحدة ويحمل في الثانية منديلاً معطراً بماء الكولونيا ويمسح به شفتيه وجبهته. وبعد ذلك يُناوَل علبة سعوط ومنظاراً صغيراً وعلبة تحتوي على السوس». ويتابع مارشان:

> كان يحب الترف والعظمة، لكنه في الوقت نفسه يصرّ على الحصول على مقابل أمواله... ذات مرة في حفلة صيد، سأل أخته التي كانت ترتدي قبعة قرنفلية رائعة تشبه الخوذة وعليها ريشة بيضاء عن ثمن مثل هذه القبعة الفاخرة. فقالت «ثلاثمئة فرنك».

فقال لها: «إنك تتعرّضين للسرقة. يمكنني الحصول على عشرة خيّالة مجهّزين بمثل هذه الروعة مقابل ذلك المبلغ».

في إحدى الزيارات إلى مالميزون، وجد تاليران– وصمه نابليون في عبارة مميّزة بأنه «حقير يرتدي جوارب حريرية»– مضيفه ومضيفته وضيوفهما جالسين على العشب في ملعب الكرات. «لم يكن ذلك يزعجه وهو المعتاد على التخييم، وارتداء جزمة ركوب الخيل، والبنطلون القصير الجلدي». كما قال تاليران: «لكنني أرتدي بنطلوناً قصيراً حريرياً وجوارب حريرية! هل يمكنك أن تتصوّرني جالساً على المرج؟ إنني أعاني من الروماتيزم. يا له من رجل! إنه يعتقد دائماً أنه في مخيّم».

بدت جوزفين في مالميزون في تلك السنوات سعيدة مثل زوجها. وقد أبلغت والدتها بذلك. فكتبت لها: «بونابرت يدخل السعادة الغامرة على ابنتك. إنه لطيف وودود، وهو باختصار رجل ساحر». أخذت تحبه، ومع أنها لم تستطع لجم نفسها عن الإسراف، فقد سعت لإرضائه بطرق أخرى. فتخلّت على سبيل المثال عن فساتينها الشفافة القصيرة التي كانت رائجة ذات يوم بعدما عبّر زوجها عن كرهه الشديد لها. وذات يوم استدعى بالجرس أحد المشاة لوضع الحطب في المدفئة إلى أن تصبح الغرفة دافئة على نحو لا يطاق. قال: «حرصت على أن تكون النار متقدة لأن الليلة باردة جداً وهؤلاء النسوة أشباه عراة». وبعد ذلك أصبحت فساتين جوزفين أكثر تواضعاً كما أصبح خصرها العالي وأكمامها القصيرة المنتفخة ومظهرها المتحفّظ على العموم رائجاً في المجتمع الباريسي.

كان سلوك نابليون في مالميزون أشبه بسلوك رب العائلة: كان يدعو أبناء وبنات إخوته للبقاء، ويلاعبهم ويتنطّط معهم في الحدائق، ويغش في لعبة قاعدة السجين بالامتناع عن إطلاق صرخة التحذير، ويغش أيضاً

في لعبة الأعمى باستراق النظر من تحت عصابة العينين. وكان يسلّي ابن اخته كارولين بلعبة أكثر خطورة بكثير، وهي تنطوي على إعطاء غزلان جوزفين جرعات من السعوط ثم الركض مع الولد هرباً من الحيوانات التي تهجم عليهما متحفّزة لنطحهما.

غير أن نابليون لم يستطع الانسجام جيداً مع ابنة شقيقته إليزا البالغة خمس سنوات من العمر، إذ قال لها ذات يوم بطريقته المغايظة التي افترض أنها مسلية: «ما الذي كان يشغلك يا آنسة؟ سمعت أنك بلْتِ في سريرك». فردّت الطفلة: «إذا لم تكف عن التفوّه بالحماقات يا خالي فلن أبقى في الغرفة نفسها معك».

مع أن نابليون بدا متساهلاً ولطيفاً كما وجده مارشان ومينڤال، فإن الجو في مالميزون يكون أكثر استرخاء بكثير عندما يغيب عنه نابليون. وقد اشتكى بوريان: «من المؤسف أن العيش مع رجل عظيم ليس ممتعاً البتة. الجميع يتنفّس بسهولة أكبر وتزداد بهجتهم في غياب السيد... ويتغيّر كل شيء على الفور عندما يعود».

كان نابليون نفسه يدرك ذلك. وقد سأل لويس دي فونتان، الشاعر ورئيس جامعة باريس ذات يوم: «ماذا تعتقد أنهم سيقولون إذا مت فجأة؟ وتابع «سأقول لك» عندما حار فونتان في إيجاد جواب ملائم. «سيقولون ببساطة، 'أصبح بإمكاننا التنفس ثانية. لقد انتهى، الحمد لله وإلى حيث ألقت'».

21

قتلة وضحايا

«أبلغيه ما إن يرجع أن في وسعه الحصول على أورتنس»

قال نابليون لبورريان في سنة 1800 بعد أن انتقل من قصر لكسمبورغ إلى تويليري: «لا يكفي أن تكون هنا. المشكلة تكمن في أن تبقى».

كانت جوزفين تشك في أن تحظى بالسعادة في هذه الظروف المحيطة الجديدة. فقد خصصت لها شقة شغلتها ماري أنطوانيت ذات يوم، فقالت لأورتنس: «لم أخلق لمثل هذه الفخامة... أستطيع أن أشعر بطيف الملكة يسألني عما أفعل في سريرها». سعى نابليون إلى طمأنتها وقال لها في أول ليلة يقضيانها هناك وهو يحملها إلى سريرهما كما لو أنه عريس يحمل عروسه عبر عتبة باب أول بيت لهما: «لا عليك أيتها الكريوليه الصغيرة».

كان مزاجه أقل مرحاً مع بورريان. فقد أدرك جيداً أن منصبه الجديد غير آمن وقال: «سلطاتي تستند إلى مجدي، ومجدي يستند إلى انتصاراتي».

كانت البلاد لا تزال في حال حرب ليس مع آل هابسبورغ فحسب، وإنما مع إنجلترا وروسيا والولايات المتحدة أيضاً. وعلى أمل أن يحرز انتصاراً مبكّراً باعتباره القنصل الأول، توجّه في صيف سنة 1800 لإغاثة الجيش الفرنسي الذي يحاصره النمساويون في جنوا.

في أثناء زحفه جنوباً نحو ميلانو، أرسل إلى جوزفين سلسلة من الرسائل يصفها «بحبيبته الصغيرة» التي يتوق إلى أن يكون في أحضانها. وعبّر عن اعتقاده بوجود حبر مغنطيسي بينهما كما هو الحال بين من يحبان أحدهما الآخر حبّاً حقيقياً. ومع أنها أصبحت حريصة على إرضاء

زوجها، وإفساح المجال لمزاجه وتلبية رغباته عندما يكونان معاً، فإنها لم تستطع التغلّب على كسلها والكتابة إليه عندما يفترقان.

ذكّرها مرة أخرى في إحدى رسائله «أنني لم أحصل على رسالة منك». ومع ذلك بقيت «حبيبته الصغيرة».

وفي 14 حزيران/يونيو 1800، هُزم النمساويون في مارنغو، وعاد نابليون ظافراً إلى باريس حيث كان للاحتفالات العفوية الصاخبة وصيحات التهليل كما قال «وقع عذب على أذنيه مثل صوت جوزفين».

غير أن هناك صوتاً آخر أصبح يستهويه الآن، صوت غيسيبينا غراسيني، سوبرانو لا سكالا الرائعة التي كانت، كما قيل عنها: «تتكلم بمزيج خاص بها من الفرنسية والإيطالية يسمح لها بأن تقول أي شيء وتمكّنت عن طريقه من الإدلاء بأغرب الملاحظات ملقية الملامة على جهلها باللغة عندما تتفوّه بشيء ربما يكون جارحاً أو صادماً».

كان نابليون قد التقى بها لأول مرة في سنة 1797، لكنه لم يُبدِ اهتماماً كبيراً بها في ذلك الوقت، وتلك إهانة أنّبته عليها في رسالة تهكّمية لطيفة بعد ثلاث سنوات عندما أصبحا حبيبين:

> كنت في كامل مجدي وجمالي وموهبتي، وموضوع النقاش الأوحد. لقد أعميتُ كل العيون وألهبتُ كل القلوب. وفيما ظل الجنرال الشاب على بروده، كانت جميع أفكاري تتجه إليه وإليه وحده. كم يبدو ذلك غريباً... عندما كانت إيطاليا بأكملها عند قدمي، وعندما رفضتُ كل التكريم والإجلال من أجل نظرة واحدة من عينيك، لم أستطع أن أحصل عليها. والآن تتركّز نظراتك عليّ، الآن عندما لم أعد جديرة بالاهتمام، الآن عندما لم أعد استحقّك.

سمعت جوزفين أن الجنرال بيرثييه اكتشف وجود زوجها في السرير مع غراسيني في ميلانو، في طريق العودة من مارنغو. وسمعت أيضاً أن غراسيني، عُرفت لاحقاً باسم «مغنية الإمبراطور»، أحضرت إلى باريس لتقيم في منزل في شارع كومارتان ثم في شارع النصر، حيث كان نابليون يذهب لمقابلتها بانتظام مخفياً وجهه بقبّة معطف كبير. لم تكن تقيم هناك في عزلة. فقد غنّت في ماليزون، ومسرح الجمهورية، ولوزنڤاليد وفي شان دي مارس. وكانت تحصل على خمسة عشر ألف فرنك في الشهر من حبيبها، الذي طلب منها أن تأتي إليه بين الحين والآخر إلى تويليري، إلى جانب الذهاب إليها. وفي وقت لاحق، بعد عودتها من سلسلة من الارتباطات في لندن، أغدق عليها نابليون مزيداً من المبالغ فضلاً عن إعطائها صورة له مرصّعة بالألماس سرقها في ما بعد أربعة فارين سويسريين من الخدمة العسكرية، أعدم منهم اثنان.

أبلغت جوزفين صديقتها الحميمة الكريولية مثلها، مدام دي كريني، عشيقة الرسام دومينيك ڤيڤان دينون، التي تشاركت معها شقة قبل سنوات: «إنني تعيسة جداً. كل يوم يثور بونابرت من دون سبب ظاهر على الإطلاق. حاولت أن أعرف لماذا، وعلمت أن غراسيني كانت في باريس في الأسبوع الماضي... من الواضح أنها سبب جميع مشاكلي... رجاء حاولي أن تعرفي أين تقيم هذه المرأة، وهل يذهب إليها أم تأتي إليه».

لم يكن يوجد أي سبب لقلق جوزفين الشديد. فقد افتُرض على نطاق واسع في باريس لاحقاً أن غراسيني التي تتميّز بإغراء جنسي أصبحت عشيقة لورد ولِنغتون، بعد أن أقامت علاقة مع عازف كمان شاب وملحّن يدعى بيار رود. لا شك في أن ولِنغتون احتفظ بصورة لها في غرفته في

باريس، إلى جانب صور لبولين، شقيقة نابليون، والبابا بيوس السابع(*)، وغالباً ما كان يشاهد بصحبة غراسيني بحيث أن الليدي بسبوروف، التي كانت في باريس في ذلك الوقت، لم تشتكِ من عدم أخلاقية ذلك الارتباط بقدر «الافتقار إلى الأسلوب وعلانية نواياه». لكن على أي حال، سرعان ما أقامت غراسيني، المتحلّلة من الأخلاق، علاقة مع شخص آخر وأعلنت أن نابليون، المغرم بها، كما اعترفت عند عرض علب السعوط القيّمة التي منحها لها، لم يكن عشيقاً مرضياً جداً.

بقيت جوزفين تشعر بانعدام الأمان. ولم تنس أن نابليون هدّدها بالطلاق عندما علم بأمر علاقتها بإيبوليت شارل، ولم يسعها إلا أن تشعر بالقلق عندما استجوبها عن ديونها التي سعت إلى تسويتها بتعاملات خفية مع المتعاقدين مع الجيش، أو عندما يزعجه أو يغضبه أي شيء.

غير أنها كانت في معظم الأوقات، سواء في مالميزون أم تويليري، تقضي أيامها على نحو مرضٍ. فزوجها ما زال يحبّ رفقتها، وما زال يتقاسم الفراش نفسه معها، وما زال يتوق إلى الإسراع إلى شقتهما عندما يستطيع استراق بعض الوقت من عمله وزواره، ومن خططه وتوجيهاته. وعندما كان يرغب في التفكير، تجلس إلى جانبه بهدوء وصبر، وتظهر أقل قدر من الضيق عندما يدفع الأوعية على طاولة زينتها فيما تعمل على تجميل وجهها، وعندما ينفش شعرها أو يقرص ذراعيها بشدة ليمرح معها.

سرعان ما بدأت حياة جوزفين في تويليري تصبح مملة، نظراً إلى قلة صديقاتها بخلاف مدام دي كريني. كانت تزور المسارح بصحبة ابنتها أورتنس، بلغت السابعة عشرة في سنة مارنغو، وتشارك في لعب الورق،

(*) علق كونت أرتوا بأن صورة البابا بيوس، المعلقة بين صورتي بولين وغراسيني، ذكّرته بالمسيح المعلّق بين اللصين.

الوِست أو البيكي، في الليالي الطويلة. لكن يبدو أنها لم تعد تقابل أيبوليت شارل، ولا بول بارا الذي كان يعيش في منفى فعلي في ضيعته في شايلو، ولم يكن باستطاعتها أن تقابل غابرييل أوفرارد كثيراً، بعد أن سجن لرفضه إقراض المال للحكومة، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن قدم مساهمة كبيرة في نفقات حملة مارنغو.

بعد أن حُرمت من متعة صحبة أصدقائها القدامى، أخذت تشغل نفسها في السعي وراء خدمات الموظفين المدنيين والوزراء، وتقديم الخدمات لمن يلتمس مساعدتها للعودة من المنفى. لكن نابليون، الذي أدرك فائدتها في متابعة سياسة «الاندماج» كما أسماها للتوفيق بين النظام الجديد والأرستقراطية القديمة، أخرجها من عزلتها التي أدخلها فيها رسمياً، وسمح لها بالقيام بدور المضيفة في مآدب العشاء والاستقبالات الرسمية، والظهور معه كزوجته في المسرح.

أعلن على سبيل المثال في الصحافة أن القنصل الأول سيصطحب في ليلة عيد الميلاد مدام بونابرت وشقيقته كارولين، وابنة زوجته أورتنس، إلى دار الأوبرا ليلة افتتاح أوبرا «الخلق» لهايدن. وعندما ارتدين الملابس استعداداً لهذه المناسبة ونزلن، وجدن نابليون جالساً قرب المدفئة في غرفة الاستقبال، وقد غلب عليه النعاس بعد يوم حافل. أبدى تردّداً في مرافقتهن، لكنه نهض عندما قالت زوجته إنها ستبقى معه في هذه الحالة. ارتدى ملابسه بسرعة، وبما أن الساعة أصبحت الثامنة، أسرع في النزول على الدرج، تاركاً الآخرين يلحقون به، وركب عربة ترافقها مجموعة من مشاة الحرس الملكي، وانطلق بها سائق العربة الثمل، سيزار، على الفور. وفيما العربة تسير بسرعة، غفا نابليون ثانية وتذكّر ما بين الحلم واليقظة اقترابه من نهر تاغليامنتو في إيطاليا وإصداره أمراً للسائق باجتياز النهر مع

أنه لا يعرف مقدار عمقه (كان في الواقع عميقاً جداً فتعثّرت الجياد وكاد أن يغرق). استيقظ من نومه فيما سيزار يضرب الجياد بالسوط لتجاوز عربة وفرس يسدان جزئياً شارع سان نيساز، فتقدمت العربة وسط الصخب في شارع دي لا لوا.

في غضون ذلك، تأخّرت جوزفين في تويليري. كانت ليلة باردة لذا ارتدت شالاً أرسل إليها مؤخّراً من تركيا. أبدى أحد مساعدي زوجها الذين خدموا في الحملة المصرية، وأصيب بما لا يقل عن واحد وعشرين جرحاً في روسيا، إعجابه بالشال لكنه تساءل إذا لم يكن من الأفضل ارتداؤه حول الرأس على الطريقة المصرية. فأمسك به وطواه وأعاد ترتيبه وفقاً لما يرضيه. ثم رافقها مع أورتنس وكارولين إلى عربة منتظرة غادرت تويليري بعد دقيقتين أو ثلاث من مغادرة نابليون.

مع تقدّم فريق جوزفين نحو شارع دي لا روا، دوّى انفجار كبير. فقذفت العربة التي تجاوزها نابليون للتو في الجو. قُتلت فتاة صغيرة تُركت للإمساك بالفرس، والفرس وثمانية من المارة. كانت هناك امرأة تقف عند باب دكان لمشاهدة نابليون عندما يمر، فقطع ثدياها، وأصيبت امرأة أخرى بالعمى، وأصيب أكثر من عشرين شخصاً بجروح. جفلت الجياد، وتمزّقت واجهات البيوت فوقها. جرحت يد أورتنس، وأصيبت كارولين بصدمة، وولدت في وقت لاحق طفلاً يعاني من الصرع. وأغمي على جوزفين.

حياهن نابليون، الذي كان بانتظارهم في المقصورة في الأوبرا، عندما وصلن كما لو أنه يحدث أي شيء، وأرسل في طلب البرنامج. لكن عندما انتهى الأداء، أرسل في طلب فوشيه، وارتفع صوته غاضباً، وطلب باعتقال اليعاقبة المسؤولين عن الحادثة الفظيعة ورميهم بالرصاص. ردّ فوشيه بأن

اليعاقبة ليسوا المسؤولين عن ذلك، وأن المتورّطين من الثوار الملكيين، وقد قتل اثنان منهم بالرصاص. لم يحل ذلك من دون أن ينتهز نابليون الفرصة لنفي العديد من اليعاقبة.

أقسم نابليون على الثأر. وأبلغ مجلس الدولة: «علينا الثأر من هذه الجريمة الفظيعة مثل الصاعقة. يجب أن تسيل الدماء. علينا أن نعدم من المذنبين قدر ما سقط من الضحايا». لكن البوربونيين الذين خططوا لمحاولة الاغتيال كانوا في إنجلترا بعيداً عن متناوله. ولم يتم القبض سوى على اثنين من عملائهم والحكم عليهما بالإعدام. وفرّ الثالث إلى أميركا وأصبح كاهناً.

في أعقاب هذه المحاولة، عندما ذهبت جوزفين بصحبة حماتها وأورتنس، إلى بلومبييه على أمل أن تساعد دورة أخرى من مغاطس المياه في جعلها خصبة، أمر نابليون قوة مرافقة من الخيالة بأن تواكب عربتها عن الجانبين وأن تتبعهما عربتان أخريان وعدد من الضباط الصغار. وما إن غادرن حتى جلس نابليون ليكتب إلى «حبيبته الفاتنة والخلابة» جوزفين ويطمئنها إلى أنه يحبها الآن بقدر ما أحبها دائماً. وفي رسالة لاحقة، يشتكي فيها مثلما اشتكى في الماضي من أنه لم يسمع شيئاً عن أخبارها، أرسل إليها «قبلة مضطرمة وحباً دائماً» وأضاف قائلاً: «إنني حزين ووحيد».

لم يكن ذلك صحيحاً. فقد استغل، كما اعتقدت جوزفين، فرصة غيابها لينام مع ممثلة شابة.

بعدما عادت جوزفين من بلومبييه، ازداد قلقها بشأن عدم قدرتها على

إنجاب طفل لزوجها، واحتمال أن يطلب الطلاق في يوم من الأيام إلا إذا أنجبت. ولم يكن يساورها أدنى شك في أن ذلك ما تسعى إليه عائلته الغيورة وتتمناه. كانت جوزفين توّاقة جداً إلى إحباط خططهم والمحافظة على زواجها ومركزها، بحيث إنها أبدت استعداداً للموافقة على التضحية بسعادة ابنتها.

في ذلك الوقت، أصبحت أورتنس فتاة جميلة وجذابة جداً، تتسم بالكرم واللطف والذكاء والرصانة. وقد رفضت عدة عروض للزواج بعدما أحبت الجنرال دوروك، الضابط الشاب الوسيم ذو القدرات العالية الذي كسب احترام نابليون في الحملتين الإيطالية والمصرية. وعلى رغم الثقة التي أولاها له نابليون، فإنه رأى أن في وسعها أن تحسن وضعها ووضعه. لذا استدعى بوريان وقال له بفظاظة:

أين دوروك؟

ذهب إلى الأوبرا.

أبلغه فور عودته أن في وسعه أن يتزوج أورتنس. يجب أن يتم الزواج خلال يومين. سأمنحه نصف مليون فرنك وقيادة فرقة في طولون. عليهما أن يتوجها إلى هناك في اليوم الذي يوافق زواجهما. لا أريد صهراً حولي. أريد أن أعرف على الفور إذا كان ذلك يناسبه.

كما كان متوقّعاً، رفض دوروك هذه الشروط بشدة والطريقة القطعية التي قدمت بها إليه. فصاح في وجه بوريان: «أبلغه أن يحتفظ بابنته. إنني ذاهب إلى الماخور».

بعد إزاحة دوروك من الطريق، قرّر نابليون وجوزفين أن تتزوج أورتنس شقيق نابليون، لويس بونابرت، وهو شاب غير جذاب مصاب بذهان ارتيابي ويعتقد أنه يعاني من السيلان. رضيت أورتنس بقدرها

بإذعان الخائف بعد أن انهارت وبكت عندما علمت بما حصل.

عقد الكاردينال كابرارا، رئيس أساقفة ميلانو، قران الزوجين التعيسين في 4 كانون الثاني/يناير 1802، في بيت شارع النصر الذي قدمه لهما نابليون هدية للزواج. بدت أورتنس شاحبة ومتوتّرة، وبذلت جهداً كي لا تتساقط دموعها ثانية بعدما ظلت تبكي معظم الليلة السابقة. وفي حين أن والدتها بكت طوال الحفل، فإن لويس لم يحاول إخفاء تردّده في تكرار النص المطلوب منه. وفي تلك الليلة عدّد جميع العشاق الذين اتخذتهم جوزفين قبل زواجها من نابليون وأبلغ أورتنس أن عليها ألا تمضي الليل ثانية تحت سقف واحد مع والدتها. كما أنها إذا ولدت طفلاً فلن يكون لديه أي سبب ليعتقد أنه طفله، وستنقطع صلته بها ما تبقى من حياته. وسرعان ما أصيب بقلق ارتيابي مرضي من الشائعات بأن أورتنس تقيم علاقة غير شرعية مع نابليون، وهي شائعات أضفيت عليها بعض المصداقية من دون مبرّر بسبب الخشية التي كان يبديها نابليون أمامها بامتناعه، كما لاحظت لور جونو، عن استعمال «تعابير غير محتشمة» في حضورها.

في أعقاب طقوس زواج أورتنس من لويس، ركع يواكيم مورا وكارولين بونابرت أمام الكاردينال كابرارا ليبارك زواجهما. وقد كانت لهذه المناسبة المزدوجة «وقع سيئ جداً» على أورتنس إذ قالت: «كان الزوجان الآخران سعيدين جداً، ويحبان أحدهما الآخر حباً جماً»، فيما شعرت بتعاسة شديدة.

22

عشيقات في البلاط

«لست كالرجال الآخرين. القواعد الشائعة عن الأخلاق واللياقة لا تسري عليَّ»

استفاد نابليون من تزايد ازدهار فرنسا، فارتفعت شعبيته شهراً بعد شهر، وتعاظم طموحه في حين اشتد إحساس جوزفين بانعدام الأمان. ولاحظ بوريان أن «كآبتها شكلت تناقضاً مدهشاً مع البهجة الغامرة» عندما استقبل الإعلان في آب/أغسطس 1802 عن لقب نابليون الجديد– قنصل مدى الحياة– بعرض كبير من الأنوار والألعاب النارية والمواكب. «كان عليها استقبال مجموعة من الأعيان والمسؤولين في تلك الليلة وقد فعلت ذلك برشاقة معهودة، على الرغم من كآبتها العميقة التي أثقلت على معنوياتها. كانت تعتقد أن كل خطوة يخطوها نابليون نحو العرش هي بمثابة خطوة بعيداً عنها».

شعرت بذلك في أعماقها عندما قرّر الانتقال من مالميزون، حيث كانت راضية، إلى قصر سان كلو، حيث الجو يتسم بالرسمية والمجاملة الشديدتين. هنا اعتاد زوجها– الذي أنفق مبالغ كبيرة على الشلالات والنوافير في الحدائق واللوحات الجصية في القصر– على ارتداء معطف أحمر مخملي، مطرّز بالذهب، فيما ارتدى المسؤولون والمشاة في القصر زياً مهيباً أيضاً. قُدّمت جوزفين على القنصل الثاني والثالث، وعلّقت صورتها المجمّلة التي رسمها فرانسوا جيرار فوق الدرج الرخامي إلى جانب صورة نابليون وهو يعبر الألب التي رسمها جاك لويس ديفيد. ووضعت لائحة

طويلة من قواعد السلوك في المنزل تنص مثلاً على أنه إذا كان لدى كبير الخدم سبباً لدخول مقر إقامة زوجة القنصل الأول لتلقي أوامرها، فإن عليه أن يحكّ بابها بخفة لأخذ إذن إحدى وصيفاتها- اللواتي يجب أن يكن حاضرات دائماً- ليسمح له بالمثول أمامها.

بدأ المنزل يتخذ الطابع الرسمي الذي كان سائداً في البلاط قبل الثورة. عندما يدخل نابليون وزوجته القاعة التي يستقبل فيها الزوار المميّزين، ويكون القنصل الأول متقدّماً بضع خطوات عن زوجته، فإن على الشابات أن ينحين احتراماً على نحو ما كن يفعلن في بلاط آل بوربون في فرساي. وعندما تدخل جوزفين يقف الجميع ويفعلون ذلك ثانية عندما تغادر.

في استقبالات السفراء الأجانب وحاشياتهم، كانت جوزفين، بعد أن تدخل القاعة متأبطة يد تاليران، تبقى جالسة، وتنهض قليلاً عن كرسيها عندما يقدّم كل شخص إليها، وتتصرّف كما قال وصيف نابليون: «بلباقة تامة ومهارة طبيعية ومكتسبة على السواء»، كما لو أنها كما قال مينفال «ولدت للدور الذي منحه لها حسن طالعها». كانت لديها قدرة رائعة على تذكّر الأسماء والوجوه، و«لباقة اجتماعية استثنائية»، كما شهد مترنيخ.

لم يكتسب زوجها هذه اللباقة قط، وتعرّض بلاطه لاحتقار من عرفوا الأنظمة القديمة. وقد علّقت على ذلك الكونتيسة بوتوكا، ابنة أخي آخر ملوك بولندا قائلة: «أياً تكن الروعة التي يبدو عليها بلاط نابليون من بعيد، فإنه لا يصمد أمام الفحص الدقيق. هناك فوضى وتنافر واضحان يخرّبان الجوّ الرائع الذي ينتظره الناس. إنه مشهد سخيف حقاً، حيث يعتقد المرء أنه أمام تمرين في مسرح يجرّب فيه الممثّلون أزياءهم ويتمرّنون

على أدوارهم».

في حفلات الاستقبال التي تجرى في هذه القاعة المفرطة الزينة أو تلك، كان في وسع نابليون أن يرعب ويخيف، لكنه نادراً ما تجشّم عناء أن يجتذب ويسحر. كان يظهر مصحوباً باثنين من المسؤولين في القصر يحرص على أن يكونا صغيري الحجم نسبياً، ويسير من ضيف إلى آخر طارحاً بعض الأسئلة التي تنمّ عن العجرفة ثم- في تناقض مع الاهتمام الحقيقي أو المصطنع الذي تبديه زوجته- يتقدّم من دون أن يكلّف نفسه في الغالب عناء الاستماع إلى الأجوبة. وقد علّق مترنيخ على ذلك قائلاً: «من الصعب تخيّل شيء أكثر خرقاً من سلوك نابليون في قاعة الاستقبال. ولم تكن جهوده لإصلاح الأخطاء التي يرتكبها بسبب خلفيته وثقافته تؤدي إلا إلى جعلها أكثر وضوحاً. لم يكن لديه أي فكرة عن كيفية إجراء محادثة مؤدّبة. فهو يحاول دائماً أن يثير الإعجاب، ويمشي على رؤوس أصابعه لإدراكه أنه يفتقر إلى الطول اللائق».

وكان يعتقد أن من المسلّي بين الحين والآخر أن يلمح إلى سيدة بأنه يعرف عن عدم إخلاص زوجها لها أو حتى يهمس لها بأنه سمع عن عدم إخلاصها لزوجها، ويستمتع على ما يبدو بما يظهر عليها من ضيق. وقد سأل ذات مرة زوجة الجنرال جونو إذا كانت سمعت عن الحريم اللواتي كان زوجها يحتفظ بهن في مصر. وفي مناسبة أخرى، أبدى اندهاشه بظهور إحدى الشابات في البلاط للمرة الأولى قائلاً: «يا إلهي، سمعت أنك جميلة». وقيل أيضاً إنه قال: «أبلغوني أنك قبيحة يا سيدتي، ولم يبالغوا في ذلك بالتأكيد». وأُبلغت سيدة أرستقراطية أنها تخطّت سن ارتداء فستان مقوّر الصدر، وسئلت فتاة في الثامنة عشرة عن عدد من تزوّجتهم.

كما أنه أبدى فظاظة ووقاحة بالقدر نفسه مع الرجال في بعض المناسبات. فقد هاجم ذات مرة السفير البريطاني اللورد وِتوُرث، الذي يتميّز بالنبل وطول القامة، بما وصفه وِتوُرث Whitworth بأنه «افتقار تام للكرامة واللياقة»، ما دفعه إلى الخروج غاضباً من القاعة. وفي التقرير الذي رفعه عن الحادثة، ذكر السفير أنه مقتنع «بأن الجميع شعروا بعدم لياقة سلوكه».

وعندما حضر ولي عهد بافاريا حفل استقبال رسمي، سأله نابليون بفظاظة عمن تكون عشيقته. ولما أنكر الأمير وجود واحدة، قال نابليون: «هذا هراء، أخبرني»، قبل أن يتقدّم. كما كان فظاً وخشناً أيضاً مع صديقات زوجته. فقد صدم ذات يوم مدام ريموسا عندما أبلغها عن شهرتها بأنها «سريعة وجيدة» في السرير.

كما أن تصرّفاته لم تكن تنمّ عن ضيق الصدر وقلة التهذيب في بعض الأحيان بقدر ما تنمّ عن الإهانة للنساء اللواتي اتخذهن عشيقات مؤقتات له في ذلك الوقت. ومن هؤلاء الآنسة دوشسنوا، وهي ممثّلة في مسرح الكوميديا الفرنسية عملت سابقاً خادمة وخيّاطة. كانت على قدر عالٍ من الموهبة لكنها تخلو من الجمال، وقد قال نابليون ذات مرة إن على المرأة أن تكون جميلة لترضيه. ذات يوم دقّ كونستان على باب مكتبه ليبلغه أن الآنسة دوشسنوا وصلت إلى الغرفة المجاورة وفقاً للترتيب المعدّ، فصاح من خلف الباب أن يطلب منها الانتظار. وعندما عاد إلى طرق الباب بعد مرور أكثر من ساعة، قال له «اطلب منها أن تتعرّى». أطاعت الآنسة دوشسنوا التعليمات، لكن نابليون لم يتحرّك عن مكتبه. وبعد فترة انتظار طويلة أخرى قرع باب مكتب نابليون مرة أخرى فأجاب مبدياً نفاد صبره: «اطلب منها الذهاب إلى البيت».

هذه المعاملة المتعجرفة لإحدى النساء لم تكن حادثة معزولة البتة. ففي الغرفة المجاورة لمكتبه التي كانت مخصصة للقاءات الجنسية، كان يطلب من النساء أن ينتظرن عاريات إلى أن يصبح من الملائم له ملاقاتهن. وعندئذ، كان ينزع سيفه من دون أن يخلع الكثير غيره. كان يصرّ على أن المقدّمات التمهيدية غير ضرورية، ويقول «إن التعامل مع المسألة يستغرق ثلاث دقائق». وكأنه يبدي العذر لقصوره الجنسي. وقد اعترف ذات يوم: «الحب ليس لي، فأنا لست كالرجال الآخرين». وقد كتب الكونت أوراس دي ڤيل كاستل في مذكّراته عن حوار أجراه مع الكونت دي لا كاس، رفيق نابليون في المنفى: «غالباً ما كنت أتحدّث عن الإمبراطور مع السيد دي لا كاس. وقد أخبرني أن نابليون كان يتحدّث في بعض الأحيان عن عجزه في لعبة الحب: لم تكن تعني له الكثير».

كان عجز نابليون المفترض بين الحين والآخر موضع نقاش على مستوى واسع في فرنسا، وكذا عدم كفاية منيّه المفترضة وصغر حجم قضيبه. وقد نُقل عن جوزفين قولها عند الإشارة إلى مقدرة زوجها كمحبّ: «إنه لا يصلح البتة». ولاحظت غيسيبينا غراسيني أن «مداعبات نابليون كانت مستترة وغالباً ما لا يشبع رغبات عشيقاته».

الغرفة التي انتظرت فيها الآنسة دوشسنوا عارية من دون طائل تضم سريراً يعدّ كل يوم وطاولة توضع عليها أزهار نضرة. وكانت جوزفين تعرف ذلك لأن نابليون لم يعد يتجشم عناء إخفاء ارتباطاته عنها. وقبل وقت غير بعيد، عندما كان نابليون يقوم بجولة تفقّد للقوات على ساحل القناة، حيث ما زال يهدّد بغزو إنجلترا، كتب إلى جوزفين رسالة عاطفية ردّت عليها بامتنان مثير للشفقة، وأبلغته أنه لا يستطيع أن يتصوّر مقدار

السعادة التي منحتها إياها رسالته. وأنها ستحتفظ بها دائماً وتضمّها إلى صدرها. «ستريحني عند غيابك عني وترشدني أنك قريب مني... أريد أن أظل دائماً في عينيك كما تريدني أن أكون... وجل مبتغاي أن أكون جوزفين العذبة والرقيقة التي لا هم لها سوى سعادتك... لن أنسى الجملة الأخيرة في رسالتك... نعم إنني أرغب في إسعادك وحبك، بل الهيام بك».

مع أنها أبدت الامتنان لتسلّم رسالة نابليون، فإنها لم تستطع التغلّب على خوفها من احتمال الوقوع في حب إحدى عشيقاته الشابات. ولم يغب احتمال الطلاق عن تفكيرها قط. ولدت أورتنس الآن ولداً أطلق عليه اسم نابليون شارل وربما يقترح بأن يصبح وريث القنصل الأول. لكن ربما يجيء وقت يصرّ فيه على الحصول على ابن شرعي من صلبه.

العلاقة الوجيزة مع الآنسة دوشسنوا، والتي سبقتها علاقة وجيزة أخرى مع ممثّلة شابة أخرى، لويز رولاندو، تلتها علاقة أشدّ خطورة على جوزفين وأكثر إثارة للقلق مع ممثّلة أكثر شهرة وذكاء.

إنها مارغريت جوزفين ڤيمر، وهي شابة جسيمة جميلة ومثيرة اسمها المسرحي الآنسة جورج، كانت قد أدت عرضاً رائعاً في دور كليمنسترا في مسرحية «إفيغينيا في الإلياذة» في مستهل مسيرتها المميّزة في التراجيديا الكلاسيكية. لم تكن قد أتمت السادسة عشرة عندما استرعت انتباه نابليون لأول مرة ودُعيت إلى سان كلو.

اعترفت الآنسة جورج أنها «كادت تموت من الخوف» عندما جاء وصيفه كونستان لجلبها إلى سيدّه. قال كونستان لإراحتها: «تعالي الآن، كل شيء سيكون على ما يرام. لكن استمري في إظهار الخوف لأنه يحب ذلك».

ووفقاً لرواية الآنسة جورج الممتعة، فقد أدخلتْ في سان كلو إلى غرفة نوم واسعة ذات أضواء ساطعة وموقدة عامرة بالنار. سمعتْ وقع أقدام تقترب من الغرفة فرفعت نقابها عن وجهها.

«نهضت وتقدّم نحوي. أخذني من يدي وجعلني أجلس إلى جانبه على أريكة كبيرة. ثم نزع نقابي ورماه على الأرض من غير اكتراث. 'يدك ترتجف. أنت لست خائفة مني؟ هل أبدو مخيفاً؟ بدوت جميلة جداً ليلة أمس، وأردت أن أهنّئك على أدائك. إنني أكثر تهذيباً ولطفاً منك... أخبريني ما اسمك'».

أخبرته أن اسمها مارغريت جوزفين. فقال إنه مولع جداً باسم جوزفين لكنه سيدعوها جورجينا.

وقال: «أبلغيني عن نفسك يا جورجينا... أخبريني كل شيء». وعندما بدأت بإخباره تلاشى توتّرها في حضوره وبدأت تشعر بالارتياح. وقالت إنهما تحدّثا حتى الخامسة صباحاً عندما قبّلها على جبينها، ثم وضع النقاب على وجهها، وجعلها تعد بأن تأتي لزيارته في اليوم التالي. وقبل أن تغادر، ذكرت اسم راعيها والمعجب بها، الأمير سابييها، وعندئذ انتزع نابليون النقاب عن رأسها، ومزّقه إرباً إرباً، بالإضافة إلى شالها وعقدها الكورنيلي، وداس عليها بقدميه. وقال لها: «يجب ألا يكون لديك شيء إلا ما أعطيك يا جورجينا». فعلّقت على ذلك قائلة:

> لا يسع المرأة أن تتضايق طويلاً من هذا الرجل. هناك سحر وجاذبية كبيران في صوته بحيث تشعر المرأة مجبرة على أن تحدّث نفسها: «إنه محقّ تماماً». فقلت: «إنك محقّ تماماً» (أقسم بحياتي أن كل ذلك صحيح).

عادت إلى سان كلو في الليلة التالية، حيث وعدها أنهما سيصبحان

حبيبين في الثالثة. وعندما وافقت على ذلك، أخرج من جيبه قرطين ماسيين رائعين، وقال: «إنهما لك يا عزيزتي جورجينا. لقد أتلفت جواهرك الليلة الماضية لذا ينبغي لي أن أصلح ما أحدثته من ضرر».

سرعان ما أصبحت هذه العلاقة معروفة في باريس. وفي عرض لمسرحية «سينا» المفضّلة لديه في المسرح الفرنسي، أوضح الجمهور أنهم سمعوا بذلك. فعندما قالت الآنسة جورج في العرض: «إذا فتنت سينا فبإمكاني أن أفتن الرجال الآخرين أيضاً»، هلّلوا وصفّقوا، ونظروا إلى مقصورة القنصل.

خشيت الآنسة جورج من أن يغضب نابليون لأنها لم تكتم أمر علاقتها بنابليون عن صديقها الممثّل فرانسوا جوزيف تالما. لكنه لم يأت على ذكر صخب الجمهور في المسرح، بل تحدّث عن الأداء في المسرحية وامتدحها هي وتالما. وكتبت: «ما أقدره في الحديث عن المسرح! وما أحسن النقد الذي يقدّمه»!

وأضافت: «إنه يغمرني بلطفه. لقد انتزع ثيابي شيئاً فشيئاً، وجعل نفسه خادماً لي بابتهاج ولباقة بحيث كان من المستحيل إلا أن أستسلم له... تركته في السابعة صباحاً. لكنني شعرت بالخجل من الفوضى التي خلفّتها تلك الليلة فقلت: «أرجوك أن تدعني أرتّب كل شيء» فأجاب: «نعم يا عزيزتي جورجينا، سوف أساعدك. كان لطيفاً في مساعدتي في ترتيب الأريكة، الموضع الذي شهد كثيراً من اللهو والعاطفة».

لم يكن يبدي اللطف والتقدير لمشاعر الآخرين دائماً. فعندما تردّدت في نزع جواربها شعر بالرغبة في إبداء إحدى الملاحظات اللاذعة التي يتلذّذ في توجيهها إلى النساء: «لا بدّ أن لديك قدمين قبيحتين»! كما أنه لم يثبت أنه عاشق صبور وماهر. فقد قدّم لها رباطاً خاصاً للجوارب مصنوعاً

من المغيط وجد أن نزعه أسهل من الرباط ذي البكلة. وفي سنوات لاحقة، عندما أرادت أن يُعرف أنها أصبحت عشيقة دوق ولِنغتون، أعلنت أن الدوق «أقوى بكثير» منه.

كان نابليون يحب اللهو كثيراً مع الآنسة جورج، ويستمتع بصحبتها كأنه طفل نشيط. وقد شاركته حبه للمرح الطفولي، وكانت تجاريه وتدّعي أنها غير قادرة على إيجاده عندما يختبئ منها وتسترسل في الضحك عندما ينزع أكليلاً من الورد عن رأسها ويضعه على رأسه، ويرقص حول الغرفة، ويتوقّف بين الحين والآخر ليقطّب حاجبيه عندما يرى انعكاسه في المرآة ويدلي بملاحظات سخيفة. وذات مرة عندما طلبت منه خصلة من شعره كتذكار، ابتعد عنها مسرعاً مدعياً الخوف فيما الآنسة جورج تلحق به ملوّحة بمقصّ. وفي مناسبة أخرى، كما تتذكّر، كان نابليون في «مزاج مرح، وجعلني أركض وراءه في المكتبة. ولكي لا أمسك به، ارتقى السلّم المتنقّل، وبما أنه خفيف ويقف على دواليب، فقد دفعته على طول الغرفة. ضحك وصاح، 'ستؤذين نفسك. توقّفي وإلا سأغضب'».

وذات ليلة، جاءت كلير دي ريموسا لزيارة جوزفين، وأخذتا تنتظران مجيء نابليون للانضمام إليهما في القاعة الصفراء. مرّ الوقت وعندما تجاوز منتصف الليل، نهضت جوزفين واقفة وقالت: «لا أستطيع أن أتحمّل ذلك لحظة أخرى. لا بد أن الآنسة جورج معه. سأفاجئهما». طلبت من مدام دي ريموسا أن ترافقها وهي ترتقي الدرج. لكنهما لم تبلغا أعلاه عندما ظنتا أنهما سمعتا الحارس رستم يتحرك خارج باب سيده. حذّرت جوزفين صديقتها من أنه «قادر على قطع رقبتينا» وأوقعت الشمعة وهي عائدة بسرعة إلى القاعة. وتابعت مدام ريموسا روايتها: «عندما شاهدت الفزع على وجهي، انفجرت ضاحكة وأضحكتني أيضاً».

وفي مناسبة لاحقة عندما كانت الآنسة جورج معه، سمعت جوزفين صراخها وأسرعت إلى غرفة نابليون التي هربت منها الآنسة جورج وهي تحمل ثيابها لتغطي صدرها العاري. لقد أصيب نابليون بإحدى نوبات الاختلاج التي تشبه الصرع.

كانت تلك في الظاهر آخر مرة يمارس فيها الحب مع الآنسة جورج التي دسّ بين نهديها الكبيرين أربعين ألف فرنك كهدية فراق. لكنه سرعان ما أقام علاقة مع ممثّلة أخرى، الآنسة بورغوين، أصبحت في ما بعد محظية شهيرة وعشيقة القيصر الروسي ألكسندر. لكن على الرغم من مؤخّرتها التي وجدها مغرية جداً، فإنه صرفها بعدما نفر من ميلها للنكات المبتذلة وبدأ يبحث عن عشيقة أسهل انقياداً. فوجد مبتغاه في آنا روش دي لاكوست الجذابة والطائشة، وهي إحدى القارئات القلائل اللواتي استخدمتهن جوزفين، وقد أمّنت خدماتها بقطعة قيّمة جداً من المجوهرات. وفي وقت لاحق، قدّم نابليون للآنسة دي لاكوست خاتماً بحضور جوزفين. غضبت جوزفين من هذه الفظاظة فطالبت بإبعاد المرأة عن بيتها. فوافق زوجها على ذلك مشترطاً استقبالها في مهمة أخرى في البلاط. وبعد ذلك اتخذ نابليون فتاة إيطالية من جنوى، كارلوتا غازيني، بديلاً عن الآنسة دي لاكوست التي قالت عنها مدام دي ريموسا إنها «المرأة الأكثر جاذبية في بلاط مليء بالنساء الجذّابات. وقد عيّنت قارئة مكان سابقتها مع أنها لا تحسن تكلّم الفرنسية، وذلك عيب تغاضى عنه نابليون باعتباره عديم الأهمية في الظروف الراهنة».

كان مصمّماً على أن تتقبّل زوجته أنه بحاجة إلى نساء أخريات، مبدياً استياءه من غيرتها الواضحة. فهو لا يحبّهن وأصرّ على أن مشاعره لا علاقة لها بالأمر. وأعلن غير مرة: «لست كالرجال الآخرين. القواعد

الشائعة عن الأخلاق واللياقة لا تسري عليَّ».

وقد سمعته إحدى وصيفات جوزفين يقول لزوجته متذمّراً: «عليك أن تخضعي لجميع نزواتي، وأن تعتبري أن من الطبيعي جداً أن أسمح لنفسي بهذا النوع من التسليات. لديَّ الحقّ في الردّ على جميع شكاويك... إنني شخص مميّز، ولا أقبل أن يملي عليَّ أحد شيئاً».

أكّد أن هذه التسليات المؤقّتة ضرورية له، وعندما أخذت زوجته تشكّك في مثل هذه الإعلانات «ردّ عليها بعنف لا ترغبه»، مثلما فعل عندما أقام علاقة مع إحدى وصيفاتها، إليزابيت دي ڤودي.

أشارت مدام دي ڤودي إلى أن «بونابرت كان يبدي تعجرفاً وقسوة ويصعب الوصول إليه. ثم فجأة يظهر بعض المشاعر، ويندم ويعتدل مزاجه ويسعى طوعاً إلى إصلاح الضرر الذي أحدثه، مع أنه لم يظهر البتة أي علامة على إصلاح أساليبه».

تبع ارتباطه بإليزابيت دي ڤودي أو سبقه علاقات مع العديد من السيدات في بلاط جوزفين، بمن فيهن دوقة دي روڤيغو، وفِلِستي لُنغروا، إحدى نساء جوزفين في حجرة نومها ومهمتها حراسة باب غرفتها والإعلان عن الزوّار.

كتبت مدام دي ريموسا: «ما إن يحصل نابليون على عشيقة جديدة حتى يصبح قاسياً وعنيفاً وعديم الشفقة تجاه زوجته. لم يكن يتورّع عن إبلاغها عن علاقته، أو وصف تفاصيل محاسن جسدها أو عيوبه... أو إظهار دهشة شرسة عندما تعترض على ذلك».

في السيرة الذاتية المزدوجة الرائعة «نابليون وجوزفين» *Napoleon and Josephine*، تلفت إڤانجلين بروس Evangeline Bruce الانتباه إلى مثال على تعامل نابليون القاسي مع زوجته.

على الرغم من أنها كانت تعاني من نوبات الشقيقة الحادة التي أخذت تزعجها بصورة متقطّعة منذ أن سُجنت في لي كارم، وأنه يعرف تماماً أنها تخاف دائماً من قيادة العربة بسرعة كبيرة، فقد أصرّ على أن تسرع العربة عندما رافقته لمشاهدة بيت اشتراه قرب مالميزون. ركب هو وبوريان عربة في المقدمة وتركا جوزفين تتبعهما في عربة أخرى برفقة لور جونو وسيدتين أخريين. وعندمت وصلن إلى خندق قفز فوقه نابليون وبوريان بيسر، طلبت جوزفين من الفارس المرافق أن يوقف العربة كي تترجّل منها وتسير قبل أن تحاول العربة العبور. طلب منها نابليون ألا تتصرّف كالأطفال وضرب الفارس المرافق بالسوط طالباً منه أن يعبر المنحدر والخندق عند أسفلها بأسرع ما يمكن. وقد تمكّنت الجياد من تخطي العائق لكن العربة اصطدمت بجانب الخندق وكادت أن تنشطر. انفجرت جوزفين بالبكاء، لكن نابليون أبلغها أن البكاء دائماً يجعلها قبيحة.

عندما يكون في مزاج أكثر اعتدالاً، كانت جوزفين تخضع للسحر الذي يستطيع زوجها استحضاره عندما يريد. وكانت تستمتع عندما يصطحبها في جولاته التفقّدية، حيث تحييهما الحشود، وتعزف الفرق الموسيقية موسيقى الترحيب، وتزيّن القرى وتضاء على شرفهما. كانت تتذكّر أسماء الآخرين وتستطيع استرضاءهم ببعض الكلمات اللطيفة. وقد أدرك نابليون أن شعبيتها عامل مهم في الحفاظ على شعبيته. وشوهد يقبّلها بحب في عدة مناسبات وكأنه يشكرها على الدور الذي تؤديه في دعم مسيرته المهنية وتحقيق مصيره.

لم يكن لديه سبب للشعور بالامتنان لها في أي وقت أكثر مما كان عندما أحس بتهديد مؤامرات الملكيين واليعاقبة، ما جعله يدبّر هو وتاليران مكيدة للاغتيال القضائي لرجل يمكن أن يصبح المطالب بالعرش الذي

أخذ نابليون يفكّر في شغله الآن. كان هذا ابن شقيقة لويس السادس عشر، دوق إنيان.

صدرت الأوامر إلى مجموعة من الجنود الفرنسيين باختطاف الدوق ذات ليلة في آذار/مارس 1804، عندما كان ينزّه كلبه، ونقله عبر الرين من دوقية بادن إلى سجن فنسان. وعندما ذاع خبر هذه الفعلة الشنيعة في سان كلو، جثت جوزفين على ركبتيها أمام نابليون، كما تقول مدام دي ريموسا، ورجته والدموع تطفر من عينيها أن يبقي على حياة الدوق. فقال لها: «على النساء ألا يتدخّلن في شؤون الدولة. أنت لا تعرفين شيئاً عن السياسة». وأمرت ألا تفتح هذا الموضوع ثانية. ووفقاً لجوزيف، بكت أم نابليون عندما وبّخته. «استمع إليها بصمت. أبلغته أن تلك قسوة عظيمة لا يمكن أن تغتفر. لقد أذعن لنصيحة خائنة من رجال... كانوا سعيدين جداً في تشويه اسمه بمثل هذا العمل الشرير».

كان قرار إعدام إنيان قد اتُّخذ وحُفر قبره في السجن. وأعدم بإطلاق الرصاص على قلبه في 21 آذار/مارس 1804.

بعد ثلاثة أيام، طُلب من تاليران تنظيم حفلة، ولم تكلّل بالنجاح. بدا كأن مقتل دوق إنيان ألقى بظلاله على مجرياتها. مع ذلك عندما سمع الرأي العام في الأسبوع التالي عن الرواية المحرّفة التي نشرت في الصحف عن وفاة الدوق، قرّر نابليون أن يظهر في العلن في المسرح. بدا متوتّراً على غير المعهود، وبدلاً من أن يسبق جوزفين إلى المقصورة، انتظر قدومها حتى يدخلا معاً. وفيما كان يدخلان معاً، بدا الشحوب على نابليون أكثر من ذي قبل، ووزّعت جوزفين ابتساماتها على طريقتها الساحرة، فنهض الجمهور وصفّق لهما وحيّاهما.



المنزل الذي ولد فيه نابليون في 15 آب/أغسطس في شارع ماليربا بمدينة أجاكسيو

ماريا لِتيزيا رامولينو بونابرت، والدة نابليون. صورة
رسمها فرانسوا باسكال سيمون، البارون جيرار.





فوق، ألكسندر دي بوهارنيه، الزوج الأول للإمبراطورة جوزفين. إلى اليسار، ديزيريه كلاري، صورة رسمها فرانسوا باسكال سيمون، البارون جيرار.



وصول جوزفين لزيارة بونابرت في إيطاليا على ضفاف بحيرة غاردا، في سنة 1796: صورة رسمها إيبوليت لوكونت.



مدام تريزا تاليان والإمبراطورة جوزفين ترقصان عاريتين أمام الفايكونت دي بارا في شتاء 1787.

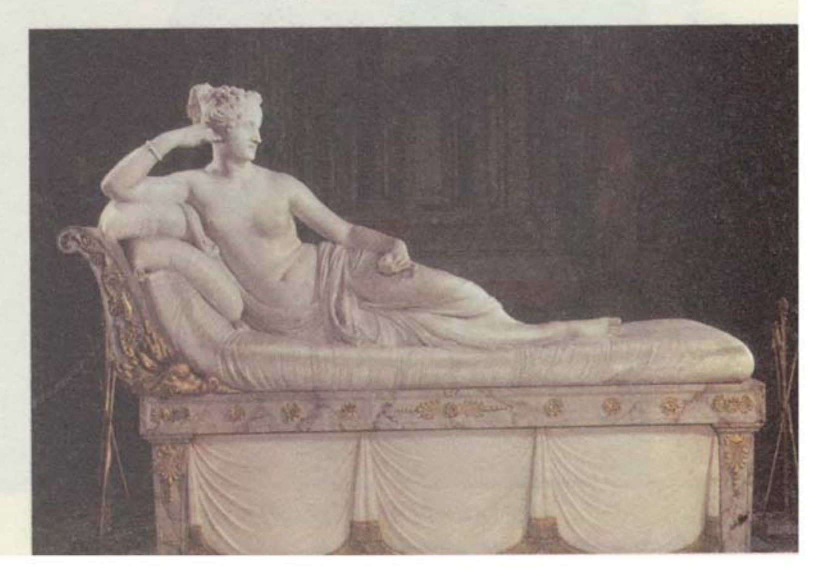


الإمبراطورة جوزفين، صورة رسمها بيار بول برودون.





فوق، بولين بونابرت، الأميرة بورغيز.
صورة رسمها روبير لوفافر.
إلى اليمين، صورة رسمتها ماري غيلهلمين للأميرة بورغيز.
تحت، منحوتة نفّذها أنطونيو كانوفا للأميرة بورغيز.





إليزا بونابرت، دوقة توسكانيا الكبيرة وابنتها نابوليون – إليزا. صورة رسمها بيترو بنفينوتي.



يواكيم مورا، ملك نابولي، صورة رسمها فرانسوا باسكال سيمون، البارون جيرار.



كارولين مورا، ملكة نابولي، صورة رسمها فرانسوا باسكال سيمون، البارون جيرار.

23

صاحبات السموّ الإمبراطوري والسيدة الأم

«ذهلتا لهذا التمييز بينهما وبين زوجتي شقيقيهما»

في 28 أيار/مايو 1804، اليوم الذي أعلن فيه مجلس الشيوخ القنصل الأول «إمبراطوراً لجمهورية فرنسا»، أقيم حفل في سان كلو. لم يكن ذلك حدثاً سعيداً. فقد استنكر الملكيون والجنود القدامى للثورة على السواء اللقب الجديد المثير للخلاف. بل إن أندوش جونو بكى، ورأت مدام دي ستال أن من المؤسف أن يهبط الرجل الذي «سما فوق كل العروش ليتخذ مكانه طواعية بين الملوك».

وساد مزيد من الأسف عندما أعلن في المأدبة أن جوزف ولويس بونابرت سيصبحان أميري الإمبراطورية، وزوجتيهما جولي وأورتنس، على التوالي، ستصبحان أميرتين. ووفقاً لكلير دي ريموسا، أصيبت شقيقتا الإمبراطور، إليزا وكارولين «بالذهول لهذا التمييز بينهما وبين زوجتي شقيقيهما». ولم تستطع كارولين على وجه الخصوص أن تخفي امتعاضها. وفي أثناء العشاء، لم تستطع السيطرة على نفسها، عندما خاطب أخوها أورتنس بالأميرة لويس، وانهمرت الدموع من عينيها. شربت عدة أكواب من الماء في محاولة لاستعادة رباطة جأشها، وعندما حاولت أن تأكل شيئاً شهقت بالبكاء. أما أليزا، وهي أكبر منها سناً وأكثر منها هدوءاً، فإنها لم تبك، «لكنها اتبعت سلوكاً فظاً وجارحاً وعاملت الوصيفات بكبرياء شديد».

بكت كارولين ثانية في اليوم التالي عندما طلبت إجراء حديث شخصي

مع أخيها في غرفة الإمبراطورة. «طالبت بمعرفة سبب الحكم عليها بالتعتيم والازدراء العام في حين أغدق التكريم والألقاب على الغريبات». وأغمي عليها في غمرة انفعالها- أو تصنّعت الانهيار- وسقطت على الأرض. وفي اليوم التالي أعلن المنادي أن شقيقات الإمبراطور سيحملن لقب صاحبات السموّ الإمبراطوري.

كانت كارولين في الحادية والعشرين في ذلك الوقت. وقد كتبت عنها إحدى بناتها لاحقاً: «كانت مكتنزة قليلاً وذات بشرة شديدة البياض حتى إن كتفيها يبدوان عندما ترتدي فستان السهرة مغطيين بالساتان الأبيض... وكانت عيناها لوزيتين... وتعابيرها لطيفة وعذبة... ويداها وقدماها صغيرة».

لم يكن زواجها غير سعيد، مع أنها لم تخلص له سراً في حين أنه لم يكن مخلصاً لها في العلن. وقد علّق نابليون: «يبدو أن على مورا أن ينام مع امرأة كل ليلة. وأي امرأة ترضيه، ولا يوقفه شيء سواء أكان مصاباً بالزهري أم لا. وعندما يسهل إرضاء المرء فإنه يجد احتياجاته في أي مكان، وذلك من حسن الحظ».

بعد أن حصلت شقيقات نابليون على ألقاب رفيعة، أبلغ الكاردينال فِش نابليون أن أمه تفكّر في الحصول على لقب أيضاً. وكانت تنزعج كثيراً عندما يدعوها بعض الأشخاص «صاحبة الجلالة» أو «والدة الإمبراطور»، في حين يخاطبها آخرون كما يخاطبون بناتها: «صاحبة السمو الإمبراطوري». بعد بحث المسألة مع أشخاص يعتبرون مراجع في هذا الموضوع، اقترح نابليون أن يطلق على أمه رسمياً لقب «السيدة صاحبة السمو، والدة صاحب الجلالة الإمبراطور». وأصبحت تعرف

بعد ذلك «بالسيدة الأم»، وهو لقب قبلته بفتور.

لم تكن في مزاج حسن عندما توجّهت إلى إيطاليا حيث قدمها الكاردينال فِش «إلى البابا في كيرينال، إلى جانب ابنتها [بولين] ومدام كلاري». وقال الكاردينال في تقرير إلى نابليون في سنة 1804: «استقبلت بمراسم كاملة، ورافقها الحرس السويسري إلى غرفة الانتظار الأولى، حيث استقبلها النبلاء... وكان نبلاء روما يزورونها من دون انقطاع... وطلب عميد الكلية المقدسة من جميع الكاردينالات تقديم تحية الاحترام لها خلال أربع وعشرين ساعة».

بعد أن أقامت مدة من الزمن في بيت قرب الدرج الإسباني كان قد اشتراه لوسيان، انتقلت إلى قصر فالكونييري في شارع فيا غيليا، قبل أن تتوجّه للعلاج في مياه باني دي لوكا– التي أرجع إليها غابرييل فالوبيوس، عالم التشريح في القرن السادس عشر، الفضل في شفائه من الصمم– معلنة أنها لا تنوي حضور تتويج نابليون الوشيك إمبراطوراً على فرنسا، ومصممة على ألا تكون شاهدة على وضع التاج على رأس «العاهرة».

24

التتويج

«بدا شبيهاً بملك الماس»

أشرف نابليون بعناية شديدة على جميع ترتيبات حفل تتويجه المقرّر إجراؤه في 2 كانون الأول/ديسمبر 1804. فطلب إجراء تغييرات داخل كاتدرائية نوتردام، وأذن بتدمير عدة بيوت اعتُبرت قريبة جداً من مبنى الكاتدرائية، وكلّف الرسام جاك لويس دافيد برسم لوحة «تتويج نابليون»، وعهد بتصميم الأزياء المثيرة إلى جان باتيست إيسابي الذي وضع اثنين وثلاثين رسماً تخلّد الحدث، وهي معروضة الآن في متحف اللوفر. بل إنه أمر بصنع نموذج للكاتدرائية من الداخل ومئات الشخصيات الورقية التي تمثّل المشاركين الرئيسيين في الحفل.

لم يكن قد تقرّر بعد إذا كانت جوزفين ستكون من هؤلاء المشاركين أم لا، وفي غضون ذلك كانت تعتزم التوجّه إلى آخن طلباً للفوائد المشكوك فيها لمياهها الساخنة، في أثناء قيام زوجها بجولة تفقديّة للقوات المحتشدة على الشاطئ بغية الغزو المزمع لإنجلترا. فأمر نابليون أن تسافر إلى هناك في موكب يليق بزوجة الإمبراطور المنتظر يتكوّن من أكثر من خمسين خادماً، بمن فيهم صاحب الخيل، ومفتّش مالي، وأربع سيدات، ووصيفتان، وضباط من البلاط، وحجّاب، وجنود راجلون، وطهاة، وحوذيون. وصدرت الأوامر بتزيين البلدات الواقعة على الطريق كما لو أنها في عيد، وأن تعزف الفرق الموسيقية وتطلق المدافع طلقات التحية.

أدت جوزفين دورها بسحرها ولباقتها المعهودين، وحافظت على

هدوئها عندما قدّم إليها أثر من رفات الإمبراطور شالمان الذي يوجد قبره في كنيسة سان ماري في آخن. لم تكن راغبة في لمس الأثر المخيف، وهو عظمة من ذراع الرجل العظيم، فوجدت العذر الملائم في عدم القيام بذلك بإعلانها أن لديها ذراعاً تدعمها لا تقل قوة عن ذراع شارلمان.

سرّ نابليون كثيراً بالتقارير الواردة عن التقدّم الذي أحرزته، فقرّر الذهاب لمقابلتها في آخن واصطحابها في زيارة دولة إلى الراين. فاغتبطت وابتهجت. وكان قد قد أرسل إليها عدداً من الخطابات العاطفية– لم تردّ عليها بطبيعة الحال– التي تطمئنها إلى استمرار حبه وتؤكّد أنها عامل «أساسي» من عوامل سعادته. وجاء في إحدى رسائله: «أغطيك بقبلاتي. لا أستطيع انتظار لقياك... حياة العازب مريعة. إنني أفتقد زوجتي الطيبة والجميلة... لم أسمع عنك شيئاً منذ أيام، وأود أن أتلقّى أخبارك».

كان يودّ أيضاً أن يعرف أخبار وصيفتها إليزابيت دي ڤودي، التي أسرّت إليها جوزفين كيف يصبح نابليون قاسياً وغاضباً عندما ينغمس في إحدى علاقاته الغرامية المؤقّتة، عندما يكون في «موسم رتيب» وفقاً لعبارته الفظّة. في مينز، قدّم نابليون دليلاً واضحاً على هذه العلاقة عندما اعترضت جوزفين وتذّرعت بأنها تشعر بالإرهاق والمرض ولا تستطيع الذهاب إلى إحدى الحفلات. فقد أمسك بها زوجها من ذراعها، ليست المرة الأولى أو الأخيرة، وجذبها من السرير وأمرها أن ترتدي ملابسها على الفور.

بعد ارتباط وجيز بإليزابيت دي ڤودي المثيرة وذات المزاج المتقلّب، طردها نابليون من خدمة جوزفين لاتهامها بالسرقة وبدأ علاقة بشابة مطلّقة تدعى أديل دوشاتل، إحدى صديقات شقيقته كارولين، وهي وفقاً لأورتنس ابنة زوجته، «مخلوقة حيوية ذات شعر أسود وعينين زرقاوين

داكنتين واسعتين وجذّابتين، وأنف طويل مستدقّ جداً، وأجمل أسنان في العالم، وبشرة باهتة في الصباح لكنها رائعة في الليل».

كان في غاية اللطف عندما لفتت أديل دوشاتل انتباهه ذات مساء في مقصف عشاء. فمال على كتفها وقال: «يجب ألا تأكلي الزيتون في المساء لأنه يضرّك» وأضاف ملتفتاً إلى جارتها: «وأنت يا مدام جونو، لم تأكلي الزيتون وأنت محقّة تماماً في ذلك، ومحقّة أيضاً في عدم تقليد مدام دوشاتل التي يتعذّر تقليدها».

على غير العادة، كما قال وصيفه لويس كونستان، سعى نابليون كي لا تعرف زوجته بأمر هذه العلاقة الجديدة. «كان ينتظر حتى ينام الجميع قبل أن ينضمّ إلى عشيقته، ويتخذ احتياطيات كبيرة بحيث يتوجه من غرفته إلى غرفتها بلباس النوم ومن دون حذاء أو شبشب في قدميه.

غير أن جوزفين عرفت بوجود هذه العلاقة الجديدة ذات ليلة عندما لاحظت أن نابليون ومدام دوشاتل انسلا بعيداً عن الجماعة المحتشدة في قاعة الاستقبال في سان كلو قبل العشاء. فتبعتهما وارتقت الدرج المفضي إلى الغرفة المجاورة لمكتب زوجها، وعندما سمعت صوته وصوت مدام مدام دوشاتل من خلف الباب المغلق، استجمعت شجاعتها لتطرق الباب وتطلب السماح لها بالدخول.

فتح نابليون الباب شبه عارٍ وظهر أمامها والشرر يتطاير من عينيه. فهربت من وجهه ونزلت الدرج ولجأت إلى جناحها خوفاً من غضب بونابرت الذي سُمع صياحه بوضوح في قاعة الاستقبال وهو يطالبها أن تغادر سان كلو على الفور– مثلما فعلت مدام دوشاتل الخائفة– ويتهمها بالتجسّس عليه والتدخّل في حياته الشخصية، وعدم القدرة على أن تنجب له طفلاً، وتدفعه إلى الزواج من امرأة أخرى تستطيع ذلك.

وبعدما خرج غاضباً، رجت جوزفين مدام ريموسا أن تذهب إلى أورتنس وتطلب منها التدخّل لدى نابليون لصالح أمها. لكن أورتنس رفضت القيام بذلك لأن زوجها منعها. وأبلغت كلير ريموسا: «لن تخسر أمي سوى التاج وهناك كثير من النساء الأخريات اللواتي يرثى لحالهن». وأضافت أورتنس أن أملها الوحيد في تهدئة نابليون استخدام تأثيرها عليه بالاعتماد على «طبيعتها العذبة والرقيقة ودموعها».

كانت تلك نصيحة سليمة. وقد نجحت جوزفين في تليين نابليون بالاعتماد على ما أسمته مدام ريموسا «خضوعها الكامل» و«عذوبتها الرقيقة والذكية». فلم يعد يصرّ على الطلاق، ومع أنه لم يتخذ قراراً بشأن تتويجها عندما يتوّج عما قريب– اتحدت عائلته في حثّه على عدم تتويجها– فإنه أخذ يفكّر أن من الأسلم أن تشاركه عظمته. وقال: «لو أنني سُجنت بدلاً من ارتقاء العرش، لكانت شاركتني محنتي».

في النهاية، قبل بضعة أسابيع من موعد التتويج المحدّد، بعد أن شعر نابليون بالانزعاج من ضغط عائلته والاستياء من إحساسهم بالانتصار قبل الأوان، وفقاً لمدام ريموسا، توجّه إلى غرفة جوزفين وطوّقها بذراعيه، وواساها كما لو أنها طفلة، وقال لها: «سيأتي البابا إلى هنا في نهاية الشهر. وسيتوجّنا معاً. ابدئي بتحضير نفسك للمناسبة».

عندما علمت العائلة أن نابليون اتخذ هذا القرار مخالفاً رغباتها المعروفة والمتكرّرة، ثارت عليه غاضبة. فرفضت شقيقاته حمل ذيل ثوب جوزفين كما اقترح شقيقهن. وبعد عدة ليالٍ مؤرقة، رضخ لاعتراضاتهن الشديدة، وسمح لهن بأن يقدّمن لها إيماءات فحسب، ووافق على أن تحمل مرافقات أذيال أثوابهن.

بعد ذلك حدثت خلافات مع البابا بيوس السابع الذي تصالح مع

الجمهورية الفرنسية بموجب اتفاقية عقدت في سنة 1801 تنظم العلاقات بين الكنيسة والدولة. اعترفت له جوزفين أن زواجها من نابليون كان مدنياً فقط بسبب الاضطرابات في تلك الأثناء. فقال البابا إنهما ليسا متزوّجين البتة في نظر الكنيسة. وبالتالي يتعذّر دهن أي منهما بالزيت المقدّس الذي يتطلبه قدّاس التتويج. وبناء على ذلك طلب نابليون من الكاردينال جوزيف فش، الذي حصل على الكاردينالية في السنة الماضية، ترتيب قدّاس زواج في الليلة نفسها. فنفّذ ذلك على عجل وبسرية بحيث لم يكن هناك شهود على ذلك الحفل المرتجل– ومن ثم فإن صحته عرضة للتشكيك. ومع ذلك طلبت جوزفين من الكاردينال فش نسخة من شهادة الزواج على سبيل الاحتياط.

بدأ موكب العربات بمغادرة قصر تويليري إلى كاتدرائية نوتردام في التاسعة من صباح يوم 2 كانون الأول/ديسمبر 1804 القارس، وكان العديد من السيدات في هذه العربات يجلسن منذ ساعات وهن قلقات كي لا تتلف تسريحاتهن التي عمل عليها المصفّفون جانباً طويلاً من الليل. تقدّمت عربة البابا يرافقها الفرسان عبر الشوارع التي تساقط عليها الثلج في الليل متبوعاً بالأمطار. وقد رفع يديه لمنح البركة عبر نافذة العربة، فيما ركع العديد من المشاهدين على الثلج الذائب عند رؤيته.

لم يكن هناك الكثير مما يدل على فرحة الشعب. فقد أصرّ نابليون على ألا ينظّم الحفل للجمهور، وأن يقتصر المصلّون على عليّة القوم فقط. فلم يصمّم الحفل لتسلية «عشرين ألف بائعة سمك والسكان الفاسدين». تتابع تحرّك العربات التي تنقل الوزراء والجنرالات في أزيائهم الغريبة التي صمّمها جان باتيست إيسابي، وبدوا كأنهم مرضى ببنطلوناتهم المريحة

والأطواق المكشكشة المحيطة بالرقبة والأحذية ذات الكعوب العالية المزينة بشرائط على شكل ورود. وقد أبدت الحشود الاحترام بدلاً من الحماسة، وحضر الملكيون بدافع الفضول مستهجنين مثل هذا المشهد المثير للضحك الذي قدّر وزير المالية أن تكلفته تزيد على ثمانية ملايين فرنك.

بدا نابليون، الذي لا يزال في قصر تويليري، غير محرج من الملابس الفاخرة والمجوهرات العديدة اللامعة التي يرتديها ما منحه مظهر «مرآة متحرّكة» كما قال أحدهم. ولاحظت الكونتيسة دي بوين أن الزي ربما كان مقبولاً على لوحة الرسم، لكنه بدا «رهيباً على نابليون القصير والسمين. لقد بدا شبيهاً بملك الماس».

لم يكن نابليون مستعجلاً للذهاب إلى كاتدرائية نوتردام، ولم تخرج العربة الإمبراطورية ذات النسور الأربعة التي تحمل تاجاً على سقفها من فناء قصر تويليري إلا بعد ساعتين تقريباً على مغادرة البابا. وقد جلس فيها في مواجهة نابليون وجوزفين كل من جوزيف ولويس بونابرت– كلاهما يرتدي الساتان الأبيض المزيّن بالماس.

عندما برز نابليون حاملاً صولجاناً من غرفة الملابس بجوار الكاتدرائية، بدا أكثر غرابة مما هو عليه دائماً. كان يرتدي الآن وشاحاً مخملياً أرجوانياً مبطّناً بفراء القاقم الأبيض ومخيطاً بالنحل(*)، وعلى رأسه أكليل من أوراق الغار الذهبية. وكان وجهه باهتاً على نحو ملحوظ. ولاحظت لور دابرانتيه، التي أصبح زوجها الجنرال جونو دوق أبرانتيه، أنه شوهد يكبت تثاؤبه عدة مرات.

بدت زوجته مرتاحة جداً بابتسامتها المعهودة من دون أن تفتح

(*) النحل رمز للمثابرة وقد استخدمه الإمبراطور شارلمان الذي وحّد عن طريق الفتح معظم الأراضي المسيحية في أوروبا الغربية.

شفتيها، على الرغم من أن تعابير شقيقات زوجها اللواتي يحملن وشاحها على مضض أوضحت بجلاء أنهن مستاءات من اضطرارهن للقيام بذلك.

عندما ظهر الموكب الإمبراطوري، نهضت جماعة المصلّين وصفّقت، بعد انتظار ما يقرب من ست ساعات في الكاتدرائية الشديدة البرودة، وإسكات جوعهم بتناول لفائف السجق التي باعها لهم سراً أحد البائعين المتجوّلين المغامرين.

تواصل التهليل فيما قاد الكاردينال فش الطريق نحو العرشين في النهاية البعيدة لصحن الكنيسة أمام المذبح. وكان تقدّمه بطيئاً بالنسبة إلى نابليون الذي سار خلفه وهو ينخسه في ظهره بالصولجان.

أخيراً، وصل الإمبراطور والإمبراطورة إلى العرشين، وركعا على وسادتين أمامهما لتلقي الدهن بالزيت المقدّس على رأسيهما وأيديهما. وبعد الاحتفال بالقدّاس، وضع البابا تاجين على المذبح وباركهما. وقبل أن يتناولهما ثانية، استبقه نابليون بارتقاء الدرجات إلى المذبح والتقاط التاج الكبير، ثم التفت لمواجهة الحاضرين ورفعه أمامهم إلى أعلى وأنزله ببطء شديد على رأسه، وبدا على محياه تعبير رأت لور دابرانتيه أن «من المتعذّر وصفه».

> كانت طريقة تتويجه جوزفين رائعة جداً [كما قالت مدام دي ريموسا]. فبعد أن التقط تاجها الصغير، وضعه عى رأسه أولاً ثم نقله إلى رأسها... وبدت طريقته مرحة إلى حدٍّ كبير. بذل جهداً كبيراً في ترتيب وضع هذا التاج فوق إكليل جوزفين. فقد وضعه، ثم رفعه ليضعه ثانية.

وأضافت مدام ريموسا أنه قبل ذلك: «نظر بعين الإعجاب إلى الإمبراطورة... التي جثت فيما انهمرت الدموع التي لم تستطع حبسها

وسقطت على يديهما المتشابكتين... وبدا أن كليهما مستمتع بتلك اللحظات العابرة من الغبطة المشتركة الفريدة في الحياة».

تلا هذا الفاصل المؤثّر مشهد محرج عندما بدأ الإمبراطور والإمبراطورة ارتقاء الدرجات المفضية إلى عرشين كبيرين وضعا على منصّة على مقربة من باب الكاتدرائية الغربي. عندما بدأت الإمبراطورة ارتقاء الدرجات، راقب أحد الحاضرين سلوك وتصرّفات شقيقات زوجها من ورائها: «لم يكن هناك شيء مضحك أكثر من طريقة أدائهن أدوارهن [في حمل وشاح الإمبراطورة]. أبدت إحداهن استياءها، وحملت أخرى أملاح النُّشادر تحت أنفها، وتركت الثالثة الوشاح يسقط».

ونتيجة لذلك كادت جوزفين أن تقع، لكنها لم تفقد شيئاً من احترامها. في تلك الليلة، تناولت هي ونابليون العشاء معاً لوحدهما. طلب منها أن ترتدي تاجها: أبلغها أنها بدت «جميلة جداً. ما من أحد يمكن أن يرتدي تاجاً بجاذبية أكبر».

عادت عشيقته المهجورة، الآنسة جورج، إلى البيت «بقلب مثقل». كانت هناك احتفالات وأنوار وألعاب نارية، مع ذلك فإنها «لم ترغب في مشاهدة أي منها».

25

الأبناء من دون زواج والأبناء بالتبنّي

«أنا أكسب المعارك، وجوزفين تكسب القلوب»

بعد أن جعل نابليون من نفسه إمبراطوراً، قرر أن يخلع على نفسه لقب ملك إيطاليا، وفي ربيع سنة 1805، توجّه إلى ميلانو، وأخذ جوزفين معه.

كان الإمبراطور في مزاج بهيج ومجاملاً، بل مرحاً. وفي أعقاب التتويج، سعى إلى تسلية جوزفين بتقليد بعض المسؤولين ورجال الدين الذين شاركوا في حفل التتويج، ثم بدأ يطاردها في الغرفة وهو ينخزها ويقرصها ويدغدغها.

بدوا مرتاحين معاً كما كان دأبهما. وعندما غادر نابليون إيطاليا ليقوم بآخر جولة تفقدية للجيش المحتشد على الساحل لغزو إنجلترا، أرسل في طلب فتاة إيطالية لتنام معه في أثناء غيابه. لكنه كتب إلى جوزفين بعاطفة متقدة مرسلاً لها آلاف القبل، في حين أنها طمأنت ابنها يوجين– الذي حثّها بقوة على ألا تكترث لارتباطات زوجها– إلى أنه «لم يعد هناك مشاهد غيرة الآن» وأنهما يعيشان بسعادة.

رجت نابليون أن يأخذها معه عندما عاد من ساحل القناة ولديه النية في مقاتلة النمساويين– الذين أفيد أنهم يستعدّون للانضمام إلى بريطانيا وروسيا في تحالف مضادّ له. وافق الإمبراطور على طلبها، في 24 أيلول/ سبتمبر 1805، انطلقا معاً إلى قصر أسقفي في ستراسبورغ في عربته المخصصة للسفر والتي تجرّها ثمانية جياد.

افترقا بعد أسبوع وتملّكت به المشاعر العاطفية، وفقاً لتاليران، بحيث

عانى من نوبة صرع– بعد أن مرض وبكى.

زحف «الجيش العظيم»، وهو قوة تضمّ نحو 350,000 رجل تحت قيادة مركزية، بسرعة كبيرة للوصول إلى الجيش النمساوي قبل أن ينضم إليه الروس، ونجح في تحقيق ذلك. وكتب نابليون إلى جوزفين بعد استسلام الجيش النمساوي في أولم في 20 تشرين الأول/أكتوبر، «لقد حقّقت قدري ودمّرت الجيش النمساوي. هذه أقصر حملة أشنّها وألمعها وأنجحها... إلى اللقاء يا حبيبتي جوزفين». وأضاف منهياً رسالته بعبارة طالما استخدمها عند الكتابة إليها: «أهديك ألف قبلة في كل مكان».

عندما تسلّمت جوزفين هذه الرسالة، كانت في ستراسبورغ تؤدي دور الإمبراطورة وتمثّل زوجها أحسن تمثيل باعتبارها مضيفة إمبراطورية تبعث على الثقة والودّ في مآدب العشاء وحفلات الاستقبال وزوجة قلقة ومتعاطفة للجنرال تزور رجاله الجرحى في المستشفى. وكانت هناك بعد خمسة أسابيع، عندما هزم نابليون ثانية النمساويين الذين انضمّ إليهم الروس في ذلك الوقت في معركة أوسترِلتز. فأبلغها أن تلك «أجمل معركة» خاضها. كما أبلغ كلود مينڤال، سكرتيره الذي خلف بوريان، أنه أجمل أيام حياته. وقد عوّضه عن دمار الأسطول الفرنسي على يد اللورد نلسون في معركة الطرف الأغرّ بعد مضي يوم واحد على معركة أولم، وهو حدث لم يهتم بإيلائه مزيداً من التفاصيل.

عندما وصل نابليون إلى ڤيينا، لم تكن جوزفين قد كتبت إليه لتهنئته على انتصاره العظيم في أوسترلتز. فكتب لها رسالة شكوى بتلك الطريقة الهزلية الأقرب ما تكون إلى الفكاهة: «أيتها الإمبراطورة الجبّارة، لم تصلني أي كلمة منك... تكرّمي بالنزول من علياء بهائك لتتعطفي بملاحظة صغيرة لعبدك».

وأخبرتها الرسالة أنه طلب من ابنها، يوجين، الزواج من الأميرة أوغستا، ابنة ناخب بافاريا. وبناء على ذلك تعيّن على جوزفين التوجّه إلى ميونيخ، عاصمة بافاريا، للقاء كنّتها المنتظرة من أجل ترتيبات الزواج. وبعد ذلك أصدر تعليمات دقيقة بشأن الطريق التي تسلكه ونصيحة نافلة بشأن سلوكها في بلاطات مختلف الحكام الألمان الذين ستمر في دولهم. عليها بطبيعة الحال أن تكون مهذّبة معهم، لكن أن تتقبّل ولاءهم بمثابة احترام واجب لإمبراطورة فرنسا المنتصرة. غير أنه يجب أن يقتصر التعامل مع ناخبة ڤورتمبرغ على المجاملة العادية: فهي ابنة الملك البريطاني، جورج الثالث. أما بشأن زوجها البدين جداً، فقال نابليون إن الله خلقه ليظهر كم يمكن أن يتمدّد جسم الإنسان من دون أن ينفجر.

تصرّفت جوزفين طوال الرحلة على ما عهد عنها من لطف ولباقة، وخلبت الألباب بسحرها. فعلّق نابليون عندما أبلغ بذلك: «أنا أكسب المعارك، وجوزفين تكسب القلوب». غير أنه لم يكن راضياً عندما علم أن قراره بشأن مستقبل ابن جوزفين لم يُقبل بما كان يتوقّعه من حماسة. فقد أشار والد الأميرة أوغستا إلى أن ابنته مخطوبة وستتزوّج من ولي عهد بادن. كما أن شقيقة ولي عهد بادن هي زوجة والد أوغستا وكانت لديها آمال بأن تتزوّج دوق إنيان، والأفضل أن يقل الكلام في هذا الموضوع.

استبعد نابليون كل هذه الاعتراضات على الفور: يستطيع ولي عهد بادن أن يتزوّج ابنة شقيقة الإمبراطورة جوزفين؛ ويمكن أن يصبح ناخب بافاريا ملكاً؛ ويمكن أن يمنح يوجين لقب صاحب السموّ الإمبراطوري، ويعيّن نائب ملك إيطاليا، ويعترف به رسمياً ابناً بالتبنّي للإمبراطور نابليون. وستكون الأميرة أوغستا، ابنة الثمانية عشر ربيعاً، زوجة ممتازة له ونائبة ملك ملائمة في ميلانو– وقد أثبتت ذلك بالفعل.

حزنت جوزفين في البداية عندما أدركت أن ابنها سيغادر فرنسا، لكنها سرعان ما واست نفسها بأن يوجين يمكن أن يصبح خليفة الإمبراطور باعتباره ابنه بالتبنّي. وإذا لم يصبح كذلك، فإن ابن ابنتها الصغير، نابليون شارل، يمكنه ذلك. وفي كلا الحالين تراجعت خشيتها من احتمال الطلاق.

في هذه الأثناء، أصبحت عائلة نابليون قلقة، أكثر من أي وقت مضى، من ألا يتخلى نابليون عن فكرة الطلاق. وأملاً في إثبات فكرة أنه قادر على إنجاب الأبناء– وهي قدرة غير أكيدة البتة وفقاً لاعتقادهم– فقد خططت شقيقته كارولين لتعرّفه إلى إلينور دينويل دي لا بلان، وهي فتاة طويلة جذّابة وطموحة في الثامنة عشرة من العمر، كانت طالبة في مدرسة مدام كامبان حيث لم تتميّز كعالمة. كانت سكرتيرة كارولين، وعشيقة زوجها، وفي رأي كونستان، وصيف نابليون، «امرأة لعوب رائعة». كما كان زوجها مسجوناً بتهمة التزوير.

أعجب نابليون بها كثيراً، وأخذ يقضي معها ساعتين يومياً، وعند عودته إلى باريس اتخذ لها بيتاً في شارع النصر. غير أنها لم تعجب به كثيراً، وفي مناسبة واحدة على الأقل، قدّمت الساعة كي يعتقد أن الوقت تقدم نصف ساعة.

في كانون الأول/ديسمبر 1806، وضعت إلينور ولداً أُقنع في البداية أنه والده، على الرغم من محاولات تحريره من هذا الوهم، لا سيما من قبل فوشيه الواسع الاطلاع الذي أكّد له أن الولد ابن مورا. مع ذلك عندما طلبت إلينور الإذن بتسمية الصبي نابليون، وافق على «نصف الاسم». وهكذا أصبح الصبي شارل ليون دينويل، ولا شك في أنه شبّ ليحمل شبهاً ملحوظاً بالإمبراطور.

26
الحياة في البلاط

«ما أريده هو العظمة قبل كل شيء».

عندما عاد نابليون إلى باريس قادماً من البلاطات النمساوية والباڤارية، في أعقاب انتصاره الحاسم على النمساويين وحلفائهم في 2 كانون الأول/ ديسمبر 1805، قرّر أن يفرض على بلاطه أسلوباً وسلوكاً رسمياً أكثر مهابة من ذلك المتبع في تلك البلاطات، أو إجراء احتفالياً يليق بالمنتصر في معركة أوسترلتز.

اعتبر أيضاً حجم هذا البلاط يليق بإمبراطور يمتلك الكثير من القصور المنتشرة في أنحاء إمبراطوريته الأوروبية. وكانت الدوائر المختلفة تضم عدداً مدهشاً من الأشخاص: على سبيل المثال، كان 630 شخصاً يعملون في الاسطبلات وحدها ويشملون السائسين والحوذيين والمرافقين والراجلين المسؤولين عن أكثر من ألف حصان ومئتي عربة تقريباً. وحسب في سنة 1813 أن البلاط الإمبراطوري يضمّ أكثر أربعة آلاف مقيم من مارشال القصر– أحد أصدقاء نابليون الحميمين القلائل، الجنرال دوروك، دوق فريول– إلى العاملين في الاسطبلات وعمال الجلي في المطابخ. وعندما ينتقل الإمبراطور، فإنه يكون مصحوباً بحاشية كبيرة لا تشمل المسؤولين والموظفين: ففي رحلة إلى هولندا في سنة 1811، اصطحب معه إلى جانب الجنرال دوروك، كبير ضباط القصر، وكبير سائسي كلاب الصيد، وأربعة ضباط عتاد حربي، ومساعدين، وضابطين من القصر الإمبراطوري، وأربعة حجّاب، وطبيباً، وعربات مليئة بالخدم الأقل منزلة.

كان العاملون في جناح الإمبراطورة مماثلين في العدد تقريباً. يوجد تحت كبير خدمها ووصيفة الشرف عشرون وصيفة بالإضافة إلى كاهن، ونساء غرفة النوم، وعدد من الحجّاب وضباط البلاط، وأطباء، وكثير من الخادمات.

وكان لأخوات الإمبراطور حاشيات كبيرة أيضاً. وتميّز بلاط إليزا بالترف على وجه الخصوص. وقد تطلّبت القصور الخمسة التي منحت لها في المقاطعات الصغيرة في شمال إيطاليا وجود كثير من الوصيفات وضبّاط البلاط الإمبراطوري والمساعدين والخدم الذين يرأسهم مدير للعاملين في البلاط ومدير للمراسم وضابط بلاط كبير، الكابتن بورتولوميو سيرامي، عشيق إليزا الذي كانت زوجته، أولمبيا، إحدى وصيفاتها.

وفي وقت لاحق، أصبح لديها باعتبارها دوقة توسكانيا الكبرى اثنتي عشرة وصيفة وتسعة حجّاب، وخمسة ضبّاط إمبراطوريين، وتسع عشرة خادمة.

كان العاملون في منزل بولين أقل عدداً وتكلفة، لكنهم يدارون بتسلّط شديد، حيث تمتد القواعد التي تحكم مؤسستها على نحو ألف فقرة تحمل كل منها توقيعها. وكان الزوّار يذهلون عند رؤية الأميرة رافعة قدميها على الجسم المنحني لإحدى الوصيفات كأنه مسند للقدمين. وقد دُهشت زوجة الأمير يوجين، الأميرة أوغستا، مما اعتبرته سوقية عائلة بونابرت بأكملها. وكتبت إلى أخيها في سنة 1810، «لا يسعني أن أتصوّر شيئاً أكثر تنفيراً من قلة أدبهم. الاختلاط بمثل هؤلاء عذاب لي». لكن كانت هناك واحدة في حاشية بولين لا يمكن أن ينسب إليها مثل هذا النقد اللاذع. إنها الوصيفة الجميلة كريستين دي ماتيس التي أصبحت عشيقة أخرى لنابليون.

نادراً ما كانت ترتكب تصرّفات لاأخلاقية في بلاط نابليون كتلك التي تصادف في بلاطات شقيقاته. وكان الحضور إلى البلاط خاضعاً لقواعد صارمة جداً. فلم يسمح لحبيبة تشارلز جيمس فوكس وزوجته لاحقاً، السيدة إليزابيت برِدجِت أرمستيد، بالعشاء في قصر تويليري لأنها لم تستقبل في بلاط سانت جيمس في لندن.

كانت هناك قواعد محددة تحكم الإجراءات المعتمدة في البلاط الإمبراطوري في باريس: «عندما يتناول جلالتهما الطعام في العلن، يقدّم كبير الخدم حوضاً للإمبراطور ليغسل يديه، ويقدّم كبير ضباط البلاط كرسيه، ويقدّم كبير موظفي القصر المنديل إلى جلالته. ويؤدي ثلاثة آخرون المهام نفسها للإمبراطورة. ويتوجّه المشرف الديني إلى مقدمة المائدة، ويبارك الطعام ثم يتنحّى جانباً. وفي أثناء تناول الطعام يقف جنرال وصيف خلف كرسي الإمبراطور وإلى يمينه كبير الخدم وكبير ضباط البلاط إلى يساره.

كان على الضيوف دائماً المحافظة على «مسافة معقولة» من الإمبراطور في جميع المناسبات، ولا يسمح لغيره من الملوك الحاضرين بارتداء قبعة. وعلى نحو ذلك، أصرّ في مؤتمر إرفورت، عندما التقى بالقيصر ألكسندر الأول في سنة 1808 على الحصول على أكبر القصور لأنه أحضر الحاشية الأكبر.

عند دخول القاعة، على السيدات الحاضرات الانحناء احتراماً للإمبراطور والإمبراطورة الجالسين على مقعدين مطليين بالذهب يحيط بهما أفراد من عائلة الإمبراطور ومسؤولو البلاط، وكبار الخدم والوصيفات وضباط البلاط والمارشالات والوزراء. وعلى السيدات بعد ذلك الانحناء ثانية بعد التقدّم قليلاً في القاعة، ثم التقدّم بضع خطوات

إضافية قبل الانحناء ثالثة. وبعد ذلك عليهن الانسحاب مشياً إلى الخلف والقيام بثلاث انحناءات أخرى قبل الوصول إلى الباب. وقد طلب الإمبراطور التمرّن على هذا الإجراء بحضوره، لكنه انزعج وضاق ذرعاً بحيث أقنع بصعوبة ألا يغادر كرسيه قبل الانتهاء.

وكان يظهر الضيق نفسه عند مساعدته في ارتداء الثياب صباحاً، كما يقول وصيفه لويس كونستان، فيضرب مساعديه ويدفعهم ويسب انعدام مهارتهم ويرفسهم، ويرفس قطع الحطب في المدفئة وهو يرمي في النار الملابس التي يشعر أنها غير مريحة.

وكان يزداد ضيقاً عند وجبات الطعام التي نادراً ما تدوم أكثر من ربع ساعة، على الرغم من آداب السلوك المحدّدة، فيلتهم طعامه ويتناوله بأي ترتيب من الأطباق العديدة الموضوعة أمامه على المائدة، مستخدماً أصابعه أحياناً، من دون إبداء كبير اكتراث لما يوجد فيها. كما يأكل بسرعة كبيرة جداً بحيث يعاني من عسر الهضم أو المرض، وقد ذكر كونستان مناسبات وجد فيها الإمبراطور ممدّداً على السجّادة– «وذلك ما يفعله في الغالب عندما يمرض»– وجوزفين جالسة بجواره ورأسه في حجرها. وقد وجد في السوس ما يريحه عندما يعاني من عسر الهضم واستمر طوال حياته في حمل قطع منه في جيبه، إلى جانب علبة السعوط والمنديل.

لم تعد جوزفين الآن تشاهد زوجها كثيراً باستثناء أوقات الوجبات وفي المساء. كان يمضي معظم الصباح في إملاء مينفال، أو أي سكرتير آخر، ويتعامل لمدة ساعات مع جميع أنواع الأعمال من شؤون الدولة والشواغل العسكرية والمدنية إلى المسائل التافهة في القصر. لم يكن هناك شيء رتيب جداً لا ينظر فيه، من تفاصيل حسابات المطبخ في تويليري ومالميزون وسان كلو إلى زخرفة مقرات الإقامة الإمبراطورية «العارية والبسيطة»

في رأي الإمبراطور وتأثيثها وتحويلها إلى مقرّات تتسم بالعظمة مستعيناً بالمعماريين والمزيّنين الداخليين، مثل بيار فرانسوا ليونارد فونتين وشارل بيرسييه، المسؤولين أساساً عن ابتكار الأسلوب الإمبراطوري، وصانعي الأثاث مثل الإخوة جاكوب. وأعلن الإمبراطور أن: «ما أريده هو العظمة قبل كل شيء. وكل ما هو عظيم جميل دائماً».

في موازاة إدخال تحسينات على هذه القصور، أجريت تغييرات أيضاً على بعض أنحاء باريس. فبدأ قوس النصر تخليداً للانتصارات العسكرية للثورة وقوات نابليون يتخذ شكله عند تقاطع جادة لا غراند آرميه وجادة الشانزيليزيه. وفي ساحة ڤاندوم ارتفع عمود طويل، مصنوع من البرونز المصهور من ألف ومئتي مدفع تم الاستيلاء عليها، يعلوه تمثال للإمبراطور. وعرضت الجياد الأربعة من واجهة سان ماركو على أعمدة في حدائق تويليري. ورُفعت قناطر شارع ريڤولي على أسس مدرسة الفروسية القديمة.

وكان نابليون بين الحين والآخر يقوم بجولات للاطلاع على تقدّم هذه الأشغال المختلفة. لكنه لا يمكث طويلاً ليتأمّلها. فقد كثرت الأعمال التي يقوم بها نابليون– بحيث أصبح يستدعي مينڤال في منتصف الليل بصورة متكرّرة أكثر من ذي قبل ليملي عليه التعليمات وسط بخار حمام ساخن جداً.

صار يجد صعوبة في الاسترخاء. في الأمسيات، في أعقاب تناول القهوة المحلاّة التي تقدّمها له جوزفين بعد أن تأخذ منها رشفة حرصاً على أن تكون على مذاقه، ربما يلعب مباراة شطرنج أو بليارود، وكان يغشّ بصورة صريحة عندما يلعب مع جوزفين ومع ذلك تتغلّب عليه بسهولة عادة. وفي بعض الأحيان، يطلب من جوزفين أن تقرأ له قبل الذهاب إلى

الفراش، كما في السابق، لكن ليس لوقت طويل.

لم تكن تقرأ البتة للاستمتاع أو التعلّم، كما تقول مدام ريموسا، وإنما تمضي ساعات أمام منضدتها للتعامل مع المراسلات الكثيرة مع أبنائها وأصدقائها، وسعت من دون كلل للحصول لهم على معاشات ومناصب، ومع عمال المشاتل بشأن نباتات حديقتها في ماليزون، ومع بائعي الحيوانات والطيور الدخيلة بشأن حديقة حيواناتها الصغيرة وأقفاص الطيور.

كانت شديدة التبذير، وتوزّع مبالغ كبيرة على المؤسسات الخيرية، وتدعم العديد من الفقراء الذين تعرفهم والخدم السابقين، ولا تسأل عن ثمن أي شيء، وتضيف مزيداً من المجوهرات والأحجار الكريمة إلى مجموعتها الضخمة، وتشتري الأثاث وتكلّف الرسامين باللوحات، وتنفق ثروة على ملابسها. وقد حُسب أنها اشترت ما لا يقل عن تسعمئة فستان في عام واحد بعد أن أصبحت إمبراطورة، من دون ذكر الثمانمئة فرنك التي أنفقتها على العطور.

كانت تعتني دائماً اعتناء شديداً بملابسها. وفي كل يوم بعد أن تدخل كلابها وخادماتها غرفتها، وبعد حمام الصباح، والتبرّج وقيام المزيّن بمعالجة شعرها وتصفيفه، تحمل خادماتها ملابسها في سلال وصناديق القبّعات والأحذية كي تختار منها ما ترتديه، وتحرص على إرضاء زوجها الذي يبدي اهتماماً شديداً في ما ترتدي. وذات مرة رمى محبرة على فستان لم يعجبه حتى لا ترتديه ثانية. ولم يعد الآن يصرّ على حشمة فساتينها وبساطتها، بل أصبح يحب أن تتبرّج كثيراً وترتدي الفساتين المقوّرة، وإذا اعتبرها مفرطة الحشمة، ينتزع شالها عنها ويرميه.

لم يشتك البتة من أنها تنفق الكثير على خياط ملابسها. بل كان ينتظر

أن تكون وصيفاتها مسرفات أيضاً، معتبراً أن الإسراف في البلاط مظهر من مظاهر القوة. وطلب أن ترتدي جميع وصيفات الإمبراطورة الفستان مرة واحدة. وبعض فساتين الإمبراطورة لم يكن يمكن ارتداؤها أكثر من مرة واحدة، حيث أحدها مغطى تماماً بأكثر من ألف بتلة ورد غضّة. وذات يوم قال لدوقة أبرانتس: «لقد ارتديت هذا الفستان عدة مرات يا مدام. إنه فستان جميل، لكننا رأيناه من قبل». وفي مناسبة أخرى، وبّخها لأنها ارتدت فستاناً أسود في حفل تتويجه: «هل هو حداد؟ أبلغيني لماذا اخترت ذلك اللون الكئيب الذي يمكنني القول إنه مشؤوم»؟

«لم تلحظ جلالتك أن مقدّم فستاني غني التطريز بالذهب وأنني ارتديت الماس. وكان هناك أخريات كثيرات يرتدين فساتين داكنة. إنني لست وصيفة في البلاط، لذا لست مجبرة على ارتداء فساتين البلاط».

«هل ترمي تلك الملاحظة إلى نقل لوم غير مباشر؟ هل أنت مثل بعض النساء الأخريات اللواتي يمتعضن لأنهن لم يعيّن سيدات القصر؟ إنني لا أحبّ التجهّم أو الوجوم».

عندما ظهرت جوزفين ذات يوم مرتدية فستاناً من الموسلين الأبيض وجده نابليون مرضياً جداً، عبّر الإمبراطور عن سروره وإعجابه. وقالت لور لدوقة أبرانتس: «توجّه نحوها وقبّل كتفها وجبهتها وقادها نحو مرآة كي يراها من جميع الجوانب في وقت واحد. وقال 'أعتقد أن علي أن أغار يا جوزفين. لا بد أنك تفكّرين في فتح ما. لَمَ تبدين جميلة جداً اليوم؟' 'أعرف أنك تحب أن تراني في الأبيض. لذا ارتديت فستاناً أبيض، هذا كل شيء'. فأجابها، 'حسناً، إذا كان ذلك لترضيني، فقد نجحت'. ثم قبّلها ثانية».

سعت جوزفين إلى عدم الغيرة من اهتمامه بالنساء الأخريات، مع أن

هناك مناسبات لم تستطع أن تكبت غضبها على الرغم من أن هذا الغضب النادر يثير استياء نابليون وردّه الوحشي. كانت تعرف تماماً متى يبدأ نابليون علاقة جديدة أو ينهيها. بل إنه سعى إلى مساعدتها في التخلّص من نساء سئم منهن، ولم يهتم كثيراً أو على الإطلاق في الحرص على عدم معرفتها بالعلاقات التي لا تزال قائمة. كان لدى وصيفه كونستان أوامر بعدم السماح بدخول أحد مكتب سيّده عندما يكون الإمبراطور مع ممثّلة أو إحدى وصيفات البلاط اللواتي ينلن إعجابه. لكنه في أحاديثه مع المسؤولين في البلاط ومع جوزفين نفسها، لم يكن يخفي من كان يوجد معه في المكتب.

ووفقاً للآنسة أفريليون التي تهتم بمجوهرات الإمبراطورة، كان يبدي ملاحظات حول قوام عشيقاته المؤقّتات وشهوتهن وخبرتهن. وقالت كلير دي ريموسا إنه كان يقدّم روايات عن مطارحاته الغرامية «بصراحة غير لائقة». وأضافت مدام دي ريموسا أن هذه العلاقات لم تكن تشمل مشاعره: فمثل هذه المشاعر كانت مخصصة لزوجته.

وصف كونستان كيف كان بين السابعة والثامنة صباحاً يدخل غرفة نوم الإمبراطور والإمبراطورة ليأخذ طلباتهما من الشاي أو نقيع أزهار البرتقال. ونادراً ما وجدهما نائمين، وعندما ينهض الإمبراطور تقول الإمبراطورة: «هل عليك النهوض؟ امكث مدة أطول ليلاً». فيردّ الإمبراطور: «أنت لست نائمة إذاً» ثم «يلفّها ببطانية ويربّت قليلاً على خدّها وكتفيها، ويقبّلها ضاحكاً».

كان يفترض في البلاط، كما تقول كلير دي ريموسا، أن الإمبراطور يستمتع بالحياة هناك بحيث إنه عندما دخل ملك بروسيا في معاهدة مع

القيصر وعبأ جيشه، زحف نابليون إلى أرض الراين لمهاجمة البروسيين قبل أن ينضمّ الروس إليهم، وبدا عليه الامتعاض الشديد من العودة إلى حياة المعسكر. غادر في الساعات الباكرة من يوم 24 أيلول/سبتمبر 1806. وعندما سمعت الإمبراطورة أنه يوشك أن يغادر، أسرعت في النزول على الدرج وقفزت داخل عربة الحملات لتذهب معه.

افترقا في مينتز، فتوجّه لقيادة جيشه ضد البروسيين، وبقيت في مينتز في جناح في قصر رئيس الأساقفة. وقد وصفت مدام دي ريموسا مشهد فراقهما بأنه عاطفي جداً: «احتضن الإمبراطور زوجته كأنه متردّد في تركها... وفي النهاية فعل ذلك دامعاً، أصيب بنوبة عصبية واختلاجات أدت إلى قياء شديد».

واكتأبت جوزفين كثيراً لمغادرته، وانهمرت دموعها وهي تتفحّص أوراق التارو المنتشرة على الطاولة أمامها، وتدرسها كي تتكهّن باحتمال أن تنجب طفلاً. لم يكن ذلك بعيداً عن تفكيره البتة، كما لم يكن بعيداً عن تفكيرها. كانت تلفت انتباهه إلى ولديها من بوهارنيه، ويقول إن ذلك حدث منذ زمن طويل. وذات مرة سُمع يكرّر ما أخبرها به الطبيب: «لكنك توقّفت عن الحيض». واقتنعت هي نفسها الآن أنها لا تستطيع أن تحمل ثانية: ربما تكون الإجهاضات التي قامت لها في الماضي والتدابير غير المتقنة التي اتخذتها لتجنّب الحمل قد جعلت الحمل ثانية مستحيلاً.

أرسل نابليون إلى جوزفين، بعد أسبوعين على تركه جوزفين في مينتز، أخباراً عن هزيمة البروسيين في جينا وأورستدت في 14 تشرين الأول/أكتوبر 1806. وبعد ذلك كانت رسائله إلى جوزفين مفرطة العاطفة: طمأنها إلى إخلاصه واستمرارْ رغبته فيها. وأخبرها أن سعادته في العثور

على جوزفين الطيبة والعذبة لن تنتهي مع أن كل شيء في العالم لا بد أن ينتهي. وعندما أبدت بعض الملاحظات على معاملته الخشنة للملكة البروسية لويز، أجابها: «إنني أكره النساء المتآمرات. فأنا معتاد على النساء الرقيقات اللطيفات والفاتنات. إنها غلطتك: لقد أفسدتني».

عندما سمع أنها غير سعيدة في مينتز، وأنها تبكي دائماً، واساها باقتراح الانضمام إليه في بولندا «ما إن يرتّب مكان كمقرّ» لهما. لكن الأيام مرت ولم يرسل في طلبها، فبدأت تتصوّر أنه وجد عشيقة أخرى. وأخبرته أنها حلمت بأنه فعل ذلك. فردّ عليها: «لا يسع المرء التفكير في امرأة جميلة في هذا اليباب البولندي المتجمّد»، وأن هناك امرأة واحدة فقط له. وسألها بمكر: «هل تعرفينها. يمكنني أن أرسم صورتها لك لكن ذلك سيجعلك تغترّين... ليالي الشتاء طويلة في العزلة».

كتبت ثانية تعبّر عن قلقها من جاذبية البولنديات. وردّ عليها: «رسالتك جعلتني أضحك. أنت تفرطين في تقدير سحر البولنديات».

بعد ثلاثة أيام، لم يعد يراوغ بشأن مجيئها من مينتز للانضمام إليه لكن اقترح أن تعود إلى باريس حيث هناك حاجة إلى وجودها. وفي 7 كانون الثاني/يناير 1807، كتب يخبرها أن الطرقات وعرة جداً وغير آمنة، ولا يسعه تعريضها إلى المخاطر وأنه يرغب في أن تذهب إلى الوطن. وفي اليوم التالي كتب أنه يودّ أن يشاركها ليالي الشتاء الطويلة، لكن باريس تناديها.

وكتب في رسائل لاحقة من وارسو: «صدقيني أن تأخير السعادة بلقائنا أصعب عليَّ مما هو عليك... إنني أشعر بالضجر أحياناً في هذه الليالي الطويلة... عودي إلى باريس الآن، تلك هي رغبتي... على المرء أن يذعن للظروف... لديَّ أمور كثيرة ينبغي لي التعامل معها هنا... عليك العودة إلى باريس حيث هناك حاجة إليك... إنني بخير... الطقس

رديء... كوني جديرة بي. أظهري مزيداً من قوة الشخصية، أنا لا أحب الجبناء...». وأضاف في تنافر مميّز: «المشكلة أنك لا تدينين بدين».

أخيراً أذعنت لأمره وعادت إلى باريس مثقلة القلب مقتنعة الآن بأن المرأة البولندية التي حلمت بها حقيقة لا خيال.

27

ماري والوفسكا

«إنه يعاملني مثل بغي»

في ليلة السنة الجديدة، توقّفت العربة التي تقلّ نابليون إلى وارسو في بروني، آخر محطة قبل بلوغ المدينة. كان الثلج ينهمر بغزارة، لكن مجموعة كبيرة من البولنديين تجمّعت حول العربة للترحيب به. ومن بينهم شابة جميلة جداً ذات شعر فاتح ترتدي قبعة من الفرو، فظن أنها فلاحة إلى أن تحدّثت بلغة فرنسية جيدة إلى الجنرال دوروك وطلبت مثولها أمام الرجل الذي وعد بتحرير بولندا من أسيادها الغرباء وهزم النمسا وبروسيا وروسيا، وهي البلدان التي تضطهد بلدها.

قدّم لها نابليون إحدى باقات الزهور التي ألقيت داخل العربة عندما فتح نافذتها. تناولت الأزهار منه وانسحبت داخل الحشد الذي برزت منه فجأة عندما ابتعدت العربة.

أعجب نابليون بها فطلب من دوروك أن يعرف من هي، ولم يكن ذلك أمراً صعباً. فسرعان ما عرف أنها في الثامنة عشرة من عمرها والزوجة الثالثة لوطني بولندي ثري مسنّ، الكونت أناستي كولونا دي ڤالڤيس والوفسكي، وأم طفله. وقد نشأت وتعلّمت تحت إشراف معلّم فرنسي يدعى نيكولاس شوبان (والد فريدريك، عازف البيانو والمؤلّف الموسيقي في وقت لاحق). وقيل إنها لطيفة وذكية ورصينة ووطنية صلبة مثل زوجها.

وعلى نحو ما جرى مع بولين فوريه في مصر، رتّب نابليون أمر دعوة

هذه الكونتيسة الفاتنة إلى حفل على شرفه. رفضت الدعوة، وبناء على ذلك رفض الحضور أيضاً. فتمت مفاتحة الكونت والوڤسكي في الأمر: يجب إقناع الكونتيسة بتغيير رأيها، فربما يتوقّف الكثير على ذلك. إن مصالح بولندا في خطر ووجود وطني بولندي في المعسكر الفرنسي له قيمة عظيمة جداً. فبولندا بحاجة إلى فرنسا للتحرّر من بروسيا وروسيا.

تردّد الكونت والوڤسكي بطبيعة الحال في التخلي عن زوجته التي تزوّجها عندما كانت في السادسة عشرة إلى هذا المغامر الفرنسي. لكن الجنرال الوطني الأمير جوزيف بونياتوڤسكي، وآخرين، حثّوه على الاعتقاد أن واجبه كوطني يملي عليه ذلك. لذا عندما قدم وفد آخر من الوطنيين إلى بيته وتجمّعوا خارج غرفة نوم ماري، استقبلهم زوجها وسمح لهم بمخاطبها في مساعيهم لإقناعها بأن واجبها تجاه بولندا يتطلّب هذه التضحية.

رضخت الكونتيسة والوڤسكا وحضرت الحفل لكنها لم تقدم على أي محاولة لاجتذاب ضيف الشرف الذي لوحظ وهو يقبّل يدها ويرقص رقصاً رديئاً جداً كعادته. كانت ترتدي فستاناً أبيض قديماً ذا صدار متواضع جداً، وقد علّق عليه نابليون الذي طالما باهى بأنه ذوّاقة في الأزياء قائلاً بفظاظة: «لا يجدر ارتداء أبيض على أبيض يا سيدتي». لم تجبه ورفضت الدعوات للرقص، وعندئذ أبدى ضابطان فرنسيان اهتماما ملحوظاً وتغزّلا بها، وتم إبعادهما إلى الخارج في ما بعد، كما أبعد الملازم فوريه عن مصر.

في الأيام التي تلت الحفل، أبدى الإمبراطور إصراراً كبيراً على متابعة مسعاه. فكتب رسالة تلو أخرى، مصمّماً على كسر تحفّظها ومقاومتها. وجاء في إحدى هذه الرسائل التي سلّمها لها دوروك مع باقة زهور كبيرة: «لم أشاهد سواك في الحفل، ولم أرغب إلا بك، ولم يعجبني إلاك. أريد أن

أجبرك على حبي... نعم أجبرك. لقد أحييت اسم بلدك. وسأفعل الكثير لك». وألمح بذلك إلى أن خضوعها هو ثمن مستقبل بلدها السلمي. «تعالي إليَّ، وسأفي بجميع الآمال. سيكون بلدك عزيزاً عليّ عندما تشفقين على قلبي المسكين... كلما اعتقدت أن من المستحيل الحصول على شيء ما ازددت رغبة فيه. لا شيء يثنيني... إنني معتاد على تحقّق رغباتي... لقد أعدت إحياء اسم بلدك. وسأفعل الكثير... أرسلي جواباً فورياً لتهدئة عاطفة [نابليون] المتقدة». لكنها لم تجبه. ورفضت الدعوات إلى العشاء مع الإمبراطور، ورمت على الأرض علبة مجوهرات أرسلها لها من دون أن تفتحها قائلة: «إنه يعاملني مثل بغي». وقد علّق وصيفه كونستان:

> أصيب الإمبراطور بحالة من الانزعاج غير المعهود... لم يكن في وسعه السكون لحظة واحدة... كان ينهض ويسير ثم يجلس لينهض ثانية... لم ينبس أمامي ببنت شفة، رغم أنه يتحدّث عادة بيسر في أثناء ارتداء الملابس... لم يحصل على ردّ على رسائله بعد ولم يستطع أن يستوعب ذلك. فهو يعتبر نفسه عصياً على مقاومة النساء.

أخيراً، تحت الضغط المشترك من الإمبراطور، والوطنيين البولنديين، وتاليران في نهاية المطاف، رضخت وذهبت إليه ذات ليلة لتعرض نفسها عليه. لكن عندما أصبحت بين يديه وأخذ يلثمها بشفتيه، قاومته فجأة خائفة من مشاعره المتقدة. عندئذ فقد أعصابه وفقاً لروايتها. فهدّد بتدمير بلدها ورمى ساعته عند قدميها وحطمها تحت نعل حذائه كأنه يظهر لها نواياه. أغمي عليها، وعندما استردّت وعيها ووجدت أن نابليون «اغتصبها» انفجرت في البكاء.

في وقت لاحق، أبلغ نابليون الجنرال غورغو أنها لم تقاوم كثيراً، وعندما طارحها الغرام مسح الدموع من عينيها ووعدها بأن يفعل ما في وسعه من أجل بلدها. وأصبحت الليالي الآن تمرّ بصحبتها المجبرة عليها. وأظهر أن باستطاعته أن يكون صبوراً وحنوناً أو فظاً ونافد الصبر وأنانياً. وقد أحبّته، وأصبحت بمرور الوقت عشيقة متحمّسة مثل الأخريات.

كانت جوزفين تضغط للسماح لها بالانضمام إليه في بولندا، لكنه أبدى الأعذار لثنيها عن ذلك:

> حبيبي، أشعر بالتأثّر من كل ما تقولين، لكن الوقت غير ملائم للسفر. المناخ بارد والطرقات رديئة وغير آمنة، لذا لا أستطيع أن أسمح لك بالمحاولة والتعرّض للمخاطر. عودي إلى باريس [من مينتز] وأمضي بقية الشتاء هناك... هذه رغبتي. صدّقيني أن تأجيل سعادتي عدة أسابيع برؤيتك يؤلمني أكثر مما يؤلمك.

مُنعت جوزفين من الانضمام إليه، لكنه كان يلتقي بماري والوفسكا قدر ما أمكن ذلك. كانت الامرأتان على طرفي نقيض: جوزفين مفرطة التبذير، وماري مقتصدة ترفض قبول هدايا نابليون الفاخرة. جوزفين عنيدة فيما ماري حذرة، وجوزفين مغناج، وماري متحفّظة وذات ميول ثقافية باعتبارها تلميذة نموذجية لجوزيف شوبان، وهو ما تفتقر إليه جوزفين بالتأكيد.

في أعقاب معركة إيلاو الدامية وغير الحاسمة في 8 شباط/فبراير 1807 بين فرنسا والجيش الروسي البروسي المشترك– نصر لا يُنسى كما وُصف في رسالة إلى جوزفين– انتقلت ماري والوفسكا إلى شلوس فنكنستاين حيث أقام نابليون مقرّ قيادته. بدت أكثر حبّاً له من ذي قبل، وقد بدا

واضحاً أن الإمبراطور افتُتن بها. لم تكن تلعب الورق كما لاحظت آنا بوتوكا، وعندما يلعب «كان يريدها دائماً في الغرفة تحت بصره». احتفظ بها في شلوس مدة خمسة أسابيع، من 1 نيسان/أبريل، في حين أنه طمأن جوزفين – أرسل إليها خمس رسائل في أقل من أسبوع بعد مذبحة إيالو الرهيبة– بأن الإشاعات التي وصلت إلى فرنسا عن علاقته بالكونتيسة لا أساس لها من الصحة.

«لا أدري ماذا تقصدين بالسيدات اللواتي يفترض أنني أقيم علاقة معهن. إنني أحبك وحدك يا عزيزتي الصغيرة جوزفين الطيبة والمتجهّمة والمزاحية... والمحبّة إلا عندما تغار وتصبح شيطانة صغيرةً... أما بشأن أولئك السيدات، إذا احتجت إلى شغل وقتي مع إحداهن فأطمئنك إلى أنني أريد أن تكون ذات حلمات وردية. فهل الأمر كذلك لدى السيدات التي كتبت لي عنهن»؟

28
مقدّمات الطلاق

«لماذا لا يستطيع الرجل أن يتخذ قراره»؟

في أيار/مايو 1807، تلقى نابليون أخباراً بأن نابليون شارل، ابن بنت زوجته، أورتنس، الذي يبلغ عمره أربع سنوات قد توفي في لاهاي. انكسر قلب أورتنس، وضاق نابليون ذرعاً بما اعتبره حزن أورتنس المفرط– مع أنه كان شديد الولع بالطفل، ويستمتع بالسير على أربع ليلعب معه ويسليه، ويفكّر في جعله خليفة له. وضاق ذرعاً أيضاً بجوزفين التي حزنت على مصاب ابنتها وجزعت من شبح الطلاق الذي أخذ يلاحقها ثانية. فكتب إليها: «أرجو أن تكوني عقلانية. هل تريدينني أن أكون أكثر حزناً من ذي قبل؟ إنما للحزن حدود. كوني عقلانية في حزنك... حاولي أن تهدئي... لا تضيفي إلى حزني». واشتُهر أنه أضاف: «لديَّ نفسي، ولا وقت لديَّ للشعور بالندم مثل الرجال الآخرين».

كان هناك دائماً ما يشغل تفكيره. في الأسابيع التي سبقت وفاة ابن أورتنس وتلتها، كان عليه على سبيل المثال أن يوبّخ أخاه لويس لأنه يتصرّف مثل «راهب وديع وخجول» باعتباره مرشّح نابليون كملك على هولندا، ووجّه تعليمات مفصّلة لوزير الداخلية بشأن توسيع وتنظيم المدرسة الفرنسية (كوليج دي فرانس) وإنشاء مزيد من مناصب الأستاذية هناك، وشغل نفسه بتفاصيل المنهج والأنشطة اللامنهجية لمدرسة للبنات أنشئت مؤخّراً، والاتصال بوزير الشرطة بشأن تلك «المرأة المجنونة»، مدام دي ستال، التي تثير له المشاكل في إنجلترا وفي البرّ الأوروبي، وبأخيه

جوزيف، ملك نابولي، بشأن استخدام عملة واحدة في أوروبا بأكملها، وبأخيه الآخر جيروم بشأن أفضل علاج للبواسير.

بل إن نابليون كان يواصل العمل حتى في عربته. ووفقاً لضابط بولندي في حاشيته:

> كان الإمبراطور يجلس في الخلف إلى اليمين دائماً ودوروك إلى اليسار. وتتكدّس إلى المقعد الأمامي بأكمله التقارير والمستندات. وفيما تسير العربة بسرعة كبيرة، كان دوروك يفتح المغلّفات المختومة ويرميها من النافذة ويسلّم محتوياتها إلى الإمبراطور الذي غالباً ما يلقي نظرة عليها ويهزّ كتفيه ويلقيها أيضاً. وكانا يتقدمان وسط الأوراق التي تتطاير من جانبي العربة.

كان لدى نابليون الكثير من العمل، وقد أغضبه حزن أورتنس الطويل. فأبلغ جوزفين في رسالة خالية من العاطفة: «إنها لا تستحق حبّنا. فهي لا تحبّ سوى ابنها... إنني مستاء جداً منها». وكتب إلى أورتنس نفسها: «وددت أن تكوني أكثر شجاعة... كنت آمل أنا وأمك أن نشغل حيّزاً أكبر في قلبك».

وأضاف أنه حقّق نصراً عظيماً على قوة روسية بروسية مشتركة في 14 حزيران/يونيو 1807 قرب فريدلند في شرق بروسيا (اليوم براڤدنسك في روسيا) حيث كبّد العدوّ 20,000 إصابة مقابل 8000 وغنم 80 مدفعاً.

انزعج لأن أورتنس لم تكتب «سطراً واحداً» إليه بمناسبة انتصاره. وكذلك جوزفين التي كتب لها: «تسلّمت رسالتك المؤرخة في 25 حزيران/يونيو وآلمني غرورك التام وأنك لا تبدين اهتماماً في نجاحي

العسكري... إنني أيضاً أتوق إلى اجتماعنا معاً، لكن ذلك مرهون بمشيئة القدر».

عندما كتب تلك الرسالة، كان في طريقه إلى تلسيت، حيث عقد اجتماعاً في 7 تموز/يوليو في سرادق أقيم على عوّامة في وسط نهر نيمين مع ملك بروسيا، فريدريك وليام الثالث، وقيصر روسيا ألكسندر الذي وجده ممتعاً وجذاباً. وقد أبلغ جوزفين لاحقاً أنه لو كان ألكسندر امرأة لاتخذه عشيقة له. لم يعودا يخفيان عاطفتهما تجاه أحدهما الآخر، وقد دُهش المراقبون من عناقهما وتشابك يديهما عندما يرتقيان الدرج من دون تحفظ، ومن وقوف القيصر فجأة وتقبيله الإمبراطور بمحبة عندما أعلن ممثّل في مسرحية، «صداقة رجل عظيم نعمة من الآلهة».

اتُّفق في تلسيت (سوفتسك الآن) على أن تشترك روسيا وبروسيا في الحصار القارّي الذي يرمي إلى تدمير تجارة بريطانيا، وعلى عدم قيام الدولة البولندية الحرة، التي تعهّد نابليون بإنشائها. وأجبرت بروسيا بقسوة وازدراء مكشوف على التخلّي عن أراضٍ لإقامة دوقية وارسو الكبرى لحليف نابليون ملك ساكسونيا ومملكة وستفاليا لأخيه جيروم. كما تعيّن على بروسيا أن تدفع تعويضات كبيرة عن الحرب.

حزنت ملكة بروسيا المحبوبة جداً لويز، ابنة شارل أمير مِكْلِنبيرغ-سترِلتز، كثيراً من الشروط القاسية التي فُرضت على بلدها، وركعت أمام نابليون راجية منه التساهل، لكنه سألها بطريقة مهينة عن القماش الذي صنع منه فستانها. ويرجع ذلك إلى انزعاجه من شعبيتها في بروسيا، وعدم ثقته في صداقتها مع القيصر، واستيائه من تدخّل امرأة في مسائل بمثل هذه الأهمية. وقد أبلغ جوزفين أن «ملكة بروسيا فاتنة حقاً. وهي تتدلّل عليَّ كثيراً. لكن لا حاجة إلى أن تغاري. إنها بالنسبة إليَّ كالماء على ظهر بطة،

ولا أكترث لتأدية دور الرجل الشهم معها».

عاد نابليون إلى الوطن من تلسيت بعد أن وطّد هيمنة فرنسا على غرب ووسط أوروبا. وأصبح الآن «منتشياً بنفسه» وفقاً لعبارة تاليران. فأصدر أوامر بإعادة بناء أنحاء من باريس، بما في ذلك إنشاء جسر جديد، جسر دينا، سمي نسبة إلى هزيمة البروسيين في السنة الماضية. وأصدر أوامر بالرقابة على الكتب والمسرحيات بالإضافة إلى الصحف. وأظهر أنه عازم على إضفاء مزيد من الشكليات على بلاطه ليصبح أعظم من أفخم البلاطات الملكية والدوقية التي رآها في الأشهر التي قضاها في الخارج، على الرغم من استهزاء أرستقراطيي فوبورغ سان جرمان. وكان الوزراء والجنرالات قد مُنحوا، أو سيمنحون الآن، ألقاباً مهيبة تضاهي ألقاب «النظام القديم»: أصبح شارل موريس دي تاليران، على سبيل المثال، صاحب السموّ أمير بينيڤان ونائب الناخب الأكبر؛ وجوزيف فوشيه، دوق أوترانتو؛ وأندوش جونو، وهو ابن مزارع، دوق أبرانتيس؛ ويواكيم مورا، دوق بيرغ وكليف؛ وماسينا، وهو ابن تاجر خمور فقير كان خادماً، دوق ريڤولي؛ وجان لانس، ابن مسؤول عن اسطبل عام، دوق مونتيبلّو؛ وناي، ابن صانع براميل غير متعلّم، دوق إلشنغن؛ وأوغيرو، ابن أحد المشاة، دوق كاستليون؛ ولافبرڤ، وهو رقيب سابق في الحرس كانت زوجته عاملة غسيل ملحقة بفوج زوجها، دوق دانزنغ: عندما خاطب أحد المشاة الدوقة بلقبها في تويليري، غمزته وقالت: «ما رأيك في ذلك أيها الكهل»؟

بعد أن حصل هؤلاء الرجال وأمثالهم على ثروات كبيرة، كان عليهم أيضاً أن يشتروا بيوتاً فخمة ويعيشوا عيشة مترفة. وعاش الإمبراطور نفسه حياة باذخة مستمتعاً في ما أسماه مينڤال «ميلاً إلى النبالة القديمة»

التي أحاط نفسه بها، وشاغلاً نفسه ساعات طويلة بتفاصيل البروتوكول وآداب السلوك والمراسم الاحتفالية.

وكما قال ستاندال، كان لديه «الضعف الذي يعاني منه جميع حديثي النعمة، وهو التقدير الكبير للطبقة التي ارتقوا إليها». وقد أشار مورا إلى النقطة نفسها في رسالة سابقة إلى نابليون:

> عندما رفعتك فرنسا لترتقي عرشها، فإنما كانت تتوقّع أن تكون قائداً للشعب، رجلاً من العامة مُنح منصباً وضعه فوق جميع الملوك الأوروبيين الآخرين وميّزه عنهم، وليس لأنها تريد إعادة إنشاء ملكية لويس الرابع عشر مع جميع مظاهر البلاط القديم. مع ذلك أنت تحيط نفسك بأعضاء طبقة النبلاء القديمة وتملأ قاعات الاستقبال بهم كي يكون لديهم أساس للاعتقاد بأنهم استعادوا امتيازاتهم السابقة. النبلاء السابقون يعتبرون جميع رفاقك في السلاح، وربما يعتبرونك أنت أيضاً، حديثي عهد بالنعمة... إن تحالفك مع الأسرة الملكية الباڤارية عبر زواج يوجين، إنما يظهر لأوروبا بأكملها كم تقدّر كل ما نفتقر إليه- الدم الأزرق. أنت تجلّ الألقاب العظيمة التي لم تبتكرها، وتجعل ألقابنا عديمة الأهمية، وتظهر لفرنسا صراحة أنك تريد مواصلة النظام القديم، على الرغم من أنك تحكم لأن فرنسا لا تريد سلالة حاكمة «للنظام القديم». وبإمكاني أن أبلغك أن سلالتك ستكون حديثة عهد بالنعمة في نظر الملوك الآخرين.

ورداً على المحاضرة الأخلاقية لاحظ نابليون: «إذاً إن زواج يوجين لا يرضيك. غير أن هذا الزواج يرضيني وأنا أعتبره نجاحاً عظيماً».

في فونتنبلو، كان يقام حفل كل ليلة في قصر فرانسوا الأول الرائع الذي أعيدت زخرفته وتأثيثه بإشراف برسييه وفونتان في أثناء وجود نابليون في الخارج. وفي هذه الحفلات، كانت الإمبراطورة بعد تناولها العشاء مع الإمبراطور بمفردهما تظهر بسحرها ولطفها وتتخذ مقعدها فيما يسود الصمت بانتظار ظهور الإمبراطور الذي يصل مرتدياً ملابس بسيطة في تناقض صارخ مع عظمة ملابس الآخرين. وينهض الجميع عند دخوله ويبدو عليهم الخوف، كما تقول مدام دي ريموسا، إذا كان متجّهماً، وغالباً ما يظهر هذه الحالة.

بعد العودة من تسليت، تزايد تعجرفه ونفاد صبره، وكثر غضبه الحقيقي والمصطنع، وأخذ يرهق مجلس الدولة بخطاباته المطوّلة، ويوبّخ مختلف السيدات في البلاط بسبب ارتدائهن ملابس غير ملائمة، ويطلب من إحداهن أن تذهب وتحمّر وجهها لأنها «تبدو باهتة كالجثة»، ويشكو إلى الآخرين من أن تسريحاتهن سخيفة أو قبيحة، ويتحدّث بخشونة إلى أورتنس التي لا تزال في حداد: «كفّي عن هذا التصرّف الطفولي السخيف. تكفي الدموع التي ذرفتيها على موت ابنك. أصبح الأمر سخيفاً... استمتعي... لا تدعيني أرى دموعك ثانية».

ينعكس موقف الإمبراطور من النساء في قانون نابليون، وهو النظام القانوني الفرنسي الذي تم إصلاحه كي يعبّر تعبيراً قانونياً عن اعتقاده أن «النساء بحاجة إلى ما يقيدهن في هذه الأيام. إنهن يتوجّهن حيث يشأن ويفعلن ما يرغبن فيه. ليس من الطبيعة الفرنسية منح النساء اليد العليا. إن لديهن الكثير من السيطرة بالفعل».

رأى مترنيخ أن نابليون كان يتصرّف تجاه زوجته «بطريقة باردة ومحرجة». ولا شك في أنه أصبح مقتنعاً أكثر من ذي قبل أنه سيحصل على

الطلاق منها كي يرزق بطفل من زوجة جديدة وينشئ سلالة حاكمة.

ذات يوم في فونتانبلو، فتح فوشيه الموضوع مع جوزفين. سألته إذا كان الإمبراطور قد أمره بالقيام بذلك. وعندما أبلغها فوشيه أنه لم يأمره، قالت إنها لن تبحث الموضوع مع أحد غيره. وفي وقت لاحق سألت نابليون إذا طلب من فوشيه التحدّث إليها. أجابها أنه لم يطلب ذلك وأضاف، «تدركين جيداً أنني لا أستطيع العيش من دونك».

من الواضح أنه كان يحبّ جوزفين، كما تقول مدام دي ريموسا، وأنه يتضايق عندما يزعجها. غير أن ذلك لم يمنعه من اتخاذ مزيد من العشيقات، وجاءت اثنتان منهن على الأقل إلى غرفته في هذا الوقت. كما أنه لم يمتنع عن إبلاغ جوزفين عن هذه الارتباطات وعن مزايا الشابات المعنيات وعيوبهن. وقد قدّمت لور جونو، دوقة أبرانتس، في مذكّراتها العديد من الأمثلة عن تعامل نابليون الفظ مع النساء، وخشونته معهن وكرهه لهن. وكتب صديقه القديم بوريان أيضاً عن سلوكه المزعج والصادم أحياناً مع النساء، لا سيما مع النساء السمينات اللواتي كان يمقتهن كثيراً، مثلما يمقت الرجال الطوال كالسفير البريطاني اللورد ويتوورث الذي كان يقف على أطراف أصابعه عندما يكون في صحبته ليقلّل فارق الطول بينهما.

ويقول بوريان: «نادراً ما كان يقول شيئاً مرضياً للنساء، وغالباً ما يدلي بملاحظات خشنة وغريبة. فيقول لإحداهن، 'يا إلهي، كم تبدو يداك حمراوين' أو لأخرى، 'يا لها من قبعة قبيحة'! وربما قال، 'فستانك متسخ جداً، ألا تغيّرين ثيابك؟ لقد شاهدتك في هذا الفستان عشر مرات على الأقل'». وذات مرة علّق على جيرمين دي ستال، وكانت معتادة على ارتداء فساتين منخفضة القَصّة تظهر قسماً كبيراً من صدرها العارم: «من الواضح أنك أرضعت جميع أطفالك يا سيدتي». فاستغلق عليها الردّ هذه

المرة. غير أن ذلك لم يكن حال إيميه دي كويني التي وجّه إليها نابليون سؤالاً وقحاً: «هل ما زلت تعجبين الرجال كما كنت من قبل يا سيدتي»؟ فأجابت بلا خجل: «نعم، عندما يكونون مهذّبين».

بعد زواج لور جونو بوقت قصير، وكانت في السابعة عشرة من عمرها ومقيمة في مالميزون، في حين كان زوجها في باريس قائداً للمدينة وجوزفين في رحلة علاج في مياه بلومبييه، دخل نابليون فجأة إلى غرفتها قبل الخامسة صباحاً وأيقظها وقرّب كرسياً إلى جانب سريرها وبدأ يفتح حزمة من الرسائل التي أحضرها معه. بعد قراءة آخرها، انفجر ضاحكاً، وأبلغها أنها من امرأة جميلة أحبته سنيناً وترغب في ترتيب لقاء معه، وبعد أن قرصها من قدمها تحت لباس نومها، غادر الغرفة فجأة كما دخلها وهو يغنّي نشازاً.

في الصباح التالي، دخل نابليون غرفتها في الوقت نفسه، وقرأ رسائله قرب سريرها، وقرص قدمها مرة ثانية وغادر وهو يغنّي كما من قبل. عندما خرج طلبت لور من خادمتها ألا تفتح الباب الخارجي لأحد باكراً في الصباح. لكن لدى نابليون مفتاحاً رئيسياً، وقد استخدمه واندفع نحو سريرها وهو يتساءل غاضباً: «هل تخافين من التعرّض للاغتيال؟ أنت لست وسط مجموعة من التتار». ثم استدار على عقبيه وخرج.

في ذلك اليوم عاد جونو من باريس وأقنعته لور بالمبيت في مالميزون، بحيث وجدهما نابليون معاً عندما دخل الغرفة باكراً كعادته. كتم نابليون غضبه لكن عندما انطلق الجميع في رحلة صيد في وقت لاحق، بدا واضحاً أنه غاضب. وجعل لور تجلس إلى جانبه في عربته ووبّخها لأنها أقنعت زوجها بالمبيت معها وإهمال واجباته في باريس. فتشاجرا شجاراً مريراً، وضرب نابليون جانب العربة بقبضته مراراً. وفي النهاية قالت، «يمكنك

التصرّف في غرفتي لأنني لن أشغلها ثانية».

«كما تشائين. لك الحقّ في الذهاب. لا يمكننا أنا وأنت الاجتماع معاً بسرور في الوقت الحالي». وقفز من العربة طالباً حصانه، وامتطاه من دون أن ينبس بكلمة أخرى.

تساءل تاليران غاضباً من تردّد نابليون بشأن الطلاق: «لماذا لا يستطيع الرجل اتخاذ قراره. تارة يبدو كأنه اتخذ قراراً حازماً بالزواج ثانية، وتارة أخرى يبلغ تاليران أنه لا يستطيع ترك جوزفين التي تفهمه جيداً، وذات الحضور الممتع في حياته الشخصية. سيكون ذلك بمثابة جحود دنيء بعد كل ما قدمته له.

كانت جوزفين مصمّمة على التذرّع بالصبر. أبلغت يوجين أنها لن «تغضب ولن تظهر الغيرة». وعندما قصد نابليون ميلان في سنة 1807، لم تطلب الذهاب معه، وقاومت فرصة رؤية يوجين. أبلغت ولدها أنها ستفعل من الآن فصاعداً كل ما هو مطلوب منها وستعيش حياة طاهرة الذيل. وقالت: «إنني غير سعيدة. الناس مندهشون من أنني أستطيع أن أتحمل مثل هذه الحياة... لم يعد في وسعي الخروج». وغالباً ما كانت تبكي وكلما أصيبت بعسر هضم «راودتها الشكوك بأن من يريدون أن يتزوّج زوجها ثانية قد سمّموها» كما قال نابليون للوسيان.

ذهب نابليون لرؤية عروس محتملة، أخت زوجة يوجين، الأميرة شارلوت، لكنه عاد بعد أن شطبها من اللائحة باعتبارها غير ملائمة. وبعيد ذلك، فيما كان الضيوف ينتظرون ظهوره في حفل استقبال في قصر تويليري، استدعى جوزفين شاكياً من أنه مريض. وجدته ممدّداً في السرير مرتدياً ثيابه بأكملها وهو يتألم ويبكي.

في وقت لاحق من تلك السنة، أرسل نابليون قواته إلى إسبانيا بغية خلع ملكها ووضع واحد من آل بونابرت مكانه. استدعى ملك إسبانيا والملكة وولي العهد ورئيس الوزراء غودوي إلى بايون، وطلب من جوزفين الانضمام إليهم هناك للمساعدة في تسليتهم في ما سيكون بمثابة حبس لهم. وكانت على عادتها المضيفة المثالية مبدية الود واللطف والمجاملة، وعندما منحت الثورة التي اندلعت في مدريد على قوات الاحتلال الفرنسية الفرصة لنابليون كي يجبره على التخلّي عن العرش ونفي عائلته إلى فرنسا، احتفل هو وجوزفين مظهرين معنويات مرتفعة كما لو أنهما في إجازة على شاطئ البحر. فأخذ نابليون يركض حافي القدمين على الشاطئ ودفعها على الرمال ورمى حذاءها في البحر.

بعد عودتهما إلى باريس، جرى عرض آخر للاستمتاع وصفه لويس كونستان بقوله: «لعب الإمبرطوار والإمبراطورة وبعض أصدقائهما لعبة قاعدة السجن... كان الوقت مساء. حمل راجلان المشاعل... سقط الإمبراطور مرة وهو يركض خلف الإمبراطورة، وعندما اكتفى ابتعد معها على الرغم من احتجاجات الآخرين. كانت هذه آخر مرة أشاهد الإمبراطور وهو يلعب».

كتبت جوزفين إلى ابنها: «أبدى الإمبراطور في الأشهر الستة الأخيرة تعلّقه بي من خلال قلقه الشديد [عندما كانت تعاني من نوبات صداع مبرّحة]، وفي بعض الأحيان كان ينهض أربع مرات في الليلة ليطمئن عني... إنه مثالي معي... عندما ودّعته هذا الصباح ساد الحزن الفراق، لكن من دون قلق بشأن العلاقة بيننا».

لكن كان عليها أن تشعر بالقلق. فبعد هزيمة الجيش الفرنسي في بيلِن في إسبانيا في 19 تموز/يوليو 1808، قرّر نابليون التوجّه إلى شبه الجزيرة

الأيبيرية بنفسه ليثأر لهذا الإذلال، لكن عليه أولاً الاجتماع مع القيصر ليضمن أن يكون في وسعه الاعتماد على حليف في الخلف إذا ما زحف النمساويون عليه فيما هو منشغل في الغرب. وافق القيصر على الاجتماع معه في تشرين الأول/أكتوبر في إيرفورت حيث لم يكن نابليون يأمل في إرضاء نفسه بشأن التعاون العسكري الروسي فحسب وإنما بحث إمكانية الزواج من إحدى شقيقات القيصر أيضاً.

بعدما فشل في ترتيب هذا الزواج الروسي، بسبب تردّد القيصر في التضحية بأخته وتقديمها للإمبراطور، عاد نابليون إلى فرنسا ووجد تململاً متزايداً لدى الشعب واستياء من الطلب على الشبان لملء صفوف جيشه، وانتقاداً شديداً لسلوك عائلته وتبذيرها. أدرك نابليون التململ في بلده، فتراجع ثانية عن فكرة الطلاق، وأبلغ فوشيه أن الوقت غير ملائم لإحداث «صدمة للرأي العام بالتنكّر للإمبراطورة المحبوبة». واعترف قائلاً: «إنني غير محبوب. وهي رابطة بيني وبين الشعب. وتصلحني على قسم من المجتمع الباريسي الذي سيتخلّى عني إذا تخليت عنها».

تمسّكت به جوزفين بشدّة خوفاً من أن تفقده. ورجته أن يسمح لها بمرافقته إلى إسبانيا. وسألته بعد أن رفض اصطحابها معه: «ألن تتوقّف عن شنّ الحروب»؟ أجابها بإشارة مميّزة إلى «نجمه» قائلاً: «لست من يوجّه مسار الأحداث، إنما أنا أذعن لها».

عندما غزا النمساويون بافاريا، حليفة فرنسا في نيسان/أبريل 1809، وسارع في الذهاب إلى ستراسبورغ، لم تمنحه الفرصة لمنعها من الذهاب معه. وكتب لويس كونستان: «عندما سمعت الأصوات التي تؤذن بمغادرته، قفزت من السرير ونزلت الدرج بسرعة من دون أن ترتدي الجوارب أو «شبشب» غرفة النومْ متوجّهة إلى الفناء... وهي تبكي مثل

الطفل وألقت بنفسها في العربة» فوضع عليها نابليون المعطف المبطّن بفراء السمّور الذي قدّمه له القيصر و«أصدر أوامره بإرسال أمتعتها لتلحق بها».

أسرع نابليون إلى قيادة جيشه لمواجهة النمساويين، وبقيت جوزفين في ستراسبورغ في قصر روهان، حيث انضمّت إليها أورتنس مع ابنيها اللذين لا يزالان على قيد الحياة.

لم تكن الرسائل القليلة التي وصلت من الجيش إلى قصر روهان مشجّعة. فبعد معركة ضارية غير حاسمة في أسبرن إسلِنغ، فقد فيها نابليون عشرين ألفاً من رجاله، فقد ثلاثة وعشرين ألفاً من جنوده بين قتيل وجريح في ڤاغرَم، على بعد ثمانية عشر كيلومتراً من ڤيينا، في 5 و6 تموز/يوليو. وبعد تلك المذبحة، وردت تقارير عن أن الكونتيسة والوڤسكا وصلت إلى ڤيينا للانضمام إلى نابليون في قصر شونبرون.

بعد أن شعرت الآن، كما أخبرت إحدى صديقاتها، أنها «متزوّجة منه بالفعل»، كتبت تسأله إذا كان في وسعها المجيء للانضمام إليه هناك. فردّ من دون حماسة ظاهرة: «ماري، قرأت رسالتك بسرور طالما منحتني إياه ذكرياتك. نعم تعالي إلى ڤيينا. أود أن أقدّم لك دليلاً إضافياً على المحبة التي أشعرها تجاهك».

عندما تسلّمت ماري هذه الرسالة، توجّهت إلى ڤيينا على الفور. وهناك كان نابليون يجد بعض الوقت لقضائه معها بعد عمله الطويل كل يوم. لكن شغفه بها بدأ يبرد. وبعد أن غادر القصر وتوجّه إلى المدينة بضعة أيام في آب/أغسطس لاستشارة الطبيب البرفسور لينفرانك بشأن ما اعتبره اعتلالاً في صحّته، التقى بفتاة جميلة من ڤيينا تدعى إيڤا كراوس ويبلغ عمرها تسعة عشر عاماً، وأقام معها علاقة وجيزة. وقد أشيع أنها

ولدت له ابناً. ولا شك في أن ماري والوفسكا حملت في ذلك الوقت، ولا يمكن التشكيك- مثل الشك المحيط بحالة إلينور دينُوِيل- بوالد الطفل في هذه المناسبة.

سرّ نابليون بطبيعة الحال، كما سرّت ماري أيضاً. وقال كونستان إنها أبلغته: «أصبحت أنتمي إليه الآن. إن إلهامي وأفكاري تنبع منه وتعود إليه... دائماً».

أعطى الانطباع أنه مأخوذ بها تماماً كما عهده، وكان يمتطي الحصان معها في الحديقة عندما يستطيع الاستغناء عن بعض الوقت بعيداً عن العمل ويركب معها عربة غير مميّزة على ضفاف نهر الدانوب.

29

الأخوات وزوجات الإخوة

«عادت عليَّ عائلتي بضرر أكثر من النفع الذي قدّمته لها».

تأكّد عزم نابليون الآن بما يتجاوز الشكوك، ولم يعد هناك أي سبب للتردّد بشأن الطلاق مدة أطول. وقد أوضح لأخيه لوسيان أن عليه ألا يضيّع الوقت في التحالف مع الملوك، وأنه أكثر استعداداً من أي وقت لتحاشي ميل أشقائه وشقيقاته إلى اختيار الزواج من أجل الحب.

فعلى غرار أخته كارولين التي تزوّجت ابن صاحب نزل، وأخيه لوسيان الذي تزوج من شقيقة صاحب نزل أميّة، هجر أخوه جيروم السفينة التي كان يخدم عليها باعتباره ملازماً وتوجّه إلى الولايات المتحدة. وهناك أقدم في 24 كانون الأول/ديسمبر 1803، وهو في التاسعة عشرة من عمره، على زواج أزعج نابليون بقدر ما أزعجه زواج كارولين من يواكيم مورا ولوسيان من كاثرين بوير.

لم تكن إليزابيث باترسون، زوجة جيروم الأميركية، فقيرة أو غير مرغوبة اجتماعياً. فهي فائقة الجمال وذات شخصية عذبة، وابنة تاجر ميسور ومالك سفن من أصل أيرلندي من بلتيمور، المدينة التي يشغل أخوها منصب عمدتها. لكنها بعيدة عن أن تكون الزوجة التي تنتمي إلى أسرة أوروبية نبيلة أو أسرة حاكمة أوروبية ممن يفضّل نابليون الآن أن يختار أخوه منها.

كان آل بونابرت على استعداد لاستقبال الشابة الأميركية الجذّابة في العائلة. وقد طمأن لوسيان السيد باترسون– وهو رجل لا يقل طموحه

لمستقبلها عن طموحها- أن «العائلة بأكملها تقرّ زواج جيروم تماماً وبالإجماع: إنهم جميعاً «مسرورون جداً وفخورون بهذا الزواج»، غير أن نابليون كان «الصوت المخالف الوحيد».

لم يخالفهم نابليون الرأي فقط، بل أمر أخاه بالعودة إلى الوطن على الفور على متن فرقاطة أرسلت إلى نيويورك لذلك الغرض. وطلب منه ألا يحضر زوجته معه، إذ لن يُسمح لها بدخول فرنسا. وإذا عاد وحده فسيُتغاضى عن خطئه. في غضون ذلك، صدرت التعليمات إلى صحيفة «مونيتور» إبلاغ القرّاء أن الزواج لم يعقد، على الرغم من الإقرار بأن جيروم بونابرت ربما اتخذ عشيقة.

لم يراعِ جيروم أوامر أخيه، وفي أواخر تشرين الأول/أكتوبر 1804، أبحر إلى فرنسا بصحبة زوجته وحمل معه جميع هدايا الزواج وكثيراً من الأمتعة الأخرى. وقد فقدت كل هذه الحاجيات عندما أغرقت سفينتهم، لكنهما كان محظوظين بنجاتهما. وعاودا الإبحار ثانية، لكن البحرية الملكية اعترضت سفينتهم الشراعية هذه المرة وأجبرا على العودة إلى بلتيمور.

في غضون ذلك، أصدر نابليون مراسيم تطلب من المسؤولين المدنيين في الإمبراطورية إغفال الزوج المزعوم وعدم المشاركة في حفل قد يجرى في فرنسا بطريقة غير مشروعة.

عاد جيروم وزوجته في ربيع سنة 1805، وكانت حاملاً في ذلك الوقت، إلى أوروبا على متن سفينة سريعة استأجرها والدها. مُنعت إليزابيث من دخول لشبونة، فتوجّهت إلى أمستردام، في حين توجّه جيروم إلى ميلان لمواجهة أخيه.

وجد جيروم نابليون غاضباً وعنيداً، وأبلغ بصورة قطعية أنه لن يحصل

على مساعدة لتسوية ديونه الكبيرة ما لم يوافق على التخلّي عن الآنسة باترسون، كما سيخسر الرتبة والألقاب التي أسبغت عليه في الماضي، وسيُنفى من فرنسا وسيُحرم أي طفل لديه أو سيولد في المستقبل من حقّ تولّي العرش الإمبراطوري.

في مواجهة هذا التهديد، أذعن جيروم أمام نابليون بعدما وعده بتقديم مملكة له في مكان ما في إمبراطورية أخيه وبتسوية مشاكله المالية، على الرغم من أنه طلب من زوجته مؤخّراً أن تثق به لأنه لن يتخلّى عنها البتة وأن أسوأ ما يمكن أن يحدث أن يضطرا إلى الإقامة في بلد أجنبي. وبناء على ذلك، وافق على التخلّي عن «الآنسة باترسون» التي أبلغت أنها لن تحمل اسم بونابرت، وهو ما تجاهلته.

مُنعت باترسون من دخول أمستردام، كما مُنعت في لشبونة، فأبحرت إلى إنجلترا حيث ولد ابنها جيروم نابليون. وبعد ذلك عادت إلى بلتيمور مع الطفل الذي نما هناك وأصبح شبيهاً جداً بعمه الإمبراطور.

فشل نابليون في إقناع البابا بإعلان بطلان زواج جيروم، لكنه وجد رجل دين أقل رتبة يقوم بذلك. وبعد ذلك عُثر لجيروم، الذي اغتنى وأصبح من النبلاء، على زوجة بدينة ولطيفة أكثر قبولاً، الأميرة كاثرين دوروثيا، ابنة ملك ڤورتمبرغ، وقد لقيت معاملة سيّئة من زوجها ذي العلاقات النسائية الكثيرة. وسرعان ما سُمي جيروم ملك وستفاليا.

حصل مع لوسيان ما حدث مع جيروم. فبعد أن أغضب أخاه بالزواج من كاثرين بوير الأمية والخجولة، أقدم على ارتكاب إساءة أخرى بالزواج من امرأة غير مناسبة أخرى بعد وفاة زوجته الأولى. لا بد من الإقرار أن الزوجة الثانية، ألكسندرين جوبرثون، المولودة دي بلِشامب وابنة مسؤول

صغير في مصلحة الضرائب، جميلة جداً، لكن ذلك كل ما وجده نابليون لصالحها. فهي عضو سيّئة السمعة في مجموعة «ديمي موند» الباريسية(*)، وتزعم أنها أرملة أيبوليت جوبرثون، وهو مضارب مفلس فرّ إلى الهند الغربية لتجنّب القبض عليه بتهمة الاحتيال واختفى في ما بعد. وأصبحت زوجته المهجورة لاحقاً عشيقة الكونت ألكسندر دي لابورد.

تغاضى نابليون عن علاقة لوسيان بهذه المرأة، لكنه لم يعد متسامحاً بعد أن قرّر الزواج من أكثر السلالات الحاكمة في أوروبا تميّزاً. ولما كان الإمبراطور يريد أن يتزوّج أخوه من إحدى أفراد العائلة المالكة الإسبانية، ماريا لويزا، أرملة ملك إرتوريا، فقد أقنع أمه- التي أبدت استعداداً مبدئياً لقبول ألكسندرين جوبرثون كنة لها- بالكتابة إلى لوسيان وإبلاغه أن عليه أن يطلّق جوبرثون، المرأة ذات السلوك المشين. ردّ لوسيان على هذا الاستخفاف بزوجته بملاحظات مهينة مفادها أن زوجة نابليون نفسها كان لديها ماضٍ لا يخلو من الشوائب، وأن مدام جوبرثون ليست مثلها «عجوز كريهة الرائحة»، وأن «من الأفضل على الأقل أن يتزوّج المرء عشيقته بدلاً من عشيقة غيره».

واحتجّ لوسيان قائلاً: «لا يمكنني أن أطلق زوجة منحتني أربعة أطفال من دون أن ألحق العار بنفسي... وسأتوجّه إلى أميركا بدلاً من ذلك إذا اضطررت».

أضافت زوجته توسّلاتها إلى مناشدات لوسيان فكتبت إلى نابليون: «سيدي، إنني ألجأ إلى رحمتك. فمن المستحيل عليَّ الانفصال عن لوسيان، ولو في السر، إذ يعود إليه أمر الانفصال عني في العلن. إننا ننتمي

(*) مجموعة من الأشخاص الذين يتبعون أنماط حياة قائمة على الملذّات بطريقة فاحشة عادة- المترجم.

أحدنا إلى الآخر إلى أن يفرّق بيننا الموت... سيدي، إننا لا نسألك إلا السماح لنا بالعيش معاً بسلام في مكان هادئ من إمبراطوريتك».

أصرّ نابليون على موقفه: لا بد أن يقع الطلاق قبل التوصّل إلى أي تسوية. لذا قرّر أخوه التوجّه إلى أميركا، لكنه بعد الحصول على جوازات السفر اللازمة والإبحار إلى ماساشوستس مع زوجته وأبنائه، اعترضت البحرية الملكية سفينتهم وأخذوا إلى بلايموث بدلاً من ذلك.

استُقبل في إنجلترا في كانون الأول/ديسمبر 1810 باعتباره منفياً مظلوماً من إمبراطورية نابليون المزعومة. عرض اللورد باويس على لوسيان اللجوء إلى شروبشير، لكنه بعد أن أودع جزءاً من ثروته الكبيرة في مصرف في لندن، تمكّن من شراء مزرعة في الريف، ثورنغروف في ورسسترشير، حيث عاش في السنوات الأربع التالية.

بعد أن شطب اسم لوسيان من قوائم مجلس الشيوخ الفرنسي وجوقة الشرف، صاح نابليون منزعجاً: «لقد عادت عليَّ عائلتي بضرر أكثر من النفع الذي قدّمته لها».

غير أن ذلك لا يمكن أن يقال عن أخته الكبرى إليزا. ولا يرجع الأمر إلى أنه كان مولعاً بها– كقلة قليلة من الأشخاص– بل لأنه كان مستعداً للموافقة على طلبها أن تُمنح مقاطعة يمكنها فيها أن تمارس ميلها إلى الحكم– مقاطعة بعيدة عن باريس. وهكذا أنشأ نابليون لإليزا مقاطعة بيومبينو، وهي ميناء في توسكانيا، ومنحها في وقت لاحق أيضاً جمهورية لوكا السابقة. واعترف نابليون بأنه رقّى إليزا بهذه الطريقة «لا بدافع الحنان الأخوي وإنما بسبب حكمتها السياسية». مع ذلك، شعرت شقيقاته الأخريات بالغيرة والغضب. وقد وصفت أورتنس ذلك كما يلي:

عندما سمعنا عن تسمية إليزا لمقاطعة لوكا قمت أنا وزوجي بزيارة شقيقاته الأخريات. بدأنا بكارولين التي قالت لنا ضاحكة بتصنّع: «إذن، أصبحت إليزا الآن أميرة حاكمة. سيكون لديها جيش من أربعة جنود وعريف. إنه أمر رائع حقاً». على الرغم من طيشها فقد بدا واضحاً أنها منزعجة جداً. ولم تقم الأميرة بولين بأي محاولة لإخفاء مشاعرها. فقالت من دون إنصاف، «أخي لا يعنى إلا بإليزا ولا يهتم ببقيتنا. [وأضافت متغاضية عن كرهها المعروف لشقيقتها الأخرى] أما أنا فإنني لا أريد أي شيء منه لأنني فاسدة، لكن ذلك غير منصف لكارولين».

تعمّدت الأميرة إليزا دخول عاصمتها الجديدة في 14 تموز/يوليو 1805، في الذكرى السادسة عشرة لسقوط الباستيل.

أصبحت الآن امرأة عادية متشبّهة بالرجال تتحدّث الفرنسية بسرعة من دون أي لكنة إيطالية، وهو ما عجزت شقيقاتها عن التخلّص منه تماماً. كان في وسعها إظهار بعض الجاذبية، لكنها نادراً ما اكترثت لذلك. اعتبرتها لور دابرانتس «أكثر النساء الكريهات» اللواتي عرفتهن. وأضافت الكونتيسة دابرانتس أنها لم تكن لطيفة مع أمها قط. «لكن من ذا الذي كانت لطيفة معه؟ لم ألتق البتة بأحد ذي لسان أكثر سلاطة منها». لكنها أدارت أراضيها بكفاءة مشهودة، وحكمتها كما حكمت زوجها السمين والأحمق، فِليتشي باسكال باكيوشي، الأمير فيليس الآن، بيد لا تلين، تاركة له أداء العديد من الواجبات الاحتفالية فيما تمارس سلطتها، وسحرها المتقطّع، وفورات الغضب، الحقيقي والمصطنع، بين الحين والآخر مقلّدة الإمبراطور الذي طمأنته إلى أنها ستحذو حذوه. وكانت

على غراره توقّع الوثائق بالحرف الأول من اسمها E، وتوقّع رسائلها إلى اخيها بعبارة «أختك الأشد إخلاصاً وولاء».

بُنيت الطرق والجسور بإيعاز منها، وحُدّثت المدابغ والمصانع، وجفّفت المستنقعات، وطوّرت رواسب الشبّة، وجُعل سمك التونة احتكاراً للدولة، وقوّيت التحصينات، وطُرد القراصنة من الشواطئ، وأعيد تشغيل مقالع الرخام الأبيض قرب كارارا، حيث أشرف مايكل أنجلو على قطع كتل لمنحوتاته العظيمة، ما حقّق أرباحاً كبيرة بإنتاج جميع أنواع مواقد التدفئة ومذابح الكنائس والقبور والمعالم المعمارية والساعات والتماثيل والتماثيل النصفية، مئات منها تصوّر نابليون الذي كان يُحتفل بعيد ميلاده وانتصاراته العسكرية بمهرجانات ملائمة.

ووجدت إليزا الوقت أيضاً للإشراف على جميع أنواع المؤسسات الثقافية والتعليمية والمكتبات والمدارس- اتخذت إحداها من مدرسة مدام كامبان نموذجاً- والكراسي الجامعية، وأكاديمية نابليون، ومعهد إليزا، بالإضافة إلى تجديد وتأثيث العديد من الفلل في بلدها. لم يكن معهد إليزا المكان الوحيد الذي يحمل اسمها، فهناك شارع إليزا وميناء إليزا وحي إليزا. وهناك أيضاً مصرف إليزا، وساحة نابليون، ومدرسة فِليتشي.

كانت لديها ادّعاءات أدبية وفنية سخرت منها لور دابرانتِس ووصفتها بأنها سخيفة، بعد أن حظيت بشهرة في باريس في فندق مورْبا باعتبارها المضيفة الطموحة لصالون على غرار صالون مدام ريكامييه ومدام دي ستال. كان يشاهد هنا في الغالب الرسامان دافيد وإيسابي. وكذا العالم لويس دي فونتان، رئيس الجامعة، وشقيق إليزا المفضّل لوسيان الذي ظهرت معه في عروض مسرحية عديدة، وبخاصة «ألزير» حيث ظهرت في سروال ضيّق حريري وردي «شبه عارية»، كما قال نابليون «على

مسرح ملفّق». وكان يحضر أمسياتها في بيومبينو ولوكا أدباء معظمهم أكبر منها سناً بكثير، ومنهم شاتوبريان الذي كانت تستمع إلى قراءات من أعماله وهي متمدّدة مثل مدام ريكامييه على كرسي طويل فيما يهوّي لها خادم بمروحة.

أصبح بلاطها أيضاً، بتشجيع من زوجها، وهو عازف كمان متحمّس، مركزاً شهيراً للموسيقى عمل فيه عدة أفراد من أسرة بوتشيني قادة جوقات موسيقية وعازفي أورغ في سان مارينو. وقد خصّها جيوفاني بسيالو، الشديد الإعجاب بنابليون، بأوبرا «بروسربينا»، وهي واحدة من أكثر من سبعين أوبرا من أعماله. وخصّها غاسبار سبونتيني بأوبرا من أعماله «لا فستال» في سنة 1807. وأصبح عازف الكمان والمؤلف الموسيقي نيكولو باغانيني واحداً من عشاقّها.

كان باغانيني الذي يصغرها بخمس سنوات، يصحبها في بعض الأحيان إلى باني دي لوكا حيث التقت ذات مرة بصديق الأمير بورغيز، الدبلوماسي أنجيوليني الذي وصفها بأنها أكثر ذكاء وظرفاً مما توقّع. ورأى أن «سلوكها شبيه جداً بسلوك الإمبراطور. وكنت سأفاجأ كثيراً لو لم تكن شخصيتها مماثلة جداً لشخصيته. وقد زاد وزنها بعد حبسها. إن مظهرها رائع».

لم تكن إليزا تشبه نابليون في سلوكه فقط، كما قال أنجيوليني، لكن دفاعها عن رغباته مماثل لما يرغب فيه الإمبراطور، في حين أن مساهماتها في مصاريفه كانت تسرّه بقدر ما تثقلها، لأنها انطوت على حلّ مختلف الجماعات الدينية نزولاً عند إصراره. لكن على الرغم من الاستياء الذي أثاره ذلك، فإنها لم تشتكِ ولم تقدّم طلبات غير معقولة إلى أخيها مثل أفراد الأسرة الآخرين. وعندما ضمّت توسكانيا وبارما إلى الإمبراطورية

الفرنسية في سنة 1808 لم تجاهر في الاستياء، على أمل أن يؤدي إخفاء امتعاضها واستمرارها في حكم بيومبينو ولوكا وفقاً لرغباته ومصالحه، إلى اعتبارها جديرة بجائزة أكبر. وهكذا كان.

في أيار/مايو 1809 أصبحت الدوقة الكبرى لتوسكانيا وأنزلت في القصر الصغير في فلورنسا، ما أثار ارتياح لوتشيزي الذي يشارك الآخرين في كرهها على الرغم من احترامه لها. غير أنها لم تكن راضية البتة عن استقبالها الرسمي في فلورنسا. وأبلغت صديقها جوزيف فوشيه أنها لم تستقبل بحرس الشرف وإنما استقبلها قليل من أفراد الحاشية الذين كانت ملابسهم غير لائقة بحيث صرفتهم. وفي حفل أقيم في تلك الليلة «كان الضيوف باستثناء العاملين في القصر يتكوّنون من العاهرات وأشخاص من أدنى الطبقة الوسطى لا يعرف أحد أسماءهم. وقد بقيت أقل من نصف ساعة».

اشترت إليزا العديد من البيوت حول فلورنسا، أهمها فيلا بوغيو إمبريال التي صادرها الدوق الأكبر ميديتشي، كوزيمو الأول، من سلفياتي، وأنفقت عليها مبالغ كبيرة لتحسينها وزخرفتها وتأثيثها. وأنفقت مبالغ مماثلة تقريباً على الحفلات الترفيهية والحفلات الموسيقية والمآدب والعروض المسرحية التي أدتها فرق فرنسية وإيطالية. كانت عازمة على ممارسة سلطتها كما فعلت سابقاً في لوكا، لكنها في الوقت نفسه حريصة على التصرّف مثل ممثّل أخيها في توسكانيا، والحاكم العام، في المظهر والجوهر. فواصلت الكتابة إليه باعتبارها «أخته الأكثر إخلاصاً وولاء». وحرصت أيضاً على أن يقيم جنود نابليون تحت علم الدوقية الجديد، وأجرت ترتيبات الاحتفال بعيد ميلاده وانتصاراته العسكرية بالشكل الملائم.

لكنها حرصت أيضاً على أن تكون حالة دوقيتها الكبرى مثيرة

للإعجاب. ففي زيارة إلى باريس في سنة 1810، سارت عربتها في موكب طويل من العربات التي تحتوي على ما لا يقل عن خمسة من كبار الخدم، وست وصيفات فضلاً عن الحاجبين والخدم الأقل شأناً.

مع أنها لم تكن شهوانية مثل شقيقاتها، فإنها اتخذت العديد من العشاق، إلى جانب باغنيني الذي رحل لإقامة سلسلة من الحفلات الموسيقية في أنحاء أخرى من إيطاليا، وبدء علاقته الطويلة مع الراقصة أنطونيا بيانشي.

ومن العشاق الذين احتلوا مكان باغنيني لفترة وجيزة تاجر من جنوا يدعى إينارد، وبارون كابيل، وحاكم مقاطعة لِغهورن، وبارتولوميو سيرامي الذي كانت تمرح معه في كروم ريف توسكانيا.

لم تكن علاقات زوجها الجنسية تقل عما لديها، حيث أقام علاقات في قصر ديلا كروسيتا، متحف الأركيولوجيا اليوم، مع سلسلة من النساء من أعمار وأصول غير محددة، ويقال إن الدوقة نفسها كانت تخصصهن لتسليته.

على الرغم من ارتباطاتهما المتباينة، فقد كانت علاقتهما تبدو مرضية تماماً في العلن، وغالباً ما يظهران معاً في مقصورة الدوقية الكبرى في المسرح مع ابنتهما الشابة نابليون–إليزا، وفي كاسين حيث كانا يستعرضان جنودهما وترتدي الدوقة الكبرى زياً ذا قصة عسكرية مميّزة.

30
الانفصال

«الله وحده يعلم كم كان هذا القرار ثقيلاً على قلبي».

عادت جوزفين مكتئبة ومستسلمة لقدرها من ستراسبورغ إلى مالميزون، وأقامت أولاً بضعة أيام في بلومبييه، مع أنها اقتنعت الآن بأن المياه المعدنية لن تعالج عقمها. قالت للور دابرنتيس التي زارتها في مالميزون في ذلك الخريف وأحضرت ابنتها الصغيرة معها: «أنا التي لم أكن أشعر بالغيرة البتة أعاني عندما يحضر الآباء أطفالهم عند زيارتي. أعرف أنني سأطرد مخزية من سرير الرجل الذي توّجني. يشهد الله أنني أحبّه أكثر من الحياة وأكثر من العرش بكثير».

فيما كانت جوزفين تتجوّل بحزن أمام أقفاص الطيور وفي الحدائق والبيوت الزجاجية في مالميزون، شرع نابليون في البحث عن عروس، معزياً نفسه عندما يفكّر في جوزفين بأن «نجمه» و«قدره» يحتّمان عليه التضحية بها. وعليه التضحية بماري والوفسكا أيضاً. فعندما استأذنته بالذهاب إلى باريس لوضع طفلها، طلب منها العودة إلى زوجها الذي طلقها الآن، لوضع طفلها في بيته.

أذعنت للرجل الذي أصبحت تحبّه كثيراً الآن، وولد ابنها ألكسندر فلوريان جوزيف كولونا والوفسكي في والفيس قرب وارسو في 4 أيار/ مايو 1810. وأرسل لها نابليون هدية من بروكسل، لكنها لم تتسلّم منه شيئاً بعد ذلك لمدة ثلاثة أشهر. ثم وصلت رسالة لم تكن مشجّعة:

سيدتي... مفترضاً أنك تعافيت الآن تماماً، فإنني أود أن تأتي إلى

> باريس في أواخر الخريف إذ إنني أرغب كثيراً في مشاهدتك. لا تشكّي البتة في اهتمامي ومشاعري المحبة لك التي يجب أن تدركيها تماماً– نابليون.

غير أن نابليون كان كريماً في معاملتها كما لو أنه يعوّضها عن التغيّر الذي اعترى علاقتهما، ومن أجل ابنهما. فقد أعاد زخرفة بيتها في شارع لا هوساي وتأثيثه. واشترى لها بيتاً جميلاً في بولونيا. وطلب من دوروك والطبيب كورفيسار، الذي تطمئن له العناية بها وبابنها. وزوّدها بتذاكر مجانية إلى مسرح باريس وتراخيص لدخول متاحف باريس ومعارضها، بالإضافة إلى علاوة شهرية مقدارها عشرة آلاف فرنك شهرياً.

لم يكن هناك ما يُعاب في سلوكها كعشيقة منبوذة. وقد كتبت آنا بوتوكا:

> في أثناء إقامتها في باريس، أصبحت مدام والوفسكا امرأة ذات ثقافة عالمية. إنها تمتلك لباقة نادرة... وقد اكتسبت ثقة بالنفس لكنها ظلّت متكتّمة، وذلك مزيج يصعب تحقيقه في وضعها الدقيق.

فاتح نابليون القيصر ثانية في أثناء بحثه عن عروس، فطلب من سفيره في ستراسبورغ معرفة إذا ما كانت أخت ألكسندر الصغيرة مستعدة الآن للإنجاب، على الرغم من أنها لا تتجاوز الخامسة عشرة. وقال إنه مستعدّ تماماً للاتفاق مع القيصر على إزالة بولندا من الوجود، متغاضياً عن جميع الوعود التي قطعها لماري والوفسكا ذات يوم.

لكن قبل الزواج، لا بد من ترتيب أمر الطلاق. أرسل إلى جوزفين

يطلب منها المجيء إلى فونتانبلو، معلناً «توقه إلى رؤيتها ثانية».

عندما وصلت، أدركت على الفور أنها لن تستقبل بالطريقة المحبّة التي كانت تتوقّعها بحسب الرسائل الأخيرة التي تسلّمتها منه. وجدته جالساً إلى مكتبه حاملاً قلماً بيده. نظر إليها وتمتم من دون حماسة، «أخيراً وصلت». وسرعان ما اكتشفت أن الباب الذي يربط غرفتها بغرفته لا يمكن فتحته. والأسوأ من ذلك أن العديد من أفراد عائلة بونابرت كانوا مقيمين في فونتابنلو ومن الواضح أنهم عازمون على التنغيص عليها ما أمكن. أقامت أخت زوجها حفلات عشاء لأخيها لم تُدعَ إليها زوجته، بل دُعيت فتاة إيطالية شابة وجميلة بدلاً من ذلك.

لم تُستفزّ جوزفين. وتصرّفت بكياستها ولباقتها المعهودة، وغضّت الطرف عن عدم مغادرة النساء عندما تحضر، وأخفت حزنها عندما شارك نابليون بحماسة في رحلة صيد وحشية نتج عنها قتل ما يقرب من مئة خنزير بري، وحافظت على كرامتها حتى عندما يطلق زوجها العنان لغضبه متذرّعاً «بأتفه الأسباب» كما أشار كونستان.

لم يستطع أن يفتح بنفسه موضوع الطلاق، بل طلب من أورتنس أن تفعل ذلك. وعندما رفضت، طلب من يوجين ثم فاتح ريغِس كامباسير، القنصل الثاني سابقاً ومستشاره الأول الآن. فطلب أيضاً إعفاءه من هذه المهمة المقيتة. غير أن جوزيف فوشيه أخذ على عاتقه القيام بهذه المهمة التي لا يرغب أحد في أدائها وأبلغ جوزفين أن «استمرار السلالة» يتطلّب أن يحصل الإمبراطور على ابن شرعي.

كلما تأخّر نابليون، ازداد الجو في فونتانبلو توتّراً. وعندما اجتمعت عائلة نابليون وجوزفين وابنتها لتناول وجبة معاً، لم يتحدّث أحد مع الآخر، وبعد ربع ساعة وقف نابليون فجأة وغادر الغرفة. وأفاد الكونت

دي بوسيه، المسؤول عن القصر: «لم يكادوا يلمسون الأطباق التي قدّمت لهم. ولم يتفوّه أحد بكلمة باستثناء السؤال الذي طرحه نابليون علي، 'كم الساعة'»؟

سجّل بوسيه الأحداث الأليمة التي وقعت ذات ليلة عندما تبعت جوزفين نابليون إلى خارج الغرفة وهي تضغط بمنديل على فمها. في القاعة المجاورة قدّمت القهوة لها كالعادة على صينية كي تصبّها لزوجها. «لكنه أخذها بنفسه وصبّ في فنجانه وترك السكر يذوب وهو يحدّق في الإمبراطورة التي وقفت كأنها مندهشة. شرب القهوة وأعاد كل شيء إلى الحاجب». ثم أشار إلى أنه يريد أن يبقى بمفرده مع الإمبراطورة. لذا غادر بوسيه الغرفة وأغلق الباب عليهما.

سمع بوسيه بعد ذلك من غرفة مجاورة صيحات ألم شديد. وتوجّه الإمبراطور إلى الباب واستدعى بوسيه الذي وجد الإمبراطورة ممدّة على السجّادة. ساعد في حملها وإنزالها على الدرج إلى جناحها– وقال إن الإمبراطور كان في «حالة غير عادية من التوتّر والدموع في عينيه». وبدا لبوسيه الآن أن الإمبراطورة أقل اضطراباً من زوجها، إذ همست له فيما كان يساعدها في النزول: «أنت تمسك بي بشدّة».

عندما نجحا في نقلها إلى سريرها، أرسل الإمبراطور بطلب أورتنس. وقبل أن يطلب منها الاهتمام بأمها، حاول أن يشرح موقفه أمامها.

قال لها: «ما من شيء سيجعلني أتراجع عن الطلاق، لا الدموع ولا التوسّلات».

أجابت أورتنس وفقاً لروايتها: «أنت السيّد، ولن يعارضك أحد. يكفي أن مستقبلك يتطلّب ذلك... لا تفاجأ بدموع والدتي، فسيكون من غير العادي ألا تذرف الدموع بعد زواج دام ثلاث عشرة سنة. سوف

تخضع لمشيئتك، وسنرحل حاملين معنا ذكرى لطفك وطيبتك».

سأل نابليون بصوت متهدّج: «ماذا، هل تريدون أن تتركوني؟ ألم تعودوا تهتمّون لأمري»؟

«لا يمكننا العيش بقربك بعد الآن. وتلك تضحية من جانبنا لكن ينبغي لنا أن نقوم بها».

عندما دخل يوجين الغرفة، أبلغه أيضاً أنه لا يطيق فكرة رحيلهم ثلاثتهم، وأنه يفضّل عدم الطلاق على تحمّل ذلك. أشار يوجين إلى أن من المستحسن التفكير في ذلك الآن لأن الأمور تمادت كثيراً. وقد قيل الكثير بحيث لا تستطيع الإمبراطورة العيش معه بسعادة بعد الآن.

بعد أن قضي الأمر، أصبح نابليون أقل تبرّماً وصمتاً في صحبة جوزفين، وطمأنها إلى أن في وسعها الاحتفاظ بالميزون باعتباره بيتها. ويمكنها أيضاً الحصول على الإليزيه كمقرّ لها في باريس. وستتمكّن من الاحتفاظ بلقب الإمبراطورة، وستسوّى جميع ديونها وتحصل على علاوة قدرها ثلاثة ملايين فرنك في السنة. وبإمكانها أيضاً الاحتفاظ بمجوهراتها التي حصلت عليها، ويمكنها حمل اللقب الإضافي دوقة نافار، المملكة السابقة التي ضمّها إلى تاج فرنسا هنري الرابع، مؤسس أسرة بوربون.

لكن خلال أيام، أصبح نابليون كثير التطلّب وصعب المراس مثلما كان عندما عاد من فيينا. أصرّ الآن على أن تنسحب جوزفين من الأضواء: لم يعد يمكن منحها الاحترام العام الذي كانت تعامل به في الماضي. ولن يتحدّث إليها الإمبراطور في العلن، ولن تلقى اهتماماً في الوظائف الرسمية.

تقبّلت كل ذلك من دون تذمّر أو اعتراض، مصمّمة على عدم الاستسلام للإشفاق على النفس أو الغضب. وكان سلوكها في الليلة التي سبقت الطلاق الرسمي يتسم باللطف والصفاء كما هو عهدها في أيام

عزّها. ورأى إتيان دنيس دي باسكوير، وزير الخارجية لاحقاً، أن سلوكها في تلك المناسبة كان مثالياً، وأبدى شكاً في أن تتمكّن «أي امرأة أخرى» من التصرّف بمثل هذه الكياسة واللباقة المثالية. أما سلوك نابليون فكان أقل تميّزاً من سلوك ضحيّته.

ظلت متماسكة طوال مراسم الطلاق، وهي مناسبة عامة أجريت في قاعة العرش المضاءة بالشموع، ولم تنهر إلا بعد أن أبدى آل بونابرت المحتشدون نظرات الانتصار والعداء.

تحدّث زوجها أولاً وبدأ بالقول: «الله وحده يعلم كم كان هذا القرار ثقيلاً على قلبي. ولم أستجمع الشجاعة لتنفيذه إلا بعد الاقتناع بأن ذلك في سبيل مصالح فرنسا... ولست أملك إلا أن أعبّر عن الامتنان لإخلاص زوجتي الحبيبة وحنانها. وسأحتفظ بذكريات ثلاث عشرة سنة زيّنت فيها حياتي ما حييت». وشوهد دامعاً عندما أنهى كلمته.

ردّت جوزفين بقراءة نص معدّ تحمله بين أصابعها المرتجفة: «بإذن من زوجي العزيز أقدّم له بفخر أعظم إثبات على الإخلاص الذي منحته له». وتوقّفت هنا ولم تستطع أن تحمل نفسها على المتابعة. وبعد صمت طويل، مرّرت النص إلى أحد المساعدين كي يكمل قراءته. وبعدما وقّع الاثنان على سجلّ الطلاق، قبّل نابليون جوزفين ورافقها إلى غرفتها.

وفي وقت لاحق، توجّهت إلى غرفته بشعر «منكوش»، كما قال كونستان: «ووجه مكتئب. ارتمت على سريره ووضعت ذراعيها حوله... وبدأ الإمبراطور بالبكاء أيضاً. قال لها، 'تشجّعي، سأكون صديقك دائماً'. لم تستطع الإمبراطورة التي غلب عليها البكاء إجابته. وساد بعد ذلك صمت دام عدة دقائق اختلطت فيه أصوات نشيجهما».

كان المطر يهطل عندما توجّهت جوزفين إلى مالميزون. وقد رافقتها أورتنس وتبعها موكب طويل من الخادمات والمسؤولين في جناحها، وكلابها، وببغائها، وحقائب أمتعتها. وفي اليوم التالي، جاء نابليون إلى مالميزون لرؤية جوزفين، بعد أن أمضى الليلة السابقة في فرساي– حيث أيقظ القيّم عليه وأمره بتغيير الأثاث ومواقع جميع الصور. كان المطر لا يزال منهمراً، لكنهما شوهدا يسيران متشابكي اليدين في حديقته. وجاء أيضاً في اليوم التالي واليوم الذي يليه.

عندما عاد إلى قصر فرساي، بدا عليه الاكتئاب والغضب. كانت الإيطالية الشابة التي جُلبت له موجودة هناك، لكنه لم يكترث لها كثيراً، وعندما التفت إليها كان فظاً معها. كان يكتب إلى جوزفين كل يوم وتردّ عليه بانتظام لم تكن قادرة على المحافظة عليه في الماضي.

بذل نابليون ما في وسعه لتعويضها عن «التضحية» التي فرضها عليها بقدر ما فرضها على نفسه «تلبية لواجب المحافظة على السلالة». وراجع حساباتها للتحقّق من حسن إعالتها، وأرسل لها النقود لإنفاقها على حدائق مالميزون، وقدّم لها طقم سفرة جديداً من طراز سيڤر، وأبدى اهتماماً كبيراً بمرتبتها وأسبقيتها باعتبارها حاملة للقب إمبراطورة، وعرض عليها مقاطعة في إيطاليا لكنها رفضتها، ومنحها في وقت لاحق ما يكفي من المال لترميم القصر المتداعي في دوقية ناڤار في نورماندي، وحرص على ألا تكون وحيدة في مالميزون فطلب من مختلف العاملين في قصره التوجّه لزيارتها بحيث أصبح الطريق المؤدي إليه، كما قالت مدام دي ريموسا، مليئاً «بمواكب لا تنقطع من العربات التي تحمل من يريدون إبداء احترامهم لها».

ومن هؤلاء الزوّار زوجة السفير النمساوي التي ألمحت لها جوزفين

قبل بعض الوقت أنها تأمل في زواج نابليون من إحدى بنات الإمبراطور وأن تعود التضحية التي تقوم بها بالفائدة.

31
ماري لويز

«تزوّج ألمانية. إنهن أفضل النساء في العالم،
مهذّبات وبريئات ونضرات كالورود».

كان مترنيخ يعرف، منذ توقيع معاهدات تلسيت في صيف 1807، بأمر الشائعات بأن نابليون يعتزم تطليق الإمبراطورة واتخاذ زوجة جديدة تلد له ابناً ووريثاً، وخشي من احتمال أن تكون هذه الزوجة الجديدة إحدى الدوقات الروسيات ما يضمن قيام علاقة بين فرنسا وروسيا لن تكون في مصلحة النمسا بالتأكيد. وبناء على ذلك بدأ مترنيخ يضغط دبلوماسياً كي يتزوّج نابليون من الأرشيدوقة ماري لويز، الابنة الكبرى للإمبراطور فرانسيس الأول، وسليلة أخت ماري أنطوانيت. فطلب من الجنرال ڤون بوبنا، أحد المستشارين العسكريين الموثوقين للإمبراطور فرانسيس، بفتح الموضوع في مقر القيادة الفرنسية، في حين فتح إنغلبرت ڤون فلورِت، السكرتير الأول في السفارة النمساوية في باريس، بحذر مع وزير الخارجية الفرنسي ج. ب. دي شامباني. وفي وقت لاحق، عندما نزل مترنيخ في بولهاوس بلاتز، ذكر احتمال زواج ماري لويز من نابليون أمام دبلوماسي فرنسي، الكونت ألكسندر دي لابورد، وكان في ذلك الوقت يوشك أن يغادر ڤيينا إلى باريس.

في باريس وجد لابورد أن تاليران ميّال إلى هذا الزواج المقترح. ووفقاً لرواية مترنيخ، دعيت زوجته في ذلك الوقت إلى حفلة تنكّرية أقامها المستشار القانوني لنابليون جان جاك ريغيس دي كامباسير، وكان نابليون

نفسه أحد ضيوفها. في هذه الحفلة اقترب منها شخص متنكّر عرفت بالطبع أنه نابليون. أخذها إلى غرفة خاصة وبعد بعض الملاحظات التمهيدية، سألها عما إذا كانت تعتقد أن الأرشيدوقة ماري لويز تقبل الزواج به وهل يمكن أن تكتب إلى زوجها بهذا الشأن؟ اقترحت الكونتيسة ڤون مترنيخ أنه ربما يكون من الأفضل أن يفاتح بنفسه زوجها عن طريق السفير النمساوي في باريس الأمير شارل شوارتزنبرغ.

سواء تم الاجتماع بين نابليون والكونتيسة ڤون مترنيخ بهذه الطريقة- ولا شك في أنه لم يحدث في التاريخ الذي نسبه مترنيخ إليه- فإن نابليون رتّب مفاتحة شوارتزنبرغ بشأن استمزاج رأي الإمبراطور النمساوي. كما أن الكونتيسة ڤون مترنيخ بحثت احتمال زواج نابليون وماري لويز مع الإمبراطورة جوزفين وابنتها أورتنس، وأمل كلاهما أن يختار عروساً نمساوية لا روسية إذا كان يريد الزواج ثانية.

غير أن نابليون نفسه كان ينتظر القيصر كي يحسم أمره بشأن طلبه المتعلّق بأخته الصغرى آنا. مرّت الأسابيع من دون أن يتمكّن أرماند دي كولانكور، السفير الفرنسي في سان بطرسبرغ، من الحصول على إجابة وافية من البلاط الروسي بشأن اقتراح سيّده، حيث كانت والدة الفتاة المقترحة عروساً ترفض مثل هذا الزواج بشدّة بعد أن سمعت قصصاً عن عجز الإمبراطور الفرنسي.

لم يعد نابليون يستطيع صبراً على الزواج مما وصفه بأنه «رحم متحرّك» فقرّر في نهاية الأسبوع الأول من شباط/فبراير 1810 عدم انتظار الحصول على جواب حاسم من القيصر والزواج من امرأة نمساوية بدلاً من ذلك.
لم تكن جميلة وفقاً لجميع الروايات أو رشيقة، بل إن مشيتها تتسم بالسماجة. كانت طويلة شقراء ذات بشرة ناعمة صافية وصدر صغير،

وعينين ناتئتين وشفتين بشعتين تتميّز بهما عائلتها، لكن قيل إنها طيّعة ومن المرجّح أن تتعلّق بزوجها مثلما كانت متعلّقة بأبيها. كما أنها ذات عقل راجح ومثقّفة ومولعة بالموسيقى تجيد العزف على البيانو والهارب، ورسامة موهوبة بالألوان الزيتية والمائية. وكانت خجولة– أدى خجلها لاحقاً إلى انتقاد سلوكها الفظّ في المناسبات العامة وعدم دماثتها وتصرّفاتها الخرقاء والمتعجرفة. وقيل أيضاً إنها بريئة جداً، لم يُسمح لها إلا بإناث الحيوانات المنزلية كي لا يثار فضولها بشأن العلاقات الجنسية، كما كانت الإيضاحات التي تعتبر غير ملائمة تقصّ من الكتب قبل السماح لها بقراءتها. والأهم من ذلك أن من المرجّح أن تكون خصبة، إذ أنجبت أمها ثلاثة عشر طفلاً، وأنجبت جدّتها ستة وعشرين.

على الرغم من أن لقب إمبراطورة فرنسا أثار اهتمامها، فإنها كانت تنظر إلى مستقبلها ببعض الخوف لأن فرنسا عدوّة بلدها، واقتيدت قريبتها ماري أنطوانيت في شوارع باريس قبل أن يقطع رأسها بالمقصلة. كما أن نابليون يكبرها بنحو عشرين عاماً، قد صوّر في بأنه غول مخيف.

ملأتها فكرة مقابلة هذا الرجل خوفاً، وأخبرت صديقتها ڤكتوريا دي بوتيه، «أؤكّد لك أن رؤية هذا المخلوق ستكون عذاباً لي أسوأ من الشهادة بجميع صنوفها». وعندما قرأت في كانون الثاني/يناير 1810 تقريراً في جريدة عن انفصال نابليون عن زوجته كتبت إلى «والدها العزيز» تبلغه مقدار اضطرابها من هذه الأخبار. «إن احتمال أن أكون من اللواتي سيختار من بينهن زوجته اللاحقة تدفعني إلى إبلاغك بشيء أود أن تستودعه في قلبك الأبوي». طالما قال إنه لن يزوّجها رغماً عن إرادتها، واقترحت أن تتزوّج من شخص يعجبها.

في اليوم التالي أبلغت ڤكتوريا دي بوتيه: «إنني امرأة تعيسة الحظ وقع

الاختيار علي: وسيضع ذلك نهاية للأيام الجميلة من دون شك». غير أنها عزّت نفسها بالاعتقاد بأن أباها «لطيف جداً ولن يجبرها» على قبول زواج تمقته مقتاً شديداً.

مع ذلك، نظراً إلى أنها تطيع والدها وتعتبره بطلها، فإنها بذلت ما في وسعها لإخفاء مخاوفها عنه عندما بدا الزواج من نابليون أمراً محتوماً. عندما قدّم لها السفير الفرنسي فوق العادة في ڤيينا، المارشال ألكسندر بيرثييه، علبة مزخرفة جميلة تحتوي على صورة لنابليون، بدت كما اعتقد بيرثييه مفتونة بها وقالت إحدى وصيفاتها إنها ارتاحت كثيراً. ربما لا يكون الزواج من الإمبراطور الفرنسي سيّئاً جداً في النهاية. سألت عن المتاحف في باريس، وهل يُسمح لها بالحصول على حديقة نباتية، وهل يحب نابليون الموسيقى؟

في غضون ذلك، فرض نابليون سرعة المفاوضات بإرسال يوجين دي بوهارنيه إلى السفارة النمساوية في باريس لتقديم عرض لصالح زوج أمه لطلب يد ابنة الإمبراطور فرانسيس. كان يجب قبول العرض على الفور وتوقيع العقد في اليوم التالي من دون وجود وقت للرجوع إلى ڤيينا. حاول السفير تأخير القرار يوماً أو اثنين على الأقل، لكنه اضطر للإذعان نزولاً عند إصرار نابليون.

بعد أن أنجز ذلك، كتب نابليون رسالة إلى القيصر يسحب عرض الزواج من الدوقة الكبرى آنا، وشغل نفسه بخطط الزواج من ماري لويز، متابعاً كل تفاصيل طقوس الزواج مع مدير المراسم، وأهمل واجباته الأخرى، وأشرف على فتح هدايا الزواج وصنع جهاز العروس، وأمر بصنع كمية مسرفة من المجوهرات لها، بما في ذلك ماسة اشتهر أن قيمتها تبلغ 3,325,724 فرنكاً، فضلاً عن كمية كبيرة من الملابس، من بينها اثنتا

عشرة دزينة قميص قطني واثنتا عشرة دزينة جوارب، وست وثلاثون تنّورة داخلية، وأربع وعشرون سترة نوم، وثمانون قلنسوة نوم، بالإضافة إلى فضالات، وشالات كشميرية، ومدبسات، وأربعة وستين فستاناً من ليروي، وأربع وعشرين دزينة مناديل.

في القصر الملكي في ڤيينا في 11 آذار/مارس 1820، تزوّجت ماري لويز بالوكالة من الإمبراطور نابليون، وكان وكيل العريس عم العروس الأرشيدوق كارل. وبعد يومين غادرت ماري لويز على وقع الأجراس ودوي طلقات المدافع عن طريق ميونيخ وستراسبورغ متوجّهة إلى قلعة كومبيان التي حوّلها لويس الرابع عشر إلى قصر ريفي كبير وأنفقت عليه مبالغ كبيرة لاستقبال حاشيتها وحاشية نابليون.

رافق ماري لويز في رحلتها المارشال بيرثييه، قائد المرافقين، والكونت دي لابورد وشقيقة زوجها كارولين مورا، ملكة نابولي، التي أرسلت لاستقبالها في الطريق عند بلدة برونو الحدودية، وتبعها مترنيخ الذي غادر ڤيينا بعد ثلاثة أيام. وفي برودو لم تودّع كلبها ووصيفاتها فحسب، بل استبدلت الملابس الباريسية الأنيقة بملابسها أيضاً. وقد اشتكت من الملكة كارولين: «لبثت ساعتين وهي تنزع ثيابي وتلبسني. يمكنني أن أطمئنك إلى أن رائحتي مماثلة لرائحة السيدات الفرنسيات». لم تعجب بهن كثيراً، وإذا لم تستطع أن تكون مع والدها فسرعان ما ستتوجه إلى باريس بمفردها.

كانت رحلة كارولين لاستقبال ماري لويز واصطحابها إلى باريس غير مريحة بالفعل. فالطرق في حالة مزرية، والثلج آخذ في الذوبان، وقد اشتكت من أن المياه فاضت على الطريق بحيث اضطرت الجياد إلى السباحة فيما الدواليب عالقة في الوحل. وعندما وصلت إلى برونو،

كانت قد أصيبت بالعديد من الرضوض. غير أنها التقت بماري لويز هناك وأعجبت بها. كانت بشرتها غضّة جداً وذات شكل حسن مع أنها ليست جميلة، «شعر أشقر فاتن ويدان وقدمان جميلة، وعقل متنوّر، وسلوك محترم. لقد كانت لطيفة جداً ومحبّبة على العموم».

كانت الرحلة إلى ميونيخ صعبة جداً ومتعبة مثل الطريق إلى برونو. وقد أزعج المارشال بيرثييه كارولين بجعل الجميع يستيقظون في الخامسة صباحاً للتحرّك على الطريق واستمرار التحرّك حتى الحادية عشرة ليلاً، كما لو أنهن جميعاً في الجيش، ومما زاد الأمر سوءاً عدم قدرتهن على الخروج من العربات مدة ساعات طوال وإحاطة الحراس والمرافقين بهن. كان الأمر «رهيباً». غير أن ماري لويز «احتملت كل ذلك بشكل جيد». وأضافت كارولين: «إنها شابة بطبيعة الحال».

في 20 آذار/مارس، وصل الفريق المنهك إلى شتوتغارت، عاصمة فريدريك الأول، ملك ڤورتمبرغ. لم تُعجب ماري لويز به كثيراً ولا بأي من عائلته باستثناء الملكة، ابنة الملك جورج الثالث، وابنته الأميرة رويال. ولم يعجب الملك فريدريك بضيوفه أيضاً. وأبلغ ابنته كاثرين أن «ملكة نابولي منهكة وذلك ليس بالأمر غير المتوقّع. يا لها من مهمة أوكلت إليها! إنه أمر لا يمكن تصوّره، وهي تبذل ما في وسعها. لكنني أعتقد أنها سئمت من مهمتها. لم تتكلّم الإمبراطورة إلى أحد إلا أنا والملكة والأميرة رويال. ولم يحصل أخوك على كلمة واحدة منها».

بدت ماري لويز خجولة في هذه الرفقة الغريبة، وأصيبت بنزلة برد والتهاب في الحلق. وعندما وصل فريقها إلى ستراسبورغ في 23 آذار/ مارس، لازمت الفراش طوال الصباح. وفي اليوم التالي، اليوم السابق لعيد ميلادها الثامن عشر، وصلوا إلى لونيڤل مورث، وهنا تنفّست كارولين

الصعداء عندما سمعت أن زوجها قرّر حضور الزواج، بعدما خشيت من احتمال رفضه الحضور، وأنه وصل إلى فرنسا بالفعل. اتضّح ارتياحها من رسالتها البهيجة التي بعثت بها إليه من لونيڤيل: «اسمع الكثير من الصياح من السادسة صباحاً حتى العاشرة مساء، (تحيا الإمبراطورة) بحيث استيقظ في الليل فجأة وأبدأ في الصياح أيضاً. أرجو أن تخبر العائلة بأنني سأرد على أول سؤال يوجّه إليّ بقول «تحيا الإمبراطورة».

وأضافت: «أرجو أن يعجب الإمبراطور بالخطابات التي أرسلها إليه. أخشى أن يعتقد أن الإمبراطورة جميلة، لكن كل من رآها من بعيد يقول ذلك».

كان الوصف الذي قدّمه لها سكرتير نابليون، كلود مينڤال، بعد لقائه بها لأول مرة إيجابياً جداً. فقد أعجب كثيراً بما وصفه «وقارها الطبيعي» الممزوج بخجل جذّاب. «شعرها الجميل ذو اللون الكستنائي الفاتح يؤطّر وجهها الذي تمنحه عيناها اللطيفتان تعبيراً أخّاذاً». كان أنفها أعقف قليلاً، وشفتاها غليظتين على نحو ما تتميّز به عائلتها، وجسدها مكتنز. كما أنها «أطول كثيراً» من نابليون.

لم تكن التقارير الأخرى التي تلقّاها نابليون مفيدة. جاءت الأجوبة التي حصل عليها ممن رأوها متناقضة. واضطر بعد مضي وقت طويل إلى الإعلان أنه لا يهم إذا كانت جميلة أم لا: «ما دامت لطيفة وتمنحني أبناء أصحّاء. سأحبّها كما لو أنها أجمل فتاة في العالم». ومع ذلك بدا عليه القلق بوضوح. وقد وصفت أورتنس في مذكّراتها قلقه واستجوابه كل من لديه معرفة مباشرة بها. طلب من أورتنس أن تعلّمه رقص الڤالتز، لكنه سرعان ما تخلّى عن الدروس قائلاً إنه «لن يبرع في الرقص». طلب صنع أحذية جديدة ثم غيّر صانع الأحذية. وقام لاغير، خياط مورا، بأخذ

مقاساته لخياطة ملابس جديدة له، لكنه وجدها مثقلة بالتطريز بحيث لا يستطيع ارتداءها. وأبلغت كاثرين، ملكة وستفاليا، والدها «إنه يتصرّف بطريقة لا نتصوّر أنا وأنت أنها ممكنة».

مع اقتراب نهاية آذار/مارس، انطلق نابليون تحت المطر إلى كومبيان. وكانت لا تزال تمطر بشدة عندما أسرع هو وزوج شقيقته يواكيم، ملك نابولي، نحو عربتهما وأسرع الخدم من حولهما حاملين المظلات. وعندما دخل نابليون العربة، استدعى سكرتيره لتوجيه تعليمات اللحظة الأخيرة له. ثم أغلق النافذة في وجه الرجل المبلّل وأمر الحوذي بأن يسلك الطريق الموحل نحو سواسون وأن يقود بأسرع ما يمكن.

في قرية كورسل، أخطر باقتراب عروسه، فترجّل هو ومورا من العربة وركضا نحو رواق كنيسة قريبة اتقاء من المطر وانتظاراً لوصولها. وعندما اقترب موكب العربات والخيّالة، خرج نابليون من تحت الرواق ووقف في الطريق لإيقاف الجياد. ثم فتح باب العربة وعانق عروسه متجاهلاً أخته كارولين. وقد سرّته ماري لويز بقولها: «صورتك لا تبالغ في إظهار محاسنك». إذا كان قد خاب أمله من مظهر عروسه فإنه لم يظهر ذلك. سألها عما قيل لها بشأن التصرّف معه. فقالت: «أن أطيعك دائماً». بدا السرور على نابليون من هذه الإجابة، فنزل من العربة وأغلق بابها وأمر الحوذي بالتوجّه إلى كومبيان.

دخلت عربة ماري لويز فناء القصر في العاشرة مساء تقريباً واقتربت من درج المدخل حيث ينتظر أعضاء عائلة نابليون وأهل القصر بلباس البلاط عند أسفل الدرج الكبير لاستقبالها. اصطحب نابليون ماري لويز إلى القاعة وطلب مرافقتها إلى غرفتها. وجدتها أورتنس «لطيفة ومحبّبة لكنها

خجولة جداً». بعد ذلك تجاهل نابليون البرنامج المعدّ للأمسية وقال عمتم مساء للمجموعة المحتشدة– بمن فيهم عشيقته الحالية، مدام دي ماتيس التي أمضى معها الليلة السابقة– وصعد الدرج متوجّهاً إلى عروسه، وبعد ما وصفه لويس كونستان بأنه «حديث طويل»، توجّه إلى غرفته حيث خلع ملابسه وتعطّر بماء الكولونيا، «ثم ارتدى العباءة فقط وعاد خلسة إلى الإمبراطورة».

ما تلا ذلك «كان أشبه بالاغتصاب منه إلى المغازلة» كما سمع لورد ليفربول. لكن يبدو أن ماري لويز لم تنفر من ذلك. فقد طلب منها والدها أن تساير زوجها في كل شيء، لذا لم تجد صعوبة في القيام بذلك. ويروي نابليون مغتبطاً أنها طلبت منه إعادة الكرّة بعد أن فضّ بكارتها. وكتبت إلى أسرتها تخبرهم أن هناك «شيئاً جذّاباً جداً ولهفة» في زوجها.

في الصباح التالي ظهر متأخّراً عما عُهد عنه، وكان مزاجه راضياً ومسروراً. وعندما لقي مينفال، شدّ أذنه وقال له: «تزوّج ألمانية. إنهن أفضل النساء في العالم، مهذّبات وبريئات ونضرات كالورود».

أخبرت ماري لويز والدها بعد ذلك بوقت وجيز: «ثمة أمر آسر في زوجي تصعب مقاومته».

وكتب نابليون أيضاً إلى حميه ليخبره بأن عروسه «لبّت جميع توقّعاته». وتابع بالقول: «تبادلنا الأدلة على المشاعر الرقيقة التي تجمعنا معاً. إن أحدنا مناسب تماماً للآخر».

سرعان ما شوهدا يلعبان لعبة الأعمى مع وصيفاتها فضلاً عن البلياردو الذي أظهرت أنها تفوقه براعة فيه، ما دفعه إلى أخذ دروس من أحد كبار الخدم. بل إنه تغلّب على تردّده في الجلوس ساكناً واتخاذ وضعة أمامها بصبر فيما ترسم ماري لويز صورته.

32

الزواج وشهر العسل

«كان كل شيء مزعجاً وقذراً»

في الأسابيع التي سبقت حفل الزواج المدني الفرنسي في سان كلو، استعجل نابليون وضع الترتيبات المفصّلة، والإشراف على إجراء تغييرات على جناح جوزفين في قصر تويليري وطلائه بالأبيض الناصع، وأمر بصنع أزياء عسكرية وأسلحة منمنمة للابن الذي أصبح واثقاً من الحصول عليه الآن، وأخذ يدقّق في قوائم الملابس الحريرية والجوارب والقبعات والأحذية التي ستقدّم إلى أم الطفل التي أرسلت مقاساتها من ڤيينا، ويعاين المجوهرات عن كثب، ويدمدم لنفسه (بنشاز على عادته)، ويتجاهل بحدّة الأسئلة عن الشؤون العسكرية والسياسية.

في 1 نيسان/أبريل 1810، جرت مراسم الزواج المدني. وفي اليوم التالي، دخل نابليون وعروسه باريس في موكب طويل من العربات، وعبر قوس النصر (بدأ بناؤه في سنة 1806 ولم ينته إلا في سنة 1836) الذي غطي بالكانڤا، وتقدّم تحت الشمس الساطعة في الشانزيليه وعبر حدائق تويليري.

أجريت مراسم الزواج الدينية في كنيسة أقيمت خصيصاً لهذه المناسبة في اللوڤر، وظهر نابليون أمام عروسه في زي أبيض زاهٍ مطرّز بالذهب، وكانت عباءته المصنوعة من الساتان مغطاة بالنحل الذهبي، وقبّعته المخملية السوداء محاطة بريش أبيض ومزيّنة بالماس، إحداها من جواهر تاج آل بوربون.

حضر الحفل أربعمئة ضيف وثلاث ملكات، زوجة جوزيف بونابرت،

الملكة جولي الإسبانية، والملكة أورتنس، التي أعلن زوجها، لويس بونابرت، ملكاً على هولندا في 6 حزيران/يونيو 1806، وزوجة جيروم، كاثرين ملكة وستفاليا. ومن بين الحاضرين أيضاً شقيقات العريس، الأميرة إليزا، دوقة توسكانيا الكبرى الآن، والأميرة بولين المتردّدة والمستاءة، إذ لم تنجح في التماس عدم المشاركة في حمل ذيل فستان العروس بحجّة ثقله وحالتها الصحية الدقيقة. وكانت شقيقة نابليون الأخرى، كارولين، قد دعيت لحمل ذيل فستان العروس، لكنها رفضت بكبر. كما حضرت زوجة يوجين، نائب ملك إيطاليا، وحملت الشموع. وكذلك ستيفاني دي بوهارنيه، قريبة زوج جوزفين الأول، والدوقة الكبرى لبادن.

ترأس المراسم الكاردينا فش، لكن مع أنه دعي ثلاثون كاردينالاً آخر للحضور فإنه لم يحضر سوى أحد عشر منهم وبقيت المقاعد المخصّصة للبقية شاغرة على نحو دالّ، ما أزعج نابليون كثيراً فاستدعاهم في وقت لاحق إلى قصر تويليري وتُركوا ينتظرون ساعتين وهم يرتدون ملابسهم الطقوسية الكاملة. وقد وصف ذلك الكاردينال كونسالفي: «التفتت عيون المشاهدين إلى الكاردينالات الذين أخرجوا بسرعة علناً وأمام الجميع بطريقة مخزية. وجُعلوا يجتازون قاعات الاستقبال والقاعة الكبرى في اضطراب عظيم. وعندما أصبحوا في الخارج لم يجدوا عرباتهم».

سعى نابليون جاهداً لضمان أن يكون الزواج حدثاً شعبياً لدى سكان باريس: فوزّع الدجاج والإوز وقطع اللحم بالآلاف في الأحياء، ووضعت براميل الخمر في ساحات المدينة، وقُرعت أجراس الكنائس فيما دوّت المدافع في إنفاليد، وأطلق سراح السجناء، وكوفئ آلاف الجنود القدامى بمنحهم معاشات إضافية، ووزّعت ميداليات تحمل صورة

الإمبراطور والإمبراطورة الجديدة بسخاء. وتقدّم مئات من الجنود من الحرس الإمبراطوري خلف المئات عبر الساحة التي تطلّ عليها شرفة قاعة الساعة حيث وقف العريس والعروس لتقبّل التكريم والاحترام.

أقامت بولين في قصر نويلي الذي قدّمه نابليون لها حفل استقبال كبير على شرف أخيها. بدأت الأمسية التي أعدّ لها بمساعدة مديرها المالي المتعدّد المواهب ميشلو، بمسرحية غنائية مشى بعدها الضيوف في الحديقة. التمعت أنوار الزينة عند كل جانب وظهرت تماثيل ساكنة فجأة على قواعدها لترشد الضيوف إلى معبد هايمن ونسخة مصغّرة عن قصر شونبرون. وأنارت الألعاب النارية السماء فيما عزفت فرقة موسيقية ألحاناً راقصة. طلب نابليون من أخته أن تكرّر هذا العرض الرائع بعد أسبوع. وبدا في أحسن أحواله وهو يقرص العروس من خديها ويصفعها على مؤخّرتها. وأبلغ مترنيخ ڤيينا: «إنه مولع جداً بها، بحيث لا يخفي ذلك حتى في العلن».

تلا احتفال بولين حفل أقامه وزير الحربية، الجنرال هنري كلارك، ثم احتفال آخر قدّمه الحرس الإمبراطوري، ثم آخر أقامه أمير شوارتزنبرغ. لم يكن ذلك الحفل ناجحاً وانتهى بمأساة عندما اشتعلت النار في قاعة الحفل الخشبية التي شيّدت خصيصاً لذلك. اقتاد نابليون ماري لويز إلى الخارج وعاد ليدير عمليات إطفاء النيران. مات العديد من الضيوف حرقاً، وأصيب آخرون، ومنهم أميرة شوارتزنبرغ، بحروق تركت ندوباً مدى الحياة. واستغل فرديناند، عم ماري لويز ودوق ڤيرزبيرغ الأكبر، الفرصة فحمل كارولين شقيقة نابليون وأخرجها فاقدة الوعي وهي حامل، وقد أجهضت في وقت لاحق.

عند العودة إلى كومبيان مع العروس، شوهد نابليون في مزاج لطيف

غير معهود في حفل استقبال أقيم في صالون دي جو لمجموعة من النبلاء الفرنسيين والأجانب وكبار الضبّاط وزوجاتهم والدبلوماسيين. مشى نابليون بين الطاولات حيث جلس الضيوف يلعبون الورق، وحيا الضيوف بقليل من الكلمات المتعالية غير المعتادة. ووصف الجنرال تيبو ذلك:

> عندما وصل إلى نهاية القاعة، عبر الأبواب المفتوحة إلى القاعة التالية: وقف الجميع تقريباً على الفور، وشكّلوا موكباً طويلاً خلفه. مشى ببطء وتوقّف فجأة عندما وصل إلى وسط القاعة، وشبك يديه على صدره، وحدّق في الأرض صامتاً من دون حركة.

توقّف الضيوف الذين تبعوه بطبيعة الحال، في حين شكّل القريبون منه حلقة حوله. وبينما بقي نابليون ساكناً في ما بدا نوبة صرع، شعروا بالإحراج في البداية ثم بالذهول. وتابع تيبو وروايته:

> لم ينبس أحد ببنت شفة. وشعر الفرنسيون على وجه الخصوص بالإحراج من سلوك نابليون الغريب الذي لا يمكن تفسيره. ظننت في البداية أنه تذكّر شيئاً فجأة وتوقّف للتفكير فيه. لكنه بدا متسمّراً طوال الوقت، ومضت خمس وست وسبع دقائق من دون أن يدرك أحد تصرّفه غير العادي... وراقبوا الأمر كما لو أنهم مسحورون.

بعد مضي وقت طويل بدا نحو ربع ساعة، تقدّم المارشال ماسينا نحو نابليون وتحدّث إليه بضع كلمات بصوت منخفض. صاح فجأة في وجه ماسينا من دون أن يرفع عينيه أو يقوم بأي حركة: «لماذا تزعجني»؟ وبعد

دقيقة أو نحو ذلك رفع رأسه، وأسدل يديه ونظر حوله ومشى ببطء إلى صالون دي جو من دون أن ينطق بأي كلمة واحدة أو يغيّر تعابير وجهه. وعندما اقترب، وضعت ماري لويز ورق اللعب على الطاولة ووقفت. فقال لها: «هيا بنا نذهب»، فتبعته مذعنة إلى خارج الغرفة.

مع أن ماري لويز بدت طيّعة، فإنها لم تكن سهلة القياد كما توقّع زوجها. وغالباً ما كانت تخجل أمام الناس وتميل إلى التفوّه «بكثير من الحماقات» كما تقول عن نفسها. لكنها لم تكن خجولة معه. كان يأمل في أن تعود الإمبراطورة جوزفين إلى البلاط، لكن ماري لويز أصرّت على عدم عودتها، وعدم السماح لها بالإقامة في رفاهها المعهود في مالميزون.

كتبت جوزفين إلى زوجها السابق في انزعاج ظاهر: «وعدت ألا تتخلى عني البتة. إنني بحاجة إلى نصيحة. أنت الصديق الوحيد الذي بقي لي... لقد خرجت تماماً من ذاكرة جلالتك».

ردّ نابليون ببرود: «عليك أن تتحلي بالشجاعة. إذا كنت قلقة بشأن رفاهك فإن عليك أن تسيطري على نفسك. لا يمكنك أن تشكّي في صداقتي لك، ولعلك لا تعرفين الكثير عن تقديري لك إذا اعتقدت أنني يمكن أن أكون سعيداً فيما أنت تعيسة. وداعاً يا صديقتي وعمت مساء».

لم تفلح مثل هذه الرسائل في جلب الراحة إليها. وغالباً ما تبكي بحيث يصعب حالها على من يراها كما قالت كلير دي ريموسا. بل إن جوزفين قالت عن نفسها: «أبدو في بعض الأحيان كما لو أنني ميتة».

كانت جوزفين تدرك جيداً غيرة ماري لويز منها، وعداوة عائلة نابليون وكرهها لها، لذا قرّرت مغادرة فرنسا: فتوجّهت إلى سويسرا عن طريق إيكس وسافوي.

في نهاية نيسان/أبريل 1810، غادر نابليون فرنسا أيضاً مصطحباً ماري لويز في شهر عسل في هولندا. غير أن الرحلة لم تكن تجربة سعيدة لها. كانت تتطلّع إليها بشغف، وتعتقد أنها ستكون رحلة ممتعة لأنها «تحب السفر». لكن لم يمض وقت طويل على الركوب في قافلة من العربات ذات الأصوات المزعجة حتى خاب أملها. فعندما وصلت إلى سان كنتان، كما كتبت في يومياتها، اقتيدت إلى مكان إقامتها في المقاطعة «كان كل شيء مزعجاً وقذراً». وعندما توجّهت إلى الفراش كانت تعاني مما وصفته بأنه ألم في أسفل الظهر وفي «الصباح التالي أيقظها الجنرال في الرابعة صباحاً للتوجّه لزيارة محلج قطن». كما أن وصيفاتها كن كئيبات ويتذمّرن باستمرار من الحانات المريعة والسفر غير المريح والطعام الرديء والطقس المزعج والاضطرار إلى الوقوف طويلاً في الاستقبالات المدنية، والريف الموحش الذي عليهم عبوره- لا سيما السهل الكئيب والمقفر الذي يمتد على جانبي الطريق الوعر إلى بريدا.

هناك أحداث مسلية دوّنتها ماري لويز في يومياتها بين الحين والآخر، مثل سقوط دوق بَسانو في إحدى البرك بعد نزوله من عربته لضرب سائقها، ودخول أمير دوشاتيل غرفة نومها عن طريق الخطأ معتقداً أنها غرفته، وقيام سائق العربة بإنزال وصيفتها الأولى، دوقة مونتيبيلو، عند ماخور في حين أنها كانت تعتزم شراء بضائع مهرّبة من أحد المستودعات.

لكن تلك حوادث نادرة في يومية خصّص قسم كبير منها لوصف السفر المنهك، وإحصاءات مبتذلة، وآلام المعدة والإسعافات التي قدّمها الطبيب الذي حاولت إثارة قلقه بادعاء الإغماء: «قدم على عجل، وتحسّس نبضي الذي أعلن أنه لم يجده، لذا فرك أنفي بالخل. وبعد خمس

دقائق ادّعيت الإفاقة من الإغماء فيما كان يتحدّث عن إجراء فَصْدٍ(*) لي».

ومما زاد الطين بلّة أن زوجها لم يكن في مزاج حسن. فعندما تحدّت أمره بوجوب عدم تناول الطعام في أثناء السفر بالعربة وطلبت الطعام، أبلغها بحدّة أن على السيدة ألا تجوع البتة. واحتجّ أكثر من مرة أنها أفرطت في تناول الطعام. وقد اشتكت من أنه عاملها ووصيفاتها مثل الحرس الإمبراطوري. وانتقاماً من ذلك اعتصمت بالصمت ورفضت الردّ عليه متذرّعة بصداع مؤلم. أثار مزاجها النكد غضبه ففتح نافذة العربة التي تصدر أصوات صفير بفعل الريح ما سمح للمطر بأن يبلّل ثيابها. عندئذ توصّلت إلى قرار بعدم الزواج البتة، إذا ما أتيح لها أن تعيش حياتها ثانية.

كما أن وجود شقيقة زوجها والكونت مترنيخ في رفقتها زاد من سخطها إذ سرعان ما أوضحت كارولين بجلاء أنها تتمنّى لو أنها تخلّفت عن المجيء. وعلى غرار الرحلة من فورتمبرغ، كان عليها الاستيقاظ قبل الفجر كي تتنقل على الطرقات الوعرة والموحلة، واضطرت غير مرة أن تعبر النهر سيراً على الأقدام لأن الجسور ضيّقة جداً لا تستطيع العربات اجتيازها. وقد تعكّر مزاجها كثيراً بحيث «لم يتمكّن أحد من التحدّث إليها»، كما أسرّت في يوميتها. تذرّعت باعتقادها أنها حامل ثانية، فعادت إلى باريس آخذة الكونت مترنيخ معها. لم تأسف ماري لويز البتة على رحيلهما لأنها تشاجرت مع كارولين ولم تكن معجبة بمترنيخ قط. لكنها انزعجت من عمها، الدوق الأكبر فرديناند، الذي كان معهم أيضاً لأنه لا يزال مفتوناً بالملكة الماكرة كارولين.

(*) إخراج بعض الدم – المترجم.

في باريس، حيث عادت إلى قاعة الزهور، أشيع على نطاق واسع بأن كارولين تقيم الآن علاقة مع مترنيخ. وكانت لور، زوجة المارشال دابرانتِس، وعشيقة مترنيخ سابقاً، تحبّ الافتراض بأن مترنيخ لا يهتم لأمر كارولين، زاعمة أنه أخبرها ذات مرة أنها تمقته. لكن ثمة آخرين كانوا على ثقة من أنهما متحابّان.

من المؤكّد أن ستاندال أبلغ بلزاك أنه شاهد مترنيخ في سان كلو مرتدياً مدلاّة تحتوي على خصل من شعر كارولين مورا. كما كتبت شارلوت بونابرت، ابنة لوسيان: «الملكة كارولين تتصرّف بطريقة غريبة جداً. فقد عاد زوجها إلى نابولي، ولم تذهب معه رغم اعتقاد جدتي أنها ارتكبت خطأ فادحاً. لكن الأسوأ من ذلك أنها تمضي كل وقتها يومياً مع رجل يدعى مترنيخ، وهو سفير شاب [أكبر من كارولين بتسع سنوات في الواقع]. وهناك كثير من النميمة في هذا الشأن. [إنها] تسبب لجدتي كثيراً من الأسى بتصرّفاتها».

كانت رسائل كارولين إلى زوجها تتميّز بعاطفة شديدة في هذا الوقت مثلما كانت عند مرافقة ماري لويز إلى باريس، إذ تؤكّد أنها مشتاقة جداً له، وأنها تحبّه كثيراً، وتكره الابتعاد لحظة واحدة عن والد أطفالها. وكتبت في إحدى رسائلها: «فكّر في دائماً. إنني تعيسة جداً لفراقك... وضجرة وحزينة جداً. يا إلهي كم أشعر بالتعاسة!... ذهبنا إلى حفلة لدى الأميرة بولين أمس، واصطدنا اليوم. الطقس ماطر. قال لي الإمبراطور، 'لقد نسيك الشحاذ النابولي، ولم يعد يفكّر فيك البتة'... عندما يلتمّ شملنا ثانية يجب ألا نفترق البتة... قبّل الأولاد عني وقل لهم إن والدتهم لا تعرف السعادة الحقيقية بعيداً عنهم أو بعيداً عنك».

واجهت صعوبة في الحصول على إذن أخيها في العودة إلى نابولي.

وعندما سألته إذا كان يمكنها الذهاب أبدى دهشته من رغبتها تلك لأن الصيف حارّ جداً في نابولي. وقد وافق في نهاية المطاف على ذهابها لكنه سحب الإذن خلال بضعة أيام، ثم دعيت في نهاية تموز/يوليو إلى رامبوييه حيث وجدت الإمبراطور في مزاج سعيد ومرح. كان لديه سبب للاعتقاد بأن ماري لويز حامل، فسمح لأخته في النهاية الذهاب إلى نابولي. فغادرت قبل أن تتاح له الفرصة لتغيير رأيه ووصلت إلى نابولي في 5 آب/أغسطس 1810.

33
ملك روما

«رزقت بولد. إنني في قمة السعادة».

عندما انتهى شهر العسل، حرص نابليون على عزل زوجته تماماً. ونادراً ما كانت تشاهد في العالم الخارجي، وعندما يحدث ذلك، يلاحظ مقدار اضطرابها وافتقارها للكياسة، خلافاً للإمبراطورة السابقة، ومقدار الكبرياء الذي تبديه في بعض الأحيان عندما تكون خجولة. كانت تمضي العديد من الساعات في متابعة دروسها، دروس الموسيقى ودروس الرسم، ودروس شغل الإبرة، وترتيب مجموعاتها من الصور المنقوشة والميداليات والعملات المعدنية، واختيار الهدايا لعائلتها، وقراءة أحد كتبها العديدة– قرأت ثماني عشرة رواية لمؤلفة القصص الرومانسية الغزيرة التأليف، مدام دي جنلي، في سنة واحدة. وفي إحدى المناسبات الاستثنائية، سُمح لمترنيخ بمقابلتها بمفردها، لكن فُهم أنه سُمح بتلك المقابلة كي يتمكن من إبلاغ والدها بأنه أجرى محادثة شخصية معها وأنها سعيدة في زواجها.

وقد حاول نابليون إسعادها بالفعل بعد أن انتهت سفراتها. كان يمضي سهراته معها، ويحرص على توفير ما يسليها مع وصيفاتها. وأمر بإزالة الآثار المتبقية من زوجته السابقة من قصر تويليري، وطمس شعار اسمها، وشبيهتها في لوحة «توزيع الصقور» لداڤيد. وبدا متلهّفاً لإرضاء زوجته شرط أن تتقيّد بالقواعد التي وضعها لها، حتى أنها أبلغت مترنيخ ذات مرة: «إنني لا أخاف من الإمبراطور، بل إنني بدأت أعتقد أنه يخاف مني».

لا شك في أنه كان، كما قالت أورتنس: «أكثر لطفاً ومسايرة» لزوجته الجديدة مما كان عليه في أواخر عهده مع جوزفين. فعندما أبقته منتظراً على العشاء مثلاً، قال من دون ضغينة: «آه، ها قد أتت. لقد عرفت لماذا تأخّرت: كنت تتجمّلين». وعندما أصبحت حاملاً، بان عليه السرور منها. وقال ذات يوم لأورتنس، وهو يعرضها كما قد يشير الخيّاط إلى أحد ابتكاراته على عارضته المفضّلة: «انظري كيف انتفخ شكلها».

لقد ازداد ولعاً بها، فهي بريئة ولطيفة، ولا تزال خرقاء، لكنها مفتونة به وتحترمه. أبلغت إحدى صديقاتها: «لك أن تتخيّلي أنه لا تنقصنا التسلية في باريس، لكن أكثر اللحظات سعادة هي التي أقضيها مع الإمبراطور». أصبح يعتبرها ذات عقل راجح وبديهة، وجديرة بالتحدّث إليها. كان يتسلّى بصحبتها ويبلغها بخططه، ويراعيها في سلوكه بطريقة لا يظهرها تجاه الآخرين إلا نادراً.

كلما تقدّم حمل ماري لويز، ازداد توتّرها. وذات مرة نظر لويس كونستان من النافذة في فونتانبلو فشاهدها وهي تقيء في الحديقة فيما تقدّم لها وصيفاتها المساعدة.

اقتنع زوجها أن احتمال الإجهاض سينخفض إذا ما انصرف تفكيرها عن ذلك بالمسرحيات والأقنعة. وبما أن الانتقال بالعربة يشعرها بالغثيان، والمشي إلى الشرفة في قصر تويليري ينطوي على انزعاجها من الأشخاص الذين يصيحون لتمنّي قيامها بالسلامة، فقد أمر نابليون بحفر نفق خاص لها.

بدأت آلام المخاض ليل 19 آذار/مارس 1811. أُبلغ الوزراء والمسؤولون الذين يطلب تواجدهم عند الولادة الاستعداد للقدوم إلى تويليري وارتداء

الملابس المناسبة. استدعي يوجين دي بوهارنيه، وكذلك أخته أورتنس التي وصفت اضطرابه عندما عانت ماري لويز من «تقلّصات الولادة الطويلة». وقالت أورتنس «أخذ يسألنا هل سيكون لذلك عواقب سيّئة على الأم أو الطفل». وأضافت: «لم يعد يجرؤ على تمنّي الحصول على ولد. وأصبح في وسع المرء أن يرى أنه يحاول إعداد نفسه لخلاف ذلك. فقد أعلن أنه إذا جاء المولود أنثى فستمنح لقب أميرة البندقية. وبدا متلهّفاً ليعرف إذا كان هناك أي علامات يمكن أن يتحقّق بها المرء من جنس الوليد مسبقاً. وقد أظهر بأسئلته مقدار قلقه». ووصفه كونستان بأنه كان «خائفاً جداً».

تواصل مخاض الأم، فقرّرت أورتنس أن تحاول الاستراحة بملابسها الكاملة على سرير إحدى الوصيفات. وذهب الآخرون للنوم على الكراسي. وكتب الكونت دي سان أولير: «كان منظراً عجيباً. الرجال والوزراء النعسون لعدم وجود ما يفعلونه، والإمبراطور المتأثّر جداً احتشدوا معاً حول الطاولات التي قدّم عليها الخمر والشوكولا».

كان نابليون يدخل غرفة زوجته ويخرج منها، ويقدّم لها الدعم بين الحين والآخر فيما تمشي ببطء جيئة وذهاباً في محاولة لتفريج الألم. في نحو الساعة الخامسة، تراجعت شدّة ألمها واستسلمت لنوم مضطرب. اغتنم نابليون الفرصة وأخذ حمّاماً ساخناً جداً، كما يفعل في الغالب عندما يشعر بالقلق. وكان لا يزال في الحمّام عندما دخل طبيب الولادة الغرفة لينبهه إلى أنه ربما لا يتمكّن من إنقاذ الأم والطفل معاً. فأجابه نابليون من دون تردّد وهو ينهض للخروج من الحمّام: «أنقذ الأم، فكّر في الأم فقط».

ويروي كونستان أنه «خرج من الحمّام مستعجلاً، ولم يكد يمنحني

الوقت لأجففه، فارتدى عباءته ونزل مسرعاً لمواساة زوجته. تغلّبت عليه المشاعر عندما أمسك بيدها وقبّلها، فدخل الغرفة المجاورة». وتواصل الجهد في أثناء وجوده هناك. قال طبيب الولادة إنه مجبر على استخدام الأدوات. عندئذ اعترضت ماري لويز بوهن: «هل يجب التضحية بي لأنني الإمبراطورة»؟

بعيد ولادة الطفل، وعند عودة نابليون إلى الغرفة مسرعاً، وُضع الوليد على الأرض كما لو افترض أنه ميت. ثم التُقط وأرجح وصفع وجرّع قطرات من البراندي، فيما غادر نابليون الغرفة فالتقى بأورتنس وهي تنزل مسرعة على الدرج، فبادرها قائلاً: «قضي الأمر».

«بدا مكتئباً جداً فسألته بخوف، 'هل هو صبي؟'»

بدا عليه قليل من الارتياح للفكرة وقال: «نعم». فقبّلته وفوجئت كثيراً عندما أضاف: «لا أستطيع الشعور بسعادة الموقف. لقد عانت المسكينة كثيراً».

بعد ذلك دخل غرفة الإمبراطورة متوجّهاً نحو النافذة لإلقاء نظرة على الجماهير التي احتشدت في الأسفل للاستماع إلى هدير المدافع التي بدأت تدوّي عند الساعة التاسعة. وكان قد أعلن عن إطلاق إحدى وعشرين طلقة إذا جاء المولود أنثى، ومئة طلقة وطلقة إذا جاء المولود ذكراً. بعد تلاشي دويّ الطلقة الحادية والعشرين، ساد الصمت المريب المحتشدين تحت نوافذ قصر تويليري. وعندما أعلنت الطلقة الثانية والعشرون مولد الأمير، رحّب الجمهور بذلك مطلقاً صيحات «عاش الإمبراطور». ورمى الناس قبّعاتهم في الهواء وعانقوا بعضهم بعضاً. وكتب ستندال في صحيفته: «سمعنا صيحات الاستحسان في الشوارع. أخبرني صانع شعري المستعار أن الناس هلّلوا في سارع سان أونور مثلما يفعلون عندما

يعتلي ممثّل خشبة المسرح». نظر كونستان إلى سيّده وشاهد الدموع على وجنتيه. كان الناس في الأسفل يغنّون:

جاء الولد

وعمّ السرور

يحيا الإمبراطور

كتب نابليون لاحقاً: «عزيزتي جوزفين، لقد رزقت بولد. إنني في قمّة السعادة». وبعد زوال الخطر عن ماري لويز، غمرتها السعادة أيضاً، وكتب إلى عائلتها: «لم أكن أعتقد قطّ أنني سأفرح هذا الفرح. حبي لزوجي يكبر طوال الوقت، وعندما أذكر رقّته لا يسعني إلا أن أبكي. ومع أنني لم أحبه من قبل، فإنه ما من شيء يمنعني من حبه الآن».

كتبت لور دابرانتِس التي عادت منذ فترة وجيزة من إسبانيا: «كم كان نابليون سعيداً، ويستمتع بحسن طالعه»! ووصفته وهو يقف إلى جانب المهد، الذي صمّمه بيار بول برودون وصُنع من عرق اللؤلؤ ووُشّي بالفضة، حاملاً الطفل بين ذراعيه ومقبّلاً رأسه. وكتب آخرون لاحقاً أنه كان يلعب مع الطفل كأنه دمية ويذهب إلى باب غرفته ليحمله بين ذراعيه. وروى البارون دي مينفال: «راقبته عدة مرات وهو يحمل ابنه ويضمّه إليه كأنه متلهّف لتعليمه فنون الحكم. وحتى عندما يجلس على أريكته قرب رفّ المدفئة الذي يعلوه تمثالان نصفيان لسيبيو وهانيبعل، ويفكّر في وثيقة مهمة ما أو عندما يعمل في مكتبه، كان يحب أن يُجلس ابنه على ركبته أو يضمّه إلى صدره». وكان يحمله ويعانقه باستمرار، وهو أمر تتحاشى ماري لويز أن تفعله مخافة أن تسقطه.

كتب نابليون لجوزفين معبّراً عن رضاه: «ابني ممتلئ أيضاً. أخذ مني

الصدر والفم والعينين... أرجو أن يتمكّن من الوفاء بقدره».

لم يدُّخر جهد في تربية هذا الوريث لعرش الإمبراطورية، الطفل الذي مُنح لقب ملك روما. كان لمربيته، الكونتيسة دي مونتسكيو، وصيفة وسكرتيرة، ويساعدها في عملها أربع مربيات مساعدات. وشمل خدمه أيضاً العديد من الوصيفات اللواتي زوّدن بزي صوفي أزرق يضاف إليه في الشتاء شال كشميري أزرق. وهناك عاملون لهز السرير، وخدم وممرّضات يرتدين مآزر حريرية سوداء لتمييزهن عن الخادمات اللواتي يرتدين مآزر بيضاء، وحجّاب وطهاة، إلى جانب طبيب وجرّاح وسيدة عُهد إليها الإشراف على أنشطة الرضاعة التي تتمّ داخل جدران قصر تويليري إلا عند ركوب العربة في الخارج مع إحدى المرافقات.

زوّدت عربة الطفل الخاصة بحوذي، وضبّاط مرافقين وسائسين، وزيّنت بشعارات إمبراطورية، وكان يجرّها خروفان صبوران ومنضبطان قدّمتهما عمة الطفل كارولين.

عندما كبر الطفل دلّل بطرق عديدة أخرى: سُمح له بالجلوس على الأرض إلى جانب والده ودفع قطع الطوب الملوّنة التي اعتاد نابليون استخدامها لمحاكاة المناورات العسكرية والتخطيط للمعارك. وقدّمت له أزياء عسكرية منمنمة، وصُنع طقم سفرة من طراز سيفْر خصيصاً له يحمل موضوعات تاريخية مصوّرة. كما قدّمت له مكتبة خاصة من الكتب التثقيفية بالإضافة إلى الألعاب التقليدية مثل القناني التسع. ومُنح رسوماً تظهر اختلاف نسبه عن أسلافه الملوك، وذلك من أهم عوامل اعتزاز نابليون بإنجابه. وقد اتضح ذلك في سلوكه تجاه ابنه الذي لاحظه ذات يوم فرانسوا جوزيف تالما من المسرح الكوميدي الفرنسي.

قال له وهو يضع ابنه على ركبته ويربّت مرتين على مقعدته: «أبلغني يا تالما، ما الذي أقوم به». لم يكن لدى تالما أدنى فكرة عما يقوله، لذا أوضح له نابليون: «ألا تعرف ما أفعله حقاً؟... إنني أضرب ملكاً».

غالباً ما ذُكّر الطفل نفسه بأصله الملكي. وعندما ينغمس والده في أحد عروضه التي يقرص فيها أذرع الشابات بشدّة تحول دون اعتبار ذلك مزاحاً، فإنه يعرض على الصبي الحلوى ليبعدها عن متناوله عندما يحاول التقاطها، أو يرفعه إلى أعلى ليشاهد صورته المنعكسة على المرآة، ثم يرسم على وجهه فجأة تعابير مخيفة لتنعكس إلى جانب وجه ابنه في المرآة. ثم يسأل: «لماذا تبكي؟ يجب ألا يبكي الملك، ويجب ألا يخاف».

كان الصبي مصدر سعادة والده واعتزازه، ومحطّ اهتمام العديد من الخدم، ويتحلّى بالنضج المبكّر والسحر في نظر السيّدات اللواتي يرعينه، فنما معتبراً أمه شبه غريبة، حيث كانت بعيدة عنه مقارنة بقرب مربياته إليه. وكانت بدورها، كما لاحظت إحدى تلك السيدات، تبدو متوتّرة عندما تلعب معه. ويتضح من الرسائل بجلاء أنها كانت تشعر بالبعد عن الدائرة التي تحيط بالصبي وتحميه، وفي حين أنه كان يستجيب فوراً لمحبّة والده الظاهرة له وكل ما يمثّل، فإنه لم يكن يبدو مرتاحاً مع والدته.

> عندما تحضره مدام دي مونتسكيو لتناول الطعام [وفقاً لابن إحدى ممرّضاته]، كان الإمبراطور يضعه على ركبتيه ويذيقه نبيذه المرقّق بالماء –على الرغم من أنه لا يزال يرضع– أو يضع على شفتيه قليلاً من المرق أو صلصة الطعام التي يجدها في متناوله. وعندما تشكو الكونتيسة دي مونتسكيو من هذا المزيج، ينفجر الإمبراطور ضاحكاً ويشارك الطفل والده في الضحك. وعندما تكون الإمبراطورة حاضرة، فإنها لا تعرف

كيف تتصرّف إما من خجلها وإما مخافة أن تؤذي ابنها. ولا يجد المرء لديها العلامات العفوية للمشاعر التي تظهرها الأمهات تجاه أبنائهن. بل إنها لم تكن تشعر بالارتياح لحمله، ما أطلق إشاعة بأنها لا تحب ابنها. غير أن والدتي كانت تخبرني دائماً خلاف ذلك، وأنها تحب ملك روما كثيراً. صحيح أنها نادراً ما تحمله بين ذراعيها، لكنها إذا لم تكن تظهر عاطفتها نحوه فلأنه كان دائماً برفقة مدام دي مونتسكيو. وهي لا تشعر بالراحة عندما تكون هذه السيدة حاضرة.

كانت مدام دي مونتسكيو مخلصة لنابليون، لكن الأمر نفسه لا ينطبق على الوصيفة الأولى لماري لويز، دوقة مونتبلّو الشابة وأرملة المارشال جان لانس الجريء والصريح، وهو صبّاغ متمرّن سابق وابن قيّم على الاصطبلات العامة، أصيب بجرح قاتل في معركة أسْبِرن إسلِنغ. كانت الدوقة الجميلة والفاضلة تمقت نابليون وآل بونابرت، وقد بذلت ما في وسعها لإقناع ماري لويز بمشاركتها في موقفها منهم. وفي الوقت نفسه، اتفق آل بونابرت على كره ماري لويز. وقالت والدة الإمبراطور: «إنها ليست واحدة منا».

34
كارثة روسيا

«لا يمكنك أن تتصوّر مشاعري عندما أمر بغرفتك وأجد النوافذ والمصاريع مغلقة».

أجبرت الإمبراطورة جوزفين على مغادرة باريس قبل زواج الإمبراطور وماري لويز والإقامة في قصر دي ناڤار في نورماندي.

هنا في هذا القصر الواسع، شعرت جوزفين بالضيق والحزن العميق. فقد استاء خدمها من بقائهم في هذا المكان فيما العيد في باريس، وطلب العديد من الوصيفات والوصفاء منها أن تزكيهم للعمل في العاصمة. فاستجابت لطلباتهم بدافع من طيبتها وأخذت تحنّ للعودة إلى باريس بدلاً من الإقامة في منفية في هذا القصر النورماندي الكئيب الذي لا يوجد فيه للتسلية الأمسيات سوى ألعاب النرد مع الأسقف المحلي، ومباريات البلياردو المضجرة التي لا تنتهي، وتقصّي الطالع عن طريق أوراق اللعب.

كانت تقام حفلات عشاء بين الحين والآخر لأعيان إيڤرو، وحفلات موسيقية في بعض الأحيان. لكن معظم الأمسيات كانت تمضى بهدوء حيث تنكبّ الإمبراطورة على شغل الإبرة في حين تقرأ عليها إحدى خادماتها من الكتب من دون أن تصغي إليها إلا لماماً. كتبت مستسلمة إلى يوجين تخبره بأن «الهدوء أمر ممتع. والطموح هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يفسده، وأحمد الله أنني لا أعاني من مرض الطموح».

مع ذلك غالباً ما كانت تبكي ما أدى إلى تراجع بصرها، كما أخبرها الطبيب. غير أنها طمأنت أورتنس أنها «لا تبكي إلا أحياناً منذ بعض

الوقت. أرجو أن تقوّيني الحياة الهادئة التي أحياها هنا بعيداً عن المكائد والنميمة وأن تتحسّن عيناي».

وكتبت إلى نابليون تطلب منه السماح لها بالعودة إلى مالميزون، وهو أمر سمعت أن ماري لويز عارضته على أساس أنها موجودة في باريس أيضاً. وافق نابليون على ذلك لكن بتردّد ملحوظ ما استدعى من زوجته رسالة شكر ممزوج بعتاب حزين: «وعدت ألا تتخلّى عني البتة..: أخشى أنك محوتني من ذاكرتك... يمكنك الاطمئنان يا صاحب الجلالة إلى أنني سأعيش في مالميزون كما لو كنت على بعد آلاف الأميال عن باريس، ولا حاجة بك إلى القلق يا صاحب الجلالة فلن إزعجك بمشاعر الحسرة التي تنتابني».

لكن لم يسمح لجوزفين بالبقاء في مالميزون عندما حملت ماري لويز، واقتُرح على الإمبراطورة السابقة السفر إلى إيطاليا. فقد كانت ماري لويز تغار من زوجة نابليون السابقة. وذات يوم عندما كانت هي وزوجها يمرّان بالعربة بالقرب من مالميزون واقترح عليها زيارته، بدأت تبكي. وأفيد أنها قالت: «كيف تحدوه الرغبة في رؤية تلك السيدة المسنّة؟ تلك المرأة ذات الأصل الوضيع». وعندما عبّرت جوزفين عن رغبتها في رؤية الإمبراطورة الجديدة، ثناها نابليون عن ذلك قائلاً: «لا. إنها تظن أنك مسنّة. وإذا ما رأت مقدار سحرك فستطلب مني أن أبعدك وسيتعيّن عليَّ أن أفعل ذلك».

ابتعدت جوزفين لمدة عام متنقّلة بين سافوي وسويسرا. وعندما عادت إلى مالميزون، أخضعت لسلسلة من التعليمات الجديدة بشأن سلوكها، ونُقل إليها ذلك بمحبّة ولكن بحزم: عليها البعد عن الإسراف، وألا تعطي الكثير للجمعيات الخيرية، وعليها أن تحذو حذو ماري لويز في

الاعتدال في تبرّعاتها والدقّة في حساباتها. وعليها أن تلتزم بالبروتوكول بصرامة، وعندما تتجوّل في العربة عليها أن تحرص على وجود مرافق يليق بمكانتها. أرسل نابليون وزير ماليته للتشديد على الحاجة إلى الاقتصاد ودقّة الحسابات. ولأنها امرأة تحبطها فكرة الاقتصاد والحسابات، فقد بدأت تبكي أكثر مما كانت تفعل في السابق. وعندما سمع نابليون بذلك، وبّخ الوزير وكتب إلى جوزفين رسالة طيّب فيها خاطرها وطمأنها. لم يكن بحاجة إلى دعوة جوزفين للعيش في شيء من العظمة في مالميزون. فقد بقي ما لا يقل عن ثلاثين راجلاً عند مدخل القصر، وعندما كانت تخرج بالعربة، كان يرافقها الحرس الملكي ويسير خلفها أربعة عشر خيالاً. وكان الضيوف يبدون إعجاباً شديداً بالمزائج المسرفة التي يعدّها طبّاخها الإيطالي وأهرامات الفاكهة النادرة المقطوفة من البيوت الزجاجية في حديقتها.

بدت مستسلمة الآن لوضعها الجديد. وأصبحت كسابق عهدها تستمدّ أكبر قدر من المتعة من حيواناتها، البجع والنعامات والشاموا والخراف والبقر السويسري. وأخذت تستمتع بطعامها وتزداد سِمَناً. وقالت لور دابرانتِس إن «شكلها اتخذ أبعاداً مدهشة بحيث أقنعت بعد تردّد شديد بأن ترتدي مشدّات مزوّدة بعظم على غرار السيّدات الأخريات».

أشيع أنها لم تكن معتدلة بطرق أخرى: في طريقها إلى إيكس لقضاء إجازة في صيف 1810، سافرت متخفّية يرافقها حارس ملكي واحد وصحبة امرأة واحدة هي وصيفتها الشابة وغير المتزوّجة، لانسيلوت دي توربان كريسيه.

بدت جوزفين راضية في مالميزون، لكن البلد خارج بواباته لم يكن

كذلك. فقد تضاعف سعر الخبز، وكانت الحرب في إسبانيا مسؤولة جزئياً على الأقل عن أزمة مالية خطيرة. ومدّد الآن التجنيد الإلزامي ليطبّق على جميع الرجال بين العشرين والستين من العمر. وأخذ الإمبراطور يفقد الكثير من شعبيته السابقة، على الرغم من الافتراض أنه لم يكن يعي ذلك. مع ذلك كان يخطّط لشن حملة جديدة، هذه المرة على روسيا حيث أظهر القيصر نفوراً متزايداً من معاملة نابليون كشريك موثوق، فقرّر نابليون إرهابه. ولهذه الغاية أراد تعبئة ما لا يقل عن 675,000 رجل من كل أنحاء إمبراطوريته الواسعة.

قبل أن يغادر في صيف 1812، ذهب ليودّع جوزفين وأمضى ساعتين في التحدّث إليها. وزارت بنفسها كونستان لتطلب منه العناية بسيّده. فوجئ كونستان «باهتمامها بالرجل الذي تخلّى عنها. وبدت كأنها لا تزال زوجته المحبوبة».

سرعان ما توجّه إلى دريسدن، آخذاً معه زوجته الجديدة، وأحاطها بأعداد كبيرة وغير ضرورية من الخدم وحرص على أن ترتدي أغلى الثياب الموشّاة بالمجوهرات لإثارة إعجاب القادة الحلفاء المحتشدين هناك.

كانت ماري لويز لا تزال مخلصة له، وعندما توجه قبل ذلك بفترة وجيزة إلى بولون لتفقّد الأسطول واستعراض القوات التي لا تزال متمركزة هناك للهجوم على إنجلترا الذي طال التهديد به، أكّدت له أنها افتقدته كثيراً في فراقهما الأول بعد سبعة عشر شهراً من زواجهما. وقالت له: «لا يمكنك أن تتصوّر مشاعري عندما أمر بغرفتك وأجد النوافذ والمصاريع مغلقة».

كانت الحملة الروسية كارثة ومأساة، حيث فُقد أكثر من نصف مليون رجل في الأراضي المقفرة المحاصرة بالثلوج، عندما سعى الناجون المنهكون

للعودة إلى الديار تاركين وراءهم بقايا موسكو المحروقة والمهجورة. وكتب ضابط في فوج ڤورتمبرغ يصف ذلك:

> تساوت ويلات البرد مع ويلات الجوع. فلم يكن هناك طعام عفن أو مقزّز إلا ووُجد من يستمتع بأكله. ولم تبق بقرة أو جواد ميت إلا وأكل، ولا كلب أو قطة أو جيفة أو حتى جثث من ماتوا من البرد أو الجوع. لم يعد مستغرباً أن يعضّ الرجال على أجسادهم الجائعة. لكن لم تكن أجساد الرجال وحدها التي عانت أشدّ المعاناة، بل تأثّرت عقولهم أيضاً بهجمة البرد القارس والجوع. فاختفت كل مظاهر التعاطف والرحمة الإنسانية، ولم يعد أحد يفكّر أو يهتمّ إلا في نفسه. فأصبح المرء يراقب رفيقه وهو يموت بعدم اكتراث تام، ويجلس من دون مشاعر على جثّته إلى جانب نار التدفئة. استحوذ اليأس الشديد أو الجنون التام على الكثيرين فلفظوا أنفاسهم الأخيرة وهم يتلفّظون بأقذع الشتائم للبشر.

بقي نابليون مدة طويلة هناك. لكن كان ذلك الغلط الوحيد الذي اعترف به عندما ترك بقايا جيشه وعاد إلى فرنسا بعربة زلاّجة. وكان قبل مدة قصيرة قد أظهر حماقة العظمة مشيراً إلى لويس السادس عشر بأنه «عمه المسكين» ومعلناً تنصيب المارشال برنادوت على عرش السويد، وأن اعتلاء واحد من العامة العرش «ظلم للرؤوس المتوّجة». وأخذ الآن يتحدّث كما لو أن دمار جيش أقوى من كل الجيوش التي سبقته ما هو إلا نكبة موقّتة، وأن عودته إلى فرنسا ستعيد الأمور إلى نصابها بسرعة.

كانت رسائله إلى ماري لويز طوال الحملة تعزف على وتر الأمل. فقد

طمأنها في منتصف تموز/يوليو 1812 إلى أن «أموره تتقدّم جيداً». وكتب لاحقاً من ڤيتبسك «صحتي جيدة. الجوّ ليس حاراً. أحبك كثيراً. قبّلي ابني». لكنها لم تشعر بارتياح كبير للرسالة. وأبلغت إحدى صديقاتها: «إنني أعذّب نفسي باستمرار واشعر بضيق دائم. ويكفي أن يمرّ يوم من دون أن أتلقى رسالة منه إلى بثّ الكآبة العميقة في نفسي. وعندما تصلني رسالة منه، فإنها تريحني لمدة ساعة فقط أو نحو ذلك».

وصف كولانكور، مرافق نابليون في رحلة العودة الحزينة إلى فرنسا، سيّده بأنه فقد كل صلة بالواقع رافضاً قبول الكارثة التي لحقت بالجيش العظيم، ومستخفّاً بالخسائر الرهيبة التي تكبّدها. وكان يقرص كولانكور من خدّه، عندما يحاول أن يهبط بالإمبراطور إلى أرض الواقع، مازحاً بأنه سيكون من الملائم أن يأخذ البروسيون نابليون بونابرت أسيراً ويسلّمونه إلى الإنجليز الذين يعرضونه في لندن مثل حيوان في قفص.

بدا أمام كونستان أنه غير قلق من الكارثة الروسية. وكما لاحظ هو نفسه: «إن رجلاً مثلي لا يبالي بحياة مليون رجل». وكان قد أبلغ القيصر ذات مرة: «لديَّ ثلاثمئة ألف رجل أنفقهم». كما وصفه الجنرال كليبر بأنه «جنرال يستهلك ستة آلاف رجل في اليوم». وعلّق ذات يوم وهو يلتفت إلى جثث جنوده عند قدميه: «ذلك تغيير صغير». ونُقل عنه قوله عندما شاهد رجاله يغرقون في نهر بيرسينا: «انظروا إلى هؤلاء العلاجيم»

تخلّى مورا، الذي تُرك لقيادة الجيش، عن منصبه متعمّداً متذرّعاً باعتلال صحّته، لكنه كان يريد في الواقع إنقاذ مملكته في نابولي، ما أغضب نابليون كثيراً فكتب إلى كارولين: «تخلّى زوجك عن الجيش في السادس عشر [من كانون الثاني/يناير 1813، تاركاً القيادة ليوجين دي

بوهارنيه]. إنه رجل شجاع في ميدان القتال، لكنه أضعف من امرأة أو راهب عندما يبتعد العدو عن بصره. إنه يفتقر إلى أي شجاعة أخلاقية. أترك لك أن تبلغيه بمقدار استيائي من تصرّفه المشين».

في ذلك الوقت وصل نابليون إلى باريس، وبعيد ذهابه إلى مالميزون لزيارة جوزفين، شرع في تنظيم سلسلة من الحفلات والاحتفالات كما لو أنه يحتفل بانتصار ويعترض على خطاب أرسله الجنرال بيرثييه: «لم يعد جيشك قائماً». وكتب الرائد ريمون دي مونتسكيو: «القصص التي رواها الضباط الذين نجوا من الانسحاب كانت رهيبة بحيث توقّف مهرجان صرف الأنظار. ولزم الجميع منازلهم مهمومين بالكارثة الحاضرة وقلقين من المستقبل. ووسط التجهّم العام، صُدم الناس عندما عرفوا عن حفلات التسلية التي يقيمها الإمبراطور في قصر تويليري. إنها إهانة للفاجعة العامة تكشف عن القسوة وفقدان الحس تجاه أعداد الضحايا. سأبقى أذكر إحدى تلك الحفلات الكئيبة التي شعرت فيها كأنني أرقص على القبور». وأبلغت ماري لويز إحدى صديقاتها: «لم أعد أحب الرقص».

وكتب كونستان: «كانت المرة الأولى التي يعود فيها نابليون من إحدى الحملات من دون أن يجلب معه سلاماً جديداً حقّقه بعظمة جيشه. وفي هذه المناسبة، لم يستطع جميع من كانوا يعتبرون جوزفين عرّافة الإمبراطور وجالبة لحسن طالعه إلا أن يلاحظوا أن الحملة الروسية هي الأولى التي يشنّها الإمبراطور بعد زواجه من ماري لويز».

35

لاجئون

«كانوا يشاهدون جنازة الإمبراطورية».

بدا الإمبراطور غافلاً تماماً عن الكارثة المذلّة للحملة الروسية، وتأثير تلك النكبة على سمعته. وكما قال دوق دي فيزنساك: «لم يعد الإمبراطور الرجل الذي لا يُقهر. كنا نموت في روسيا في حين يفنى جيش آخر في إسبانيا... لم يعد هناك شك في انشقاق بروسيا، وتحالفنا مع النمسا يوشك على التداعي على الأقل. وازداد إنهاك فرنسا فيما كثر أعداؤها».

في بداية سنة 1813، بعد توقيع معاهدة قيصر روسيا، انشقّ ملك بروسيا عن نابليون وانضمّت النمسا إلى الحلفاء. أمر نابليون بعدم إبلاغ ماري لويز عن انشقاق والدها، وبعد انضمامه إلى جيشه الذي أعيد إنشاؤه، أخذ يكتب لها رسائل كل يوم يعبّر لها فيها عن حبّه ويقدّم لها أخباراً مشجّعة عن تقدّم جيشه مع أن الواقع لا يبرّرها. وفي تموز/يوليو 1813، منح نفسه إجازة لمدة أسبوع في مينتز وطلب من زوجته الانضمام إليه هناك. وصل في وقت متأخّر من الليل وكانت نائمة كما دوّنت في يومياتها. «اجتاز جميع الغرف التي ينام فيها حاجبي ووصيفاتي من دون أن يسمعه أحد. لم أحاول أن أدوّن مقدار فرحتي برؤيته [أول مرة في أربعة أشهر تقريباً]. فذلك ليس مكانه الورق، بل يمكن الإحساس به فقط».

إلى جانب كتابة الرسائل العاطفية لماري لويز في صيف 1813، كتب نابليون لجوزفين أيضاً، وفي طريق عودته إلى باريس، طلب من مينڤال التوجّه إلى مالميزون ليطمئنها على نحو ما طمأن به ماري لويز.

لم تشعر جوزفين بالارتياح رغم ذلك. لم تستطع النوم، وعانت من آلام الشقيقة الممضّة. كانت تتوجّس خوفاً من حدوث كارثة، وعندما سمعت في تشرين الأول/أكتوبر أن جيش نابليون مني بهزيمة في ليبزيغ، كتبت إليه لمواساته: «سيدي، على الرغم من أنني لم أعد استطيع مشاركتك أفراحك، فإن حزنك سيكون حزني دائماً أيضاً. لا يسعني أن أقاوم حاجتي إلى أن أقول بأنني أحبك من كل قلبي».

عاد نابليون إلى باريس ثانية على أمل أن يجمع مزيداً من الرجال والمال لحرب يعتقد معظم ماريشالاته الآن أن النصر فيها غير ممكن. بل إنه تحدّث بنفسه عن احتمال الهزيمة، وخشيته من أن الحظ يفرّ منه، إذ لم يعد «نجمه» لامعاً، كما عبّر يوجين.

يوم الأحد في 23 كانون الثاني/يناير 1814، خاطب بعد القدّاس عدة مئات من ضبّاط الحرس الوطني الذين اصطفّوا في صالون الماريشالات في قصر تويليري: «أعهد إلى الحرس الوطني الشجاع بالإمبراطورة وملك روما، زوجتي وابني، اللذين أحبهما أكثر من أي شيء في هذا العالم بعد فرنسا. ستحمونهما، أليس كذلك؟ ستحمونهما»؟ فتعالت صيحات «يحيا الإمبراطور».

في اليوم التالي غادر باريس للالتحاق بجيشه في محاولة لوقف تقدّم الحلفاء، وطمأن بغضب الملكة أورتنس، التي جاءت إلى قصر تويليري بناء على طلبه ولاحظت بحماقة أن الاحتمالات في غير مصلحته، إلى أن وجوده في ميدان القتال يساوي مئة ألف رجل. وقالت أورتنس إن ماري لويز لم تكفّ عن البكاء عند مغادرة زوجها. «عانقها الإمبراطور وقال لها 'ثقي بي. هل تظنّين أنني نسيت مهنتي؟'».

سألت ماري لويز: «متى ستعود ثانية»؟



فوق، شارل موريس دي تاليران بيريغور، صورة رسمها بيار بول برودهون.
إلى اليسار، نابليون بوقفته المميّزة أمام قصر ماليزون في سنة 1804، صورة رسمها فرانسوا باسكال سيمون، البارون جيرار.
الإمبراطورة جوزفين في ماليزون، صورة رسمها البارون جيرار أيضاً.

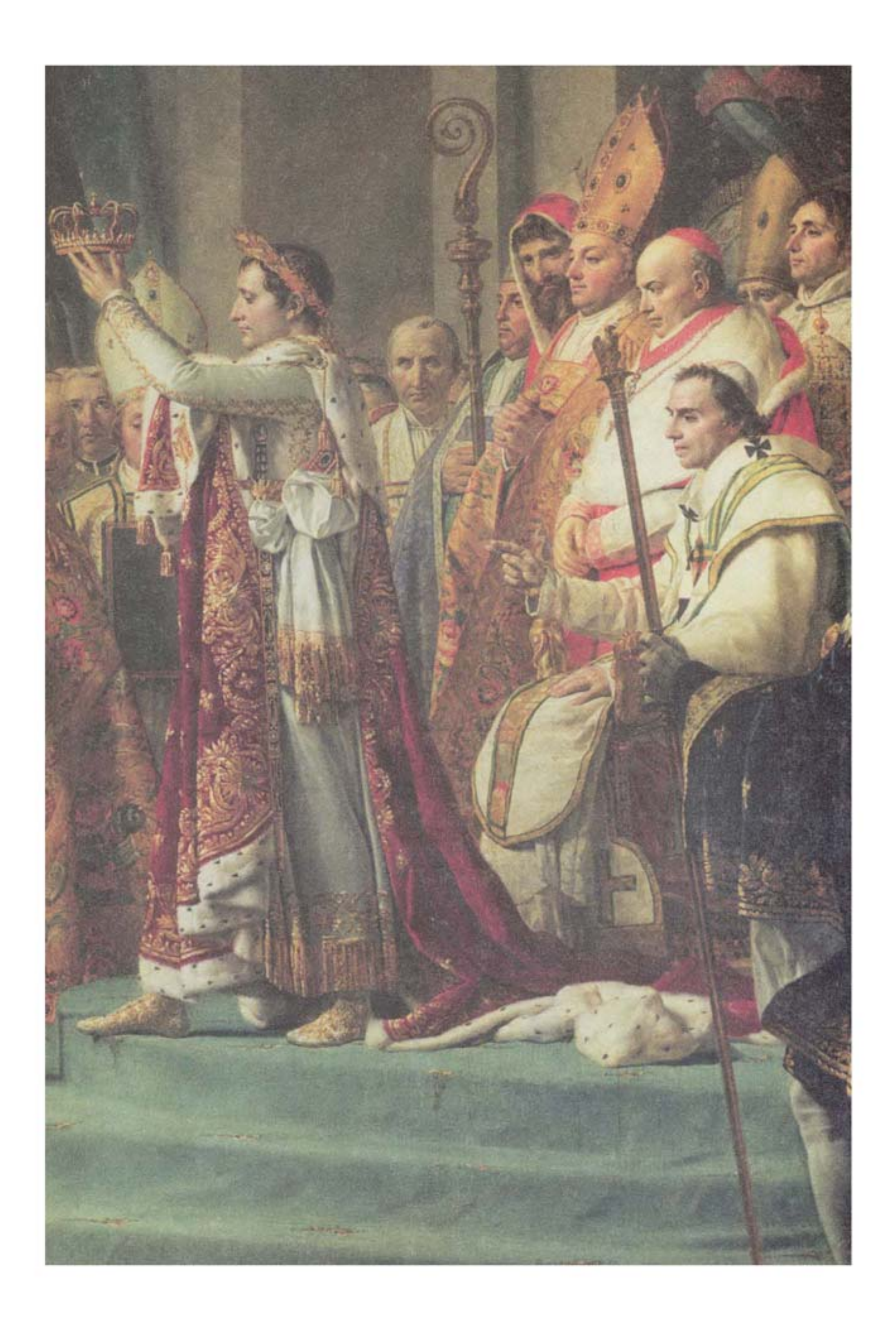


إلى اليسار، مغنية السوبرانو غيسيبينا غراسيني، صورة رسمتها ماري لويز إليزابيت فيغي ليبرون.
تحت، ماري والوفسكا، صورة رسمها فرانسوا باسكال سيمون، البارون جيرار.



إلى اليمين، مارغريت جوزفين وايمار (الممثلة الآنسة جورج).

تحت، جين فرانسواز، مدام ريكامييه، صورة رسمها جاك لويس دافيد.

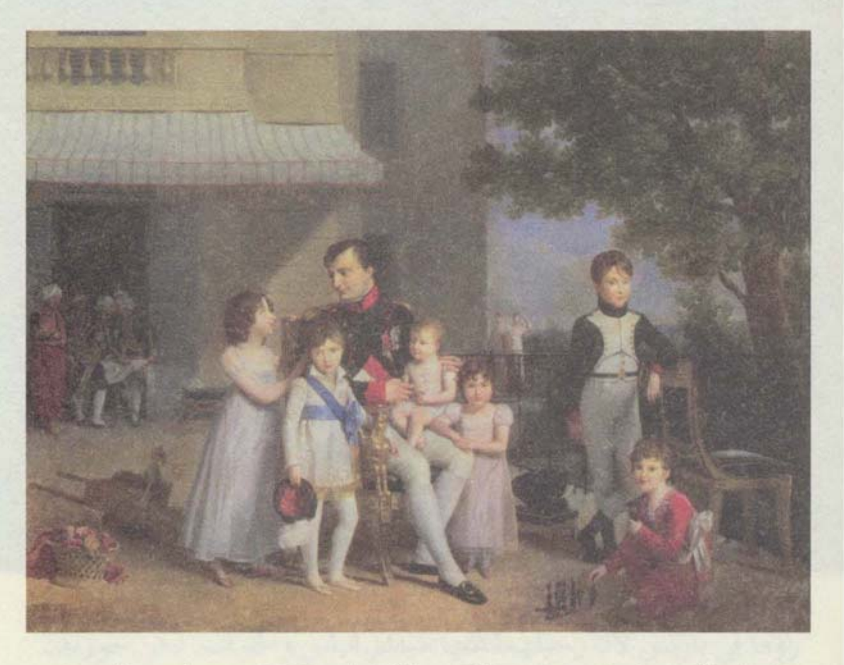




حفل تتويج الإمبراطور نابليون والإمبراطورة جوزفين بحضور البابا بيوس الثاني عشر في 2 ديسمبر 1804، صورة رسمها جاك لويس دافيد.



نابليون بونابرت مستقبلاً ملكة بروسيا لويزا في تلسيت في 6 تموز/يوليو 1807، صورة رسمها نيكولا لويس فرانسوا غوس



نابليون مع أبناء وبنات إخوته على شرفة قصر سان كلو في سنة 1810، صورة رسمها لويس دوسيس.



طلاق الإمبراطورة جوزفين، صورة رسمها هنري فريدريك شوبان.

فرد عليها، «ذلك يا عزيزتي سرّ لا يعلمه إلا الله».

كانت أعداد كبيرة من جنوده قد فرّت، في حين أن العديد ممن ثبتوا ليسوا سوى مجنّدين ينقصهم التدريب. مع ذلك تمكّن بفضل المهارات الكبيرة التي أظهرها في حملات سابقة من هزيمة أعدائه في شامبوبير ومونميرال ثم في ڤوشامب ومونتيرو، وبعد إحراز هذه الانتصارات الأربعة في أقل من أسبوع كتب إلى ماري لويز بثقة يبلغها أنه يتوقّع تأمين السلام في غضون بضعة أيام، سلام جدير به و«جدير بفرنسا». لكن بعد اجتماع بروسيا وبريطانيا وروسيا والنمسا عليه، والتزامهم في معاهدة شومون بمواصلة الحرب حتى الإطاحة بنابليون، لم تمض فترة طويلة حتى انهارت إمبراطوريته المتراجعة.

عندما أصبحت أصوات المدافع تُسمع في باريس، اتفق جميع أعضاء مجلس الوصاية الذي عيّنه نابليون، ويضمّ ماري لويز- التي قال إنها «ذات عقل أرجح من جميع وزرائي»- وجوزيف بونابرت، الذي عاد من إسبانيا، وتاليران وكمباسيريه، على وجوب بقاء الإمبراطورة وملك روما في باريس لأن رحيلهما عنها سينشر اليأس والخوف. لكن جوزيف عرض عندئذ رسائل من نابليون أمر فيها بأن يغادرا باريس إلى رامبوييه مع مجلس الشيوخ ومجلس الدولة والخزانة، إذا كان هناك خطر من تعرّضهما للأسر. وكتب أنه يفضّل أن تدقّ عنقه على أن يربّى ابنه كأمير نمساوي في ڤيينا. لذا نزولاً عند أوامر الإمبراطور، أجريت الاستعدادات للرحيل الفوري عن باريس.

قبل المغادرة، كتبت ماري لويز لنابليون: إنهم يصرّون على ذهابي مع أنني أتحلّى بالشجاعة الكافية للبقاء، وأنا غاضبة لأنهم لن يسمحوا

لي وبخاصة فيما يبدي الباريسيون استعداداً كبيراً للدفاع عن أنفسهم. لكنهم أوضحوا لي أن ابني سيتعرّض للخطر... أعتقد أنك ستوافق خلال أيام على أنه كان يجدر بي البقاء، لكن ليس لديَّ خيار. لقد أراني جوزيف الرسائل».

وهكذا انطلقت الإمبراطورة وابنها، إلى جانب عدد كبير من الخدم، بالإضافة إلى عائلة بونابرت، تتبعهم قافلة كبيرة من العربات المحمّلة بالأمتعة من باريس على الطرقات المليئة باللاجئين والعربات والحيوانات. راقبهم حشد صامت وهم يغادرون. وكتب مينڤال: «كانوا يشاهدون جنازة الإمبراطورية».

غادرت جوزفين أيضاً مالميزون متوجّهة إلى قصر ناڤار، وكذلك أورتنس وولداها. وبعيد وصولهم، تسلّمت جوزفين رسالة تبلغها أن العدو احتل باريس وأن نابليون الذي عجز عن الوصول إلى العاصمة موجود في فونتانبلو، على بعد نحو ستين كيلومتراً إلى الجنوب. عندما سمع بأن جوزيف وافق على تسليم المدينة، تحدّث عن حملة جديدة. لكن جنرالاته أبلغوه أن الوضع ميؤوس منه، وأجبر على التسليم بضياع الإمبراطورية. وكتب كونستان: «كانت معنوياته ترتفع وتنخفض. كان يبدو كئيباً جداً في يوم، فيما يصفّر في اليوم التالي». لكنه بدا معظم الوقت «تعباً وفاتر الهمّة في معظم الأوقات». ولاحظ لازار كارنو، المهندس العسكري: «لم أعد أعرفه. كان نحيلاً وصامتاً، وهو الآن سمين وثرثار. إنه فاتر الهمّة سارح الفكر. هذا الرجل الذي كان سريعاً في اتخاذ القرارات ويرفض النصائح، أصبح يتكلّم الآن بدلاً من العمل ويطلب آراء الرجال».

وافق على التنازل عن العرش لصالح ابنه، لكن تاليران الذي خطط

لتعيين نفسه رئيساً للحكومة المؤقّتة ويسعى لإعادة أسرة بوربون إلى الحكم ممثّلة بالملك لويس الثامن عشر، شقيق لويس السادس عشر، عارض اقتراح نابليون لأنه يستتبع بالضرورة وجود وصي على العرش. لذا تنازل عن العرش في 11 نيسان/أبريل من دون هذا الشرط. وقال كولانكور إنه لم يفصح عن أي مشاعر عندما أجبر على ذلك ملاحظاً أن تاليران مثل القطة، يسقط دائماً على قدميه.

بناء على اقتراح القيصر، سمّي نابليون حاكم جزيرة إلبا، وهي مكان ممتع ذو مناخ معتدل، ويتكلّم معظم سكانها الإيطالية. واتفق في الوقت نفسه على التعامل مالياً بسخاء مع الإمبراطور ومختلف أفراد عائلته. واقتُرح أيضاً في وقت لاحق أن يكون للإمبراطور، إلى جانب مسؤولي البلاط والخدم، جيش صغير مكوّن من سبعمئة رجل من الحرس القديم، وثمانمئة رجل ميليشيا من الإلبيين وثلاثين فارساً بولندياً.

كتبت ماري لويز لنابليون: «سأكون أكثر شجاعة وهدوءاً لو تقاسمت معك قدرك وواسيتك في ملمّاتك. عليك أن ترسل أحداً ليبلغني ما أفعل... ما من أحد يحبّك قدر ما تحبّك لويز المخلصة». وكتبت له في عيد ميلاد ابنهما الثالث: «إنني أفكّر فيك كثيراً اليوم. قبل ثلاث سنوات قدّمت لي دليلاً مؤثّراً على حبّك حتى أن الدموع تطفر من عيني عندما أذكره. لذا فإن هذا اليوم على وجه الخصوص يعني لي الكثير».

وقالت إنها تودّ أن ترى والدها أولاً ثم تذهب إلى زوجها في إلبا. لكنها لم تتمكّن من القيام بذلك. وعندما توجه الجنود الذين أرسلهم نابليون لإحضارها من بلوا، وجدوا أنها غادرت. وقد أوضحت: «أنهم أجبروني على الرحيل، إذ صدرت أوامر تمنعني من الانضمام إليك بل

اللجوء إلى القوة عند الضرورة... إنني تعيسة حقاً.. الموت يرضيني تماماً، لكنني أريد الحياة علّي أنفعك وأحاول تقديم بعض العزاء لك».

غير أن والدها تمسّك برأيه: «لن يسمح لي برؤيتك الآن أو الذهاب معك إلى إلبا... إنه يصرّ على أن أمضي الشهرين التاليين في النمسا، ثم أتوجّه إلى بارما»– التي أصبحت دوقة لها بموجب معاهدة فونتانبلو.

نُقلت إلى قصر في كُمبيانيو حيث وجدها القيصر وملك بروسيا باكية عندما قدما لرؤيتها هناك. كانت لا تزال مصرّة على الذهاب إلى إلبا عندما تستطيع الفرار.

كتبت ماري لويز عندما بدا لها أنها لن تستطيع في النهاية الذهاب إلى إلبا: «ستعرف الآن أن الأوامر صدرت بمنعي من الانضمام إليك، واستخدام القوة عند الضرورة. توخّ الحذر يا حبيبي. إنهم يخدعوننا. وأنا قلقة جداً عليك».

36

المرافق الملكي النمساوي

«إنني مستعد للرهان أنها ستصبح عشيقتي في غضون ستة أشهر».

فقد نابليون الآن الأمل في المستقبل، فقرّر أن يسمّ نفسه وفقاً لكولانكور. بعد أن كتب لماري لويز رسالة يؤكّد لها فيها حبّه ووضعها تحت وسادته، فتح حقيبة أدوات الزينة وأخرج منها قارورة صغيرة اعتاد تعليقها بشريط حول عنقه، وأفرغ محتوياتها من البلادونا والأفيون والخربق(*) في كوب من الماء، ثم شرب المزيج وأرسل في طلب كولانكور وذهب إلى الفراش.

قال له: «تعال واجلس، إنهم يريدون أخذ الإمبراطورة وابني بعيداً عني... أعطني يدك. أرجو لك السعادة يا عزيزي كولانكور، فأنت تستحقّها».

بدأ السمّ يأخذ مفعوله: انتابته برودة شديدة ثم اعترته الحرارة، وتصلّبت أطرافه. وقال كولانكور: «عانى الإمبراطور معاناة شديدة. ولا أستطيع أن أعبّر عن الألم العميق الذي أحدثه في نفسي هذا المنظر. صاح نابليون، 'ما أصعب أن يموت المرء. أبلغ جوزفين أنني كنت أفكّر فيها. أعطني يدك وقبّلني'. جذبني نحوه وهو يتنفّس بصعوبة. فقدت القدرة على الكلام ولم أستطع أن أخفي دموعي».

توسّل إلى كولانكور لمساعدته في الموت. كان يتألّم ألماً عظيماً ويشعر بعطش شديد. لكنه بدأ يتعافى في وقت مبكّر من الصباح، وبدا أن السمّ

(*) البلاّدونا (ست الحسن) والخربق نبتتان سامّتان – المترجم.

قد تلاشى. وبعد ظهر اليوم التالي، تمكّن من قراءة رسالة من ماري لويز:

> أرجوك ألا تغضب مني يا عزيزي [للذهاب إلى رامبوييه]. لم يكن في وسعي أي شيء. إنني أحبّك حباً جداً يشطر قلبي إلى نصفين. إنني خائفة جداً من أن تعتقد ذلك مكيدة دبّرتها أنا ووالدي ضدّك... إنني أتوق حقاً إلى مشاركتك أحزانك. وأتوق إلى أن أرعاك وأواسيك، وأكون نافعة لك... ابنك هو الوحيد السعيد هنا... أنت وهو وحدكما تجعلان الحياة جديرة بالعيش.

كان والدها «لطيفاً جداً ومحباً»، لكن ذلك «يتناقض تماماً مع الضربة الرهيبة التي وجّهها لي. إنه يمنعني من الانضمام إليك أو رؤيتك أو مرافقتك في رحلتك. ولم يجدني إبلاغه أن واجبي يحتّم عليَّ اللحاق بك. فقد قال إنه لن يسمح لي بذلك».

سرعان ما تبعت هذه الرسالة واحدة كتبها مترنيخ ووقّعها والدها: «قرّرت أن أقترح [على ماري لويز] القدوم إلى ڤيينا لقضاء بضعة شهور من الراحة مع عائلتها». ولم يستطع الأب أن يفهم رغبة ماري لويز في مشاركة نابليون في المنفى. لذا أعلن أنه «لا يستطيع شخصياً أن يطيق هذا الكائن»: إنه «متعجرف مخيف».

بدأت مشاعر ماري لويز تجاه نابليون تتغيّر ببطء وازداد تردّدها في مشاركته منفاه. كان يوجد بين خدمها رجال ونساء حاولوا ثنيها عن الانضمام إليه في إلبا، وحذّروها من مناخ جزيرة إلبا غير الصحي، وألمحوا إلى أنه تزوّجها لأسباب أنانية وسلالية، وأن الإمبراطور لن يكون زوجاً

مخلصاً على الأرجح رغم إخلاصها له: كان معروفاً أن الآنسة جورج ومدام والوفسكا شوهدتا في فونتنبلو وعرضتا أن تشاركاه في منفاه. كما أن عليها التفكير في ابنها. ففي المفاوضات التي أدّت إلى توقيع معاهدة فونتنبلو في 11 نيسان/أبريل وتخلّي نابليون وورثته عن عرشي فرنسا وإيطاليا، اقتُرح منح دوقيات بياسنزا وغاستالا وبارما لماري لويز وابنها، وعليها ألا تعرّض إرث ابنها للخطر. كما كان هناك مسألة إضافية ينظر فيها: اعتبر الفاتيكان زواجها من نابليون باطلاً على أساس أن زواجه السابق من الإمبراطورة جوزفين لم يُلغ بناء على سلطة البابا كما يتطلّب القانون الكنسي، وإنما سلطة أسقف باريس فحسب. وهكذا فإنها في نظر الكنيسة خليلة لنابليون وليست زوجته، ولذلك فإن ابنها غير شرعي. وكان لهذه الفكرة تأثير كبير فيها.

لذا تبدّد الأمل في أن ترافقه زوجته وابنه في المنفى، وفي 29 نيسان/أبريل ودّع جنود الحرس القديم قبل الإبحار إلى إلبا في الفرقاطة البريطانية «أنْدونتِد». كانت مناسبة مؤثّرة. أفيد أنه قال: «وداعاً يا أبنائي. لقد ضحّيت بجميع حقوقي ومستعدّ للتضحية بحياتي لأن هدفي الوحيد هو سعادة فرنسا ومجدها... اخترت مواصلة الحياة كي أتمكن من الكتابة عن الأشياء العظيمة التي حقّقناها وإبلاغ الأجيال القادمة عن أعمالنا العظيمة... أود أن أضمّكم جميعاً إلى قلبي، لكنني سأقبّل العلم على الأقل». بكى الجنود عندما قام بذلك، واغرورقت أعين المفوّضين البريطانيين والبروسيين والنمساويين بالدموع. وحده المفوّض الروسي بدا غير متأثّر. رفع نابليون يده ملوّحاً بالوداع وقال: «إلى اللقاء. احفظوا ذكراي في قلوبكم».

بعد مرور شهرين على توقيع معاهدة فونتنبلو، جاء ضابط أرسله الإمبراطور النمساوي للعمل كمرافق ملكي وقدّم نفسه لابنة الإمبراطور التي كانت قد توجّهت إلى ينابيع إيكس بعد أن عادت إلى النمسا. كان هذا المرافق الملكي الجديد يدعى آدم أدالبرت، غراف ڤون نيبرغ، وهو جنرال في الجيش النمساوي عمل سفيراً لبلده في ستوكهولم. كان في التاسعة والثلاثين، يتميّز بجاذبية عظيمة وذا ذوق رفيع، بيد أن ملامحه يكتنفها غموض رومانسي بسبب الرقعة السوداء التي يرتديها لإخفاء جرح أفقده النظر في إحدى عينيه. بعد حصوله على الطلاق من زوجته، وتزوّجه مؤخّراً من عشيقته، أصبح ذا جاذبية عظيمة للنساء كما لاحظت مدام دي ستال. اختاره الإمبراطور النمساوي، بموافقة مترنيخ، مرافقاً ملكياً لماري لويز بعد أن طلب من الأمير شوارتزنبرغ أن يزكي له رجلاً حسن المظهر يعهد إليه بتقديم تقارير موثوقة عن تحرّكات ابنته ونواياها ويقدّم لها النصح الملائم. وكان عليه ألا يضمن عدم وصولها إلى جزيرة إلبا فحسب وإنما إقناعها أيضاً، وفقاً لتعبير البارون دي مينڤال، بأن «تنسى فرنسا وبالتالي الإمبراطور». والأفضل أن تخضع لسحر نيبرغ. وقد أوضحت التعليمات التي حصل عليها من مترنيخ ذلك بجلاء:

> يجب أن يثني غراف ڤون نيبرغ دوقة كولورنو [ماري لويز] بكل الكياسة واللطافة الممكنة عن فكرة الذهاب إلى إلبا، وهي رحلة تلحق أعمق الألم في نفس والدها. جلالته يكن أرق الأمنيات بالسعادة لابنته المحبوبة. لذا على غراف ڤون نيبرغ ألا يفشل في ثنيها عن القيام بذلك بأي وسيلة ممكنة.

في البداية لم يرق لها، ولم تهتم لطريقة نظره الجانبية عندما يتحدّث

إليها، مبعداً وجهه لصرف الانتباه عن الرقعة السوداء فوق حجاج عينه. لكن كما علّق الديماغوجي الإنجليزي جون وايلكس، لم يستغرق الأمر سوى نصف ساعة لصرف انتباهها بحديثه عن وجهه وسرعان ما استحوذ عليها بطريقته الساحرة. ووفقاً لحفيده فإنه قال قبل الشروع في مهمته: «إنني مستعد للرهان أنها ستصبح عشيقتي في غضون ستة أشهر».

وثقت ماري لويز به، ويبدو أنها اقتنعت بأن إصرار زوجها على أن تلحق به إلى إلبا لا تمليه رغبته في رفقتها هناك بقدر ما يمليه الضرر الذي يلحق بسمعتها في العالم من جرّاء عدم القيام بذلك. وأقنعت بأن علاقات نابليون الغرامية السيّئة السمعة بالنساء الأخريات و«طيشه» بهذا الشأن، وتناقضاته لا تحتمل. وعندما تلقّت أمراً قاطعاً من زوجها بالذهاب على الفور إلى جنوى والانتقال من هناك على متن السفينة «إنْكُنستان» إلى إلبا، وصفت نبرة الرسالة ومحتواها بأنها «عديمة التبصّر».

نفّذ نيبرغ مهمته بلباقة مميّزة، فكان يرافق ماري لويز في المشي، ويجالسها في الأمسيات، ويعزف البيانو بمهارة وحساسية فيما تعمل على مطرّزات للكراسي في مكتب زوجها أو تكتب الرسائل له.

لكن لم يصله سوى قليل من هذه الرسائل. وقد اعتُرضت إحداها وأرسلت إلى ڤيينا، فطلبت السلطات من ماري لويز تقديم تعهّد قاطع بعدم الإبحار إلى إلبا من دون موافقة والدها. وطُلب منها أيضاً العودة إلى ڤيينا في أوائل تشرين الأول/أكتوبر: أبلغت أن وجودها هناك ضروري إذا كانت تريد أن تُمنح الحكم الكامل لدوقيتي بارما وبياسنزا كما اقتُرح سابقاً.

لكنها قرّرت قبل العودة إلى ڤيينا أن تمضي شهر أيلول/سبتمبر في

السفر إلى سويسرا برفقة الجنرال نيبرغ الجذّاب والمسلّي الذي سيكون دليلها السياحي. وقد ازداد إعجابها برفقته، ووجدت حديثه مفيداً، وأنه واسع المعرفة، وذو ذوق موسيقي ممتع ومريح مقارنة بزوجها الذي اعتاد الدندنة لنفسه على نحو نشاز يثير الاستياء الشديد في بعض المناسبات. ولم يمض الشهر حتى كانت ماري لويز قد وقعت في حبّ نيبرغ، وفي الرابع والعشرين من الشهر، على ما يبدو، أجبرتهما عاصفة على المبيت في خان «الشمس الذهبية»، فأصبحت خليلته.

عادت ماري لويز برفقة نيبرغ إلى ڤيينا بعدما انتهت جولتها في سويسرا، فنزلت في قصر شونبرون تحت نظر والدها ومترنيخ، فيما يجري بحث مستقبل أوروبا في اجتماعات مؤتمر ڤيينا. وأمضت أيامها برفقة حبيبها راضية وهي تعزف الموسيقى أو تستمع إليها، وترسم، وتتعلم الإيطالية استعداداً لدورها الجديد دوقة لبارما. وبعدما تخلّت عن جميع أفكار اللحاق بزوجها في إلبا منذ وقت طويل، فقد أخذت تسلّم الرسائل التي تتلقّاها مغلقة إلى والدها.

كانت ماري لويز راضية كل الرضا عن علاقتها بحبيبها– الذي كوفئ على نجاحه في المساعدة في تنفيرها من زوجها بتعيينه «مارشال البلاط»– فأعلنت أنها لن تطأ فرنسا «ذلك البلد الرهيب» ثانية. وأنها تفضل دخول دير للراهبات على ذلك.

وكتبت لوالدها: «أرجو أن نحصل على سلام دائم بعدما لم يعد الإمبراطور قادراً على الإخلال به. وأرجو أن يعامل بلطف، وأرجوك يا والدي العزيز أن تعمل على ضمان ذلك. إنه الطلب الوحيد الذي أشعر أنني أستطيع التقدّم به، وستكون هذه آخر مرة أهتم فيها بمصيره. إنني

مدينة له بالحياة الهادئة التي أتاحها لي بدلاً من أن ينغّص عليَّ».

وكتبت لصديقتها ڤكتوريا دي بوتيه بعد وفاة نابليون:

على الرغم من أنني لم أكنّ له مشاعر قوية البتة، فإنني لا أستطيع أن أنسى أنه والد ابني، ولم يعاملني معاملة سيّئة كما يفترض معظم الناس. فطالما أظهر احترامه الشديد لي، وهو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يأمله المرء في الزواج السياسي، لذا تأثّرت جداً . وعلى الرغم من أنه يجدر بي أن أكون شاكرة لانتهاء حياته التعيسة، فقد كنت أتمنّى له سنوات عديدة من الحياة الهانئة– شرط أن يقضيها بعيداً عني.

لم يأخذ نابليون تصرّفها على أنه موجّه ضدّه. وفي نهاية حياته التمس لها الأعذار داحضاً الإيحاءات بأنه كان يجدر بها أن تبذل المزيد لصالحه. «أعتقد أن ماري لويز سجينة بقدر ما أنا مسجون... ولدي دائماً ما يدعوني إلى امتداح سلوك عزيزتي لويز الطيّبة، وأعتقد أن مساعدتي خارجة تماماً عن قدرتها. كما أنها شابة وخجولة».

37

وفاة جوزفين

«لا تنسي من لم ينسك ولن ينساك قط».

كانت جوزفين لا تزال تقيم في ناڤار حيث تسلّمت رسالة من نابليون تحمل تاريخ 16 نيسان/أبريل: «أزيح عن كاهلي عبء ثقيل. لقد كان سقوطي عظيماً لكنه مفيد على الأقل. وعندما أذهب إلى منفاي سأحمل معي قلماً بدلاً من السيف. وسيثبت تاريخ حكمي أنه الأغرب، إذ لم تشاهد سوى صورتي الرسمية، لكنني سأكشف الآن عن كل... أغدقت كثيراً من المنافع على آلاف الحقيرين الجاحدين، لكن على ماذا حصلت منهم في المقابل في النهاية؟ لقد خانوني. نعم جميعهم باستثناء العزيز يوجين... وداعاً يا عزيزتي جوزفين. استسلمي لقدرك مثلما أفعل ولا تنسي من لم ينسك ولن ينساك قط... إنني في حالة صحية رديئة جداً».

كتبت جوزفين لتاليران، إننا كسيرا الفؤاد. وأنا أضع مصيري ومصير ولدي بين يديك... وسأتبع نصيحتك بثقة».

أبدى تاليران تعاطفاً باعتبار أن احتمال حسن نيّة الإمبراطورة قد يكون مفيداً للملك العائد، وهو شخص مفرط البدانة مصاب بالنقرس وصل إلى باريس في 4 أيار/مايو وسط استقبال فاتر.

في غضون ذلك، اتبعت جوزفين وأورتنس نصيحة القيصر- الذي احتلت قواته العاصمة- وعادتا إلى مالميزون حيث كان ألكسندر يزورهما كل يوم. ومن الواضح أنه أعجب بهما كثيراً، وعرض على جوزفين قصراً في بطرسبرغ مع أنه حذّرها من أن المناخ البارد قد لا يلائمها، وأقنع لويس

الثامن عشر بإنشاء دوقية سان ليو لأورتنس لزيادة دخلها وتثبيت حيازتها لقصرها.

لم يكن القيصر الزائر الوحيد الذي تستقبله جوزفين وابنتها في ماالميزون. فقد تقاطر لزيارتها كبار الأدواق وكذا ملك بروسيا وفريدريك أمير مكِلنبِرغ- ستيرلِتز الذي كان قد طلب الزواج منها بعد طلاقها، بالإضافة إلى مكسِميليان الأول ملك باڤاريا والأمير ليوبولد من النمسا، وأجريت جولة للجميع على البيوت الزجاجية في حديقتها وأقفاص الطيور، ومعرض الصور وفراخ الإوز السوداء في البحيرة.

غير أنها لم تحاول إخفاء استمرار حبّها، لنابليون، عدوّ زوّارها المهزوم. وأبلغت طبيبها أنها لو كانت لا تزال الإمبراطورة لانضمت إليه على الفور لمشاركته مصيره. وعندما سألتها مدام دي ستال، وهي تتميّز بفضولها الكبير، إذا كانت لا تزال تحبه، رفضت الإجابة وابتعدت، واحتجّت لاحقاً متسائلة كيف يمكن أن يقل حبّها له الآن بعد أن أحبّته في أيام سعده؟

بدا التغيّر الشديد على جوزفين لاحقاً، فقد نحفت وهزلت، واشتدّ عليها السعال، وبحّ صوتها، وشحب لونها. وذات يوم بارد في منتصف أيار/مايو خرجت مرتدية أحد فساتينها البيضاء العديدة المصنوعة من الموسلين في جولة بالعربة مع القيصر وأورتنس. فأصيبت بزكام وحمّى. عرض القيصر إرسال طبيبه لمعاينتها، لكنها رفضت العرض متحرّجة من جرح مشاعر طبيبها الذي لم يعتبر الحالة خطيرة البتة. كما أنها استخفّت بمرضها، وأصرّت في 24 أيار/مايو على الخروج من غرفتها، على الرغم من توسّلات أورتنس بعدم القيام بذلك، والنزول للقيام بواجب استضافة القيصر وملك بروسيا على عشاء أقامته لهما. ولم تكتفِ بالمشاركة في

العشاء فحسب، بل افتتحت الرقص مع القيصر ثم صحبته في نزهة في الحديقة. وفي تلك الليلة اشتدّت عليها الحمّى. فاستخدم طبيبها كمادات من الخردل في محاولة لتفريج التهاب حلقها واحتقانه. وفي صبيحة اليوم التالي ازدادت حالتها سوءاً وأجبرت على البقاء في الفراش. وكشف تشريح لاحق عن أعراض ذات الرئة وما وُصف بأنه «ذبحة حنجرية». وبعد يومين أصيبت بهذيان، وفي تلك الليلة سمعت تتمتم، «بونابرت... إلبا... ملك روما». وماتت في صباح 29 أيار/مايو فيما كان ولداها يبكيان. وقال ابنها إنها توفيت «برقّة وعذوبة وأقبلت على الموت مثلما أقبلت على الحياة».

وفي وقت لاحق سأل نابليون طبيبه: «لماذا تركوا حبيبتي المسكينة جوزفين تموت»؟ فقال الدكتور كورفيسار: «أعتقد يا سيدي أنها ماتت كسيرة الفؤاد». ويبدو أن الردّ أرضى نابليون الذي قال: «لقد أحبّتني الجميلة جوزفين حقاً، أليس كذلك»؟

38

النفي إلى إلبا

«أهلاً بقصري».

نزل نابليون في بورتو فيرايو على الساحل الشمالي لجزيرة إلبا، حيث استقبله عدد كبير من سكانها الذين يتحدرون من أصول إسبانية وتوسكانية ونابولية وهتفوا له «يحيا الإمبراطور»!

أظهر نابليون منذ البداية عزماً على بذل ما في وسعه لتحسين أوضاعهم البائسة، ومنحهم ما يجعلهم ممتنين لسيّدهم الذي يرفرف علمه المستند إلى شعار آل ميدتشي، حكّام الجزيرة في القرن السادس عشر، مضافاً إليه ثلاث نحلات ذهبية، فوق قلاع بورتو فيرايو. وفي الوقت نفسه عقد العزم على العمل جاهداً لتبديد الأفكار ذات الصلة بنكبته قدر المستطاع. وقد قال مساعده لويس مارشان إنه «نادراً ما كان ينام أكثر من ست ساعات»، وإنه كان يتواجد الصباح الباكر «مع العمال والبنّائين والنجّارين، يستمع إلى تعليقاتهم ويضحك عليها».

أمر بزراعة أشجار التوت لتوفير الغذاء لدود القزّ بالإضافة إلى أشجار الزيتون والكستناء لمنع انجراف التربة عن المنحدرات الجبلية فوق المناجم المكشوفة. وأشرف على زراعة الخضراوات والقمح في جزيرة بيانوزا الصغيرة المجاورة التي تصوّر توطين نحو مئة عائلة من إلبا فيها. وشرع في إنشاء فريق من جامعي القمامة لتنظيف شوارع بورتو فيرايو من القاذورات والذباب، وأنشأ مصنعاً للمياه المعدنية المعبّأة في قنانٍ من نبع بوغيو للمياه المعدنية الفوّارة. وقال نيل كامبل، المفوّض البريطاني في إلبا

إنه لم يقابل «في مختلف مشارب الحياة رجلاً ذا نشاط كبير ودأب لا يهدأ». بل إنه وجد الوقت ليسجل بتفصيل شديد مقدار الخس والعنب الذي يؤكل في منزله.

وأجرى زيارات تفقّدية لبرك الملح وموارد الماء، وأولى اهتماماً خاصاً بتحصينات الجزيرة، كان يخرج مع صيّادي التونا والأنشوفة، وجرّب الحراثة بنفسه– من دون نجاح كبير. وقلّب حدائق بالازينا دي موليني، البيت الذي يشغله ويشرف على البحر التيراني قرب بورتو فيرايو، وعمل في أراضي ڤيلا سان مارتينو الصغيرة في التلال على بعد أربعة أميال إلى الجنوب الغربي.

في هذه الأماكن وسواها في الجزيرة، شغلت حاشيته منازل مكتظة، وزاد من اكتظاظها مقدار الأثاث الموضوع فيها، وكثير منه مصادر من قصر إليزا في بيومبينو ومن سفينة تنقل ممتلكات زوج بولين من تورينو. وعلّق نابليون على ذلك بسخرية: «بهذه الطريقة لا تخرج من العائلة».

إلى جانب جيشه الصغير من الحرّاس والفرسان، كانت تضمّ حاشيته ما لا يقل عن خمسة وثلاثين رجلاً يعملون في الاسطبلات، وثمانية طهاة، ومساعدين، وثمانية رجّالة، وحاجبين، وبواباً، ومرافقين، ومدبّر منزل، وطبيباً، وكيميائياً، وأمينين للسر، وحاكماً عسكريا، وأمين صندوق، وأربعة رؤساء خدم، والجنرال هنري برتران، خليفة دوروك كمسؤول عن القصر، بالإضافة إلى المفوّض البريطاني. وقال مساعده لويس مارشان، إن المراسم في الجزيرة تشبه ما كانت عليه في تويليري، ولكن «على نطاق أصغر».

كان نابليون بين الحين والآخر يحدّث مساعديه عن ماري لويز وابنهما، ولا يزال يأمل في أن ينضمّا إليه في الجزيرة. وأعدّت الغرف

لاستقبالهما، واستخدم رسّاماً ليرسم على سقف إحداها قصة رمزية للإخلاص الزوجي، أي الحمامتين اللتين تفصل بينهما السحب لكن كلاً منهما مرتبطة بالأخرى بأشرطة تشتد العقد التي تصل بينها كلما ابتعد الطائران أحدهما عن الآخر.

كان يفكّر أيضاً في جوزفين في الغالب، وكتب إليها يطلب منها الكتابة إليه: وكرّر أنه لم ينسها ولن ينساها. ولم تتمكّن هي من نسيانه. وبقيت غرفه في مالميزون على حالها مثلما تركها، والملابس على أحد الكراسي، وبقي الكتاب الذي كان يقرأ فيه مفتوحاً.

عندما علم أنها توفّيت، أغلق على نفسه في مكتبه لمدة ثلاثة أيام، وفقاً للويس مارشان. وكتب كما لو أنه يوجّه رسالة إليها: «لم يمرّ بي نهار من دون أن أحبّك، ولم تمرّ بي ليلة من دون أن أضمّك بين ذراعيّ... ما من امرأة حظيت بحبّ أشدّ إخلاصاً وعاطفة ورقّة».

غالباً ما كان يتحدّث عنها أمام مارشان الذي كتب:

> اتسمت بأناقة الكرايول بالإضافة إلى رشاقة وسحر غير محدودين، واعتدال في المزاج لم يخنها قطّ. وكانت ثيابها أنيقة وتصبح موضة رائجة بعدما ترتديها... أقرّ أنها مبذّرة وأنه اضطر إلى تسديد ديونها في عدة مناسبات، لكن غالباً ما كانت تتكبّد هذه الديون لسخائها في تقديم الهدايا، وأنها تتفوّق على الجميع في لباقتها عندما تمنحها... كانت بطبيعتها اللطيفة والحسّاسة ترقّ لحال بلايا الناس وتبكي مع من يأتي إليها ليخبرها عن مشاكله، ما جعلها في الغالب، كما قال الإمبراطور، فريسة من يستغلّ كرمها.

بعد وفاة جوزفين بثلاثة أسابيع، وجد نابليون العزاء بوصول ماري والوفسكا إلى الجزيرة.

تذرّعت والوفسكا، على غرار جوزفين، بأنها لم تستطع نسيانه. وطمأنته بذلك في رسالة موضوعة في مدلاّة تحتوي على خصلة من شعرها الأشقر: «عندما تتوقّف عن حبّي، تذكّر أنني لا أزال أحبّك».

كان زوجها قد توفي، فكتبت إلى نابليون تسأله إذا كان في وسعها أن تأتي إليه وتجلب ابنهما معها. أجابها لطلبها، لكن أبلغها أن عليها القيام بذلك بسرية، خشية أن تعرف ماري لويز بأمر الزيارة. وصلت في 1 أيلول/سبتمبر بصحبة ألكسندر الذي أصبح الآن في الرابعة من عمره، وأختها إميلي ليزنسكا، وأخيها العقيد تيودور ليزنسكي. واستقبلهم في الميناء الجنرال برتران الذي نقلهم عبر الجبال في الناحية الغربية من الجزيرة، في عربة نابليون في البداية، ثم على جياد مسرجة عن طريق مسارات صخرية شديدة الانحدار تحفّها أشجار الصنوبر، إلى بيت ريفي صغير معزول في جبل جيوف.

رحّب بهم نابليون قائلاً: «أهلاً بكم في مكاني»، وقادهم إلى إحدى غرف البيت الأربع. وفي صباح اليوم التالي، أخذهم في نزهة في الجبال حاملاً ألكسندر على كتفيه وممسكاً بيد ماري. وفي طريق العودة، لعب مع الصغير لعبة الغميضة (الاستغماية) وتدحرجا معاً على العشب. وقال له: «سمعت أنك لا تذكر اسمي في صلواتك». اعترف الصبي بأنه لا يذكر نابليون، لكنه يذكر «أبي الإمبراطور». سرّ نابليون بذلك وقال لأم الصبي: «سيحقّق هذا الصبي نجاحاً اجتماعياً عظيماً: إنه يمتلك سرعة البديهة».

أعجب نابليون بالصبي كثيراً، وسأل ماري إذا كان في وسعه تناول

العشاء معهم. لكن السيدة والوڤسكا ردّت بأنه حرون جداً. وأكّد والده أنه معتاد على ذلك تماماً، فقد كان نفسه حروناً وعنيداً في سنّه.

لذا سُمح للصبي بالانضمام إلى الكبار على العشاء، وفي حين أن سلوكه كان جيداً في البداية، فإنه سرعان ما أصبح كثير الصخب كما توقّعت والدته. وبّخته والدته، وقال له والده: «ألا تخشى أن تُجلد؟ أعتقد أنك تستحقّ ذلك. لقد جُلدت مرة واحدة، لكنني لم أنس ذلك قط». وروى قصّة ذلك، عندما ضُرب هو وبولين لأنهما تهكّما على مشية جدّتهما العجوز العرجاء.

وسأل الصبي الذي استمع إلى القصة بانتباه شديد: «ما رأيك في ذلك».

احتجّ ألكسندر قائلاً: «لكنني لا أسخر من أمي».

سرّ نابليون من الجواب وقبّل الصبي وقال: «تلك إجابة جيدة».

في تلك الليلة غنّت أخت ماري وأخوها أغنيات بولونية ورقصا رقصة «الكراكوڤياك»، وهي رقصة حيوية معقّدة استُميل نابليون إلى المشاركة فيها لكنه لم يستطع إتقان الحركات المعقّدة التي تتطلّبها. فشاركهم في ضحكهم.

عرضت ماري والوڤسكا البقاء في الجزيرة «في بيت صغير في مكان ما». لكن نابليون لم يكن راغباً في بقائها خشية ألا يصبح حضورها المتواصل معروفاً لماري لويز فحسب وإنما لسكّان الجزيرة أيضاً الذين سيعارضون ذلك بشدّة، كما زعم. لذا بعد قضاء ليلتين في البيت في جبل جيوف، نُقلت ماري بعيداً عن الجزيرة على إحدى السفن.

39

والدة الإمبراطور

«الإمبراطور دائم التفكير في طرق تجعل إقامتي ممتعة في بورتو فيرايو».

من الأسباب الأخرى لإبعاد السيدة والوفسكا وجود والدة نابليون على الجزيرة بعد قدومها من لغهورن على متن السفينة البريطانية «غراسهُبر»، باسم مدام دو بون.

تم الإعلان عن اللقب الرسمي الممنوح لوالدة نابليون في صحيفة «مونيتور» في 23 آذار/مارس 1805. وصدر في ذلك الوقت أيضاً مرسوم بوجوب أن تحظى والدة الإمبراطور بالأسبقية وتلي الإمبراطور مباشرة. وارتفعت علاوتها الحكومية في الوقت نفسه من مئة وثمانين ألف فرنك في السنة إلى ثلاثمئة ألف فرنك، ثم ارتفعت ثانية لاحقاً لإرضائها. وأكّد مترنيخ أن «والدة نابليون لا تهتم بشيء سوى النقود. لكن لم يكن لديها ميل في طريقة تفكيرها أو ذوقها نحو الارتقاء الاجتماعي. كانت تتمتّع بدخل واسع لكن لولا تعليمات ابنها الصريحة لما فعلت شيئاً سوى استثماره». ونزولاً عند رغبة ابنها، أدخل توسيع كبير على خدمها. وأصبح في عدادهم كاهن كبير وكاهنان عاديان، وكبير الحجّاب، دوق دي كوسيه بريساك (وهو أحدب قبيح لم تكن والدة الإمبراطور تحبّه) ومساعد حاجب، ومرافقان ملكيان، وكبير أطبّاء، وأطباء مساعدون، وجرّاحون عاديون، ووصيفتا شرف، وعدة وصيفات عاديات، بمن فيهن لور دابرانتِس، وهي قارئة وأمينة سرّ خاصّة.

احتجّت والدة الإمبراطور بشدّة على هذا الترف والتبذير. وكذا خادمتها المتواضعة سيڤيريا التي كانت برفقة سيّدتها من عند الانتقال من كورسيكا وعملت بمثابة قيّمة عير رسمية على المنزل، ما يذكّر بالأيام البسيطة جداً في أجاكسيو.

لم تتخلّص البتة والدة الإمبراطور من سلوك تلك الأيام تماماً. وعلى الرغم من أن نابليون قدّم لها المساعدة المالية بسخاء منذ أيامها الأولى في فرنسا عندما استأجرت البيت الريفي الكبير «ساليه» قرب أنتيب، فإنها واصلت التصرّف على الطريقة الكورسيكية. ففي النهاية، كما كانت تقول في الغالب، وهي أكثر النساء قدرة على التدبير، من يدري كم ستدوم ثروة العائلة الحالية؟

الآن بعد أن بلغت السادسة والخمسين من العمر، فإنها لم تفقد لكنتها الكورسيكية تماماً وكانت تميل إلى استخدام كلمات إيطالية بدلاً من الفرنسية والتحدّث أقل قدر ممكن عندما تكون في صحبة أناس لا تعرفهم جيداً، على الرغم من أن ملابسها أصبحت أكثر أناقة وكلفة مما كانت عليه في موطنها. ولم تستطع البتة حمل نفسها على إنفاق النقود على نحو ما حثّها نابليون. وقد اشتكى خدمها بشدّة من أذواقها البرجوازية وبخلها. كما اشتكوا من الملل الذي يعيشونه.

كتبت لور دابرانتِس، وهي أصغر بكثير من معظمهم، عن الضجر الذي كان عليها احتماله والطبيعة المزعجة للعديد من الوصيفات الأخريات، وبخاصة مدام دي فلوريو:

> أعتقد أني لا أعرف أحداً يفتقر إلى اللياقة بقدر مدام دي فلوريو. إنها ترقص بطريقة رزينة جداً بحيث ربما يفترض المرء أنها تجمع التبرّعات في كنيسة، فتمسك تنّورتها بيد ممدودة وتبدو مثل

شجرة معرّشة. وهي دائمة الثرثرة من دون موضوع محدّد، مثل الماء الذي يقطر من صنبور راشح.

ثمة سيدة أخرى غالباً ما كانت تشاهد برفقة والدة الإمبراطور، وهي مدام دي بريساك، زوجة كبير الخدم. وهي سيدة في الثانية والخمسين كانت تعاني من الطرش وتخشى عند تقديمها إلى نابليون ألا تتمكّن من سماع ما قد يقوله لها. فأبلغت بأن ذلك إجراء شكلي قصير وأن الإمبراطور اعتاد طرح سؤالين فقط: أين تقيم السيدة التي تقدّم إليه، وكم يبلغ عمرها. ومن سوء حظها أنه عندما حان دور تقديمها، لم يطرح عليها السؤالين اللذين قيل لها أن تتوقّعهما. وبدلاً من أن يسأل نابليون عن عمرها سأل عن عدد أبنائها، فأذهلت السيدات الأخريات الحاضرات عندما أجابت: «اثنين وخمسين».

نزل خدم والدة الإمبراطور في باريس في أوتيل دي بريان، وهو قصر رائع على مقربة من شارع سان دومينيك اشترته من ابنها لوسيان مقابل ستمئة ألف فرنك. وكان مقرّها الخاص يقع في الطابق الأول، حيث تقضي معظم وقتها، وتتجنّب الظهور قدر ما تستطيع في قاعة الاستقبال في الطابق الأرضي إلا لاستقبال ضيوفها، لكنها تتوجّه يومياً إلى كنيستها الخاصة للاستماع إلى القدّاس الذي يتلوه أحد قساوستها.

لم يكن أوتيل دي بريان العقار الوحيد الذي تمتلكه والدة الإمبراطور. ففي أيار/مايو 1805، خصّص لها ابنها الغراند تريانو في فرساي كي تكون على مقربة من ابنتها بولين التي منحت البتيت تريانو. وفي الشهر نفسه تلقّت والدة الإمبراطور رسالة من الإمبراطور يبلغها فيها عن هدية أخرى،

قصر رائع من القرن السابع عشر بين برڤانس وتروي في أوب اشتُري بمئتي ألف فرنك:

> سيدتي، لقد اشتريت لك قصر دو بون. أرسلي وكيلك لرؤيته وحيازته. سأنفق 60,000 فرنك على تأثيثه. إنه من أروع البيوت الريفية في فرنسا، وهو أجمل من بريان بكثير. أرجو أن تجدي في ذلك دليلاً جديداً على رغبتي في إرضائك. ابنك المحبّ، نابليون.

شكرته أمه بلباقة على هذه الهدية السخية، لكنها تساءلت بدافع من حرصها الدائم على مراقبة مصروفاتها والحدّ منها عما إذا كانت الستون ألف فرنك كافية لتغطية التكلفة لإجراء الإصلاحات اللازمة بالإضافة إلى شراء الأثاث: وفي نهاية المطاف اضطر نابليون إلى رفع منحته إلى مئة ألف فرنك.

لم يكن يضنّ بالنقود، بل إنه أبلغ والدته أكثر من مرة أنها حريصة جداً وأن عليها أن تنفق المزيد، أن تنفق مليون فرنك في السنة. وقد قالت إنها مستعدّة لأن تفعل ذلك لو أنه يمنحها مليوني فرنك. وكانت في ذلك الوقت تحصل على علاوة من الدولة قيمتها أربعمئة وثمانين ألف فرنك، لكنها استجدت وحصلت على زيادة كبيرة جداً.

قالت للكونت دي جيراردان، «أنا أغنى من أبنائي. أحصل على مليون في السنة، لكنني لا أنفقها كلها بل أدّخر أكثر من نصفها». كانت دائمة الاهتمام بجمع مزيد من رأس المال ما دام حسن حظ أسرتها، وقد أفيد عن أنها قالت أكثر من مرة: «لو أن ذلك يدوم. من يدري إذا كان جميع الملوك الذين صنعهم سيأتون إليَّ ذات يوم يرجون الحصول على خبز».

كانت الحياة في قصر دو بون لا تقل مللاً عما هي عليه في أوتيل دي بريان في باريس، كما وجدت مدام دابرانتِس. وقد كتبت واصفة ذلك: «يستيقظ المرء في أي وقت يشاء. يقدّم الغداء في الحادية عشرة والنصف. يجتمع كل من يقيم في القصر في ذلك الوقت. وبعد الغداء، نجلس ونعمل على التطريز. وغالباً ما كانت السيّدة تلعب الورق... وبعد ذلك نتوجّه إلى غرفنا أو نزور غرف بعضنا بعضاً. ثم ننزل لتناول العشاء. في الصيف نتنزّه بالعربات على ضفاف نهر السين أو في الغابات قرب براسليه». وفي الأمسيات، تلعب السيّدة لعبة «ريڤيرسي»(*).

ذات ليلة كان نابليون في القصر، سأل مدام دابرانتِس إذا كانت سعيدة بعملها كإحدى وصيفات أمه. فقالت والدة الإمبراطور: «إنها طفلة طيّبة. سأحرص على ألا تجد الحياة هنا معي مملّة ورتيبة». فردّ الإمبراطور وهو يقرص أذن مدام دابرانتِس: «نعم، واحرصي على ألا تغفو وهي تتفرّج عليك وأنت تلعبين مباريات (ريڤيرسي) التي لا تنتهي».

فور نفي نابليون إلى جزيرة إلبا، عادت والدة الإمبراطور إلى «بالازو فالكونييري» في روما مع عدد قليل من الخدم، بمن فيهم خادمتها المخلصة سيڤيريا، وهناك أجرت ترتيبات لبيع أوتيل دي بريان بثمانمئة ألف فرنك فيما تنتظر الرد على رسالتها التي تطلب فيها الإذن بالذهاب إلى إلبا للإقامة مع ابنها. في نهاية حزيران/يونيو 1815، سمعت من الجنرال برتران أن الإمبراطور يسعد برؤيتها في الجزيرة وأنه يعدّ مقرّ إقامتها.

عندما وصلت، لم يكن نابليون موجوداً، وعندما اقتُرح عليها أن ترسل خطاباً إلى برتران للحصول على التعليمات، «أعطت موافقتها بعنف

(*) لعبة تمارس على لوح يضم 8 صفوف و8 أعمدة بأحجار فاتحة وغامقة– المترجم.

شديد وأخذت تنفخ من استيائها وشحب لونها» كما قال العقيد كامبل. وعندما وصل ابنها في النهاية، كما يقول مارشان، قبّلها «عدة مرات ليواسيها إذ وجدها باكية استياء من عدم وجوده لاستقبالها». ووصف مشاهد آخر ما حدث: «على المرء أن يتخيّل شاباً متلهّفاً يجد نفسه أمام حبيبته بعد فراق، ليكوّن فكرة عن السعادة التي غمرت قلب الإمبراطور بوصول أمه. فأصدر الأوامر ونقضها، وقال نعم ثم لا، من دون أن يدري ما يفعل».

رافقها نابليون إلى منزل واسع، كاسا ڤانتيني، أعدّ لها قرب منزله، بالازينا دي موليني. وقد لفتت نظر مارشان لأنها «ما زالت تحتفظ بجمال عظيم. فقد حافظت على مظهرها وبدت أصغر من سنّها بعشر سنوات». واتفق العقيد كامبل مع مارشان قائلاً: «السيّدة الكبيرة لا تزال جميلة جداً. إنها متوسّطة القامة ذات شكل جميل ولون نضر». ووصف كامبل كيف أُدخل إلى غرفتها قبل إبحارها على متن سفينة «غراسهُبر» وكيف «نهضت من مقعدها بألم. وقد خاطبتها مستخدماً كلمتي 'مدام' و'سعادتك'. كانت ودودة جداً... تحدّثت كثيراً عن الإمبراطورة ماري لويز، وأنها موجودة في حمّامات إيكس، وعن اعتلال صحّتها مبدية احتراماً كبيراً لها، كما لو أن فراقها عن نابليون لم يكن طوعاً من جهتها... تناولت أنا والكابتن باترسبي العشاء في السفينة مع المدام. أعطيت أريكة لم تتحرّك عنها طوال الرحلة سوى لرؤية البيت الذي أشير إليه بأنه بيت نابليون. ثم صعدت إلى أعلى أحد المدافع بهمّة كبيرة».

رافقها كبير خدمها، وسيدتان من الحاشية، ووصيفتان، وطبّاخها، وأربع خادمات وسيڤيريا التي زارت نابليون ذات يوم وتحدّثت إليه بالإيطالية. قال لها مغايظاً على طريقته المعهودة: «أما زلت بخيلة كما

عهدتك»؟ فأجابته محتجّة، كما كانت تقول سيّدتها: «إنه ليس بخلاً، بل تبصّر».

كانت والدة الإمبراطور في ذلك الوقت امرأة ثرية جداً، إذ أتاح لها الحرص والعناية في إدارة دخلها الكبير الذي منحه لها ابنها من جمع ثروة كبيرة، ولم تقتصر استثماراتها على فرنسا وكورسيكا، بل شملت إسبانيا وإيطاليا وحتى إنجلترا. غير أن قيمتها– ووجود العديد منها– بقيت سراً لا يعرف به أحد آخر من العائلة. فقد حرصت دائماً على الاستثمار الآمن، نزولاً عند نصيحة الكاردينال فِش، ولأنها كانت تخشى ألا تدوم ثروة العائلة، فقد اشترت مجموعة قيّمة من الأحجار الثمينة بالإضافة إلى الأراضي التي تضمن لها عيشة كريمة في المستقبل غير المنظور. قدّمت لابنها بعض مجوهراتها، لكنه رفض قبولها، غير أنه وافق على أن تدفع مصاريف خدمها، كما كانت هي نفسها تطلب من ضيوفها الذين ينزلون عندها في الماضي، بل إنها طلبت ذلك من ابنها لويس عندما أقام بضعة أسابيع في منزلها.

كانت تتوجّه إلى منزل ابنها للعشاء مساء كل سبت، وبعد تناول الطعام تجلس للعب الورق أو الشطرنج مع ابنها الذي يغشّ مثلما يفعل مع جميع من يلاعبهم. وذات ليلة اتهمته بذلك، فردّ عليها، وهو يدرك جيداً أن حكومة آل بوربون ربما لن تدفع العلاوة السنوية التي اتفق على تخصيصها له: «أنت غنية يا سيدتي، وفي استطاعتك خسارة المال. لكنني فقير لذا عليَّ أن أربح». غير أن الغش لم يكن يكسبه إلا قليلاً، ولم تسدّد أمه ديون مقامرته وهي الحريصة على عدم إنفاق المال بلا ضرورة بقدر حرصها على الحصول عليه.

من الواضح أنها كانت مرتاحة للإقامة في إلبا. وقد حرص نابليون

على جعل البيت الذي تنزل فيه، كاسا ڤانتيني، مريحاً قدر الإمكان، فجعل له شرفة كبيرة مطلّة على البحر. وقد كتبت: «الإمبراطور دائم التفكير في طرق تجعل إقامتي ممتعة في بورتو فيرايو». ويبدو أنها استمتعت بإقامتها بالفعل. كانت تدعو إلى حفلات استقبال في صالونها، وفي الأيام المشمسة تتجوّل في الجزيرة بعربتها. وكانت تشعر بالارتياح في التحدّث بالإيطالية مع سكان الجزيرة، ولديها سيڤيريا التي تعنى بكل ما تريده على الطريقة القديمة.

كانت والدة الإمبراطور راضية جداً بحيث إنها قدّمت مبالغ كبيرة لتمويل مصاريف نابليون عندما لم يحصل على المعونة الكبيرة التي مُنحت له بموجب معاهدة فونتنبلو، على الرغم من نصيحة العقيد كامبل «بأنه إذا تسلّم نابليون المبالغ التي نصت عليها المعاهدات فسيبقى راضياً تماماً [في إلبا]، ويتم تجنّب أي حوادث غير منظورة في إيطاليا أو فرنسا». بل إن والدة الإمبراطور عرضت ماساتها التي أرسلت إحدى وصيفاتها إلى روما لجلبها. وازداد رضاها عندما جاءت ابنتها المفضّلة عند نابليون للانضمام إليهما في الجزيرة.

40

بولين بورغيز

«كان يعيش في حالة من التسرّي غير الخفي مع اثنتين من شقيقاته»

لم يمضِ وقت طويل على عودة بولين من سانت دومينيك إلى باريس، حتى قبلت عرضاً للزواج من رجل لديه من المكانة والثروة ما يشكّل تعويضاً عن شخصيته غير المميّزة. وهو الأمير كاميللو بورغيز، من أقدم عائلات روما وأكثرها احتراماً. كان في الثامنة والعشرين في آب/أغسطس 1803 عند زواجه من بولين التي لا تزال في الثانية والعشرين. وقد حثّها أخوها نابليون على عدم الزواج بسرعة بعد وفاة زوجها الأول، لكن إغراء اسم الأمير ورتبته، ومجموعته الرائعة من الألماس الذي ارتدت بعضه متباهية في زيارة مفاجئة لجوزفين في سان كلو، واحتمال العيش في روما في قصر بورغيز المنيف، اجتمعت معاً لتجعلها تتغلب على تردّدها في الزواج من رجل ذي ميول جنسية مثلية على ما يفترض وأذواق منحرفة في الملبس.

لكن مع أن اسم زوجها وممتلكاته أغرتها منذ البداية، فإنها لم تكن راضية البتة عن شخصه. وعندما تمنى لها بعضهم شهر عسل سعيداً، ردّت قائلة: «ماذا، شهر عسل مع هذا الأحمق»؟ واشتكت لاحقاً من أنه كالخصي، وودّت لو أنها ظلّت أرملة مع أن ذلك سيعني أن تتدبّر العيش بعشرين ألف فرنك في السنة. عندما التقت به الأميرة دي ليفين، عشيقة مترنيخ، في مرحلة متأخّرة من حياتها، اعترفت بأن قصره «جميل ومزخرف بذوق رفيع»، لكنها وجدت أنه «لا يستطيع التنفّس

من البدانة والماس والغباء».

وكتبت الكونتيسة بوتوكا: «لن أنسى كيف، عندما اتخذ النقاش انعطافة جادّة قليلاً بضع لحظات وجيزة، ذهب بورغيز للبحث عن كراسٍ ورتّبها اثنين اثنين في وسط قاعة الاستقبال، وأخذ يسلّي نفسه بدندنة لحن فيما يرقص مع هؤلاء الشريكات الغبيات، ويتمرّن على خطواته. لقد كان مهووساً بالرقص».

لم تجد بولين أن زوجها مزعج كرفيق وعديم النفع كحبيب فحسب، وإنما شعرت أيضاً بالضجر الشديد من أعضاء الطبقة الأرستقراطية في روما. وبعد مضي شهور على وصولها إلى هناك، قرّرت أنها لا تستطيع أن تقضي ما تبقى من عمرها في روما. وقبل العودة إلى باريس، توجّهت للإقامة في فلورنسا بعض الوقت، وهناك بحثت عن النحّات أنطونيو كانوڤا الذي كلّفته بنحت تمثال لها، يوجد اليوم في معرض بورغيز، يصوّرها باعتبارها «فينوس المنتصرة» مسترخية على أريكة وتحمل تفّاحة في يدها. وهذه الوضعية وصدرها العاري من بنات أفكارها، وقد شعر النحّات بالإحراج لأنه لم يكن يريد أن يُظهر هذا القدر من مفاتنها المميّزة. وعندما سئلت كيف تمكّنت من التوضّع شبه عارية، ردّت بأن ذلك لم يقلقها البتة: فهناك مدفأة في المشغل.

استاء زوجها كثيراً عندما شاهد التمثال وأغلق عليه في عليّة قصر بورغيز. وغضب أخوها أيضاً عندما وصلته تقارير عن السلوك المشين لشقيقته المفضّلة مع الرجال الآخرين. وأعلن أنها لن تُستقبل في قصر تويليري من دون الأمير.

كان نابليون غاضباً من بولين منذ حفل تتويجه عندما أظهرت وشقيقاتها «اللواتي تألّقن جميعاً بالحجارة الكريمة العديدة» أنهن مستاءات من حمل

ذيل ثوب جوزفين. وقد وصفت ذلك مدام دي ريموسا: «عندما حان دور الإمبراطورة في التقدّم إلى المذبح انطلاقاً من عرشها، دار نقاش حادّ مع شقيقات زوجها اللواتي كن يحملن ذيل ثوبها على مضض بحيث أنني ظننت أنها ستضطر إلى التوقّف». فالتفت الإمبراطور إليهن غاضباً وطلب منهن أن يحترمن أنفسهن. ولم تبدِ بولين اهتماماً».

لقد كانت جميلة ذات جسد لا يهرم– ولم تكن تبخل في عرضه كما قال الجنرال البارون تيبو– وواصلت أسلوبها المبذّر والمترف وإقامة الحفلات في فندق شاروست، واستقبال الزوّار في حمّامات الحليب التي يحملها إليها خادم أسود مفتول العضلات يشطف الحليب عن جسدها الناعم من ثقب في السقف. وعندما نبّهت إلى السماح لرجل بمثل هذه الحميمية ردّت، «الأسود ليس رجلاً».

كانت تعيش للمتعة، ويبدو أنها احتملت من دون عناء موت ابنها درميد لوكليرك في الثامنة من عمره بعد فترة من الحداد المؤثّر الذي قصّت خلالها خصلاً من شعرها ووضعتها في تابوته. وقد سرّت عندما عُيّن زوجها حاكماً لبيدمون وتوجّه إلى إيطاليا، تاركاً زوجته تستمتع بمسرّات الحياة في باريس وفي البتي تريانو في فرساي، السرادق الصغير الجميل ذي الحجارة العسلية اللون الذي صمّم لمدام دي بُمبادور، عشيقة الملك لويس الخامس عشر. أمر نابليون بولين أن تلحق بزوجها في تورين، لكنها تذرّعت بالمرض الشديد، وتصنّعت نوبات مقلقة من المرض وتوجّهت للعلاج في حمامات إيكس. ومع أن أخاها غضب عليها، فإنه استمر في تدليلها وزاد علاوتها ما أتاح لها أن تضيف مجوهرات جديدة إلى مجموعتها المتزايدة دائماً. في المقابل أقنعت إحدى وصيفاتها المتردّدات، كريستينا غيليني، أن تصبح عشيقته، وقد شغلت هذه الوظيفة بخرق، ما

رفّه عن نابليون وشقيقته.

في غياب الأمير كاميلو، أصبح كبير خدم بولين، الكونت أوغست دي فوربان، وهو رسام غير موهوب لكنه رجل وسيم وجذّاب ذو طاقة جنسية استثنائية وبنية جسدية قوية، عشيقها المفضّل لمدة سنتين. وقد عُرف أن لها عشاقاً آخرين إلى جانب الكونت، وأشيع بخبث أن أحدهم شقيقها الإمبراطور، وهي إشاعة نشرها في الخارج لاحقاً وزير شرطة لويس الثامن عشر والعديد من المطبوعات في إنجلترا. ومن الأمثلة المميّزة على ذلك كتاب «التاريخ السري لحكومة بونابرت» *The Secret History of the Cabinet of Bonaparte* للويس غولد سميث، وهو صحفي من أصول يهودية برتغالية اقترح إقامة اشتراك لتحديد ثمن لرأس نابليون كما زعم أن الإمبراطور عرض عليه مئتي ألف جنيه لوقف هجماته في صحف «ذا أنتي غاليشيان مونيتور» *The Anti-Gallician Monitor* و«أنتي كورسيكان كرونيكل» *Anti-Corsican Chronicle*. وكتب غولد سميث في كتاب «التاريخ السري»:

> يقيم نابليون علاقات لاأخلاقية كثيرة مع النساء. لكنه أثبت أنه مدمن على تلك الرذيلة التي اتهم بها سقراط، ربما خطأ، في علاقته مع ألكِبيادِس. ولم أتفاجأ إذا ما تزوّج صبياً مثل نموذجه الأولي نيرون... إنه مذنب بأفحش الانتهاكات للحشمة. لقد عاش في حالة من التسرّي غير الخفية مع شقيقتيه، مدام مورا ومدام بورغيز، وتفاخرت الأولى بذلك علناً.

لم يكن ذلك صحيحاً البتة، لكن من المؤكّد أن شهوة بولين الجنسية بقيت جامحة، وعندما سئم فوربان من ذلك في النهاية، طلب من نابليون إرساله إلى الخارج في مهمة عسكرية.

كان فوربان لا يزال مقيماً مع بولين في سنة 1806 عندما أبلغت بأن أخاها سيجعلها أميرة ودوقة غاستالا وسُرّت بذلك. لكن عندما علمت أن غاستالا بلدة صغيرة عديمة الأهمية في مقاطعة ريغيو تضمّ كاتدرائية مرمّمة وقليلاً من المقيمين، كتبت إلى نابليون تشتكي من أن أختها كارولين جُعلت الدوقة الكبرى لبيرغ وكليفز، في حين لم تُمنح هي سوى «قرية تعيسة تضمّ قليلاً من الخنازير البرية». وأبلغته أنه إذا لم يمنحها «دولة ملائمة، أكبر من منديل للجيب وتضم رعايا ليس لديهم أربع أقدام وذنب بصباص»، فإنها ستقلع عينيه. وقالت إنها بحاجة إلى مثل هذه الدولة لنفسها ولزوجها. وعندما سأل أخوها عن سبب حاجة زوجها إليها، أبلغته «أنه أحمق»، وأنه ما من أحد يعلم ذلك أكثر منها. لكن ما علاقة ذلك بحكم بلد ما؟ غير أنها قبلت غاستالا واحتفظت باللقب وباعت الدوقية بستة ملايين فرنك.

عندما التمست بولين إعفاءها من مهمة حمل ذيل فستان جوزفين، فإنها لم تدّعِ المرض بل كانت تعاني من التهاب النفير (قناة فالوب)، ولعله ناجم عن مرض زهري عانت منه في أوقات سابقة وهو يحفز في ضحاياه رغبات جنسية ملحّة. وقد نصحها أطباؤها بعدم تلبية هذه الرغبات، لكنها رفضت الأخذ بهذه النصيحة. وبعدما استأجرت ڤيلا في الريڤييرا، أخذت تشعر بالتحسّن في الجوّ المشمس والدافئ فاستدعت معلم الموسيقى الإيطالي فِليتشي بلانغيني، وهو مؤلّف موسيقي غزير الإنتاج ومتعدّد المواهب وضع نحو ثلاثين أوبرا بالإضافة إلى الموسيقى الكنسية والكنزونيات. بعيد وصوله إلى نيس، شعر بحرج شديد من مشاهدة الخادم الأسود، بول، وهو يحمل سيدته العارية إلى حمامها.

لكن بمرور الأيام، يبدو أن بلانغيني شعر بمزيد الارتياح مع بولين.

فأخذا يقضيان الساعات معاً يغنيان الأغاني التي ألّفها وتضع أشعارها الرديئة، إذا لم نقل الطفولية، على الموسيقى. وقد تعلّقت به كثيراً بحيث لم تعد تطيق أن يغيب عن بصرها طويلاً: وعندما يخرج بمفرده، كانت ترسل خادماً ليجلبه إذا بقي في الخارج أكثر من ساعتين. وعندما تنزّها معاً في عربة على شاطئ خليج الملائكة، كان في حالة خوف دائم من أن تبلغ أخبار علاقته الحميمة نابليون فيعاقبه مثلما عاقب حبيباً سابقاً، أشيل دي سبتويل الذي لم يمضِ وقت طويل على إرساله لقتال الإنجليز في إسبانيا حيث أصيب بجراح بليغة.

انتاب بلانغيني مزيداً من الخوف عندما أصرّت عشيقته الغريبة الأطوار وغير المتكتّمة والمتطلّبة على أن يرافقها إلى تورين، العاصمة اللاحقة لإيطاليا الموحّدة تحت حكم آل سافوي، حيث أمرها أخوها بإعادة الانضمام إلى زوجها الذي عيّن حاكماً عاماً لما عُرف في ذلك الوقت إدارة ما وراء جبال الألب. غير أنها لم تمكث طويلاً في تورين مدعية أن المناخ غير ملائم لها. وقد حاول أخوها جوزيف مساعدتها. وكتب إلى نابليون بعد زيارة قام بها إلى تورين: «وجدت بولين في حالة مزرية. لم تتناول الطعام منذ ثمانية أيام ولا تستطيع الاحتفاظ حتى بأبسط أنواع الحساء. ويقول الأطباء إنه ينبغي لها مغادرة هذا المناخ الرطب والتوجّه إلى إيكس».

كتب نابليون إلى بولين من دون أن يبدي تعاطفاً: «يؤسفني سماع خبر مرضك. أرجو أن تكوني حسنة السلوك وألا يكون أي من ذلك ناجماً عن خطئك. حبّبي الآخرين بك، وكوني لطيفة معهم. وحاولي إسعاد الأمير». وبعد أسبوعين، بعث إليها برسالة أخرى: «إنك تعانين من آثار طقس الربيع. لا أمانع في ذهابك إلى مياه سان ديدييه لأنها قريبة...

لكن لا تغادري المنطقة من دون إذني».

لم تبالِ بما قال، وغادرت بيدمون إلى حمامات إيكس. وبعد قضاء خمسة أسابيع هناك في ارتياد الينابيع الحارّة، عادت إلى باريس حيث أصبحت ثانياً مصدراً دائماً للنميمة والتخمين.

وبمساعدة من نابليون الذي يتقلّب موقفه منها بين الغضب والتسامح، عادت إلى أوتيل دي شارسو الذي كانت تشاهد خارجة منه، مرتدية فستاناً يتوهّج بالمجوهرات التي تشتريها بكميات كبيرة، متوجّهة إلى قصر تويليري على محفّة يحملها رجلان مفتولا العضلات يرتدي كل منهما بزة خضراء. ومكافأة لأخيها على رفع علاوتها، حثّت إحدى وصيفاتها، مدام دي ماتيس الممتلئة والجميلة، على الذهاب إلى الفراش معه، وقالت لها إن على المرء ألا يرفض طلباً للإمبراطور، وأضافت، وفقاً لمدام دابرانتس: «لو أخبرني أنه يشتهيني، فسأنسى أنني أخته وأجيب، 'إنني رهن طوعك يا صاحب الجلالة'».

بعيد عودة بولين إلى باريس، وكانت قد بلغت الثلاثين من العمر، اتخذت عشيقاً جديداً، جندياً آخر هذه المرة، الكابتن أرمان جول إليزابيث دي كانوڤيل الذي يصغرها بخمس سنوات. وهو مساعد لويس ألكسندر بيرثييه، أمير واغرام ورئيس أركان الجيش الكبير. بدا كانوڤيل مخلصاً لها، ويقال إنه لإقناعها بقلع ضرس منخور اتبع مثال أسقف لندن الذي بعدما واجه تردّد الملكة إليزابيث الأولى اضطر إلى طلب قلع أحد أضراسه ليبيّن لها أن العملية سهلة. غير أن العلاقة لم تستمرّ مدة طويلة كسابقاتها.

ذات يوم جفل حصان كانوڤيل واصطدم بنابليون، فلاحظ أن سترة الضابط مبطّنة بفراء ثمين كان جزءاً من مجموعة أهداها القيصر إلى نابليون،

وقدّمها بدوره إلى بولين. وعلى غرار أشيل دي سبتويل، أرسل الكابتن دي كانوڤيل للقتال في إسبانيا، لكن خلافاً له عاد من دون أن يصاب بأذى، فأعيد ثانية ثلاث مرات ثم أرسل إلى روسيا حيث لقي حتفه في نهاية المطاف.

حافظت بولين على جمالها الأخاذ، واستردّت عافيتها بعد شفائها من التهاب قناة فالوب- على الرغم من شكاويها الوسواسية من المرض. وفي شباط/فبراير 1812، خلال حفلة في تويليري، أدّت هي وكارولين والعديد من السيدات أدواراً إيمائية رمزية في مسرح القصر. وكان الموضوع فرنسا وروما التي ضمّت حديثاً إلى الإمبراطورية الفرنسية. لم تبد دوقة أبرانتيس إعجاباً بمظهر كارولين وأدائها، في حين أن بولين، التي أدت دور روما، كانت «كملاك هبط من السماء على شعاع شمسي».

سرعان ما وجدت معجبين يحلون محل كانوڤيل الجريء والنشيط. ومن بينهم العقيد أوغسطين دوشان، وهو في الثانية والثلاثين من العمر، توجّه إلى إيكس في سنة 1812 للتعافي من جراح أصيب في حصار ڤلنسيا، وقد مُنح لقب بارون الإمبراطورية بعد أن تميّز في ليبزيغ. وكان في إيكس في تلك السنة أيضاً الممثّل الشهير فرانسوا جوزيف تالما الذي أغرم بها، وكتب لها رسائل عاطفية يوضح فيها أنها لا يمكن أن تدرك عمق حبه لها أو الجراح العميقة التي أحدثتها في قلبه. وقد بدأت إحدى رسائله العديدة غير المترابطة كما يلي:

> أبلغيني ألا تذكرين تلك اللحظات العاطفية والهذيان الذي أغرقتني فيه قبل [ذهابي من إيكس إلى سويسرا]؟ للأسف عليَّ أن أتخلى ذات يوم عن امتلاكك، وإذا اقتضى القدر ألا أجدك كما كنت لي من قبل، لِتُمِتْنِ العناية الإلهية- أيتها الحبيبة، لن

تجدي البتة أحداً في العالم أحبك أو سيحبّك أكثر مني.

مع أنها ربما شعرت بالإطراء والعواطف الجيّاشة الصادرة عن هذا الرجل العظيم الذي حظي بإعجاب أخيها نابليون ورعايته، لكنها لم تردّ على رسائله. فقد كان «سميناً يوشك أن يبلغ الخمسين من العمر». وهي تفضّل الحيوية المتقدّة التي يتمتّع بها العقيد دوشان.

بعد هزيمة نابليون في ليبزيغ في تشرين الأول/أكتوبر 1813، قاده طريقه إلى الساحل عند سان رافاييل عبر بويليدو في بروڤانس حيث كانت تقيم بولين في بيت ريفي وتتأمّل في سقوط آل بونابرت مع أن حصولها على مبلغ ثلاثمئة ألف فرنك بموجب اتفاق السلام يشعرها بالراحة، وكذلك امتلاكها خزانة صنعها ميشلو لتضع فيها مجوهراتها التي حصلت عليها ببيع السندات الحكومية. ظهر نابليون أمام باب بولين مرتدياً زياً نمساوياً أعاره له ضابط من مرافقيه تجنباً للفت انتباه الحشود الملكية المخيفة على جانب الطريق. لم يكن نابليون في أفضل أحواله. فمع أنه يبدي شجاعة في ميادين القتال، فإنه كان يخشى مواجهة الحشود المعادية. وقد أفاد العقيد نيل كامبل الذي لم يعجبه مظهر الإمبراطور عندما التقى به لأول مرة قبل بضعة أيام: «كان من الواضح أن خوفاً كبيراً يعتريه من احتمال تعرّضه للقتل. أخذ يذرع شقته بسرعة مثل حيوان هائج في قفص، وكان يرتدي سترة خضراء قديمة ذات كتفيتين ذهبيتين، وبنطلوناً أزرق وحذاء أحمر، وبدا غير حليق أشعث الشعر تتناثر آثار السعوط على شفته العليا وصدره». ورأى كامبل في أثناء الرحلة إلى الساحل أنه «أظهر خوفاً أكبر مما يتوقّع من رجل في مكانته». لقد أصرّ على الإبحار إلى إلبا في سفينة

بريطانية، متحدّثاً عن مخاطر الوقوع في يد القراصنة الجزائريين ومعتقداً أنه سيكون بأمان في أيدي بحارة سفينة للبحرية الملكية أكبر مما يشعر به في أيدي ضباط البحرية الفرنسيين، وكثير منهم يكرهونه ولا يثقون به. وقد فاجأ ذلك كامبل أيضاً وكذلك امتداحه الشعب البريطاني. قال له، «إنني أقدّر بلدكم أكثر من أي بلد آخر. كنت عدوّكم اللدود، لكن لم أعد كذلك الآن. وددت أن أرفع من شأن الأمة الفرنسية مثلكم، لكن خططي لم تكلّل بالنجاح. إنه القدر».

استقبلت بولين أخاها بحرارة في بويليدو لكنها رفضت أن تعانقه إلى أن يخلع الزي النمساوي ويرتدي زياً فرنسياً بدلاً منه. وأخبرته باكية أنها ستلحق به إلى إلبا عندما تستردّ عافيتها وتتمكّن من السفر. وكتبت لأمها: «علينا ألا نترك الإمبراطور بمفرده. علينا أن نظهر له حبنا في المصاب الذي ألم به». استمرّت الشائعات بأنها وشقيقها يقيمان علاقة زنى محارم. وقد ألمحت هي نفسها أنها تستحسن فكرة أن يحكما مصر معاً إذ قالت، «سنفعل كما فعل البطالسة. سأطلق زوجي وأتزوّج أخي».

في غمرة لهفتها للحاق بنابليون، أظهرت حزماً عملياً أدهش من كانوا يعرفونها بأنها مسرفة وفاجرة. فقد باعت منزلها في باريس، أوتيل شارسو، 39 شارع فوبورغ سان أونور (يعرف الآن باسم أوتيل بورغيز)، ومحتوياته إلى دوق وِلِنغتون، السفير البريطاني في باريس، مقابل 861,500 فرنك، أي أكثر من ضعف ما دفعت فيه سنة 1803. وقد نعتها الدوق بأنها «أقسى من شيطان صغير». لكن ما من شك في أنه أعجب بها وزارها عدة مرات في أثناء التفاوض على بيع أوتيل شارسو، وكان يناديها باسمها الأول، كما كان معجباً جداً بصورتها المعلّقة في غرفته.

بيع أيضاً قصر بولين في نويلي، وكذا بعض مجوهراتها ما مكّنها من تقديم ثلاثمئة ألف فرنك لنابليون قبل هزيمته في ليبزيغ. وفي 1 تشرين الثاني/نوفمبر 1814، وصلت برفقة أربعة ضباط إلى بورتو فيرايو على متن السفينة «إنكُنستان»– السفينة الوحيدة التي أتيحت لنابليون بموجب معاهدة فونتنبلو– ودوّت طلقات المدفعية للترحيب بقدومها.

توجّه أخوها بعربة بدولابين لاستقبالها ونقلها لرؤية أمها قبل مرافقتها إلى شقّتها التي أنشئت لها في الطابق الأول من مبنى موليني. وقد روى مارشان بحزن أن الإمبراطور وضع يده من دون انتباه، في أثناء الإشراف على ترتيب المفروشات في الشقة، في صحن صغير تحرق فيه الألوة. «وبما أنه كانت هناك محبرة على مقربة، فقد غمس الإمبراطور إصبعه فيه من دون أن يشكو من الألم». شعر مارشان بحزن شديد لوقوع هذه الحادثة لأنه هو الذي وضع الحرّاق هناك، وأزاحه الإمبراطور لينظر إلى تمثال رخامي يمثّله من نحت كانوفا، وهو تمثال لم يسرّه، كما أبلغ النحّات، بسبب البنية الرياضية التي مُنحت له: «كما لو أن الذراع هي التي كسبت معاركه وليس استخدام الدماغ».

أحضرت الأميرة بولين رفيقتين معها، مدام كولومباني، وهي امرأة جميلة وزوجة طيّبة لرائد في الجيش الإيطالي يخدم في جزيرة إلبا، ومدام بلّيني، وهي زوجة إسبانية لرائد بولندي، وامرأة جذّابة شهيرة برقصها الحيوي والرشيق. وكانت هناك فتاة ثالثة في حاشيتها، وهي الآنسة ليبِل، ابنة أنطوان ليبِل الفاتنة، وهو ضابط في الجيش عمل في خدمة لويس الثامن عشر في سنة 1815.

وبمساعدة هؤلاء الشابات الحيويات، بدأت الأميرة بولين ما وصفه مارشان بأنه «نمط حياة جديد في بورتو فيرايو. كانت تُجرى الحفلات

والحفلات الراقصة والحفلات الموسيقية في منزلها، وتعقد حفلات الاستقبال المسائية في منزل الإمبراطور ومنزل والدته. وقد بذلت بولين ما في وسعها لإسعاده، فكانت ترتدي فساتين تعرف أنها يحبّها، وتحرص على ألا تفوق سيّدات إلبا بهاء بالإحجام عن ارتداء مجوهراتها، وتنحني احتراماً لأخيها كما أنهما لا يزالان في قصر تويليري.

ظل نابليون شغوفاً جداً بها، لكن كان عليه الإقرار بأنها ليست الشخص الأسهل في أسرته إذ إن مزاجها يتقلّب بين طرفي نقيض– الابتهاج والكآبة والوسواس المرضي. في أيامها السعيدة كانت تغازل الضبّاط في الحاشية العسكرية لأخيها، وتنظّم الحفلات التنكرّية، وتنظم المسرحيات على مسرح مرتجل أنشئ لها، وتمثّل فيها بنفسها مرتدية فساتين مقوّرة تكشف الكثير من جسدها المثير.

غير أن نابليون كان يشعر الآن بعدم القدرة على مجاراتها في فورات حماستها المتقطّعة. وبعيد رحيل مدام والوڤسكا، وصفه العقيد كامبل بأنه دخل في «حالة من الخمول غير المعهودة من قبل. وقد أصبح مؤخّراً يلجأ إلى غرفة نومه للراحة عدة ساعات في اليوم. وإذا كان يخرج فإنما بالعربة وليس على صهوة حصانه كما في السابق».

بدلاً من النشاط الذي أظهره في أيامه الأولى في إلبا، اعتاد الآن التمدّد في مغاطس الماء المالح، وهو يقرأ قراءة غير منهجية فيما يأكل السوس والبسكويت المغموس بخمر ملقا، والتجوّل في إسطبلاته للتربيت على الجياد التي أحضرها معه إلى الجزيرة، فتذكّره بالمغامرات التي شاركته فيها في الماضي، وإطعام أحد جياده المفضّلة السكر، وهو جواد عربي ركبه في واغرام. كما أنه اعتاد الآن على نوبات قصيرة من الضيق: ذات يوم ظهرت بولين مرتدية فستاناً أسود مغطى بأزهار قرنفلية في محاولة

لإدخال السرور على أخيها، أبلغها أنه غير مناسب وأن عليها أن تغيّره. وعندما قدّمت إليه فاتورة متواضعة مقدارها 62 فرنكاً و30 سنتيماً ثمن ستائر لغرفة نومه، كتب منزعجاً: «بما أنه لم يؤذن بصرف هذه الفاتورة فإن على الأميرة أن تدفعها». وكان أيضاً يسلّي نفسه بالمزاح العملي المملّ مثل إقحام سمكة في جيب برتران، ثم طلب استعارة منديله.

لم يكن مراقباً من كامبل فحسب، وإنما من العديد من العملاء المتعاقبين الذين أرسلتهم فرنسا لهذه الغاية، وأعدوا سلسلة من التقارير المضلّلة التي تكرّر إشاعات كاذبة مثل أن نابليون يقيم علاقة زنى مع شقيقته. غير أن ما لم يفد عنه هؤلاء العملاء هو أن نابليون كان يخطّط لمغادرة الجزيرة والعودة ظافراً إلى فرنسا.

فقد قالت جوزفين قبيل وفاتها لصديقتها جورجيت دوكريه: «أحياناً أشعر بالحزن بحيث يمكن أن أموت كمداً. لا يمكنني أن أتصالح مع قدر بونابرت». وما كان بونابرت يستطيع التصالح معه.

ذات ليلة في شباط/فبراير 1815، كان يلعب الورق مع بولين وأمه عندما نهض فجأة وخرج إلى الحديقة، فتبعته أمه ووجدته مستنداً إلى شجرة زيتون. سألته ما الأمر» فأجابها: «سأغادر إلبا» وطلب منها ألا تخبر أحداً حتى بولين. لم تقل شيئاً، فمال إلى الأمام لتقبيلها وسألها عن رأيها في ذهابه إلى باريس. فتساءلت: «باريس! من أجل القديس كرستينو»! ثم بعد هنيهة من التفكير قالت: «إنه الصواب. من الأفضل أن تموت والسيف في يدك بدلاً من تقاعد لا خير منه كهذا».

في الليلة التالية، ودّعها هي وبولين التي بكت، رغم أنها حثّته أكثر من مرة على العودة إلى فرنسا». وبعد ذلك توجّه إلى الميناء راكباً عربة بولين.

كتب لويس مارشان: «كان الشارع يغصّ بالأشخاص الذين يريدون وداع الإمبراطور. وسُمح لجميع من سيرافقونه بتقبيل أيدي السيدات... وأبحرت الدوقة برتران المتلهّفة للعودة إلى فرنسا، والتي لا يساورها الشك في نجاح الحملة، بعد بضعة أيام من إبحار الإمبراطور، على الرغم من نصيحة والدة الإمبراطور لها، ونزلت على شاطئ أنتيب».

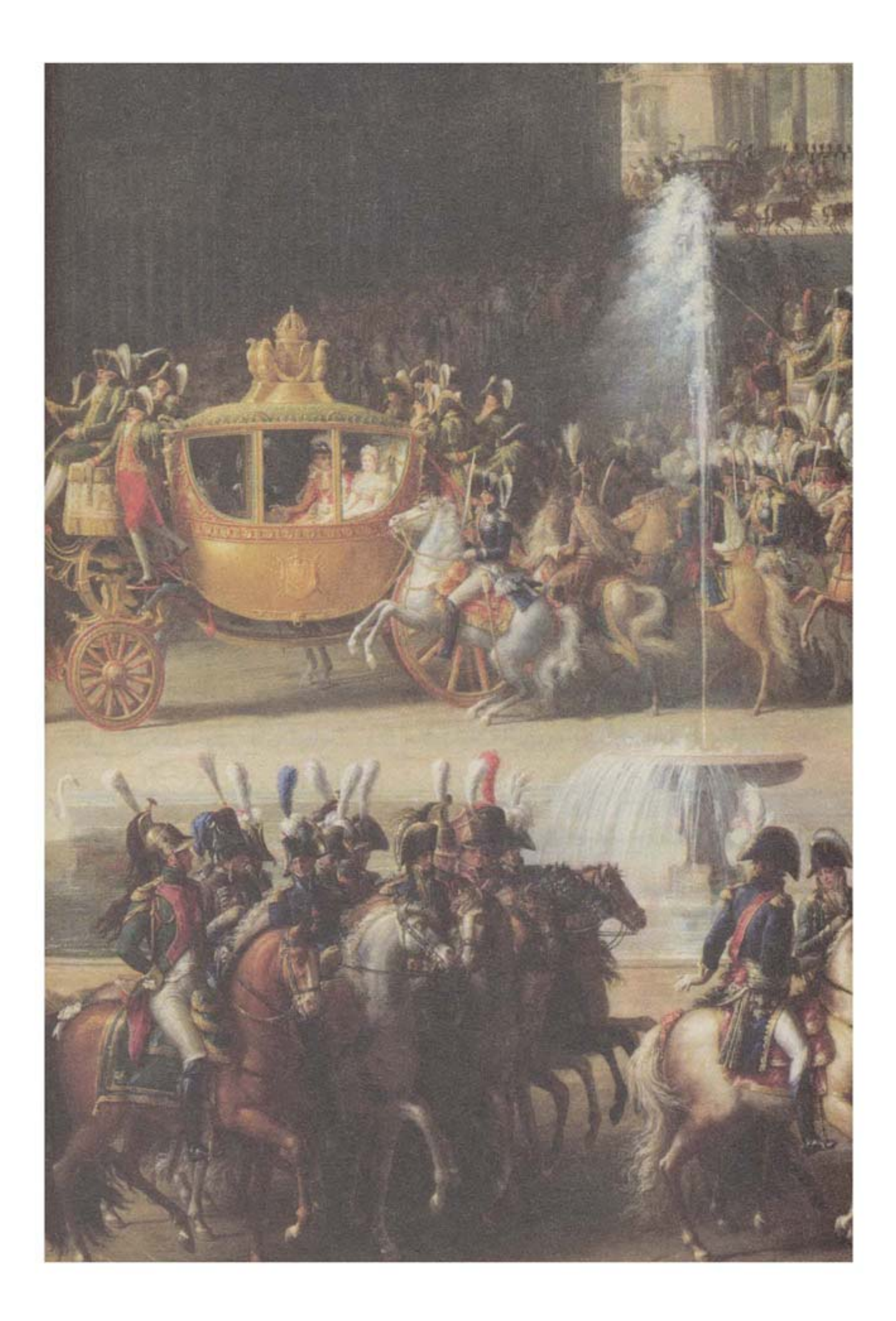
بعد توجّه نابليون إلى الميناء، حيث كان طاقم السفينة التي ستقلّه إلى فرنسا ينشدون النشيد الوطني الفرنسي، وجد مارشان أن والدة الإمبراطور تبكي. فقالت له: «إنني أعهد بابني إليك». ووضعت في يده علبة صغيرة يحمل غطاؤها صورة لها: «أعطه هذه بدلاً من العلبة التي يستعملها الآن».

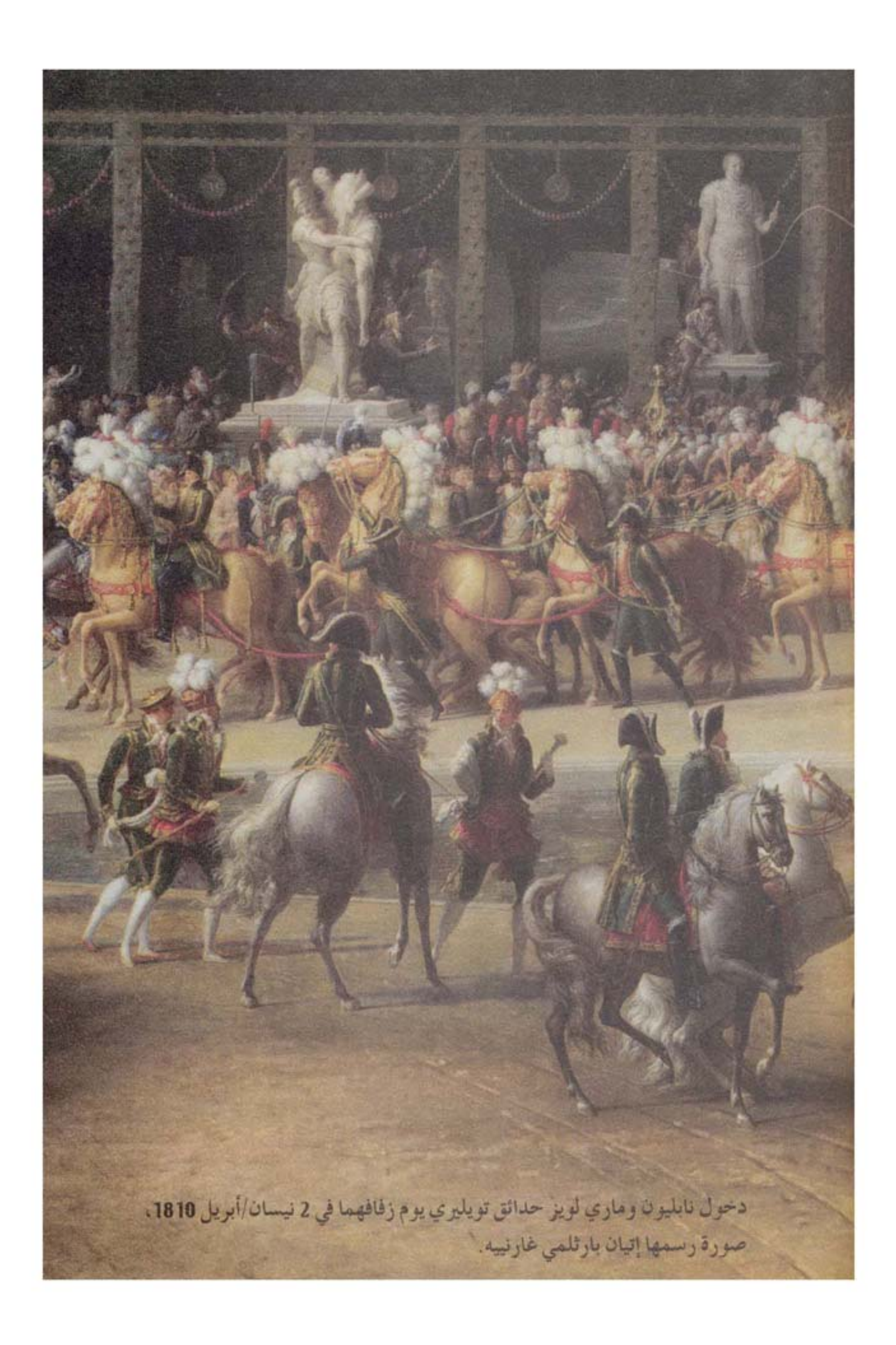
بكت الأميرة بولين ثانية. وكتب مارشان: «أقبلت عليّ حاملة عقداً من الماس تساوي قيمته خمسمئة ألف فرنك. أرادت أن تتحدّث، لكن البكاء خنق صوتها... وفي النهاية قالت، 'إليك، لقد أرسلني الإمبراطور لأسلمّك هذا العقد لأنه قد يحتاج إليه إذا واجه متاعب. اعتن به'.

«'إنني أرجو يا سموّ الأميرة ألا تكون هذه المناسبة سوى وداعٍ على أمل اللقاء'».

«'ليس هذا ما أظنه'. بدا لديها إحساس خفي ينبئها بأنها لن تراه ثانية».

تمكّنت السفينة «إنكونستان» في الليلة الماضية، من تجاوز سفينة تقلّ العقيد كامبل عائداً إلى جزيرة إلبا إثر زيارة قصيرة إلى البرّ الرئيسي، وأبحرت في 1 آذار/مارس إلى أنتيب. وهناك بدأ نابليون والقوة الغازية التي لا يزيد تعدادها على ألف رجل وتضم أربعين حصاناً ومدفعين

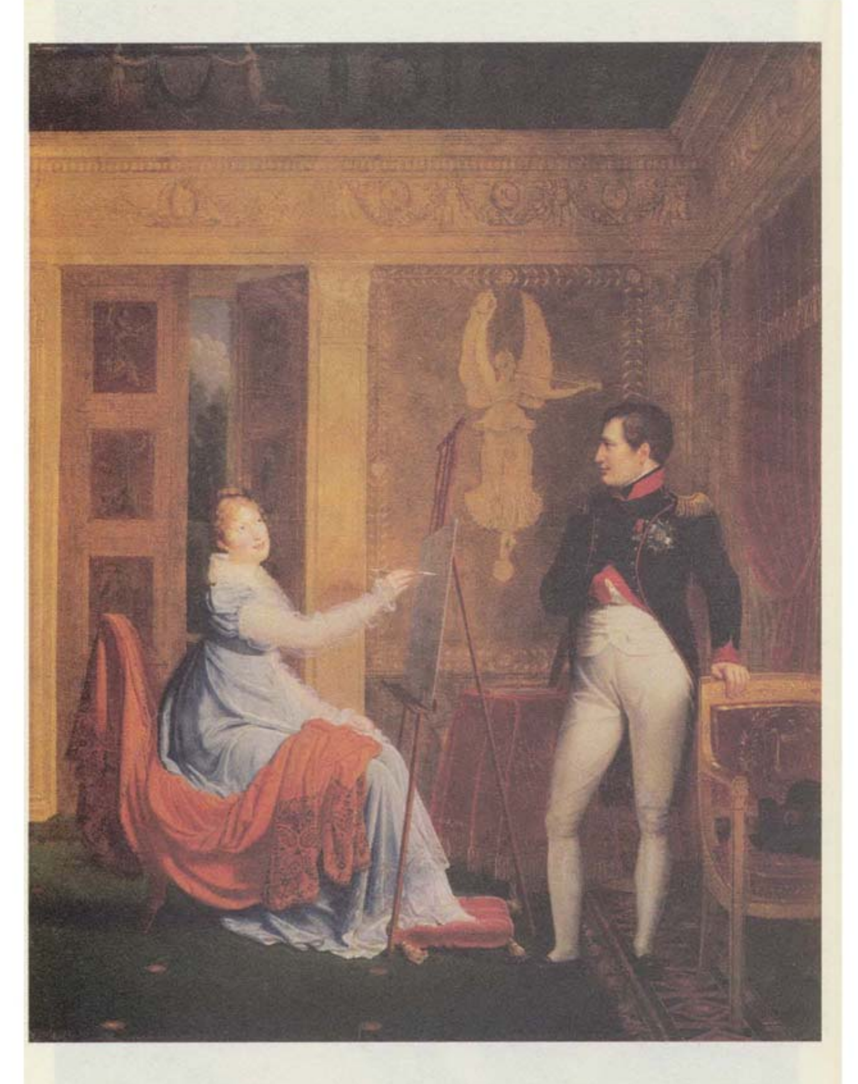




دخول نابليون وماري لويز حدائق تويليري يوم زفافهما في 2 نيسان/أبريل 1810،
صورة رسمها إتيان بارثلمي غارنييه.



نابليون وماري لويز يترجّلان في أنتويرب في أثناء سفرهما في سنة 1810، صورة رسمها لويس فيليب كريبان.



ماري لويز ترسم صورة لنابليون، صورة رسمها ألكسندر منجود.

نابليون وملك روما يقسمان على العداوة الدائمة لإنجلترا، كاريكاتور من صنع جورج كروكشانك.

نابليون وماري لويز وملك روما، صورة رسمها ألكسندر منجود.

بالنزول على الشاطئ. وأعلن: «أنا حاكم جزيرة إلبا، وقد جئت مع ستمئة رجل لمهاجمة ملك فرنسا وجيشه الذي يبلغ تعداده ستمئة ألف جندي. سأفتح هذه المملكة». ووعد بثقة أن يكون في باريس بعد ثلاثة أسابيع، في يوم مولد ملك روما.

في الطريق شمالاً إلى ليون، أرسل نابليون مارشان لمقابلة مدام بلابرا، وهي «ذات جمال أخّاذ» التقى بها لأول مرة ومارس الحبّ معها في أثناء زيارته لنورماندي في سنة 1812. كانت تقيم في ليون مع عائلتها، ويريد نابليون أن يتحدّث إليها بشأن موقف الشعب في ليون من وصوله إلى هناك. قال لها مارشان: «إنه لا يستطيع مقابلتها إلا في ساعة متأخّرة من الليل، بسبب الحركة الناشطة التي تحيط به والأوامر التي يرسلها في جميع الاتجاهات».

في باريس في 20 آذار/مارس، لقي نابليون الترحيب من الحشود المجتمعة عند قصر تويليري الذي هرب منه الملك على عجل.

جاءت أورتنس لرؤيته هناك. وكذلك الكونتيسة والوﭬسكا، وتلتهما اثنتان من عشيقاته، الآنسة جورج وأديل دوشاتل. أبلغ أورتنس أنه سيزور ماليزون بعد قليل. ذهبت معه إلى هناك ووصفت لاحقاً كيف ارتقى الدرج ودخل الغرفة التي توفيت فيها جوزفين. وعندما نزل رأت الدموع في عينيه. بدا، كما اعتقدت أورتنس: «أنه لم يعد يأبه لعشيقاته السابقات».

غير أنه كان لا يزال مهتماً بزوجته وابنهما، ويأمل أن ينضمّا إليه حتى في ذلك الوقت. كتب ليطلب من ماري لويز أن تحضر ملك روما إلى

ستراسبورغ حيث عرضت أورتنس أن تلتقي بهما. غير أن رسالته لم تصل إلى ماري لويز، ولم تكن على أي حال ستنفّذ الأوامر التي وردت فيها.

عند سماعها بأن نابليون هرب من إليا، صفّق العديد من أعضاء خدمها فرحاً في حين أنها انفجرت في البكاء. وكتبت إلى أبيها «الحبيب» أن يطمئنه أنها بالاعتماد على «عاطفته الأبوية»، لن تسعى هي أو ابنها إلى «أي تعليمات سوى» تعليماته.

41
الملكة كارولين

«يسرني جداً أن أصبح مفلسة تماماً إذا كان ذلك الثمن الذي أدفعه للابقاء عليه»

إثر العودة إلى نابولي بعد احتمال مخاطر الحملة الروسية، حضر يواكيم مورا برفقة زوجته قدّاساً للشكر في كاتدرائية سان جينارو. هنا يعقد تقليدياً يوم الأحد في الأول من شهر أيار/مايو الاحتفال القديم لإسالة الدم الجاف للقديس جينارو، شهيد القرن الرابع وأسقف بِنِفِنْتو. قبل بضع سنوات، شهد السياسي الإنجليزي المنفي، جون وِلكس، العجيبة التي تأخّرت في البداية، واعتُبر أن الكثير من التجهّم الذي ساد جماعة المصلّين منذ فشل سيلان الدم نذيراً بحلول مصائب مفزعة. وعندما هزّ الكاردينال القارورة الزجاجية التي تحتوي على الدم الجاف، «ثار غضب الناس. فصاحت النسوة على نحو منفّر وضربن صدورهن وشددن شعورهن. وبدا الرجال مضطربين بالقدر نفسه. فبدؤوا يطلقون صراخاً مخيفاً، وجرّح العديد منهم أنفسهم بالسكاكين».

لكن في هذه السنة سال الدم ممتثلاً، وأخذ الملك والملكة أولادهما إلى الكاتدرائية لتقبيل القارورة التي تحويه.

لم تكن الملكة على ما يرام في الآونة الأخيرة. فقد «نحفت مثل طائر الكوكو»، وفقدت شهيّتها وغالباً ما كانت معتلّة. كانت تمضي الكثير من النهار في السرير تملي الرسائل عندما تشعر بالرغبة في ذلك، في حين تجلس وصيفاتها، اللواتي يرتدين الحرير الأصفر وقبّعات بيضاء مزيّنة بالريش،

قرب النافذة منكبّات على التطريز.

في الغرفة المجاورة، بعد أن يستيقظ زوجها باكراً ويغطس رأسه في حوض من الماء البارد، يترك شعره الأسود الطويل لعناية خادمه الذي يلوي خصاله بين أصابعه للمحافظة على تموّجاته. وبعد أن يسير الملك بضع دقائق على الشرفة ذهاباً وإياباً بين أشجار الليمون المزروعة في أحواض، فإنه يصعد الدرج لملاعبة أبنائه قبل أن يجلس للعمل. ووفقاً لمربية الأطفال الإنجليزية، كاثرين ديڤيس: «كان يجد متعته الكبرى في صحبة أبنائه. ويمضي ساعات في اللعب معهم وتسليتهم». وكتبت ابنته لويز في مرحلة لاحقة من حياتها: «كان صديقنا، بل أكاد أقول رفيقنا في اللعب. بل إننا ذهبنا إلى حدّ مخاطبته من دون تكلفة ... ولكن عندما نكون معاً بمفردنا. لم تكن العادات تسمح بمثل هذه الألفة في ذلك الوقت، كما هو الحال اليوم. ولم نكن لنجرؤ على القيام بمثل هذه الأمور في حضور والدتنا».

كانت كارولين صارمة مع أبنائها، مثلما كانت والدتها مع أولادها. وتذكر كاثرين ديڤيس أن الإجراء المتبع يسير بانتظام شديد بإشراف إحدى مساعدات المربية بتوجيه من المسؤولة عن الحضانة، مدام دي روكمون. كان يلي الدروس الباكرة طعام الفطور في الثامنة صباحاً، وتتابع بعد ذلك الدروس حتى الغداء في الحادية عشرة، وبعد ذلك من الثانية عشرة والنصف إلى السادسة. إلى جانب الموضوعات المعتادة، مثل الرياضيات والجغرافيا، كان الأطفال يدرسون الألمانية والإنجليزية بالإضافة إلى الفرنسية والإيطالية، كانوا يأخذون دروس البيانو والغناء، كما كان كبير الأساقفة يعلّمهم الدين والكتاب المقدّس. وكانوا يتعلّمون أيضاً قواعد لعبة الوِست حتى يتمكّنوا من اللعب مع والدتهم في المساء.

كانوا جميعاً يرتدون نوعاً من الزي: البنات يرتدين فساتين بيضاء

ومريلة من التفتا السوداء، ويرتدي أخيل نسخة مصغّرة عن زي عقيد في الفرسان حملة الرماح، في ما يرتدي لوسيان زي عقيد في الحرس الملكي. وكانوا يتناولون الوجبات في غرفة الطعام الخاصة بهم بإشراف إحدى المربيات أو إحدى المعلمات من دون الجلوس معهم. وعندما كانوا يتعشون مع والديهم، مرة في الأسبوع أو نحو ذلك، كان الحجّاب الذين يرتدون بزة حمراء وذهبية يقفون خلف كراسيهم.

كان والدهم يبدو سعيداً في مناسبات العروض التي تتيحها له مكانته الملكية. كان في عيد الجسد يركب عربة تجرّها ثمانية جياد مرتدياً زياً رائعاً ثم يعود إلى قصره في زي آخر لا يقل روعة وبهاء. كان عامة شعب نابولي يسعدون بتقليده، ويمثّلون بأصابعهم تتطاير ريش قبّعته وطريقة ركوبه الحصان. لكن على غرار ملكهم السابق، فرديناند الرابع البوربوني، كانوا يحترمون تفاخره ويحبون طبيعته الأنيسة. غير أن الملكة كانت أقل قرباً منه، وأكثر تحفّظاً، ويُنظر إليها بنوع من الاحترام الحذر أو الكره. وقد وجدت مدام ڤيغيه لي برون، الفنّانة التي عُهد إليها برسم لوحتها، أنها لا تُطاق. ففي أول جلسة دخلت الغرفة برفقة خادمتين تعتنيان بشعرها، وفي الجلسات اللاحقة، عرضت نفسها بتسريحات شعر مختلفة، لذا كان لا بدّ من تغيير الرسم باستمرار. ولم يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ: كانت تتأخّر عن الموعد المحدّد لجلساتها، بحيث سُمعت الفنّانة تتمتم: «لقد رسمت أميرات حقيقيات [يعتقد أنها رسمت ماري أنطوانيت خمسا وعشرين مرة] لم يسبّبن لي كثيراً من المتاعب ولم يقينني أنتظر». وعلّقت في وقت لاحق: «الحقيقة أن مدام مورا كانت تجهل تماماً أن الدقّة في المواعيد تعني تهذيب الملوك مثلما قال لويس الرابع عشر، ولم يكن في الواقع محدث النعمة... يتعذّر عليَّ أن أصف العذاب والانزعاج الذي اضطررت إلى

مكابدته عندما كنت أرسم هذه اللوحة» لملكة نابولي.

كان الآخرون يعلّقون على تكبّر كارولين، وعلى عظمة بلاطها الذي يرأسه مسؤول عن البلاط ومدير للمراسم ويضمّ العديد من الحراس الملكيين والحجّاب وكبار الخدم وثماني وعشرين وصيفة، اثنتا عشرة منهن أميرات، وإحدى عشرة دوقة، والعديد من فتيات الإعلان اللواتي يرتدين فساتين صفراء وبيضاء ويقفن عند مداخل جميع غرف الدولة. وقد كتبت كاثرين ديڤيس أن «كل شيء يسير بطريقة مثيرة للإعجاب وانتظام تام. كانت اللحظات التي تمرّ من دون عمل مزعجة للملكة. كما أنها لا تسمح بأن يقضي الآخرون الوقت من دون شغل». وبما أنها مصمّمة على أن تثبت أنها قادرة تماماً على القيام بأعباء الملك إذا مات عنها زوجها، وحكم الدولة بكفاءة لا تقل عن كفاءة إدارة إليزا لمقاطعتها، فقد اتبعت أسلوباً ديكتاتورياً لقي الكثير من الاستياء– ليس أقله من قبل زوجها الذي اتجهت أفكاره على نحو متزايد إلى توحيد إيطاليا في حين تنحصر أفكارها بإخضاع نابولي لمصالح فرنسا.

مع أن أسلوب كارولين التسلّطي كان يثير الاستياء في بلاط نابولي، فإن الزوّار الأجانب وجدوها فاتنة رغم ميلها إلى التعالي عند التحدّث إليهم. ووفقاً لرأي الكاتب توماس بارِنغ على سبيل المثال، فإن الملكة «كانت أنيقة في شخصها وفي أسلوبها». بل إنها «أكثر ملاءمة لتكون ملكة من أي امرأة في أوروبا»، في حين أن زوجها، كما تابع بارِنغ: «رجل متين متوسّط الحجم، ذو شعر قوي أسود، ولحية على الخدّين، وبشرة داكنة، وعينين سوداوين». وأضاف بارِنغ: «إنه يحب المواكب، ويرتدي بطريقة مبهرجة عادة».

اعتقد الشاعر الإنجليزي صموئيل روجرز أن الملكة كارولين لا تزال

جميلة مع أنها نحيفة قليلاً، ورشيقة جداً ومزيّنة بالماس من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها». وأضاف «أنها ترقص مثل سيّدة» في حين أن زوجها «يرقص مثل معلّم رقص، بخطوات مثالية ويظهر ارتياحاً غير معهود عنه».

في حفلة راقصة مثل تلك التي حضرها صموئيل روجرز، وصلت الأنباء إلى نابولي بأن نابليون هرب من جزيرة إلبا.

وفقاً للكونت مير، السفير النمساوي في نابولي، فإن هذه الأخبار «أقلقت مورا كثيراً، ولم يتمكّن من اتخاذ قرار بشأن ما يريد». وانزعجت كارولين كثيراً أيضاً. شعرت أن أخاها «متجه نحو الكارثة». وطمأنت مير أنها ستبذل ما في وسعها لإقناع زوجها بعدم الانفصال عن النمسا. لكن بمرور الأيام، اتضح أن مورا كان مصمّماً على عدم البقاء ساكناً فيما التاريخ يُصنع في الشمال. وفي 7 آذار/مارس 1815، عبّر في حديث مع الجنرال النابولي أنجِلو دامبروسيو، عن اعتزامه الزحف شمالاً وتحقيق قدره بدفع النمساويين نحو جبال الألب وتوحيد إيطاليا في مملكة واحدة يكون هو محرّرها وملكها.

بذلت كارولين ما في وسعها لثنيه عن ذلك، لكن بعد عشرة أيام من حديثه مع دامبروسيو، تركها باكية واتجه إلى أنكونا. وانتقل من هناك إلى ريميني وأصدر إعلاناً دراماتيكياً:

> لقد دقّت ساعة تحقيق المصائر العظيمة لإيطاليا. الإيطاليون جميعاً مدعوون للانتماء إلى أمة مستقلة... سيزحف 80,000 من مملكة نابولي، يقودهم ملكهم، بعد أن أقسموا ألا يستكينوا إلى أن تتحرّر إيطاليا... إني أدعوكم أيها الإيطاليين الشجعان والمستائين إلى الانضمام إلي في هذه المعركة.

غير أنه لم يحن أوان توحيد إيطاليا بعد. فبعد أن احتل جيش مورا روما وبولونا وفلورنس، لقي هزيمة منكرة في تولنتينو في 2 أيار/مايو 1815 واستعدّ الملك البوربوني السابق فردينان الرابع للعودة إلى عاصمته بحماية الجيش المنتصر.

كانت الملكة كارولين قد غادرت نابولي إلى بورتيسي، حيث شرع زوجها في مهمته الطائشة، لكنها عادت بعد ذلك لتؤدي دور نائبة الملك، وفي محاولة لاستعادة الثقة، ظهرت في 13 نيسان/أبريل في المقصورة الملكية في مسرح سان كارلو، مع والدتها التي وصلت إلى نابولي قبل عشرة أيام، وشقيقها جيروم الذي هرب من تريست متنكّراً بثياب بحّار. وبعيد ظهورها في المسرح، اجتمع دوق بدفورد، الذي كان في نابولي في أثناء جولة في إيطاليا، مطوّلاً مع الملكة التي «راقته كثيراً» وأعجب جداً بهدوئها الظاهر، «والحزم واعتدالها واللياقة في سلوكها في الموقف الحرج الذي تعيشه».

عندما علمت بالكارثة التي حلّت بزوجها في تولنتينو، أقنعت محرّر جريدة «مونيتور» في نابولي بنشر أخبار عن انتصار عظيم لتسكين خوف المدينة. وبعد ذلك وضعت خططاً كي يغادر أولادها نابولي إلى قلعة غايتا، وتبحر أمها وأخوها والكاردينال فِش، الذي كان قد وصل إلى نابولي أيضاً، في سفينة فرنسية عائدين إلى فرنسا.

عندما كانت مربية الأولاد، كاثرين ديڤيس، تحزم حقيبتها بسرعة، دخل غرفتها لوسيان البالغ إحدى عشرة سنة من العمر، مرتدياً زي الحرس الملكي كالعادة. سأل: «هل أنت خائفة يا ديڤيس» وأمسك بيدها. أجابته: «لا يا صاحب السموّ، ولا حاجة بي إلى ذلك ما دام هذا السيف

إلى جانبي».

كانت كارولين أيضاً ترتدي زياً عسكرياً عندما استعرضت، بعد يومين من رحيل الآخرين، القليل من القوات الموالية المتبقية في حديقة ڤيلا ريال. وفي المدينة كان عامة النابوليين الذين لا يثبتون على رأي يسيرون في الشوارع خارج بوّابات القصر مهدّدين بالزحف عليه. حافظت الملكة على هدوئها، وكذلك زوجها عندما عاد إلى نابولي في 18 أيار/مايو 1815، بعد مرور أسبوعين على هزيمته في تولنتينو، وأعلن أمام زوجته بأسلوب متصنّع الفخامة: «فقدت كل شيء إلا الكرامة. لم يتبقّ لي شيء سوى الموت».

بعيد هذا الإعلان، غادر نابولي إلى غايتا بغية وداع أبنائه، على ما يفترض، قبل التوجّه إلى فرنسا لعرض خدماته على نابليون. أعدّت كارولين أيضاً العدّة لتغادر إلى فرنسا على متن سفينة «ترمندَس»، وهي سفينة بريطانية وُضعت تحت تصرّفها وفقاً لاتفاقية وقّعتها مع الكابتن روبرت كامبل، وبموجبها تسلّم السفن الحربية والأسلحة النابولية إليه للتصرّف فيها «وفقاً لما تقرّره الحكومات المذكورة».

في أثناء انتظار الإبحار على متن السفينة «ترمندَس»، وصل الأمير البوربوني إلى المدينة مع طليعة الجيش النمساوي للمطالبة بالتاج باسم والده الملك فردينان الرابع. استُقبل بحماسة شديدة، ونثرت الزهور على رأسه في أثناء سيره في الشوارع، في حين أخذت مجموعات من الشعب على متن قوارب حول «ترمندَس» تصيح وتطلق الشتائم على ملكتهم السابقة التي وجدت نفسها الآن أسيرة فعلية على السفينة لأن الأميرال لورد إكسماوث، قائد الأسطول البريطاني في البحر المتوسّط، أبطل اتفاق الكابتن كامبل معها بناء على نصيحة لورد بورغِرش، المبعوث البريطاني

فوق العادة إلى فلورنسا الذي وصل إلى نابولي مع الجيش النمساوي.

حزنت كارولين لتأخّر رحيلها، وشعرت بالغثيان على متن سفينة «ترمندَس» المتمايلة في مرساها في الخليج، فأرسلت كتاباً إلى العميد الكونت ڤون نيبرغ، قائد طليعة الجيش النمساوي. فلم يقدّم المساعدة أو التشجيع. أبلغها أنها لم تعد ملكة في نظر سلطة الاحتلال، ولن يُسمح لها بالعودة إلى فرنسا من دون إذن حكومته في ڤيينا. في غضون ذلك، ستُنقل إلى تريست بانتظار قرار يتعلّق بمستقبلها.

في 25 أيار/مايو، أبحرت «ترمندَس» إلى غايتا حيث نُقل أبناؤها على متنها إلى جانب المربيتين الإنجليزيتين ووصيفتين، وجميعهن وافقن على الذهاب مع العائلة حيث يتم نقلها.

عند الوصول إلى تريست، قدّمت كارولين للكابتن كامبل علبة سعوط ذهبية هدية لزوجته، تقديراً له على اللطف الذي أظهره خلال الرحلة التي استغرقت ستة أسابيع وصبره على أولادها الذين أخذوا يلهون بالقفز عليها بالحبال. وأمر بدوره بإطلاق إحدى وعشرين طلقة تكريماً لها ورافقها إلى الشاطئ في قاربه.

بعد رفض العرض الذي تقدّم به مورا للخدمة بإمرة نابليون، أعاد التفكير ثانية في تحرير إيطاليا وعودته إلى السلطة كحاكم لمملكة موحّدة. ولهذه الغاية أبحر إلى كورسيكا حيث جنّد جيشاً صغيراً قوامه ثلاثمئة ضابط وجندي. ثم نزل في كالابرايا في خليج سانتا يوفينيا في بداية تشرين الأول/أكتوبر، لكن سرعان ما أخذ أسيراً واستدعي للمثول أمام محكمة رفض الاعتراف بولايتها القانونية. وفي أثناء انعقاد المحاكمة، قدّمت إليه وجبة مكوّنة من خبز وحمامة. كان الخبز مقطّعاً قطعاً صغيرة والحمامة

منزوعة العظم. أعطي ملعقة من دون سكين. فقال: «حتى إذا لم أكن واثقاً من موتي، فإن ذلك يثبت كل شيء». حُرم من فرصة الانتحار حتى يمكن الحكم عليه بالموت وإعدامه.

كتب في رسالة وداع لزوجته: «عزيزتي كارولين، لقد حانت ساعتي الأخيرة. بعد لحظات أنتهي من الوجود. لن يعود لك زوج، ولن يكون لأولادي أب... الوداع يا أخيل! الوداع يا لِتيتيا! الوداع يا لوسيان! الوداع يا لويز! كونو جديرين بي في هذا العالم... ابقوا موحّدين دائماً، تعالوا فوق الشدائد دائماً، وفكّروا دائماً في ما أنتم عليه الآن أكثر مما كنتم عليه... أسفي الكبير في اللحظات الأخيرة من عمري أن أموت بعيداً عن أبنائي. تقبّلوا دموعي وقبلاتي. لا تنسوا والدكم الحزين البتة. بارككم الله».

أعطى الرسالة لأحد سجّانيه بالإضافة إلى خصلة من شعره الأسود المتموّج وساعة تحمل في داخلها صورة لكارولين.

بعد ذلك بقليل، في 13 تشرين الأول/أكتوبر، أوقف أمام فرقة الإعدام رمياً بالرصاص. رفض العصابة التي عرضت عليه لغمّ عينيه ورفض الجلوس على كرسي. طلب من الجنود ألا يطلقوا النار على وجهه، وفتح قميصه وأشار إلى صدره. أصدر أمر إطلاق النار بنفسه. وضع التابوت الذي يحتوي على جسده المنخور بالرصاص في قبر للعامة.

وقال نابليون عنه في النهاية إن مورا ألحق به «الأذية أكثر من أي شخص آخر في العالم».

كانت كارولين قد قبلت دعوة الإمبراطور فرانسيس للمجيء إلى النمسا بعدما لم تعد ملكة نابولي، وأصبحت تدعو نفسها الدوقة دي

ليبونا، وهو اسم مشتق بقلب كلمة نابولي. وصلت في 24 آب/أغسطس 1815 إلى شلوس هاينبرغ، على مقربة من ڤيينا، حيث أبلغت أن عليها أن تعتبر نفسها وأبناءها زوّاراً مؤقّتين. ولأنها مُنعت من العيش في فرنسا– وهو حظر مطبّق على أفراد عائلتها الآخرين– فقد اضطرت للبقاء في شلوس هاينبرغ وهي تنتظر بلهفة ورود أخبار من زوجها. كتبت لأختها إليزا:

> إنني قلقة جداً بشأن ما يمكن أن يحدث له، ولن أرتاح قبل أن أراه ثانية... ويسرني جداً أن أصبح مفلسة تماماً إذا كان ذلك الثمن الذي أدفعه للإبقاء عليه.

وكانت قد أبلغته: «الأولاد قلقون جداً. إننا بحاجة إلى رؤيتك والعناية بك. إننا نتحدّث عنك طوال الوقت... اكتب لي ولا تنس أقلّ التفاصيل... المحبة دائماً كارولين».

كتم عنها مرافقها، الجنرال فرانسيسكو مكدونالد، أخبار إعدام زوجها أطول مدة ممكنة. وعندما أطلُعت على جريدة تورد تقريراً عن ذلك، انفجرت بالبكاء، وواصلت البكاء على تقطّع طوال الليل.

بدا مستقبلها كئيباً. فهي في الثالثة والثلاثين، ولا تزال جميلة جداً ورشيقة وحيوية. لكن نقودها قليلة. وقد ناضلت لتلبية طلبات من كان لديه مطالبات حقيقية أو مزعومة بثروة مورا. واضطرت إلى بيع العديد من الأعمال الفنية الأثيرة لديها، بما فيها لوحتان لكوريغيو حصل عليهما مورا في إسبانيا، إلى المركيز لندن دِري. ولم تفلح طلباتها المقدّمة لاستعادة أملاكها في فرنسا. وقد تركتها ابنتها الكبرى لِتيتيا عندما تزوّجت المركيز ريبولي وذهبت لتقيم في بولونا. كما تركتها ابنتها الصغرى، لويز، عندما

تزوّجت الكونت غيليو راسبوني.

توجّهت كارولين إلى تريست للإقامة في ڤيلا في كامبو مارزيو بعدما لم تتمكّن من العودة إلى فرنسا. وصلت إلى تريست في حزيران/يونيو حاملة معها العديد من قطع الأثاث والمجوهرات، والقليل من اللوحات والأعمال الفنية الأخرى، وقليلاً من النقود.

لبثت وحيدة، واستقبلت قليلاً من الأشخاص الذين عرفتهم في الماضي. جاءت لزيارتها مدام ريكامييه، وكذلك الكونتيسة بوتوكا التي اعتقدت أنها «بحاجة إلى المحبّة من جميع من يقترب منها». ولم تكتشف آنا بوتوكا، التي سمعت، مثل الآخرين، إشاعات عن أن كارولين متزوّجة سرّاً من الجنرال المخلص مكدونالد، ما يشير في تصرفاته إلى أن ذلك صحيح. فهو، لا كارولين، من اصطحب بوتوكا إلى غرفة كبيرة مخصصة لذكريات العائلة ولذكرى يواكيم مورا، الذي تغطي لوحة ضخمة له أحد الجدران بأكمله تقريباً.

كانت كارولين تتحدّث عن أخيها نابليون إلى الكونتيسة بوتوكا بمحبّة وإعجاب، وعن ماري لويز باحتقار وتقلّد لكنتها النمساوية باستهزاء.

بعيد وصلها إلى تريست، صدر مرسوم في باريس يحرم جميع أفراد عائلة بونابرت من ممتلكاتهم وحقوقهم، ويحظر عليهم الانتقال من مسكن إلى آخر من دون إذن. وكانت كارولين قد دخلت مؤخّراً في مفاوضات لاستئجار قصر في هاينبرغ، لكنها اعتُبرت قريبة جداً من ڤيينا، واقترح مترنيخ احتمال انتقالها إلى براغ. لكنها رفضت ذلك وتمكّنت من تقديم بيت مؤقّت لأخيها جيروم وزوجته كاثرين، اللذين لم يعودا ملك وملكة وستفاليا، لكنهما أصبحا الآن الأمير والأميرة دي مونفور. وقد أقاما قرب فروسدورف، في حين وجدت كارولين عقاراً ملائماً على

مقربة منهما.

لم يكن هذا الجوار ملائماً لأي منهما. وبعد مرور بعض الوقت، توقّفت الزيارات بين العائلتين. وقد كتبت كاثرين لشقيقة زوجها إليزا: «لدينا سبب وجيه للاعتقاد بأن كارولين ميّالة لهذا الموقف لأنها لم تزر جيروم عندما كان مريضاً. وعندما مرضت مرتين في الآونة الأخيرة، لم تكلّف نفسها عناء السؤال عني... غير أن كارولين ليست سيدة نفسها للتصرّف كما يحلو لها لأنها خاضعة للسيطرة» من دون أن تسمّي الجنرال مكدونالد.

لم تكن كارولين سعيدة في فروسدورف، على الرغم من وجود فرانسيسكو مكدونالد في حياتها. كانت دائمة القلق بشأن المال، ومريضة في الغالب، وتجد «المكان كئيباً جداً» كما أبلغت لويس فريدريك بورجوا دي ميرسي، الذي كان سكرتيرها ذات يوم لكنه يعمل الآن مستشاراً تجارياً لها في باريس. «كل شيء يكدّرني... أنت تعرف كم يود الجنرال أن يساعدني، لكنه لا يدرك هذا الأمر». كانت تشعر بالحاجة إلى رفيقة، وطلبت من ميرسي أن يجد لها امرأة معافاة قادرة على مرافقتها في الخروج والسير على ألا تكون شابة جداً. إذا كانت شابة، «فستحدث علاقات حب ومكائد»، وهي بحاجة إلى السلام. وأضافت: «أشعر أنني بدأت أشيخ وأن مسؤولياتي ازدادت بما ينوء علي حمله».

قالت إنها تريد تغيير المناخ، وسعت من دون نجاح للحصول على إذن بالذهاب إلى روما لزيارة أمها. ولأنها لا تزال بحاجة إلى المال، وتدين بعشرات ألوف الفرنكات لجيروم، فقد كانت تأمل عبثاً في أن تساعدها أمها. وقد اضطرت لبيع بعض لوحاتها لتمويل رحلة ابنها أخيل إلى أميركا، حيث يعيش الآن أخوها جوزيف عيشة مترفة باعتباره الكونت

دي سيرڤيلييه في بوينت بريز على ضفاف نهر ديلاوير. وعندما حصل أخيل في النهاية على إذن بالمغادرة على ألا يعود إلى أوروبا من دون إذن، شعرت كارولين بالتعاسة لأنه سيرحل، لكنها أقرّت بأنه ربما يكون من الأفضل له أن يبدأ حياة جديدة. وفي النهاية لا يزال لديها شقيقه لوسيان، الصورة الحية عن والده، ليواسيها.

42
الهزيمة والمنفى

«ربما يفترض الآخرون أن حياته المهنية انتهت، لكني واثق أنه لم ينته».

في نحو الساعة الثامنة من صباح 18 يونيو/حزيران 1815، يوم الهزيمة الأخيرة في واترلو، أمر نابليون بأن يقدّم طعام الفطور له في بيت المزرعة حيث أمضى ليلته. لقد استيقظ منذ الفجر، لكنه لم يكلّف نفسه عناء التحدّث إلى جنرالاته الذين قدموا إلى مقر قيادته المؤقّت طلباً للمشورة إلا بعد أن انتهى من تناول الطعام. ومع ذلك فإنه رفض مخاوفهم وأظهر ثقة لم يستطيعوا أن يوافقوه عليها.

كان قد أبلغ ماري لويز قبل وقت قصير أن «الناس يتقاطرون إليَّ زرافات ووحداناً، وأن أفواجاً بأكملها انضمّت إليَّ. تعالي وانضمي إليَّ أنت وابني. أرجو أن أعانقك قبل انقضاء الشهر».

وأبلغ أحد جنرالاته الآن، مصمّماً على تبديد قلقهم ومزاجهم الحذر، «لدينا تسعون فرصة لصالحنا، ولا يوجد عشر فرص ضدّنا». وقال للمارشال سولت، رئيس أركانه: «إن وِلنغتون جنرال رديء، والإنجليز قوات رديئة، وسيكون الأمر مجرّد نزهة». فردّ سولت: «أرجو ذلك صادقاً». وكان رأيه أن المشاة الإنجليز «شياطين في القتال».

وأومأ نابليون بالرفض منزعجاً لضابط آخر أشار بأنه لا يمكن إلحاق الهزيمة بالمشاة البريطانيين بهجوم أمامي مباشر. وأصرّ على أنه لا حاجة إلى القيام بمناورة معقّدة. وعندما أشار الجنرال ريل إلى ثبات المشاة الإنجليز

وحسن تصويبهم، أدار ظهره له وانصرف. فمن السخافة إيلاء هذا القدر المرتفع لهذا الوِلنغتون، وما هو إلا جنرال لجيش من الهنود: الهجوم الأمامي المباشر سيحسم الأمر. وقال: «إذا نفّذت أوامري فسننام الليلة في بروكسل». لقد قرّر الهجوم المباشر وانتهى الأمر. وتساءل أحد الجنرالات أمام جنرال آخر خارج بيت المزرعة عن جدوى الدفاع عن مناورة أكثر ذكاء لأن الإمبراطور لن يصغي لذلك. وقال ضابط آخر: «لم يعد لنابليون الذي نعرف أي وجود».

بعد أن أمر بإعداد كتف ضأن للعشاء، ابتعد عن الطاولة التي بسط عليها خرائطه، وأمر بإحضار جياده وامتطى أحدها بطريقته الخرقاء المعهودة لتفحّص مواقع العدوّ. وكان قد أحضر إليه بلجيكيان لتقديم المشورة بشأن التضاريس المحلية. فشعر أحدهما بخوف شديد من المسؤولية الملقاة عليه فلم يتمكّن من الكلام. وبعدما صُرف أوضح خوفه قائلاً: «لو كان وجهه ساعة، ما تجرّأت على النظر إليها لإبلاغه بالوقت».

لم يشتكِ نابليون، لكن ليس هناك كبير شك في أنه كان مريضاً ويشعر بألم شديد متقطّع من البواسير، وتلك علّة ازدادت معاناته منها منذ سنتين وفقاً لشقيقه جيروم. وربما تعرّض على ما يبدو لنوبة التهاب في المثانة، كما كانت الحال معه في معركة بورودينو، ما جعل تبوّله أكثر تكرّراً ومؤلماً أيضاً.

لا شك في أن نابليون بدا أمام أركانه في المعركة اللاحقة منهكاً ومنطوياً على نفسه، ومفتقراً للحزم الذي منحه الانتصار الرائع في أوسترلِتز. لم يعد يظهر نوبات الغضب، الحقيقي أو المصنع، حيث كان يضرب من يغضبونه بالسوط، ويسبّهم، بل يركلهم على الخصيتين، ويمسك بخنّاقهم ويضرب رؤوسهم بالحائط، كما فعل ذات مرة مع

المارشال بيرثييه للتنفيس عن غضبه.

أصيب ضابط في الأركان، العقيد أوغست لويس بِتيت، بالصدمة من التغيّر الذي طرأ على مظهره:

> في أثناء الإقامة في إلبا، ازداد نابليون سمنة بسرعة. وأصبح رأسه ضخماً وأكثر التصاقاً بكتفيه. وبرز كرشه على نحو غير معتاد لدى رجل في الخامسة والأربعين. ولوحظ خلال الحملة أنه لم يعد يمضي وقتاً طويلاً ممتطياً صهوة حصانة كما في الماضي. وعندما يترجّل، لتفحّص الخرائط أو إرسال كتاب أو تسلّم تقرير، كان خدمه يضعون أمامه طاولة ومقعداً مصنوعاً من خشب الطاولة نفسه حيث يقى جالساً مدة طويلة كل مرة...
>
> هذه البدانة، وبشرته البيضاء الباهتة، ومشيته الثقيلة [معقود اليدين أو واضعاً إبهاميه في جيبي معطفه الأزرق اللذين يخرج منهما ساعته أو علبة السعوط بين الحين والآخر] جعلته يبدو مختلفاً جداً عن الجنرال بونابرت الذي رأيته في بداية مهنتي في أثناء حملة سنة 1800 في إيطاليا، عندما كان نحيلاً جداً بحيث لم يستطع أي جندي في جيشه أن يستوعب كيف يستطيع جسمه الناحل الذي يبدو عليه الاعتلال أن يتحمّل مثل هذا التعب.

بدا الآن أكبر من عمره الحقيقي. كان يلهث عندما يتنفّس، ويضطر بين الحين والآخر إلى لحس لعابه عن شفتيه. وقد علّق الجنرال ثيبو على مشيته الخرقاء، وإيماءاته المتردّدة قائلاً: «بدا كل ما يتعلّق به منحرفاً. وحلّت مسحة اخضرار ملحوظة محل شحوب بشرته المعتاد».

بعد أن استعرض قواته، توجّه إلى نزل صغير جُلب منه مقعد وطاولة له ووُضعا على أرض مرتفعة إلى جانب الطريق. جلس هناك مدة طويلة واضعاً رأسه بين يديه كما لو أنه ذاهل في ما كان أركانه بانتظار أوامره. وكان بين الحين والآخر ينهض ويدني مقرابه إلى عينه، وينظر من جانب إلى آخر، ثم يرتمي على المقعد.

عند نحو الساعة الثالثة، كما قال جيروم، عاد إلى بيت المزرعة حيث أمضى الليلة لوضع العلق على بواسيره. ثم تقدّم إلى الجبهة ليرى ما أمكنه عبر دخان المدافع بعد اندلاع القتال.

كان قد عهد حتى الآن بالقيادة التكتيكية للمعركة للمارشال ناي الذي صُدّت أرتال مشاته وتفرّقت. فدفع بخيّالته من دون دعم ليهزموا بعد ساعتين من القتال الضاري. شعر نابليون بالخطر الآن فتولّى زمام القيادة، وقرّر الزجّ بقوّاته الاحتياطية البالغ عددها أربعة عشر ألفاً في المعركة. وفي وقت لاحق شنّت خمس كتائب من الحرس الهجوم الأخير. لكن كان الأوان قد فات: أصرّ نابليون على أن حلفاء وِلنغتون، البروسيين، لن يتمكّنوا من الانضمام إليه قبل يومين على الأقل. لكن القائد البروسي، غبهارد لبرخت، فورست بلوخر ڤون ڤالسات، حثّ رجاله الجائعين على التقدّم بسرعة عبر الريف الماطر والوحول التي ترتفع حتى الكاحل، مكرّراً القول على مسامعهم: «لقد وعدت وِلنغتون. عليكم ألا تجعلوني أخلف وعدي»، ونجح في الوصول إلى ميدان واترلو في الوقت المناسب.

في تلك الليلة، كان ضابط مشاة فرنسي شاب يسير في أثناء انسحابه على الطريق إلى شارليروي خلف تقاطع الطرق المعروف باسم «الأذرع الأربع»، حيث ملأت جثث الجنود الذين عرّاهم البلجيكيون، فمر بغابة

ووجد فيها رجالاً نجوا من المعركة يلقون بالعيدان على نار موقدة. فتقدّم نحو النار طلباً للدفء، وشاهد شخصاً يقف صامتاً منفصلاً عن الباقين، وقد شبك ذراعيه فوق صدره. وعندما عرف أنه الإمبراطور، أدار له ظهره.

كان نابليون قد ركب عربته في غيناب، لكنه سمع، قبل أن تشدّ الجياد إليها، صيحات جنود العدوّ فنزل منها على عجل وامتطى جواده وأسرع في اجتياز الجسر. صعد الجنود بعد ذلك إلى العربة ووجدوا فيها العديد من أدوات الحمّام، وأوعية فضية، ومسدّسات، وميداليات، وطقم سفرة، وبدلة خيط في بطانتها مليونا فرنك، وسرير قابل للطي.

بلغ التعب أشدّه على نابليون بحيث كان لا بد من تثبيته على حصانه في أثناء الهرب إلى شارليروي، وقد ابتل وجهه بدموعه.

عاد إلى الإليزيه مع أخيه جوزيف الذي عيّنه رئيساً لمجلس الوصاية في أثناء غيابه مع جيشه. سلّمه جوزيف كمية كبيرة من الماس، علم مارشان لاحقاً أن «قيمتها تساوي ثمانمئة ألف فرنك فرنسي». وقال مارشان: «كانت كل منها ملفوفة بشكل منفصل، أعطاها لي الإمبراطور وطلب مني أن أقفل عليها في حجرة أمتعة السفر... كما سلّمني رزمتين مختومتين وطلب مني أن آخذ واحدة إلى الكونتيسة والوفسكا والأخرى إلى مدام بيلابرا. وفي وقت لاحق، قدمت مدام والوفسكا، بناء على طلبه، لرؤيته في الإليزيه، وأحضرت معها ابنها ألكسندر البالغ خمس سنوات من العمر. وكان هناك أيضاً ابنه من إلينور دينويل البالغ عمره ثلاث عشرة سنة، وشارل ليون، ولويس نابليون، ابن أورتنس، الذي أصبح نابليون الثالث في ما بعد، وكان في السابعة في ذلك الوقت. لعب الأطفال معاً،

فيما كانت الحشود تهتف تحت النوافذ: «عاش الإمبراطور».

بعد أسبوعين، غادر نابليون الإليزيه بعيد منتصف الليل، بعد أن أعلن تنحّيه لصالح ابنه، ملك روما، الذي أعلنه إمبراطوراً على فرنسا باسم نابليون الثاني. ركب عربته التي كانت بانتظاره عند بوابة حديقة الشانزليزيه وتوجّه إلى ماليزون، وأرسل في طلب أمه وأورتنس للانضمام إليه هناك، على الرغم من أنه انزعج من قبول أورتنس خدمات القيصر وبقائها في باريس مع أعدائه وهو منفي في إلبا. قال لها: «لم يخطر ببالي البتة أن تتخلي عن قضيّتي. إذا تقاسم المرء نجاحات عائلة، فإن عليه أن يتقاسم نكباتها». وأضاف عندما أخذت تبكي: «ليس لديك أي عذر. لكنك تعرفين أنني أب صالح. إنني أسامحك ولن نتحدّث في هذا الأمر ثانية».

بعيد وصول نابليون إلى ماليزون، انضمّ إليه خادمه مارشان هناك، محضراً مختلف الأشياء التي يعتقد أن سيّده يريدها، بما في ذلك صور لماري لويز وحوض غسيل فضي رائع من تصميم مارتن غيوم بينيس، اعتاد الإمبراطور على «تغطيس وجهه فيه بعد الحلاقة».

> في تلك الليلة كان ذاهباً إلى الفراش [كما يذكر مارشان]، أبلغت الإمبراطور عن حالة الغليان التي تركت الناس عليها في باريس، وعن زيارتي لمدام بيلابرا ومدام والوفسكا. اقترحت الأخيرة القدوم إلى ماليزون في اليوم التالي مع ابنها. وطلبت مني مدام بيلابرا أن أبلغك عن مدى أسفها لعدم تجرّئها على القدوم من دون تعليماته.

وبناء على ذلك، تلقّت مدام بيلابرا تعليماته وجاءت إلى مالميزون حيث قدّمت، وفقاً لتعبير مارشان المتحفّظ، «العزاء لقلبه وكانت محل تقدير كبير من الإمبراطور». وكان هناك أيضاً أديل دوشاتل، المرأة التي تسبّب وجودها في سان كلود بصخب كبير عندما طلبت جوزفين السماح لها بدخول الغرفة فيما زوجها وعشيقته يوشكان على ممارسة الحب.

كان لا يزال متأثّراً كثيراً بوفاة جوزفين. وقال: «مسكينة جوزفين. لا يمكنني الاعتياد على وجودي هنا من دونها. ولا أزال أتوقّع أن أراها في ممرّ، تجمع الأزهار التي أحبّتها كثيراً... لم نتشاجر البتة إلا بشأن ديونها... لقد كانت أكثر النساء اللواتي عرفتهن لطافة». وأضاف لاحقاً: «إنها امرأة حقيقية جريئة ومرحة وأرق شخص في العالم». كان يمضي ساعات في مالميزون ذاهلاً وهو يقلّب صفحات المجلّدات الأولى من كتاب ألكسندر ڤون هُمبولت الضخم عن العالم الجديد، «رحلة هُمبولت وبونبلان إلى المناطق المدارية في العالم الجديد» *Voyage de Humboldt et Bonpland aux Régions Equinxiales du nouveau Continent*. وقد فكّر في الذهاب إلى أميركا بنفسه لبدء حياة جديدة هناك. وبدا، كما قالت أورتنس، أنه الشخص الوحيد في مالميزون غير المكترث بما يجري حوله، كما لو أنه يعيش في عالم آخر بالفعل.

انكبّ على توزيع ثروته، فيما لا يزال لديه الوقت للقيام بذلك، فأعطى إخوته جوزيف ولوسيان وجيروم مليوناً وخمسين ألف فرنك يقتسمونها في ما بينهم. ومنح ابنة زوجته، أورتنس، أسهماً بقيمة مليون فرنك. وائتمن مصرفيه، جاك لافيت، على ثمانمئة ألف فرنك، وثلاثة ملايين فرنك أخرى ذهباً.

وبعد أن عزم على الذهاب إلى أميركا، سأل السلطات في باريس—

التي سيعود إليها لويس الثامن عشر عما قريب– لتوفير الأوراق اللازمة له للتوجّه إلى الساحل عند روشفور.

في أثناء انتظار وصول الأوراق، كان القائد البروسي، المارشال بلوخر، في كومبين يكتب رسالة إلى زوجته تقترح توجّه نابليون إلى الساحل بأسرع ما يمكن:

> هنا أجلس حيث احتفلت ماري لويز بليلة زفافها. لا شيء يمكن أن يكون أجمل وأكثر استساغة من كومبين. الأمر المحزن الوحيد أن عليّ أن أغادر غداً باكراً، إذ يجب أن أصل إلى باريس في ثلاثة أيام. فمن المرجّح أن يسلّم بونابرت لي وللورد وِلنغتون. وربما لن أتمكّن من القيام بما هو أفضل من رميه بالرصاص، ما سيكون خدمة للبشرية. لقد تخلّى عنه الجميع في باريس، وهو مكروه ومحتقر. أعتقد أن المسألة بأكملها ستنتهي عما قريب، وسأسرع بعد ذلك عائداً إلى الوطن. الوداع، عليَّ أن أذهب.

بعد يومين من كتابة هذه الرسالة، في 27 يونيو، وصلت إلى مالميزون الوثائق الضرورية التي تمكّن نابليون من الوصول إلى الساحل: وسرعان ما ودّعت والدة الإمبراطور ابنها لآخر مرة، بعد أن قدمت لترجو له الخير. شهد فرانسوا جوزيف تالما، كان يخدم في الحرس الوطني في ذلك الوقت، المشهد ووصف نابليون لاحقاً وهو يقبّل يد أمه قبل أن يغادر غرفته مسرعاً. وقالت بعد ذلك بسنوات: «لقد انتهت حياتي بسقوط الإمبراطور».

قبل أن يركب العربة التي ستقلّه من مالميزون، من دون رجعة، قدّم

نابليون عقداً من الماس إلى أورتنس تبلغ قيمته مئتي ألف فرنك. وقال لها: «ما أجمل ماليزون، أليس كذلك يا أورتنس»؟ وسألت مدام والوفسكا إذا كان في وسعها الذهاب معه إلى المنفى لكنه رفض عرضها. أغلق باب العربة وانطلقت بسرعة إلى الساحل في روشفور. وهناك تأخّر عدة أيام فيما كانت سفن البحرية الملكية تتجمّع لحصار الميناء. لذا تقرّر التقدّم بالتماس إلى الأمير الوصي للجوء إلى إنجلترا بدلاً من الخروج من روشفور وعبور الأطلسي. فكتب نابليون بناء على ذلك في 13 تموز/يوليو:

> صاحب السموّ الملكي، بالنظر إلى الشقاقات التي تربك بلدي وعداوة القوى الكبرى في أوروبا، فقد قرّرت إنهاء حياتي السياسية والمجيء، مثل تِمستوكليس، طلباً لكرم ضيافة الشعب الإنجليزي. إنني أضع نفسي تحت حماية قوانينه التي أطالب صاحب السمو الملكي بها باعتبارها الأقوى، وباعتباركم الأكثر ثباتاً وكرماً بين أعدائي.

تساءل الوصي عند تسلّم الالتماس: «حقاً! إنها رسالة لائقة جداً– علي القول إنها أكثر لياقة من جميع الرسائل التي تلقيتها من لويس الثامن عشر». لكن الوصي اتفق مع حكومته أنه لا يمكن السماح لنابليون بالعيش في إنجلترا. لذا رُفض الطلب ووافقت القوى الحليفة الأخرى على ذلك وكُلفت إنجلترا بمسؤولية اختيار مكان لاحتجازه.

نُقل نابليون في سفينة البحرية الملكية، بِلْروفون، عبر القناة معتقداً، على ما يأمل وأوحي له به، إلى ملجأ في إنجلترا. واحتشد الشعب في تورباي في القوارب لمشاهدة الغول المهزوم الذي كانت المربّيات تستحضر صورته لإخافة الأطفال وحثّهم على حسن السلوك.

ومن توررباي نُقل نابليون على طول الساحل إلى بلايموث، حيث صعد اللورد كيث، القائد العام لأسطول القناة، على متن السفينة لإبلاغ «الجنرال بونابرت» بعدم السماح له بالنزول إلى البر في إنجلترا والإبحار بدلاً من ذلك إلى المنفى في جزيرة القديسة هيلانة النائية في جنوب الأطلسي، وهي مكان ملائم جداً لهذه الغاية، كما أوضح رئيس الوزراء، لورد ليفربول، في رسالة إلى وزير الخارجية:

> إننا جميعاً مع الرأي بعدم الموافقة على احتجازه في إنجلترا. فقد تثار مسائل قانونية بشأن هذا الموضوع وتضعنا في حرج شديد. لكن بصرف النظر عن هذه الاعتبارات، أنتم تعلمون جيداً مشاعر الشعب في هذا البلد، وما من شك في أنه سيصبح موضع الفضول على الفور، وربما التعاطف في غضون بضعة أشهر. كما أن ظروف وجوده هنا، أو في أي مكان في أوروبا، ستسهم في الإبقاء على درجة معيّنة من الاضطراب في فرنسا... جزيرة القديسة هيلانة هي أفضل مكان في العالم لاحتجاز مثل هذا الشخص. هناك قلعة رائعة يمكن أن يقيم فيها. والوضع صحي جداً. وليس هناك سوى مكان واحد في الجزيرة تستطيع السفن الرسوّ فيه، ولدينا القدرة على استبعاد جميع السفن المحايدة، إذا اقتضى الأمر. وستكون المكائد مستحيلة في ذلك المكان البعيد، وسرعان ما سيُنسى أمره لبعده الشديد عن العالم الأوروبي.

وبناء على ذلك، نُقل نابليون من السفينة «بِلْروفون» إلى السفينة «نورثَمْبِرلاند»، وهي سفينة قديمة غير مريحة جعلته رائحة الدهان الجديدة

فيها يشعر بالغثيان.

وصفت الليدي شارلوت فِتزجِرالد، ابنة إيرل مويرا، في رسالة إلى الجنرال تشارلز هاستنغز، كيف «شهدت عملية نقل نابليون من سفينة إلى أخرى مقابل ساحل ديڤون».

> صدّقني أن الخطوة غير الحكيمة التي اتخذتها حكومتنا أنها أظهرت لبريطانيا العظمى أن بونابرت ليس لديه قرون ولا حوافر! كان المرء يسمع صفات «الوحش» أو «النذل» أو «اشوه حياً» ملتصقة باسمه، لكن ذلك الوقت انقضى وأصبح يوصف الآن بصفات «المسكين، إنني أشفق عليه» أو «إنه مكتئب». هذه هي الملاحظات التي تنتشر في أوساط العامة...
>
> في أثناء إقامته في بلايموث، ارتفع التأييد الجماهيري له ارتفاعاً كبيراً، وذات ليلة حيّته الحشود التي استمالها بابتساماته بحماسة. وبعد ذلك أمر جميع الزوّار بالمحافظة على الصمت وعدم الوقوف في المراكب أو لمس قبّعاتهم عندما يظهر عليهم. إنني مندهشة من كيف يمكن أن يلين ظهور نابليون قلوبهم لأن تأثيره عليّ مختلف جداً. ذهبت لرؤيته، وأنا معجبة به رغم الجرائم التي ارتكبها، ومتعاطفة معه كسجين، ومعتقدة أنه عومل معاملة قاسية منذ أن وضع نفسه تحت رحمة البريطانيين، لكنني عدت بمشاعر منقلبة ضدّه ومخاوف من أن يُفلت الأسد من القفص ثانية... إنه أنيق جداً... وقد امتلأ جسمه لكنه ليس سميناً جداً... شعره بني فاتح، منحسر عند مؤخّر رأسه... وهو داكن جداً لكن بشرته زيتونية رائقة بحيث توحي بأنها أقل

اسمراراً... عيناه داكنتان ومستديرتان. وهو ليس وسيماً لكنه لا يخلو من الجمال. ولا يشبه أحد ممن رأيتهم من قبل... إنه مميّز عن غيره من البشر... لم أشاهد البتة من قبل وجهاً لا يبدو عليه التأثّر. لقد كان جالساً بوقار ممزوج بتصميم شديد، لا يرجع إلى الجوّ العسكري ولا إلى المكانة الملكية، ولكن إلى شيء أكبر من كليهما، وأكثر تأثيراً من أي كائن شاهدته من قبل. لم أشاهد قط رجلاً يبدو في حالة أقل يأساً... ربما يفترض الآخرون أن حياته المهنية انتهت لكنني واثقة من أنها ليست كذلك. يبدو أنه يشبه تمثالاً نصفياً من الرخام أو البرونز بارداً وثابتاً. ويبدو عصياً على نفاذ الرقّة الإنسانية أو المعاناة الإنسانية– ومع ذلك فإنه رائع...

استُقبل نابليون على متن سفينة «نورثَمْبِرلاند» باعتباره يحمل رتبة فريق! وقد لمس قبّعته تحية للحرس عندما عبر الجسر. كان يرغب في أن يقدّم له اللورد كيث ضباط «نورثَمْبِرلاند»، لكنه أخفى ذلك. وقد ساد صمت رهيب عند نقل نابليون. وكان في وسعك سماع صوت الإبرة وهي تسقط في البحر.

ووصف قبطان سفينة «بِلْروفون»، فريدريك ميتلند، وهو حفيد إيرل لودِرديل، مظهر نابليون وسلوكه:

كان بونابرت يرتدي معطفاً كبيراً زيتوني اللون فوق زي أخضر، ولفاعاً قرمزياً... زي فارس في الحرس الإمبرطوري... وكان يعتمر قبّعة صغيرة مثلّثة الرؤوس، وسيفاً ذا مقبض ذهبي، وجزمة عسكرية، وصداراً وبنطالاً أبيضين. في اليوم التالي

ظهر مرتدياً حذاء ذا بكلة ذهبية وجوارب حريرية– اللباس الذي ارتداه دائماً حينما كان معي... كان كاحله دقيقاً وقدمه صغيراً... جاء إلى السطح الخلفي، فرفع قبّعته وخاطبني بصوت ثابت: «لقد جئت طالباً حماية أميرك والقانون».

كانت عيناه رماديتين فاتحتين، وأسنانه حسنة. وعندما يبتسم تبدو تعابير وجهه مرضية، لكنها تكفهّر عندما يخيب ظنّه. كان شعره بنياً داكناً، مع أنه منحسر في أعلى رأسه، وخالياً من الشيب. وكانت بشرته غير عادية، باهتة مائلة إلى الاصفرار ومختلفة عن بشرة كل من التقيت بهم تقريباً. فقد كثيراً من نشاطه الشخصي بسبب بدانته... ولا شك في أنه اعتاد الخمول على متن «بِلْروفون». ومع أنه كان يأوي للفراش بين الثامنة والتاسعة مساء ولا ينهض إلا في الساعة نفسها صباحاً، فإنه كان ينام على الأريكة في حجرته في أثناء النهار.

وقد وصفه الأميرال السير جورج كوكبورن، الذي أُمر بنقل «الجنرال بونابرت» إلى جزيرة القديسة هيلانة على متن السفينة «نورثَمْبِرلاند»، سلوك سجينه أيضاً في سفينته: «عندما وصل إلى السطح قال لي، 'ها أنا يا أميرال، تحت أمرك'». وروى كوكبورن:

عند العشاء، أكل بنهم من جميع الأطباق تقريباً. وامتدح كل شيء وبدا قانعاً وراضياً بمصيره... على الرغم من أن سلوكه لم يكن مهذّباً جداً.... تحدّث إليَّ في أثناء العشاء عن حملته الروسية... وقال إنه ما من شيء يمكن أن يكون رهيباً أكثر من تلك الحملة. وخيّل إليه لعدة أيام كما لو أنه يزحف في بحر

من النيران بسبب استمرار إحراق القرى في كل اتجاه وعلى مدّ البصر... فقد كثير من الجنود حياتهم وهم يحاولون النهب وسط النيران. وتحدّث كثيراً عن البرد خلال انسحابهم الكارثي وذكر أن نصف حرسه بأكمله توفّوا من البرد.

«بدا على سجيّته كأنه انتمى للسفينة طوال حياته». في تلك الليلة، وفي العديد من الليالي التالية: «اقترح لعب الورق ولعب البلاك جاك حتى العاشرة والنصف مساء»، وكان يخسر المال باستمرار. كما لعب الشطرنج، لكن «سيئ اللعب». وتابع كوكبورن:

إنه ينهض متأخّراً (بين العاشرة والحادية عشرة). فيتناول الفطور المكوّن من اللحم والنبيذ في غرفة نومه ويبقى هناك بلباس النوم إلى أن يرتدي ثيابه للغداء، بين الثالثة والرابعة بعد الظهر على العموم. وبعد ذلك يخرج من حجرته ويتجوّل قليلاً على السطح أو يلعب مباراة شطرنج حتى يحين موعد العشاء (في الخامسة). كان يأكل ويشرب كثيراً على العموم على العشاء لكنه يتحدّث قليلاً. إنه يفضّل اللحوم من جميع الأنواع، ونادراً ما يتناول الخضراوات. وبعد العشاء يمشي نحو ساعة ونصف الساعة، وخلال هذه الجولات أجري معه المحادثات المفتوحة والممتعة. وفي الثامنة تقريباً يغادر السطح ونعد بعد ذلك لعبة ورق له، ينغمس فيها بسرور واهتمام كبيرين حتى العاشرة تقريباً، عندما ينسحب وأعتقد أنه يتوجه إلى الفراش على الفور. إن مثل هذه الحياة الخاملة، وكمية الغذاء الذي يتناوله ونوعه، يجعلانني أعتقد أنه لن يحتفظ بعافيته.

43

جزيرة القديسة هيلانة

«جلس على أحد كراسينا، وبعد تفحّص شقّتنا الصغيرة بنظراته الحادّة، أثنى على أمي لحسن حال المنزل»

عندما وقف نابليون على سطح السفينة القديمة المتداعية «نورثَمْبِرلاند» وتفرّس في شكل جزيرة القديسة هيلانة الداكن التي ستكون مكان نفيه ووفاته بعد نحو خمس سنوات، في سن الحادية والخمسين، تبيّن له أنها «ليست مكاناً جذّاباً». وظن أنه لو بقي في مصر لكان حاله أفضل. الصخور السوداء ترتفع بحدّة نحو السماء المكفهرّة وتُشرف على المباني المتكدّسة في جيمس تاون، المستوطنة الوحيدة في الجزيرة التي أسميت باسم دوق يورك، الملك جيمس الثاني لاحقاً، عندما صادرت شركة الهند الشرقية البريطانية الجزيرة في سنة 1673 بعد طرد الهولنديين منها. عند وصول نابليون، كان يوجد نحو سبعمئة مقيم أبيض، ونحو ألف جندي، وألف وأربعمئة عبد، وعدة صينيين وأربعمئة وخمسين «شخصاً حرّاً من الملوّنين».

كان الأميرال السير جورج كوكبورن، الذي عيّن حاكماً للجزيرة والقائد العام للمحطة والفرقاطات التي تحرس الشاطئ باستمرار، من بين المتواجدين على متن السفينة «نورثَمْبِرلاند» والسفن المرافقة عند إنزال المرساة في خليج جيمس تاون في صباح 15 تشرين الأول/أكتوبر 1815؛ والضابط البحري السابق الكونت دي لاس كاس الذي عمل سكرتيراً وكاتباً لنابليون، بمساعدة ابنه الذي يبلغ عمره خمس عشرة سنة؛ والجنرال

غاسبار غورغو، مساعده الغيور والمشاكس الذي احتمل نابليون بصبر غير عادي ثورات غضبه وتعليقاته الانتقادية على زملائه في المنفى؛ والجنرال المخلص الضئيل الحجم هنري برتران الذي كان مارشال القصر في الأوقات السعيدة؛ وشارل تريستان دي مونثولون، وهو رجل مخادع ذو ماض ملفّق إلى حدّ كبير، وكان في المدرسة مع يوجين دي بوهارنيه، وكبير خدم الإمبراطورة جوزفين، وقد اتهم في سنة 1814 باختلاس أموال عسكرية. وقد اصطحب هو وبرتران زوجتيهما، ورافق الزوجين برتران أبناؤهما الذين يتميّزون بالجمال.

كانت فاني برتران شابة ذكية أنيقة الملبس جميلة، ذات أنف روماني، وميول ملكية، وميل إلى العجرفة. وهي حفيدة نبيل أيرلندي، فايكونت ديلون الحادي عشر، وابنة الجنرال آرثر ريتشارد ديلون، الذي ولد في إنجلترا في سنة 1750، وبعد أن خدم في الجيش الفرنسي كحاكم لسانت كيتس وتوباغو في وقت لاحق، اختير نائباً عن مارتينيك في الجمعية الوطنية. أعدم بالمقصلة في سنة 1794 بسبب معارضته السلطات الثورية بعد عودته إلى فرنسا. وكانت والدة مدام برتران، لور غيرادون دي مونجيرالد، قريبة للإمبراطورة جوزفين.

ووفقاً لسيدة إنجليزية تعرّفت إليها في جزيرة القديسة هيلانة، كانت فاني برتران امرأة جذّابة جداً: «تتحدّث لغتنا بطلاقة، ولكن بلكنة فرنسية خفيفة. وكانت طويلة جداً، ذات انحناءة أنيقة تقلّل من طولها وتضفي جاذبية على مظهرها. عيناها سوداوان لامعتان جميلتان. وتتميّز بسلوك ملكة شابة معتادة على اجتذاب الإعجاب».

كانت تخشى من فكرة الذهاب مع زوجها إلى المنفى، بعد أن ذاقت حلاوة الحياة في فرنسا باعتبارها زوجة لمارشال القصر. لكن عندما

علمت بإرسال الإمبراطور إلى جزيرة في جنوب المحيط الأطلسي، وبأن زوجها الحبيب سيذهب معه، تغلّبت طبيعتها المتعاطفة عليها، وبعد أن غضبت في حجرة نابليون على متن السفينة «نورثَمْبِرلاند»، حاولت أن ترمي نفسها في البحر. لكن زوجها تمكّن من الإمساك بها قبل أن تسقط، وجهد في سحبها، ما أضحك الجنرال جان ماري رينيه سافاري، الذي أبحر مع الإمبراطور إلى بلايموث على متن السفينة «بِلْروفون» لكن لم يُسمح له بمرافقته إلى جزيرة القديسة هيلانة. وصاح سافاري ضاحكاً، «دعها تسقط! دعها تسقط».

لم يكن الجنرال سافاري الوحيد الذي يجدها مزعجة، فقد لقي ميتلند، قبطان السفينة «بِلْروفون»، مصاعب جمّة إلى أن «تخلّى عن القليل من الوقار الذي لا يزال محتفظاً به» فوصفها بأنها «امرأة شديدة الحماقة» وطلب منها عدم التحدّث إليه.

غير أنها سرعان ما تقدّمت إليه بالاعتذار ومدّت يدها قائلة إنها لا ترغب في ترك سفينته وبينهما سحابة هذا الخلاف إذ «يعلم الله» إذا كانا سيلتقيان ثانية. استسلم ميتلند على الفور لسحرها المتقلّب، معتبراً أنها في النهاية امرأة جيدة جداً، على الرغم من أنها ربما «متحمّسة قليلاً». ولا شك في أنها كانت زوجة محبة ومقدّرة لمشاعر الآخرين، وأماً حنوناً لأبنائها الذين تأخذهم معها إلى جزيرة القديسة هيلانة. وكان زوجها مخلصاً لها.

وفي الجزيرة استفادت إلى أقصى حدّ من نمط الحياة الذي كانت متردّدة في اعتماده، وأثبتت فعاليتها كصانعة سلام في العديد من المشاحنات الصغيرة المتكرّرة. ولم تخذلها روح الدعابة قط: عندما ولدت ابنها الثالث في الجزيرة، ذهبت لتقدّمه للإمبراطور قائلة إن آرثر الصغير هو

أول زائر فرنسي يأتي إليه من دون إذن اللورد باثورست، وزير الحربية والمستعمرات البريطاني.

لم تكن علاقة نابليون بها سلسة، على الرغم من بدايتها الجيدة. كانت ترافقه في النزهة في عربته وغالباً ما كان يزورها في المنزل، «هتس غيت»، الذي شغلته هي وزوجها. وكانت تتأخّر تكراراً عندما تأتي إلى العشاء مع زوجها، وقد وُبّخت ذات مرة بشدّة وعلناً بحيث سمع مارشان من زميله سان دنيس، وهو مملوك سابق يدعى عليّاً، أنها «فوجئت وأن المنديل الذي تستخدمه شهد على الدموع التي تدفّقت من عينيها». غير أن التوبيخ لم يشفها تماماً من عدم الدقّة في المواعيد. وفي مناسبة واحدة على الأقل، زادت الطين بلّة بترك المائدة باكراً لرؤية بعض أصدقائها الإنجليز. وقد أشيع أن الإمبراطور انزعج منها لأنه حاول التقرّب منه لكنها صدّته. وبعد ذلك قيل إنه وصف مدام برتران بأوصاف مهينة قائلاً: «إنها عاهرة نامت مع جميع الضبّاط الإنجليز الذين مرّوا ببيتها... وأنها أحطّ النساء». وذهب إلى حدّ إبلاغ زوجها أن عليه أن يدعها تخرج إلى الشوارع كعاهرة. وقال شيئاً مهيناً لمدام برتران نفسها التي غادرت الغرفة ثانية والدموع في عينيها. وعندما اعتدل مزاجه في نهاية حياته قال إنه نقم عليها لأنها رفضت أن تصبح عشيقته.

وانتهت علاقة نابليون بزوجة الجنرال دي مونثولون نهاية غير سعيدة أيضاً.

كانت ألبين هيلن دي مونثولون امرأة مرحة وليّنة العريكة، تتسم بالطول والرشاقة، وتكبر زوجها بثلاث سنوات، وتتميّز بالموهبة والجاذبية. وعلى غرار مدام برتران كانت مصمّمة على جعل حياة المنفى الذي أصبح الآن

قدرها مستساغة قدر الإمكان. تزوّجت مرتين من قبل، المرة الثانية من متموّل سويسري، البارون روجيه، لكنها سرعان ما طلقته لتتزوّج من دي مونثولون. كانت عذبة الصوت وتعزف على البيانو بمهارة تزيد على المتوسط. وكانت مغناجاً، لذا سرعان ما أشيع أنها على علاقة بملازم شاب وسيم، باسيل جاكسون، شوهد بصحبتها ووصفته بأنه «شاب لطيف لكنه بسيط ويفتقر إلى الذكاء». ومن الواضح أن الإمبراطور انجذب إليها بقوة. فأغضب ذلك الجنرال غورغو الغيور الذي كما قال نابليون: «كان يريد كل يوم أن يضاجعني رغماً عني» و«يحبني كما يحبّ الحبيب خليلته.. إنه غير معقول». وبعدما استمع نابليون لأحد تهجّمات غورغو على مدام دي مونثولون، انفجر غاضباً: «ما الخطأ في أن أنام معها»؟

«لا شيء يا سيدي، لكنني لا أتصوّر أن لجلالتك ذوقاً رديئاً».

بعد وصولهم إلى الجزيرة، كما قال غورغو: «أراد الإمبراطور أن يطمئن إلى أحوال المرافقين له، لذا غادر غرفته بعد ارتداء ملابسه وتوجّه على الفور إلى مسكن مدام دي مونثولون الذي لا يفصله من مسكنه سوى غرفة صغيرة. دقّ بلطف ففتحت الكونتيسة الباب. أبدت هي والجنرال حرجهما من المفاجأة والفوضى القائمة بسبب الانتقال. وقالت الكونتيسة، 'سيدي، هذه غرفة الاستقبال وغرفة نومي في آن معاً'. شكرهما الإمبراطور لقناعتهما بالقليل ليكونا إلى جانبه».

أصبح هذا الجوار موضوع نزاع بالنسبة إلى مدام مونثولون التي اضطرت إلى تحمّل إزعاجه في حين يوجد بيت مدام برتران وأسرتها على بعد ميل. وبعد مضي بعض الوقت، لم تعد المرأتان تتحادثان معاً إلا نادراً، وأصبحت مدام برتران تشير إلى ألبين دي مونثولون باسم «تلك المرأة»، وكلاهما يخشى الأمسيات التي تضطران فيها إلى لعب الورق مع نابليون

الذي كان غشّه المعتاد يغيظهما.

كان مقرّ الإمبراطور الأول في جزيرة القديسة هيلانة، بورتيس هاوس، مزعجاً. فهو مبنى مليء بالحشرات يواجه الشارع مباشرة، من دون حديقة أو باحة، حيث أقام آرثر ولزلي، دوق وِلنغتون في المستقبل، في طريق العودة من الهند قبل عشر سنوات. عندما رافق الإمبراطور إلى هناك، تجمّع حشد كبير صامت من سكان الجزيرة، وعبيدهم السود والعمال الصينيون، لإلقاء نظرة عليه على ضوء المصابيح. وكان في عدادهم فتاة حيوية وصخّابة في الرابعة عشرة من العمر تدعى بتسي بالكومب، ابنة ويليام بالكومب، وهو وكيل ومموّن لشركة الهند الغربية وابن غير شرعي للأمير الوصي- على ما قيل عنه كما قيل عن أشخاص آخرين عديدين. وقد كتبت بتسي: «كانت أولى الأفكار لديَّ عن نابليون أنه غول ضخم أو عملاق، وارتبط في ذهني بكل ما هو رديء ورهيب».

ووصفت بتسي تلك الليلة قائلة: «كان الليل قد حلّ تقريباً عندما وصل إلى المرسى، وبعد ذلك بوقت قصير، اقترب مركب نزل من السفينة 'نورثَمْبِرلاند'، وشاهدنا شخصاً ينزل منه على الشاطئ، وقد أبلغنا أنه الإمبراطور، لكن العتمة كانت شديدة فلم أميّز ملامحه. مشى بين الأميرال والجنرال برتران، وكان يرتدي معطفه، فلم أستطع أن أرى إلا بريق النجمة الماسية المتدلية على صدره بين الحين والآخر».

عند مغادرة بورتيوس هاوس، نُقل الإمبراطور إلى منزل عائلة بتسي، برايرز، إلى حين إعداد «لونغ وود هاوس»، وهو البيت الذي أمضى فيه ما تبقى من فترة نفيه، وتوسيعه لاستقباله. نظرت بتسي من ربوة على الفريق الذي يقترب من بيتها علٰى الجياد، وأملت في أن تعرف هوية

الشخص الذي يرتدي «معطفاً رمادياً وقبّعة مثلّثة صغيرة». لم تستطع بتسي بالكومب أن تميّز الإمبراطور في البداية من بين الراكبين. لكن عندما اقترب، تمكّنت من تمييز الشخص القصير إلى جانب السير جورج كوكبورن «الذي يتسم بالطول والهيئة الأرستقراطية. كان شاحباً جداً، وظننت أنه ذو ملامح وسيمة جداً، رغم برودته وتجهّمه. جلس على أحد كراسينا، وبعد تفحّص شقّتنا الصغيرة بنظراته الحادّة، أثنى على أمي لحسن حال المنزل. وعندما بدأ بالتحدّث، أزالت ابتسامته الساحرة وسلوكه اللطيف كل أثر للخوف الذي كان يعتريني حتى الآن تجاهه». وتابعت تقول، «تفحّصت وجهه. لم أشاهد البتة وجهاً ملفتاً للنظر أكثر من وجهه. ثمة العديد من اللوحات التي تظهر شبهاً كبيراً بنابليون، لكن ليس بينها لوحة تصوّر بالضبط ابتسامته وتعبير عينيه. وهذا ما يجعله ساحراً».

أعجب ألكسندر، شقيق بتسي بالكومب الذي يبلغ عمره أربع سنوات، بالزائر ووجده «رجلاً لطيفاً». وفي سنوات لاحقة، يذكر أنه جلس على ركبته وأخذ يلعب بأختامه، وأن نجمة خدشته، كما يذكر معطفه الأخضر وكرشه الكبير، وأنه كان يقرصه من خده.

بقي نابليون في «برايرز» شهرين تقريباً، وكان ينام في منزل صيفي ذي نوافذ كبيرة يستخدمه الأطفال غرفة للعب، وشغل لاس كاس وابنه عليّة صغيرة، في ما كان خادماه، مارشان وسان دِنيس، ينامان عند الباب على فراش جُلب من السفينة «نورثَمبَرلاند».

أمضى نابليون كثيراً من وقته في «برايرز» يملي رواية حياته الماضية على لاس كاس، حيث كان يعيش في الماضي، كما قال لاس كاس، وينهل من موارد ذاكرة مدهشة محاولاً خلق أسطورة في ما يمشي جيئة وذهاباً في سرادق أقيم له على المرج الأخضر. وأعطاه لاس كاس أيضاً دروساً

في الإنجليزية، لكنها لم تكن ناجحة. وقد قال أحد الضباط على متن «نورثَمبَرلاند» إن نابليون لم يستطع أن يلفظ أسماءهم لفظاً صحيحاً حتى بعد مرور أسابيع على متن السفينة.

في الأمسيات، كان نابليون يسأل لاس كاس إذا كان آل بالكومب بمفردهم. وإذا كانوا كذلك ينضمّ إليهم شاكراً لهم عدم اضطراره أن يمضي ليلة أخرى برفقة لاس كاس الذي دفع سلوكه الوقور نابليون إلى أن يمازحه بأحد ألاعيبه التي تروق لمن لا يملكون روح الفكاهة، فيقفز عليه ويمسك بخنّاقه ويصيح: «مالَكَ أو حياتك أيها الأرستقراطي».

في بعض الأمسيات في البرايرز، كانت بتسي تغنّي، وغنّى هو نفسه «يحيا هنري الرابع» بصوته النشاز، ثم أعلن أن الموسيقى الإنجليزية هي الأسوأ في العالم: الإيطاليون، والإيطاليون وحدهم هم الذين يفهمون كيف يؤلّفون الأوبرا. وقال إن جيوڤاني بيسيللو، الذي كان قائد الفرقة الموسيقية لكاثرين الثانية في سان بطرسبرغ وأدار الموسيقى لاحقاً في كنيسة نابليون، هو المؤلّف الموسيقي المفضّل لديه.

من الواضح أن بتسي أثارت اهتمامه، فطُلب منها الاحتفاء به لأنها تجيد الفرنسية أكثر من الآخرين، إذ كان لديها مربية فرنسية وتعلّمت الفرنسية في المدرسية في إنجلترا:

سألها عن هذا التعليم الإنجليزي:

ما عاصمة فرنسا؟

باريس.

وإيطاليا؟

روما.

وروسيا؟

بطرسبرغ الآن، وموسكو سابقاً.

من أحرقها؟

لم تجب على الفور. كانت تعرف عن حريق موسكو لكنها لم تتذكّر من المسؤول عنه.

طرح السؤال ثانية.

لا أعرف يا سيدي.

فسأل، «من، من»، وأخذ يضحك: «معلوماتك جيدة جداً. أنا من أحرقها».

أعتقد يا سيدي أن الروس أحرقوها للتخلّص من الفرنسيين.

أطلق إحدى قهقهاته الزائفة، ونهض عن الكرسي وأومأ بإنهاء الحديث، ثم طلب من الفتاة أن تريه الحديقة. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، قرصها من أذنها إشارة إلى تأثّره.

وبمرور الأيام في برايرز، تزايد الودّ بين نابليون وبتسي. فأخذت تناديه بوني، ولم يفهم هذه الكنية، محتجاً بأنه ليس نحيلاً. وعندما سأل لاس كاس عن معنى الكلمة، أبلغ بأنها تعني نحيفاً.

دُهش مرافقو نابليون من الحرية التي تتعامل بها هذه الفتاة المرحة معه، كانت تمسك بيديه لتفحصهما عن قرب، وتتفحّص بشرة وجهه، التي وصفها ضابط بحري اسكتلندي رآه بعد بضعة أشهر بأنها تشبه المرمر «من دون أي تغضّن أو أثر لتجعّد»، وتتحسّس شعره الذي وصفته بأنه «بني داكن ناعم وحريري كشعر الطفل، وهذه النعومة تجعله يبدو قليل الكثافة».

علّق غورغو على ذلك قائلاً: «الأطفال ينادونه ‹سيد›، ويتصرّفون بطريقة صادمة. كانت بتسي اليوم مذهلة بسلوكها تجاه الإمبراطور. لكن

يبدو أنه لا يمانع في ذلك». ويبدو أنه لم يكن يتسامح مع ذلك فحسب، بل يستمتع به أيضاً. وكان يستمتع أيضاً بالألعاب الصاخبة التي يلعبها مع بتسي وشقيقتها، فيطاردهما في الحديقة مغمض العينين، ويركض خلفهما «في وضع بين التبختر والترنّح»، لاهثاً، وينقضّ على مخبئيهما في ألعاب «الغميضة»، ويركض بعيداً عنهما ويقفز فوق جدار منخفض عندما تطارده إحدى بقرات السيد بالكومب، ويخبّئ فستان بتسي عندما تهمّ بالذهاب لحضور حفلة ما يجعلها تبكي، ويدفعها إلى الهجوم عليه عندما يغشّ في ألعاب الورق.

كان يستمتع أيضاً برفقة السيدة بالكومب اللطيفة ويحدّق فيها بطريقته المثيرة للإرباك، ويقول لها إنها تذكّره كثيراً بالعزيزة جوزفين. صادفها ذات مرة وهو يقوم بجولته الصباحية المعتادة. كانت برفقة امرأة جميلة، السيدة ستيوارت، في طريق عودتها إلى الوطن قادمة من الهند. توقّف للتحدّث إليهما، وطرح على السيدة ستيوارت العديد من الأسئلة- كما يفعل عادة مع الأشخاص من يلتقي بهم للمرة الأولى- وأثنى على جمالها وصفاء بشرتها. سأل عن سبب وجودها في الجزيرة، وأسهب في الحديث عن عدم ملاءمة الرحلات البحرية الطويلة للنساء، وبحث عادات شبه القارة الهندية، وبما أنها اسكتلندية، اقتبس مقاطع من قصائد «أوسيان» لماكفرسون وألقاها بحاسمة. وبينما كانوا يتحدّثون في الطريق، اقترب منهم موكب من العبيد الذين ينقلون أحمالاً ثقيلة. أومأت السيدة بالكومب للعبيد مشيرة إلى أن عليهم الالتفاف حول الحافة. قال نابليون مبعداً حصانه ليفسح لهم في المرور: «راعوا أحمالهم». تعجّبت السيدة ستيوارت عندما ابتعدت قائلة: «يا إلهي، يا له من شخصية، ويا لملامحه المعبّرة! إنه مختلف كثيراً عن الفكرة التي كوّنتها عنه».

44

لونغ وود هاوس

في أثناء إقامة نابليون في «برايرز»، كان فريق كبير من البحارة يأتي كل صباح من جيمس تاون للقيام بالعمل اللازم لجعل لونغ وود هاوس ملائماً لاستقبال حاشيته. وكانت هذه الحاشية تضم الجنرال غورغو المشاكس، والكونت دي لاس كاس وابنه، والجنرال دي مونثولون وزوجته وخادمتهما، وخمسة خدم خصوصيين، ورئيس خدم، وطاهياً، ومضيفاً، وحاجباً، بالإضافة إلى عشرة خدم آخرين، اثنان منهم صينيان، وعشرة جنود وضابط بريطاني يتحقّق مرتين في اليوم من أن نابليون لا يزال في البيت.

لم يجد الخدم الخصوصيون في نابليون سيداً تسهل خدمته إلى أن اعتادوا أساليبه التي تحتاج إلى جهد. على سبيل المثال، فوجئ لويس مارشان عندما رمى سيّده الفنجان والصحن على الحائط لأنهما من الطقم غير المراد، واعترف أنه خاف منه في بادئ الأمر. لكنه قرّر في النهاية أن هناك «أسباباً وجيهة دائماً لغضب نابليون» وأنه سيّد يراعي الآخرين على العموم، مع أنه لا يمكن التنبّؤ بتصرفاته.

الحق يقال إن الإمبراطور «لم يعتد أن يقول إنه راضٍ. بل إنه بدا قليل الاهتمام بالجهود التي تبذل لإرضائه، أو تعامل معها من دون اكتراث. لكنه إذا لاحظ أنه أساء إلى شخص بعد تأنيبه، فإنه يتوجّه نحوه ويقرصه من أذنه أو يشدّها. ويعني ذلك الصفح عن كل شيء». مع ذلك لم يستطع مقاومة مداعبة خدمه بخبث عندما يكون في مزاج يدفعه لذلك. فعندما حملت زوجة خادمه سان دنيس، مربية أطفال برتران، أوحى بأنه ليس

الوالد. فقال له «أتعتقد أن الطفل طفلك»، وادعى أن «صينياً بشعاً» كان يمارس الجنس مع السيدة سان دنيس من وراء ظهره. «سيظهر الأمر عندما تلد طفلاً صينياً بشعاً». وبعد ذلك أطلق نابليون إحدى قهقهاته المجلجلة المصطنعة.

شغل معظم أفراد حاشية نابليون غرفاً صغيرة مظلمة، الطبقات العليا بأكملها تقريباً، لكن نابليون زوّد بشقة كبيرة، مع أنها ليست واسعة جداً، تضم مكتباً وغرفة طعام ومجلساً وغرفة نوم وحمّاماً وغرفة بلياردو شغلت فيها الطاولة المكان بأكمله تقريباً ولم يكن فيها متسع لأن يحمل المرء العصا من دون أن تضرب بالحائط، وذلك عيب لم يؤثّر في نابليون الذي كان يفرك الكرات باستمرار وهو يعاين الخرائط المبسوطة على الطاولة، ويرميها فوق اللبّاد ويضربها بعنف بحيث لم يمض وقت طويل حتى تشوّهت.

لم يجد نابليون أي سبب يدعوه إلى الرضا عن المسكن الذي قدّم له في لونغ وود، على الرغم من أنه حصل على مساحة أكبر بكثير مما حصل عليه أي من أفراد حاشيته، ولا عن الموقع المكشوف للمنزل، أو جوه الرطب، أو رائحته التي تشكّل مزيجاً من الدهان والعفن الفطري الشبيه برائحة السفينة «نورثَمْبِرلاند» التي تسبّب له الغثيان. كان في قصوره في فرنسا يطرد الروائح الكريهة بحرق الألوة في أوعية فضية في غرفة نومه. غير أن رائحة لونغ وود– وهي رائحة لا تنبعث من الفحم المحروق التي ينفر منها على وجه الخصوص– لم تكن العيب الرئيسي: فكما قال خادمه مارشان: «لم يكن يوجد فيه ماء جارٍ أو يتمتع بالظلّ» وكان «معرّضاً للرياح الجنوبية الغربية السائدة». كما أن المناخ القاسي والشديد التقلّب للجزيرة لم يكن

مواتياً للصحة. فقد أفاد باري أوميرا، الطبيب الأيرلندي على متن السفينة «بِلْروفون» الذي أصبح طبيب نابليون أن «أكثر الشكاوى شيوعاً هي الزحّار، والتهاب الأمعاء، وعداوى الكبد، والحمّيات، وجميعها من النوع العنيف على العموم... ونتيجة لهذه الأمراض، فقدت الكتيبة الثانية التابعة للفوج 66 في الأشهر الاثني عشر أو الثلاثة عشر الأولى بعد وصولها إلى جزيرة القديسة هيلانة، 56 رجلاً من أصل 630 رجلاً، أي بنسبة واحد إلى أحد عشر».

لم يكن لونغ وود هاوس نفسه مساعداً على العيش الصحي أيضاً، بسبب ازدحامه ورطوبته وكثرة الجرذان فيه التي تتراكض على الأرضيات وفوق أقدام ضيوف مائدة نابليون، وتقرض أطراف الخدام المكشوفة في فراشهم، وذات مرة عضّت الإمبراطور في يده. وقال مارشان: «كانت تخرج في الليل من ثقوب أحدثتها ومن كثرتها تبدو الأرض سوداء. وتتسلّق الجدران ثم تقفز على قطع اللحم المتدلية من السقف على خطافات حديدية». بل إنها قفزت على مقلاة كان دنيس يحمّيها على الموقد و«حملت المحتويات بما فيها الملعقة». كانت الثقوب ترقع بقطع من الصفيح، لكن القوارض المحتشدة سرعان ما تجد سبلاً أخرى لدخول الغرف. وقد أجريت مسابقات لقتل أكبر عدد منها في ليلة واحدة.

كانت البراغيث، إلى جانب الجرذان، من الآفات المنتشرة في الجزيرة. وقد كتبت السيدة يونغهَزبَند، التي كان زوجها ضابطاً في الجيش في الجزيرة: «إذا خرجت للمشي على العشب أعود إلى البيت مغطّاة من رأسي إلى قدمي، واضطر إلى خلع ملابسي ورميها خارج الخيمة».

في لونغ وود هاوس، كان البقّ يختبئ في الناموسيات، واشتكت السيدة دي مونثولون من «حشرة مريعة» تحوم حول أشجار الصمغ في

الحديقة وتهاجم كل من يسير أو يركب بجوارها.

سرعان ما بدأت الحياة اليومية في لونغ وود تنتظم إلى حدّ ما. كان نابليون يستيقظ باكراً في غرفته البسيطة التي عُلّق على جدرانها صور مصغّرة لماري لويز وابنها، ملك روما. وعُلّقت لاحقاً صورة للإمبراطورة جوزفين رسمها مارشان الذي روى في مذكّراته كيف أنجزت:

> كان لدى الإمبراطور صورة للإمبراطورة جوزفين بين علب النشوق لا يعتبرها شديدة الشبه بها. وكان لدى الكونتيسة برتران صورة مزيّنة باللآلئ أعطتها لها الإمبراطورة، وقد رسمها سان وهي شديدة الشبه بها. سألها الإمبراطور عنها وطلب مني أن أصنع نسخة منها. ظننت أنه يمزح واعترضت، لكن الإمبراطور ألحّ عليّ. لديَّ إلمام بالرسم لكن ليس في وسعي نسخ صورة من رسم سان. بذلت ما في وسعي، وعندما عرضتها على الإمبراطور وجدها شديدة الشبه بها. فطلب مني أن أضعها في إطار وأعلّقها إلى جانب رفّ المدفأة، حيث بقيت إلى أن وافته المنيّة.

ما إن يستيقظ نابليون حتى ينادي على خادمه ليفتح النافذة ويحضر القهوة. ثم يحلق أمام مرآة يحملها الخادم ويغسل وجهه في المغسلة الفضية التي أحضرها مارشان من باريس. بعد ذلك يفرك أسنانه جيداً ويدعك الخادم جسمه بماء الكولونيا بشدّة بينما يحثّه نابليون قائلاً: «افرك بقوة أكبر» أو افرك كما أنك «تفرك حماراً». عندما يكون الطقس معتدلاً، يرتدي قبل أن يخرج بنطلوناً أبيض لركوب الخيل ومعطفاً ذا أزرار فضية

ويرتدي تحته وشاح جوقة الشرف. وإذا كان يريد الاهتمام بالحديقة قليلاً، يرتدي قميصاً قطنياً وبنطلوناً ويعتمر قبعة من القش ذات حافة عريضة كتلك التي يرتديها المزارعون.

ربما تأخذه جولة ركوب الحصان الصباحية إلى وادي فيشر حيث يوجد كوخ تشغله عجوز إنجليزية غريبة، الآنسة ماسون، التي تسرج ثوراً وتمتطيه، وعندما تقابل الإمبراطور تعامله باحترام شديد. كان هناك كوخ آخر قريب في وادي سايلنس تشغله أسرة تدعى وربنسون. وذكر مارشان أنها تضمّ ابنتين: «الكبرى في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، وكانتا كلما سلك الإمبراطور تلك الطريق تقتربان منه وتقدّمان له الأزهار. لم تكونا جميلتين، لكنهما لطيفتان... وكان الإمبراطور يحيّيهما بلطف... وبذلك حصلت الفتاتان على بعض الشهرة التي سرعان ما وصلت إلى جيمس تاون. ودفعت هذه الشهرة قبطان سفينة تجارية عائدة لشركة الهند الشرقية إلى طلب الزواج من الفتاة الكبرى عندما مرّ بجزيرة القديسة هيلانة. وقبل مغادرة الجزيرة، قدم الزوجان لرؤية الإمبراطور الذي هنّأ الزوج على اختياره وتمنّى أن تصبح العروس أماً لأسرة كبيرة رائعة».

كان اسمها ماري آن، وعلى الرغم من أن مارشان لم يمتدح مظهرها فإن آخرين وصفوها بأنها «جميلة جداً». لا شك في أنها عُرفت باسم «الحورية»، وكان نابليون يسمّي الوادي الذي تعيش فيه «وادي الحورية». وأكّد المفوّض الفرنسي في الجزيرة أن نابليون مال إليها كثيراً قبل زواجها من القبطان إدوارد بحيث أنه «قدّم لها وعداً» وأنها اعتادت الخروج بمفردها للمشي باكراً على أمل اللقاء به وإغوائه.

عندما جاءت مع القبطان إدوارد لوداع الإمبراطور، لاحظ نابليون على طريقته المحرجة أنها تشبه الراهبة وأن زوجها يشبه ابن زوجته،

يوجين دي بوهارنيه. «طرح عليه نابليون بعض الأسئلة الفظّة جرياً على عادته. فخجل البحّار، كرّمه الإمبراطور بشرب نخبه، وبعد ساعة ونصف على هذا المنوال غادر الزوجان. وما لبث نابليون أن تبعهما وأصرّ على معانقة الزوج لا 'الحورية'» على أساس أنه يشبه يوجين دي بوهارنيه.

ذات يوم في تشرين الأول/أكتوبر، زار نابليون برفقة، برتران ودي مونثولون، السير ويليام ديڤتون Deveton، وهو حاكم سابق لجزيرة القديسة هيلانة يقيم في بيت يدعى «ماونت بلزنت». دعاهم ديڤتون إلى منزله حيث تعرّفوا إلى ابنته السيدة غرينتري، وكان معها وليد وفتاتان صغيرتان. جلس نابليون على أريكة وأومأ إلى إحدى الفتاتين مخرجاً كتلة صغيرة من السوس من علبة يحملها معه دائماً ووضعها في فمها بيد، وشدّ على أنفها بيده الأخرى. ولقيت الفتاة الأخرى المعاملة نفسها.

دعا السير ويليام زوّاره إلى طعام الفطور. لكن برتران الذي قام بدور المترجم على الرغم من ضعفه في الإنجليزية، قال إنهم أحضروا معهم بعض الزاد ويودّون تناول الفطور في الحديقة. افترض ديڤتون أن ضيوفه يفضّلون تناول الفطور في المنزل، فاصطحب نابليون إلى غرفة الطعام حيث أشار إلى طبق كبير من الزبد على الطاولة. ففاجأ نابليون مضيفه بشدّ أذنه على سبيل إبداء الامتنان له.

تقرّر كحلّ وسط أن تتشارك أسرة ديڤتون وزوّارها طعام الفطور معاً على المرج الأخضر. كانت وجبة ممتازة: ضمّت لحماً محفوظاً، وفطائر ولحم ديك رومي، ودجاجاً بالكاري، وسلطة، وقطعة لحم غير محدّدة جلبها الفرنسيون معهم واعتقد ديڤتون أنها فخذ خنزير مملّح أو لحم خنزير، وبرتقالاً، وتمراً، وجوزاً. وقدّمت الشمبانيا بالإضافة إلى القهوة.

في أعقاب تناول الوجبة، عاد الجميع إلى غرفة الجلوس حيث استجوب نابليون مضيفه والسيدة غرينتري عبر سلسلة من الأسئلة المزعجة، وقام برتران بالترجمة غير المتقنة: هل ثمل السير ويليام قط؟ إنه يستمتع بكأس من الخمر في المناسبات. هل يثمل السيد غرينتري مرة في الأسبوع؟ لا. مرة كل أسبوعين؟ لا. ربما مرة في الشهر؟ لا. مضت بضع سنوات لم ترَ السيدة غرينتري زوجها ثملاً. بعد ذلك غادر نابليون مكتفياً بالأسئلة عن عادات الشرب لدى عائلة مضيفه ومعبّراً عن استهجانه لوقارهم.

عندما يعود الإمبراطور من جولته، تقدّم وجبة الغداء له في غرفته بعد أن يخلع ملابسه ويرميها على الكراسي أو الأرض، أو في الحديقة إذا سمح الطقس بذلك. لا يستغرق تناول الوجبة البسيطة، التي تتكوّن من حساء وطبق رئيسي من الدجاج أو لحم الضأن مع الفاصوليا وكأس من النبيذ الممزوج بمقدار وافر من الماء، أكثر من عشر دقائق أو ربع ساعة.

بعد الفراغ من الطعام وتناول فنجان من القهوة الساخنة جداً، يجلس نابليون للنوم أو للإملاء عارضاً ذاكرته المدهشة للوقائع والأرقام. وبعد ذلك يأخذ حمّاماً لا يقل سخونة عن القهوة، ويتحدّث إلى جنرال واحد أو أكثر أو يقرأ كتاباً وهو ممدّد في الماء. كانت الكتب متناثرة حول المغطس وكذلك حول السرير. وكما قال أحد الأطباء: «ما دام الإمبراطور حاملاً كتاباً في يده فإنه لا يحتمل أن يقاطعه أحد. يُسمح للكتب الجيدة بالانزلاق على الأرض، وتدفع الكتب المتوسّطة جانباً بازدراء، أما الكتب الرديئة فترمى على الحائط».

وجرياً على عادته السابقة في أوروبا، كان يمكث في المغطس لمدة ساعة أو تزيد، وذات مرة طلب من الخادم أن يعيد ملء المغطس لمدة أربع

ساعات ونصف. وبعد ذلك، يساعده مارشان أو سان دنيس في ارتداء ملابسه، وربما استقبل زائراً قبل العشاء.

كانت كليمنتينا، ليدي مالكولم، زوجة خليفة كوكبورن كحاكم عام لجزيرة القديسة هيلانة، أحد هؤلاء الزوّار الذين يستمتع برفقتهم. وهي الابنة البكر لويليام فولرتون إلِفِنْستون Elphinstone، أحد مديري شركة الهند الشرقية، وابنة أخت لورد كيث. في مذكّراتها عن القديسة هيلانة *Diary of St Helena*، قدّمت وصفاً لمظهر نابليون في ذلك الوقت:

> شعره... بني مائل إلى السواد، خفيف عند الجبهة، ومقصوص... يبدو متسخاً. ذو عينين زرقاوين فاتحتين أو رماديتين، وجبهة عريضة، وأنف عالٍ وشفة عليا رقيقة، وأسنان جيدة منتظمة لكنها صغيرة (نادراً ما يظهرها)... وبشرة شاحبة، وعنق قصير جداً. وبخلاف ذلك، فقد بدا شكله متناسقاً، لكنه أصبح سميناً جداً. يداه قصيرتان تنتهيان بأصابع مستدقّة وأظافر جميلة، وساقاه وقدماه جيدة الشكل.

كان يرتدي «معطفاً قديماً رثاً أخضر اللون ذا قبة وسوارين مخمليين خضراوين وأزرار فضية... ونجمة فضية من وشاح جوقة الشرف، وصداراً أبيض، وجوارب بيضاء حريرية، وحذاء ذا بكلة بيضاوية ذهبية».

دهشت «بلطف تعابيره» وهو ما «يتعارض مع الشراسة» التي توقّعتها. ولم تشاهد ما يدل على مقدرة عظيمة.

علّق زوجها على صغر قدميه وثخانة يديه («مثل النساء»). وكان ثدياه كبيرين، كما أشار أحد أطبّائه في وقت لاحق، وربما لا يقلان حجماً عن ثديي امرأة، كما كان رقيق شعر العانة.

لاحظ لاس كاس أن «الإمبراطور يظهر امتلاء غير معهود في جنسنا. وكان يعلّق أحياناً على ذلك بابتهاج». وأشار الطبيب فرانشيسكو أنتومارشي إلى أنه كان يلفت الانتباه إلى مظهر جسمه الأنثوي ودونما إحراج: «كما ترى يا دكتور، يدان جميلتان، وثديان مدوّران، وبشرة بيضاء ناعمة خالية من الشعر... يمكن أن تفخر السيدات الجميلات بصدر كصدري».

وذكر الأميرال مالكولم أن «بشرته غير عادية باعتبارها ذات لون فاتح مائل للاصفرار مختلف عن بشرة كل من التقيت بهم... وكان سلوكه لطيفاً ومهذّباً جداً... لديه إلى حد كبير ملكة ترك انطباع مواتٍ لدى من يتحدّث إليه. ويبدو لي أنه يحقّق ذلك بتوجيه الحديث إلى المسائل التي يفترض أن الشخص الذي يتحدّث إليه مطلع عليها والتي تكون في صالحه». وكان الأميرال وزوجته يستمتعان كثيراً بالتحدّث إليه، وهي الأحاديث التي تعمّدا تدوينها مشيرين إلى آراء نابليون في مختلف أنواع الموضوعات من شعر أوسيان إلى فوائد ضريبة الدخل.

غالباً ما يخرج عصراً في جولة بعربة تجرّها ستة جياد، جالساً بجانب السيدة دي مونثولون والسيدة برتران، بينما يجلس لاس كاس وبرتران في المقدّمة، ويركب غورغو جواده إلى جانب العربة. تسرع الخيول على الطرق الوعرة، محدثة جلبة، وتهزّ السيدتين، وربما تتوقّف عند «هَتس غيت» حيث يترجّل نابليون للعب مع أطفال برتران الذين يحب رفقتهم. وقد وصف الخادم سان دنيس يوماً ذهب فيه نابليون إلى منزل آل برتران لتناول الطعام. وقال «إن الغداء كان جيداً، لكن عند نهايته بدأ الأطفال يتراشقون بكرات الخبز. فأخذ الإمبراطور الطفل الأصغر وأجلسه على ركبتيه وأخذ يقبّله ويغيظه بشدّ أذنيه».

في بعض الأحيان يتوجّه إلى «هَتس غيت» لمشاهدة المواكب وسباقات الخيول التي ينظّمها جنود الحامية البريطانية، ويسترق النظر من خلال ثقوب صنعها في مصاريع نوافذ العربة، كما فعل في مصاريع نوافذ لونغ وود، بحيث يمكنه المراقبة من دون أن يُرى. وأحياناً يمشي من «هتس غيت» تحت الأشجار نحو نبع ماء كان قد أخبر برتران أنه يحب أن يدفن عنده «إذا بقيت جثّته مع أعدائه عند وفاته».

كانت السيدتان برتران ودي مونثولون في عداد من يرافقه في جولات المشي، ويستبد بهما التعب بينما يستطرد نابليون في الحديث عن الماضي وأي موضوع آخر يثير إعجابه. وذكرت السيدة دي مونثولون: «إذا أصابنا إرهاق شديد، نحاول التسلّل نحو مسار جانبي، لكن الإمبراطور يلاحظنا مهما توخّينا الحذر، حتى عندما يكون مستغرقاً في حديثه. ربما يتقدّمنا ببضع خطوات لكنه يلاحظ دائماً اختفاءنا ويعلّق قائلاً، 'ها هي السيدة دي مونثولون (أو أحد آخر) تتسلّل مبتعدة'».

بعد المشي يجتمع أفراد الحاشية في غرفة الجلوس قبل العشاء، الرجال بزيّهم الكامل، والنساء بفساتين مقوّرة جلبنها معهن من باريس. كانت الأجواء الرسمية تسود المكان، فلا يجلس أحد في حضرة الإمبراطور من دون إذن. ولا يتحدّث إليه أحد إلى أن يُفتح موضوع للنقاش. وذات مرة رأت السيدة دي مونثولون غورغو يكاد يسقط مغشياً عليه من التعب وهو يستند إلى الباب ويتفرّج على مباراة في الشطرنج. لم يكن يُسمح لأي خادم بالتحدّث إليه بشيء من الألفة. وعندما خاطبه سان دنيس ذات مرة قائلاً «أنت» بدلاً من «صاحب الجلالة»، ركله نابليون بسبب «هذه الوقاحة وقلّة الاحترام» وسبّه «بأقذع وأحطّ الألفاظ».

عند حضور الإمبراطور إلى غُرفة الجلوس، ينهض الجميع ويبقون

واقفين إلى أن يُسمح لهم بالجلوس للعب الورق أو الشطرنج الذي يلعبه بتململ وافتقار للمهارة كما هي عادته، ويغشّ من دون أسف. قالت دي مونثولون: «كان يصرّ على أن لمس قطعة ما يحتّم اللعب بها. لكن ذلك ينطبق على الخصم لا عليه. ولديه دائماً سبب وجيه لذلك. وإذا علّق أحدهم على ذلك اكتفى بالضحك».

عند الموعد المحدّد، يأتي فرانشسكو سيبرياني، رئيس الخدم، بزيه الأخضر والفضي الذي يرتديه جميع الخدم، ليعلن أن عشاء صاحب الجلالة جاهز.

يتقدّم نابليون بعد الجميع إلى غرفة الطعام، ويجلس وظهره إلى المدفأة، ويقف خلف كرسيه خادمان، سان دنيس ومارشان. وبعد ذلك يشير إلى كرسي السيدة برتران، إذا كانت حاضرة، على يمينه والسيدة دي مونثولون على يساره، وكلاهما بثياب أنيقة، على الرغم من استمتاع نابليون بالقول على طريقته المغايظة إنهما تبدوان مثل غسالتين. وتقول السيدة يونغهَزبَند إنها ذات ليلة كانت في عداد الضيوف: «فلم ينبس أحد ببنت شفة طوال العشاء... وساد الحضور صمت مطبق معظم الوقت».

كان الطعام الذي يعده طاهي نابليون الخبير، لا باج، «رائعاً جداً» على حدّ تعبير العميد السير جورج بِنْغهام، قائد الحامية: «ويقدّم بطريقة رسمية. غير أن الأشخاص [المقيمين] مع نابليون يتحدّثون همساً في الغالب، وكان ينهمك في تناول الطعام ولا يتحدّث إلى أحد إلا نادراً. وقد ملأ الغرفة بالشموع بحيث أصبحت حارّة كالفرن».

وتابع بِنْغهام وصفه للأمسية بعد أن عاد الجميع إلى غرفة الجلوس، «كانت فناجين القهوة [سيڤر] من أجمل ما رأيت. يوجد على كل فنجان مشهد مصري [رسمه دومينيك ڤيڤان دينون]، وعلى الصحن الصغير

صورة لبعض البكوات أو شخصيات مميّزة أخرى. وربما يكّلف الفنجان والصحن الواحد خمسة وعشرين جنيهاً في فرنسا».

بعد العشاء يقام مزيد من مباريات الورق في غرفة الجلوس، وكانت لعبة البيكيت الأكثر شيوعاً، أو تغنّي السيدة دي مونثولون بمصاحبة البيانو، أو يبدأ نابليون حديثاً أحادياً عن الماضي أو عن موضوع يثير اهتمامه أكثر من اهتمام المستمعين ويصيبهم بالملل، أو الأسوأ من ذلك يقرأ بصوت مرتفع– بلكنته الغريبة وأخطاء اللفظ– من كورنيل أو ڤولتير أو راسين، أو موليير، أو أوسيان أو هوميروس، أو من ترجمة لكتاب هيوم «تاريخ إنجلترا» الذي أكّد اعتقاده بأن الإنجليز «عرق متوحّش» يعامل رجالهم النساء معاملة مخزية. وكان يواصل القراءة برتابة إلى أن «يستبدّ التعب أو الضجر بنا جميعاً»، كما قال غورغو.

وذكرت السيدة دي مونثولون: «لم يكن لديه أذن للقوافي، وغالباً ما يضيف مقطعاً أو اثنين إلى بيت من دون أن يدرك ذلك. في أثناء تلك القراءات، تكبت السيدات تثاؤبهن، لكن إذا لاحظ إحداهن تقوم بذلك، فإنه يناول الكتاب للمذنبة ويطلب منها المتابعة. وبعد ذلك ينام على الفور».

ذات مرة تشجّعت السيدة دي مونثولون فساعدت غورغو في إخفاء الكتاب الذي كان يقرأ فيه نابليون في ذلك الوقت. وذات مرة تعرّضت السيدة برتران للتوبيخ لأنها غفت. فقال منزعجاً: «أنت نائمة يا سيدتي».

– «لا يا سيدي».

– «كم الساعة؟ هل يهم ذلك؟ لنذهب إلى النوم».

عندئذ يكون الليل قد انتصف على العموم. في بعض الأحيان يحدث ذلك بعد أن يتحدّث ثلاث ساعات متواصلة. يغادر ضيوفه الغرفة

شاكرين. يقوم مارشان بمساعدته في خلع ملابسه، ثم يأتي غورغو أو برتران ليقرأ له قبل أن ينام. ولا يلبث أن يستيقظ وينادي خادمه ويبدأ الحديث، وفي بعض الأحيان يتجوّل في الغرفة كالنمر في قفص. ويقول سان دنيس: «غالباً ما يُعامل الليل كالنهار أو النهار كالليل. بل إنه يتصرّف كشخص أصابه الملل فيفعل كل ما في وسعه ليمرّ الوقت بسرعة».

45

ماك وسلطانة

«يا له من غبي أحمق لعين، إنه معتوه»

في 4 نيسان/أبريل 1816، وصل حاكم جديد إلى جزيرة القديسة هيلانة، يتسم بانعدام حس الفكاهة والتحذلق ويدعى سير هدسون لاو Hudson Lowe. كان في الخامسة والثلاثين في ذلك الوقت، وهو ابن ضابط في الجيش. وقد أبعده دوق ولِنغتون باعتباره «أحمق» واعتبر تعيينه «اختياراً سيّئاً جداً لأنه رجل يفتقر إلى الثقافة والرأي، بل إنه غبي لا يعرف شيئاً عن العالم، ولذلك فإنه شكّاك وغيور». كان يتميّز بحمرة بشرته والشعيرات المحمرّة الخارجة من منخريه وأذنيه. وكان وجهه يمتقع عندما يغضب، وقد وصفه نابليون بأنه جامع ضرائب.

لم تكن سيرته المهنية مميّزة حتى الآن، لكن سلوكه جافٍ ومتحفّظ ولا يعطي انطباعاً حسناً حتى لا نقول أكثر. في حين أن افتقاره إلى اللباقة وتدخّله المثير للشكوك، وارتيابه، وإصراره على احترام القوانين أثار غضب المنفيين الذين اعتبروها غير ضرورية. ورأى المفوّض الروسي في الجزيرة أنه «مصاب بلوثة».

لا بد من القول مع ذلك أن لاو، المستقيم وصاحب الضمير إلى حدّ الخطأ، تحمّل الكثير من نابليون وحاشيته الذين تدبّروا إرسال خطابات إلى إنكلترا للشكوى منه وكيل الاتهامات له، وهي اتهامات زائفة في الغالب ولا تقرّ بالجميل الممنوح لهم، مثل استخدام مكتبة الحاكم ورفضه طلباً تقدّمت به لندن لخفض مبلغ الثمانية آلاف جنيه الذي ينفق سنوياً على

صيانة لونغ وود.

قال نابليون لحاشيته: «قدّموا الاحتجاجات»، رافضاً أن يقدّمها بنفسه لأنه: «إما أن يقود وإما أن يلوذ بالصمت. أعلموا أوروبا بمقدار سوء المعاملة التي نلقاها كي تغضب... ربما يكون لوجودنا هنا بعض المزايا. الجميع في أوروبا يتطلّع إلينا. إننا شهداء قضية خالدة».

قابل لاو نابليون خمس مرات تكلّف خلالها على العموم حسن السلوك في وجه عدائية الإمبراطور، وهي عدائية ازدادت عندما عرف أن لو تولّى ذات يوم قيادة الحرس الكورسيكيين، وهي مفرزة من أبناء بلد نابليون الذين حملوا السلاح ضدّ فرنسا وأعلنوا أعداء لبونابرت.

في إحدى هذه المقابلات التي تحدّث فيها الرجلان بالإيطالية قال نابليون: «إذا كان اللورد كاسلريغ [وزير الخارجية] أمرك أن تسمّمنا أو تقتلنا جميعاً، فافعل ذلك بأسرع ما يمكن». فأجاب لو: «لم آتِ إلى هنا كي أهان يا سيدي».

دوّن الرائد غِديون غوركر Gorrequer، السكرتير العسكري للسير هدسون في يومياته، تفاصيل كثيرة عن الشجارات التي وقعت في مقرّ الحاكم، بلانتيشن هاوس، مثل العديد من المناسبات التي اتُّهم فيها بفقدان وثائق ليعود الحاكم فيجدها بين أوراقه من دون أن يقدّم أي اعتذار، والكثير من الأحداث التي تظهر مزاج لو المتنطّس والصعب و«الفظيع» في بعض الأحيان - «نوبات الغضب الشديد»، و«الغضب الوحشي»، و«لهجته وسلوكياته الثائرة»، و«كآبته وسلوكه المتجهّم»، و«سلوكه الغاضب (يتطاير الزبد من فمه) وتعابيره البذيئة»، و«اعتياده الغمغمة والسباب كاشفاً عن أسنانه»، و«تصنّعه»، و«خيلاؤه»، و«تفاخره». وقد كتب غورِكر مقدّماً مثالاً على تفاخره:

ذات يوم على الغداء أخذ ماك [لاو] يثرثر متحدّثاً عن المعدات الجديدة التي جاءته من لندن، ويتبختر مزهوّاً مثل الطاووس، وينظر [في المرآة] معجباً بنفسه وهو يزرّر [معطفه] ويفكّ أزراره... وظل يومين أو ثلاثة لا يفعل شيئاً على العشاء سوى إبداء الإعجاب بالأشرطة الزينية على كتفيه وسؤال دونا [ليدي لاو] عن رأيها بها.

ويقول غوركِر إن سير هدسون نادراً ما كان يوجّه كلمة طيّبة إلى العاملين معه أو زملاءه. فقد كان باري أوميرا «نذلاً لعيناً»، «أكبر نذل على الإطلاق، والكونت بالمان، المفوّض الروسي، «وغداً لئيماً» و«شخصاً قذراً وحقيراً»، و«وغداً نهّاشاً لعيناً، ونذلاً»، «ومغروراً»، «ومتطفّلاً وقحاً». وكان وليام بلاكومب «نذلاً لعيناً أيضاً». كان برتران ودي مونثولون يحتقران لو، أما الأميرال مالكولم، فكان «سبب جميع مصاعبه» والمشاكل مع «جارنا» [نابليون]. فلو لو يغادر مالكولم الجزيرة، لما كان عليه، كما قال، التعامل بنفسه مع مثل هذا الشيطان. وتلك الفكرة دفعت العقيد تشارل نيكول، آمر الكتيبة 66، إلى الغضب الشديد: «يا له من غبي لعين، إنه شخص أحمق».

على الرغم من أن لاو يظهر متسلّطاً وغير متسامح في يوميات غورِكر، فإن هناك أوقات لم يبدُ فيا كريهاً: فقد ألغى العبودية في الجزيرة على سبيل المثال، وعندما احتجّ نابليون بسخافة على عدم كفاية الغذاء الذي يوضع في صحنه، وأرسل صحنه الفضي إلى بلانتيشن هاوس ليباع في جيمس تاون، وضعه لاو في المخزن وأرسل قيمته، 250 جنيهاً، إلى لونغ وود من دون أن يفسّر مصدر النقود.

ذات يوم التقى نابليون بزوجة لاو عندما كان يسير في ساندي باي، ففوجئ بأنها جميلة وأخّاذة، كما فوجئ بمظهر سوزان جونسون، ابنة ليدي لو من زوجها الأول. ففي ما كان دي مونثولون يطلع سوزان جونسون على حديقة لونغ وود، لقيت «الإمبراطور وجهاً لوجه تحت تعريشة طويلة مغطاة بأوراق زهرة الآلام حيث كان يسير». ووفقاً لمارشان: «كان ردّ فعلها الأول الشعور بإحراج كبير لكن ذلك سرعان ما توقّف بسبب لطف استقبال الإمبراطور لها. قُدّمت الحلوى لها وأعطيت وردة بمناسبة زيارتها».

امتدح المفوّض النمساوي ڤون ستورمر أيضاً سوزان جونسون، كما امتدح أختها وأمهما. فبعد حضور إحدى حفلات ليدي لو في بلانتيشن هاوس، وصفها بأنها «ولدت مضيفة». وقال: «إنها تحبّ الاستضافة وتفعل ذلك بلطف. إنها تستقبل الضباط والموظفين المدنيين والزوّار البارزين، وهي حياة مجتمعها وروحه». ويميل لاس كاس إلى الاتفاق مع ڤون ستورمر، حيث رأى أن الليدي لو «لطيفة وجميلة وفيها شيء من ممثّلة». غير أن ثمة صورة مختلفة تبرز من صفحات يوميات الرائد الشديد الانتقاد الرائد غورِكر، الذي كان يراها كل يوم تقريباً باعتباره السكرتير العسكري لزوجها، إذ رأى أنها ليست أقل صعوبة من زوجها، وأنها تناوب بين السحر والفظاظة، فتعبّر عن المحبة لبعضهم، وتظهر البغض لكثيرين، وأنها متقلّبة جداً في صداقاتها وعداواتها. ذات يوم في كانون الثاني/يناير 1918 «عند النظر إلى صورة لابن نابليون» – كان زوجها قد صادرها – «وعندما قال [غورِكر] إن الجنرال بونابرت سيسرّ جداً عندما يراها، صاحت بأنها لن تسمح له بالحصول على شيء يمكن أن يمنحه

السرور أو البهجة. فتلك الصورة ستضيف المزيد إلى فخره وكبريائه».
وبعد أربعة أشهر أبدت «أسفها لحال بونابرت وقالت إنه يستحقّ الشفقة، مقارنة بين وضعه السابق وحالته الحاضرة، بينما قال سير لو إنه يستحقّ الازدراء أكثر من الشفقة ما أثار نقاشاً طويلاً بينهما. ونظر إلي كل منهما بالتناوب في أثناء حديثهما، كأنهما يشركاني في الحديث. رأيت أنه يجب النظر في المشاعر الشخصية لرجل (أبدى ثقته بكرم الأمة البريطانية وتوقّع اللجوء في إنكلترا) سلّم نفسه للإنجليز، وبدلاً من منحه الإقامة في إنكلترا وجد نفسه سجيناً في جزيرة القديسة هيلانة».

لم يكن رأي الليدي لو منسجماً تجاه الجنرال دي مونثولون كما الحال مع نابليون: «سرّت سلطانة [ليدي لاو] كثيراً من أدب ڤيريتاس [دي مونثولون]. كان ممتعاً ولطيفاً للغاية، وذكياً ونبيلاً جداً، لكن ذلك جاء بعد كل الإساءة التي أغدقتها عليه مراراً وتكراراً».

غيّرت رأيها بالطريقة نفسها في القسيس الأب بواتر ڤيرنون، الذي أظهرت قسوة شديدة على زوجته في البداية، لكنها مرّت بعد ذلك بفترة أسماها غورِكر فترة «التظاهر بالتديّن والذهاب إلى الكنيسة» وفيها وجّهت انتقاداً شديداً «لمجتمع الجزيرة بأكمله» لأنهم لا يتوجّهون إلى الكنيسة بانتظام مثلما تفعل، مع أنها لم تذهب في السابق إلى الكنيسة «أكثر من اثنتي عشرة مرة في ثلاث سنوات». وأصبحت في ما بعد شديدة الحماسة لڤيرنون و«إلقائه الذي يستحق الإعجاب (كان مملاً قبل فترة قصيرة)، وطيبته الظاهرة – بل إنه في الواقع نصف إله».

ومن الأشخاص الآخرين في الجزيرة الذين تباينت مشاعرها نحوهم بين الودّ والازدراء السيدة وينيارد، زوجة إدوارد بكلي وينيارد، زميل غورِكر:

> استهزأت دونا [ليدي لو] استهزاء غير لائق البتة بالسيدة ڤغنوبل [وينيارد]... فذكرت ثوبها، ومظهرها، وطريقة ارتداء ملابسها وتكوّم الأزهار على رأسها كما لو أنها رميت عليها، وكما لو أنها تسعى لأن تظهر بمظهر يثير أكبر قدر من السخرية. وتساءلت كيف في وسعها أن تجعل نفسها بهذا القدر من السخافة وسألتني إذا كنت قد لاحظتها. فأجبت أنني لا أذكر الثوب الذي ارتدته لكنني أعتقد أنها بدت في مظهر جيد. «أعجب كيف يمكنك أن تظن كذلك. فأنا لم ألحظ أي شيء أشدّ غرابة من مظهرها، وأنا واثقة من أنني لم أرَها في مظهر أسوأ من ذلك».

أما زوج السيدة وينيارد، فإن سلوكه «مسيء جداً»، ولم تلق ليدي لو معاملة «بمثل هذه الفظاظة» في حياتها. «غالباً ما يمرّ بقربي، عندما تغادران المكتب لتناول وجبة خفيفة، وينظر إليَّ مباشرة من دون أن يلحظني، أو ينحني أو يتحدّث إليَّ. وكثيراً ما بدا متجهّماً على العشاء ولم يكلّف نفسه عناء النظر إليَّ أو حتى الإجابة عندما أتحدّث إليه. وقد سمعت عدداً من الأشخاص يتكلّمون بالطريقة نفسها عنه».

كانت إساءة سلطانة إلى ڤيدال، سكرتير الأميرال روبرت لامبرت، أكثر صراحة. قالت: «لا يمكنني أن أحتمل ذلك الشخص المقيت. إنني أنفر منه. هل سيأتي هذا الرجل إلى هنا على العشاء يوم الاثنين القادم؟ كيف يواصل ماك دعوة أشخاص كريهين إلى مائدته»؟ لم تكن تعتقد أنها ستتناول العشاء على المائدة نفسها مع هذين الشخصين الوقحين [ڤيدال وحامل العلم النقيب توماس براون] اللذين «يتصرفان» بفظاظة شديدة

ويستمتعان بإزعاجها. تذمّر العقيد توماس ليستر، الضابط المناوب في لونغ وود هاوس، أمام أحد ضباطه الصغار من «شكواها المستمرّة من فظاظة الآخرين وعدم اهتمامهم بها».

المشكلة أن الكحول غالباً ما كانت تذكي انتقاداتها وإسرافها في المديح. وقد روى غوركر أنها تشرب قنينة براندي كل يومين أو ثلاثة أيام، وأنها تشرب قنينة كاملة من الشيري كل يوم أو نحو ذلك. واعتقد العقيد وينيارد أن سلوكها يرجع في الغالب إلى الشرب، لأنها عندما تكون واعية تبدو رزينة جداً، لكنها عندما تشرب بضع كؤوس فإنها تتحدّث ببذاءة مع السيدة وينيارد أو تسيء إلى أحاسيس غورِكر بالإشارة إلى عادة نابليون قرص الآخرين من أنوفهم ملاحظة «أن ذلك قد يكون خطيراً جداً في إنكلترا حيث يكثر الزكام».

ولا شك في أن الخمر فعل فعله في تودّدها الفاضح للكابتن دن تاف Den Taafe، أحد معاوني زوجها الذين يظهرون كثيراً في يوميات غورِكر:

> أبدت فظاظتها ثانية دفعة واحدة على العشاء، حيث تجنّبت التحدّث إليّ، وأخذت تعانق يام [دن تاف] الذي لم يفعل شيئاً في المقابل سوى التنفّس كخنزير البحر بعد قباعه المعتاد... طلبت سلطانة من يام الشرب معها، وأظهرت فظاظتها تجاه إيغو حينها وكذلك على الغداء في اليوم نفسه... دلّلت سلطانة يام وعانقته كثيراً، وبدت كأنها تستدرّ عطفه وهي تنظر إليه في ما تتحدّث إلى إيغو... وعندما جلس يام الذي تأخّر على العشاء أخذت تخاطبه على الفور بطريقة شديدة الودّ ولم تمنح إيغو منذ تلك اللحظة فرصة الدخول في حديث... عندما قدمت سلطانة إلى الغداء لم تكد تلحظ انحناءة إيغو وتوجّهت

نحو المائدة وهي تسأل عن يام بنبرة رقيقة... وعندما جاء يام ابتسمت برقة في وجهه. وعلى المائدة كان تصنيفها الدائم للخدم مزعجاً جداً إلى جانب صخبها الذي لا يتوقّف. وقد عاملت إيغو باستخفاف واضح، في حين أنها استقبلت بالابتسام يام الذي جاء عند الانتهاء تقريباً من تقديم الشوربة، وهو أمر اعتاد فعله، بينما تعتبره خيانة عظمى لو فعله إيغو.

كان سلوكها أيضاً متودّداً تجاه سير توماس ريد، نائب المعاون العام في جزيرة القديسة هيلانة، وقد أشير إليه باسم «نيني» في اليوميات. وقد جلست إلى جانبه ذات ليلة عندما كانت زوجة الطبيب جون توماس شورت تنشد بعض الأغاني التوسكانية لإمتاع الحاضرين. «سمعت سلطانة تسأل نيني الذي كانت تتودّد إليه طوال اليوم، 'ما اللغة التي يغنّون بها؟' فأجاب نيني 'الصينية' فأظهرت انفعالاً عاطفياً شديداً».

كانت شارلوت، ابنة الليدي لاو، متزوّجة من الكونت بالمين، المفوّض الروسي في جزيرة القديسة هيلانة. قبل زواجه فاجأ المفوّضين الآخرين باقتراح أن يحضر خياطة شابة من باريس لتسليته في منفاه. وقد علّق لورد روزبري في كتابه «نابليون: المرحلة الأخيرة» أن هذا الإجراء لا يتعارض صراحة مع الأخلاق في جزيرة القديسة هيلانة لأن القادة البحريين وفقاً لكتاب الحوليات التاريخية الفرنسية «كانوا يعيشون هناك مع عشيقاتهم، كما أن غراميات غورغو نفسه لم تكن محدودة ولا رفيعة المستوى».

إذا توخينا إعطاء الليدي لاو حقّها فإنها بذلت ما في وسعها لتعديل

قلّة ذوق سير هدسون. ويبدو أنها أشارت من دون أن تنجح إلى عدم لياقة دعوة «الجنرال بونابرت» إلى حفلة للاحتفال بمولد الوصي على العرش، وهي دعوة تلت دعوة أخرى - تشير إلى الإمبراطور نابليون باسم «الجنرال بونابرت» - تطلب منه القدوم «للقاء» الكونتيسة مويرا، زوجة الحاكم العام للهند. فعلّق نابليون أن آخر مرة سمع فيها لقب «الجنرال بونابرت» كانت في مصر، وأمر برتران بعدم الردّ على الدعوة «السخيفة». وكان تعليق الليدي لاو على ذلك: «لن يأتي إلى بيتي، وأعتقد أنه محقّ في ذلك».

46

المغامرات الجنسية

«ما الذي يعنيك إذا نمت معها»؟

من المتوقّع أن يلجأ الرجال إلى علاقات الحبّ غير الشرعية لتسلية الضجر المحبط في جزيرة القديسة هيلانة. فقد تحيّن لاس كاس غياب ابنه لينغمس في علاقات مع نساء سود. ووصف غِديون غورِكر الملازم بازل جاكسون، من هيئة الأركان، الذي أشيع أنه حبيب السيدة دي مونثولون، بأنه «نيغرا كيت الكثّة»، وهي خادمة سوداء في بلانتيشن هاوس. في حين ذاع صيت مغامرات الجنرال غورغو الجنسية وكانت موضوع العديد من المداخل في يومياته: «لقيت جارية جميلة وطلبت منها أن تلاقيني وأجابت بأنها ستفعل... وأقنعت امرأة من المدينة بأن تأتي إليَّ. قدتها إلى الفراش وأعطيتها ستة جنيهات... اخترت فتاة خلاسية جميلة... سألت في المدينة عن امرأة سوداء».

لم يكن من المستغرب أن يجد غورغو الحفلات في بلانتيشن هاوس «مملّة جداً». فقد اشتكى من أن «المرء يرقص مع شريكته مرتين على التوالي. قيل لي أن آخذ السيدة ديفونتان، زوجة أحد أعضاء المجلس، إلى العشاء. وبعد الرقصة الثانية توجّهنا إلى غرفة الطعام... جلست إلى جوار امرأة مسنّة في مكان مختلف عن ذلك المخصّص لي، وقد أحسنت صنعاً إذ يجب أن تكون وقحاً مع الوقحين... وبسبب الرقصات الرباعية الست لم أستطع الهرب إلا في الخامسة صباحاً. وقد أطلقت إحدى السيدات الشابات ضرطة مخيفة وهي ترقص».

أكّد أحد المقيمين في جزيرة القديسة هيلانة أن العديد من الشابات هناك كنّ «جميلات جداً». منهن لورا وِلكس، ابنة المقدّم مارك وِلكس، وهو حاكم سابق للجزيرة، وكان ذات يوم السكرتير الخاص للورد كلايف ومؤلّف تاريخ مِيسور الذي حظي باستحسان كبير. كانت لورا وِلكس «في أول تفتّح شبابها» كما كتبت سيدة رافقتها في أول زيارة لنابليون في لونغ وود. «وقد اجتمع سلوكها وتهذيبها وأناقتها ومظهرها المتواضع معاً لتشكّل أكثر الفتيات اللواتي رأيتهن سحراً وجمالاً، أو اللواتي اجتمعت بهن منذ ذلك الوقت في جميع سفراتي في أوروبا وآسيا وأفريقيا على مدة ثلاثين سنة».

أُخذ بها غورغو كثيراً، وصاح بعد لقائها لأول مرة: «هذه امرأة»! وأعجب نابليون بها كثيراً وأعطاها سواراً لتتذكّره عندما جاءت لوداعه. أبلغته أنها آسفة لمغادرة الجزيرة إلى إنكلترا حيث ستتزوّج العميد سير جون بوكان. فأجاب حزيناً: «آه يا آنستي، ليتني كنت أستطيع تبادل الأماكن معك».

لم تكن لورا وِلكس الفتاة البيضاء الوحيدة التي لفتت انتباه غورغو الشرس والمشاكس والشهواني. فقد وضع عينيه على السيدة دي مونثولون التي دعاه زوجها إلى المبارزة. ولاحق الآنسة نايس، المعروفة باسم «برعم الورد» بالإضافة إلى شقيقاتها، وبنات السيدة تشرشل. واستجاب راغباً لتودّد الزوجة الباريسية للبارون ڤون ستورمر، المفوّض النمساوي. فقد رغبت في الحصول على دبوس ذي رأس من الماس فقالت له بغنج: «يجدر بك أن تقدّم لي هدية عربوناً لصداقتنا - دبوساً مثلاً - إنه حاد كما تعلم لكنه يثبّت الأشياء معاً».

كان زميل البارون ڤون ستُورمر، المفوّض الفرنسي، المركيز دي

مونشينو، شجاعاً مثل الجنرال غورغو، أو يُزعم أنه كذلك على الأقل. وكان يكثر من التجوّل خلسة حول لونغ وود تنفيذاً للأوامر التي تقضي «بالاطمئنان إلى استمرار وجود الجنرال بونابرت في جزيرة القديسة هيلانة» - وهو واجب وجده هو وزملاؤه صعب الأداء، لأن السجين الخفي هدّد بإطلاق النار على كل من يدخل غرفته من دون إذن - عُرف مونشينو لدى زملائه باستعداده لقبول الضيافة وتردّده في ردّها. وكان يعتبر مهرّجاً على العموم ولا شك في أن سلوكه في الجزيرة أكّد حكم نابليون، الذي عرفه في الماضي، بأنه «أحمق» وماجن. وقد روّج الأكذوبة السخيفة بأن نابليون يقيم علاقة مع بتسي بالكومب. وهو نفسه انقضّ على امرأة تدعى السيدة مارتن، لكنها صدّته بغضب. وقد تفاخر بأنه استمتع بخدمات ما لا يقل عن أربعمئة سيدة إنجليزية، وكتب رسالة من ثماني صفحات يعلن فيها حبه الذي لا يموت لليدي لو. وعندما سمع نابليون عن محاولته مراودة السيدة العفيفة مارتن عن نفسها، علّق قائلاً: «أعتقد أن الكبش العجوز أراد انتهاكها».

كانت المغامرات الجنسية لخدم نابليون مسائل تثير اهتمام سيّدهم الذي يحب أن يبلغ عنها، ويتلذّذ بتفاصيلها ويستمتع بفرص إغاظة الضالعين فيها بادعاء أن لديه دليلاً على أن صديقاتهم متحللات من الأخلاق. كان لخادمه المخلص مارشان علاقة مع فتاة خلاسية، إستر ڤيزي، ابنة جراح إنجليزي، وولدت منه طفلاً، جيمس أوكتاف ڤيزي. ونام سان دينيس، زميل مارشان، مع مربية أبناء برتران، ماري هول وتزوّج منها في نهاية المطاف. وتزوّج خادم آخر، نوڤارا السويسري، خادمة السيدة دي مونثولون. وكان لأحد الأخوين أرشامبو اللذين يعملان في الإسطبل

عشيقة تدعى ماري فوس. وغازل جنتليني، وهو جندي راجل وسيم من إلبا، العديد من زوجات الجنود، ووفقاً لغِديون غورِكر، كان معروفاً بذهابه إلى البيت الذي شغله زميل غوركر، المقدّم وينيارد، «بغية ارتكاب الزنى مع السيدة سنل التي تعيش هناك مع زوجها».

وأظهر غوركر نفسه ميلاً إلى الشابات السوداوات اللواتي يعملن خادمات منزليات في بلانتيشن هاوس وكان الجنود الذين يعملون هناك يراودوهن عن أنفسهن دائماً، ما يزعج الليدي لو كثيراً.

كانت الضوضاء التي يحدثها الخدم والجنود والبحارة الزانون في لونغ وود مزعجة جداً بحيث اشتكى دي مونثولون من ذلك إلى سير هدسون لو، فضاعف عدد الحراس في المنزل، ما أزعج نابليون كثيراً فوبّخه غاضباً: «تقول إن البغايا يأتين إلى هنا. إذا كان ذلك فضيحة، فبإمكانك وقفه بسهولة من دون اللجوء إلى الإنجليزي. أنت لا تفترض أن هذا المنزل ديراً، أليس كذلك»؟

تضايق نابليون أيضاً من غورغو الذي يروي أحد مداخل يومياته: «أن جلالته غاضب. وأنا أيضاً. إنه يهدأ وأنا لا أتحدّث». أبلغه نابليون بعد إحدى نوبات النكد «أن الملل يستنزفك. أنت بحاجة إلى امرأة شابة جميلة». ولاحظ غورغو، وقال هذا ما أشعر به شخصياً».

اشتكى نابليون للاو بشأن الحراسات المزعجة المتمركزة حول لونغ وود هاوس بالإضافة إلى المفوّضين المتجسّسين، وأحدهم، المركيز دي مونشينو الذي يراقب لونغ وود بمنظار وهو مختبئ في حفرة في الأرض. وقال نابليون إنه لو كانت لديه عشيقة لما استطاع استقبالها في البيت الذي يراقب باستمرار. أثار ذلك فضول لو على الفور. فسأله هل للجنرال

بونابرت عشيقة؟ أجاب نابليون مغايظاً: «ربما لديَّ».

يبدو أنه في مناسبة واحدة على الأقل أحضرت شابة إلى نابليون فصرفها لأنها كانت صغيرة. وكان قد فعل ذلك في سنة 1805 حيث وفقاً لتعبير خادمه السابق لويس كونستان «احترم براءة الفتاة الجميلة» التي جاءت إلى شونبرون وأعيدت إلى والديها. ويذكر خادمه سان دنيس مناسبة لاحقة في لونغ وود:

> ذات ليلة قدّمت وجبة خفيفة خلافاً للمعتاد تتكوّن من أطباق قليلة وصغيرة... جعلتني هذه الإعدادات غير المألوفة أسأل دي مونثولون عن سببها. لم يجبني عن ذلك، لكنني علمت لاحقاً أنه سيتم استقبال امرأة أو فتاة. وعندما دخلت هذه المرأة، اعتبرها الإمبراطور صغيرة وبريئة وأمر أن يُدفع لها وتُصرف.

لم تكن مسألة وجود عشيقة في جزيرة القديسة هيلانة موضع بحث دائم في الجزيرة فحسب وإنما في لندن أيضاً. انتشرت شائعات في الجزيرة روّج لها غورغو فضلاً عن بالمان ومونشينو والبارون ڤون ستورمر، المفوّضون الروسي والفرنسي والنمساوي، عن علاقات غرامية مع الفتاة بالكومب، وماري آن روبنسون، «حورية الوادي»، والآنسة نايس، «برعم الوردة»، والسيدة برتران والسيدة دي مونثولون اللتين استهجن غورغو تودّدهما للإمبراطور.

عندما علّق غورغو ذات يوم باستياء على زيارات السيدة دي مونثولون إلى لونغ وود هاوس، عاتبه نابليون غاضباً: «بأي حقّ تشكو من مجيء السيدة دي مونثولون لزيارتي». وأبدى استياءه من أنه يكرّر الإشاعات التي ربما «تنشر في الجرائد وتضرّ بسمعته. وقال له: «لقد قلت بالأمس إن

لكل رجل شريكة... هل كنت تقصد السيدة دي مونثولون؟... ما الذي يعنيك إذا نمت معها»؟

«لا شك في أن السيدة دي مونثولون بذلت ما في وسعها لتظهر ولعها بصاحب الجلالة، بعينيها المعسولتين، وفستانها المشدود عند الخصر، ومحاولاتها السخيفة أن تفعل المستحيل لتبدو جميلة. وكان يشجعها بالسماح لها بإبداء بعض الملاحظات مثل 'بعض الرجال في الثامنة والأربعين لا يزالون يتصرّفون مثل الشبان'. وكان يغيظها ويقرصها».

ذات يوم قال غورغو لنابليون: «لن أوافق ما دمت في جزيرة القديسة هيلانة على إتاحة سابقة لمونثولون أو حتى زوجته. يمكنها أن تكون عاهرة إذا رغبت في ذلك، لكنني أحتقر رجلاً يسمح لنفسه بأن تتسلّط عليه امرأة، وبخاصة إذا كانت قبيحة ومكّارة».

وصف ألكسندر بالمان، في تقاريره إلى القيصر، السيدة دي مونثولون بأنها بشعة من دون وجه حق، فضلاً عن أنها «عجوز» و«فاجرة». وتابع بالمان بخبث يريد منه إرضاء سيده: «إنها الآن عشيقة الرجل الكبير. كانت مجرّد مؤتمنة على أسراره وتعمل قوّادة لديه. وقد تدبّرت بمثابرتها وتكلّفها في الابتسام من الوصول إلى هناك وأطلقت العنان لنفسها عندما وصلت. إنه مدلّه بها ويقدّم لها الهدايا النفيسة من فساتين ومجوهرات. وهي التي تحدد الغداء والعشاء وتملي أوقات النهوض والنوم. لقد أصبح لونغ وود بأكمله تحت رحمتها».

حرصت الحكومة البريطانية على الحصول على معلومات موثوقة أكثر من النميمة التي يروّجها غورغو وشطحات الخيال التي يرسلها بالمان إلى روسيا، فاستغلّت كل فرصة لسؤال العائدين من جزيرة القديسة هيلانة عن روايات قد تكون دقيقة بقدر معقول. وهكذا عندما عاد الدكتور باكستر،

المسؤول الطبي الرئيسي، إلى إنكلترا بعد ثلاث سنوات من الخدمة في الجزيرة، استدعاه لورد باثورست إلى مكتب المستعمرات.

> عندما دخلت الغرفة قام اللورد وأخذني من ذراعي وأجلسني. كان سؤاله الأول عن بونابرت. أجبت بأنه بخير على ما أعلم. سأل إذا كان يخرج أو يمارس أي تمارين. أجبت أنه كان يخرج مساء مؤخّراً وأنه يمارس التمارين في قاعة البلياردو [حيث لا يوجد في الواقع مجال للتمرين على الإطلاق]. كان يتوق إلى معرفة إن كان لبونابرت سبيل إلى النساء وإن كانت السيدتان برتران ومونثولون تتفضلان بذلك. قلت إنني لست على دراية من أن هناك شيئاً من هذا القبيل، لكن ليس من غير المحتمل أن تشعر أي من هاتين السيدتين بالفخر لأي اهتمام يوليه لها.

وسواء أكانت إحدى هاتين السيدتين أو كلاهما «تتفضّلان» في بداية فترة نابليون في الجزيرة، فإن من المؤكّد أنه أخذ ينفر من اتخاذ عشيقة مع أنه واصل الاهتمام بمعرفة السلوك الجنسي لمختلف أعضاء حاشيته. وعندما أبدت السيدة دي مونثولون ملاحظتها عن أن رجالاً في الثامنة والأربعين يتصرّفون كالشبان، ردّ مستسلماً: «نعم لكن ليس لديهم كثير من الأحزان التي يكابدونها مثلي». وقال في مناسبة أخرى إنه ليس لدى النساء ما يدعونهن إلى الخشية منه في مثل هذه السن: لم يعد في وسعه النجاح في مغازلتهن.

في تموز/يوليو 1819، حصلت السيدة دي مونثولون على إذن بمغادرة الجزيرة مع أبنائها وممرّضة – كانت تعاني من اكتئاب حادّ ومن شكوى في

الكبد منذ ولادة طفل يعتقد أنه ابن نابليون. بقي زوجها مع نابليون الذي تعهّد بدفع مبلغ كبير من المال لزوجته عندما تصل إلى فرنسا وبتوريث دي مونثولون نفسه مبلغاً كبيراً من المال في وصيته. وقد وصف مارشان ذلك:

> عندما حان يوم المغادرة، توجّه الإمبراطور إلى مكتبه لاستقبال السيدة دي مونثولون وأطفالها. شكرها على التضحية التي قدّمتها بالسماح لزوجها بالبقاء معه، وأعطاها علبة ذهبية ثمينة تحمل صورته المحاطة بقطع ألماس كبيرة، وحمّلها تمنّياته لها ولعائلتها بالسعادة. ووجّه إليها العديد من التعليمات لأوروبا وعائلته تلقّتها الكونتيسة بالدموع. وشارك الأطفال أمهم في أساها. وسرعان ما أصبح المشهد حزيناً بحيث لم يعد الإمبراطور، الذي تأثّر أيضاً، راغباً في إطالته. عانقهم واحداً واحداً وعاد إلى مقرّ إقامته.

راقب من خلف الستارة السيدة دي مونثولون وهي تغادر، وبكى لأول مرة في الجزيرة، كما قال غورغو. وظنّ غورغو أنهم لو غادروا جميعاً لقتل نفسه. في المساء قال نابليون لمارشان مشفقاً على نفسه: «ستعود إلى أوروبا. سترى عائلتك ثانية. وسيحيط بك أصدقاؤك. سترغب في معرفة جميع تفاصيل وجودي في هذه الجزيرة البائسة... سيجد مونثولون زوجته وأطفاله. وستجد أنت والدتك. وسأموت مهجوراً في هذا المكان الموحش».

كانت السيدة برتران تأمل أيضاً في مغادرة الجزيرة «المقيتة» التي قالت في لحظة ابتذال إن الشيطان «تغوّطها عندما انتقل من عالم إلى آخر».

وكانت قد حزمت أمتعتها استعداداً للمغادرة مع أطفالها الذين شعرت أنه لم يعد بالإمكان أن يعهد بتعليمهم للمعلّمين الحاضرين - رقيب بريطاني، وكاهن كورسيكي، وخادمة السيدة برتران الإنجليزية التي تزوّجت من خادم الإمبراطور سان دنيس. وفُهم أن الجنرال برتران سيلحق بزوجته بعد سنة، لكن نابليون رفض في اللحظة الأخيرة مغادرة زوجها، لذا بقيت السيدة برتران أيضاً، وامتنعت عن حضور العشاء إلى مائدة نابليون ورفضت التعاطي مع نابليون إلى ما قبل وفاته ببضع ساعات. ولم تغفر له ملاحظاته الفظة والمهينة، أو إطلاق النار على حيواناتها المنزلية أو أي حيوان شارد ضل طريقه ودخل الحديقة عندما يكون منهمكاً في العمل فيها بحماسة.

47
أحلام وذكريات

«أف للنساء! عندما لا تفكّر فيهن، فإنك لا تحتاج إليهن».

غالباً ما كان نابليون يتحدّث في أمسيات لونغ وود عن النساء في حياته الماضية. وكما لاحظ دي كولانكور قبل بضع سنوات: «كان يستمتع بالحديث عن نجاحه مع النساء. وإذا كان هناك من جانب ضعيف في مواهب هذا الرجل العظيم والرائع فإنه غروره بماضيه». أبلغ برتران عن فضّه بكارة ماري لويز وكيف كانت «تطلب المزيد». وتساءل إذا كان قد أحب أي امرأة في الماضي باستثناء جوزفين التي بادلته الحب ليس من دون تحفّظ: كانت كاذبة رديئة، وكاذبة ماهرة أيضاً، إلا في ما يتعلق بعمرها. وبهذا الشأن يمكن أن توقع نفسها في ورطة «بحيث لا يمكن التوفيق بين ما تقول إلا بالافتراض بأن ابنها يوجين كان في الثانية عشرة عندما ولد». وإلى جانب ذلك كانت غيورة، كما قال نابليون، إلا من ماري لويز، التي كانت تغار منها كثيراً في المقابل، وتنفجر بالبكاء عندما يحاول أن يأخذها لزيارة المرأة التي تعتبرها منافسة لها على مشاعره.

كان مولعاً بماري لويز ويمتدح مزاياها الحميدة، وحكمتها، وصدقها، ومجاملتها، وبراءتها، وحبّها له. وكان يمكن أن تلحق به إلى إلبا لولا أن ثنتها عن ذلك السيدة دي مونتيبلو، وصيفتها، التي كانت تكرهه، وطبيبها، جين كورفيسار، ثم إن والدها، وهو الوحيد من أعضاء العائلة الذي أحبّته حباً صادقاً، وضع ذلك «اللئيم»، الجنرال آدم ألبرخت فون نيبرغ إلى جانبها ولم يعد لديها الآن ميل إلى العودة إلى زوجها. ذات ليلة

شاهدها في حلمه. «بدت شابة مثلما كانت عندما رأيتها في كومبيين. أخذتها بين ذراعي وحاولت قدر ما أستطيع أن أمسك بها بشدة، شعرت أنها تنزلق بعيداً عني، وعندما حاولت معانقتها ثانية، اختفى كل شيء واستيقظت».

قال إنه لن يتزوّج ثانية إذا توفيت ماري لويز، كما لو أنه نسي أن احتمال إيجاد عروس ملائمة في جزيرة القديسة هيلانة بعيد جداً. لقد منحته ماري لويز الطفل الذي من أجله ترك جوزفين، ولو أنها تمكّنت من إنجاب طفل له لما انفصل عنها. وقال عائداً إلى موضوعه المفضّل إنه أحبّ جوزفين أكثر مما أحبّ ماري لويز. اختار جوزفين لا لسبب إلا الرغبة والعاطفة. وقد ارتقيا في العالم معاً. وما كان له أن يتزوّج ماري لويز: تلك «أعظم غلطة» في حياته، إذ كان يجدر به أن يتزوّج روسية.

كان يتحدّث أيضاً عن شقيقاته، لا سيما كارولين، ويتصاعد غضبه كلما ذكر زواجها الثاني المفترض بعد مرور أقل من سنة على وفاة زوجها، واختارت فرانسيسكو مكدونالد، الجنرال الذي يتحدّر من أصل استكتلندي وأيرلندي وولد في إيطاليا. عندما سمع لأول مرة عن هذا الزواج غير المناسب ثار غضبه. وقال مونثولون إنه لم يره في مثل حالة الغضب هذه. وقد اشتكى على العشاء في تلك الليلة بعنف مفاجئ من أن الفطائر فيها رمل. وطلب أن يُضرب الطاهي المسؤول عن ذلك ويطرد على الفور.

تحدّث أيضاً عن عشيقاته، وعدّهن على أصابعه، وقلّل من عددهن معلناً عن سبع منهن. ذكر السيدة فوريه ابنة السبعة عشر عاماً من دون أن يسميها، والآنسة جورج والسيدة غراسيني والسيدة دوشاتل والسيدة بيلابرا، وإيلينور دينويل. وكان هناك أيضاً السيدة ماتيس وامرأة نمساوية

جميلة ذكرها في مناسبة أخرى، وقال «إنها لا تتعطّر. عندما طلع النهار أيقظتني ولم أرها منذ ذلك الوقت. لكن في سنة 1809، أخبرني قائد شرطة ڤيينا أنها يهودية». وتحدّث أيضاً عن الكونتيسة والوڤسكا. وعلّق «أنها ثرية ولا بد أنها اقتصدت المال، وأنه منح الكثير من المال إلى الطفلين».

فقال غورغو: «كنت يا صاحب الجلالة تدفع للسيدة والوڤسكا عشرة آلاف فرنك شهرياً».

أكّد غورغو على نحو غير محتمل أن وجه نابليون احمرّ عند سماع هذا التدخّل الأخرق وسأله كيف عرف بذلك.

فقال غورغو: «يا إلهي! كما لو أنني لست قريباً جداً منك يا صاحب الجلالة لأعرف هذه الأشياء. إن المحيطين بك يعرفون كل شيء».

سرعان ما فقد نابليون الاهتمام بالسيدة والوڤسكا بعدما سمع «راضياً» عن زواجها، ولم يأبه عندما علم بأمر وفاتها. في ذلك الوقت بدأ يفقد شهوته الجنسية مع احتفاظه بتقدير المرأة الجذابة. وأكّد أنه منذ توّج إمبراطوراً، مال إلى تجنّب الانجذاب للنساء خوفاً من أن يخضع لسيطرتهن. وتابع بأن ذلك كان غلطة كبيرة. ولو أنه استمرّ على العرش لكان أمضى مع امرأة ساعتين كل يوم على الأقل: «يستطيع المرء أن يتعلّم منهن الكثير». وكان يستمتع في الحديث عنهن، ويقول لرفاقه الذكور عندما يتخذ الحديث منعطفاً كئيباً: «دعونا نتحدّث عن النساء». وعندئذ يتساءل لماذا يفضّل الشقراوات على ذوات الشعر الداكن أو هل المرأة السمينة بعض الشيء أفضل من النحيلة. وهو شخصياً يفضّلهن «ممتلئات». وكان قد كتب لجوزفين ذات يوم: «سأكون معك عما قريب. أرجو أن أجدك ممتلئة ومتورّدة».

لا شك أنه أصبح أكثر امتلاء مما كان عليه في أي وقت. في أوائل سنة

1817، قال طبيب الكتيبة 66 عندما رآه لأول مرة: «مظهره العام أشبه براهب إسباني أو برتغالي سمين من بطل العصور الحديثة». وفي وقت لاحق وصف بأنه «سمين كخنزير صيني».

كان يظهر ميولاً مثلية بين الحين والآخر. وقال ذات يوم، كما روى دي كولانكور في «مذكّراته»، إن صداقته مع الرجال الوسيمين بدأت على العموم بانجذاب حسي إلى «الخاصرتين ومكان آخر لن يسميه». وقد اعتقد تاليران أنه كان وبوريان متحابين. لا شك في أنه أحب أن يحيط نفسه بالشبان الوسيمين مثل رستم رضا، وسانت دنيس، ولويس كونستان – كان موضع تحديقات نابليون كشاب في خدمة جوزفين قبل أن يدخل في خدمة الإمبراطور نفسه – ولويس مارشان، «مامزيل مارشان»، كما كان يناديه سيده في الغالب، والجنرال دوروك، الذي تأثّر بوفاته تأثّراً شديداً، والمخنّث شفالييه دي سان كروا، الذي كان تقدّمه، كما قال كونستان، «مدهشاً وسريعاً». وكتب كونستان، دخل سان كروا الخدمة العسكرية في سن الثانية والعشرين وكان قائد فرقة عندما قُتل في إسبانيا. كثيراً ما رأيته في مقرّ الإمبراطور – وهو امرؤ ضئيل أنيق الملبس ذو وجه ناعم جميل أشبه بوجه فتاة منه بوجه جندي شجاع، كما هو حاله بالتأكيد».

بعد رحيل السيدة دي مونثولون عن جزيرة القديسة هيلانة، لم يعد نابليون راغباً في عشيقة. وأخذ ينفر من النساء بالتدريج وفقد الاهتمام بالنميمة التي كانت تثير فضوله في السابق. ولم يعد يسرّ بالاستماع إلى ما أسماه مدير مناجم الحديد في جزيرة إلبا «التفاصيل الماجنة للحياة الزوجية».

اعترف قائلاً، «إنني لا أحب النساء كثيراً، ولا الألاعيب من أي نوع.

إنني كما أعتقد حيوان سياسي صرف» وصاح ذات مرة أمام غورغو: «أف للنساء! عندما لا تفكّر فيهن، فإنك لا تحتاج إليهن». وكان قد قال قبل سنوات لأخيه جوزيف: «أنت تمضي حياتك مستمتعاً بكل شيء، وأمضي حياتي في التفكير لا في المتعة. أنت تحب النساء، وأنا نادراً ما أفكّر بهن». فالحب الحيواني في النهاية مضرّ «بالمجتمع والسعادة الفردية للرجال».

نادراً ما كان يجامل عندما لا يفكّر في النساء أو يتحدّث عنهن. وقد أبلغ الطبيب باري أوميرا أنه سُمح لكثير منهن بمرافقة جيوشه. وقال: «النساء أسوأ من الرجال عندما يكنّ سيّئات، وأكثر استعداداً لارتكاب الجرائم». وعندما يحطّ من قدرهن، «يصبحن أحطّ» من الرجال. النساء في النهاية، كما قال غير مرة، لسن «سوى أدوات لإنجاب الأطفال».

وأعلن في مناسبة أخرى: «النساء يتبعن من يعرض السعر الأعلى. إنهن يحببن السلطة، وهي أعظم مقويات الباه. إنها تسحرهن... أما أنا فإنني أحصل عليهن وأنساهن».

وقال ذات أمسية لإغاظة السيدة دي مونثولون والسيدة برتران من دون شك: «مقابل كل امرأة تلهمنا بحسن الصنيع، هناك مئات يدفعننا إلى ارتكاب الحماقات... إننا معشر الغربيين لا نفهم النساء على الإطلاق. لقد أفسدنا كل شيء بمعاملتهن معاملة جيدة. وكان من الخطأ الشديد أن نرفع النساء إلى مستوانا تقريباً. الشرقيون يحسنون إدارة هذه الأمور. إنهم يؤكّدون أن النساء ملك للرجال. والحق يقال إن الطبيعة جعلت المرأة جارية للرجل».

48
وفاة الإمبراطور

«آن أجلي قبل الأوان. اغتالني الحكم الانجليزي وقاتله المأجور»

في أواخر سنة 1819، اتضح أن صحة نابليون لم تعد على ما يرام. ومع أنه ادعى «أنه لم يحتج إلى الأطباء البتة»، وأن بنيته «من فولاذ»، فإنه عانى في الواقع في شبابه على نحو متقطع من مجموعة غير عادية من الشكاوى – منها الأرق، والصداع، والسعال المستمر، والألم عند التبوّل (يعتقد أن حمّاماته الساخنة كانت تفرّجه)، والجرب، والتهاب الجلد المزمن الذي يدفعه إلى حكّ جلده حتى يدميه، ونوبات القشعريرة، والتعرّق المفرط، والغثيان، وألم حادّ في جانبه، والقياء، والحمى، وتورّم اللثة، وتخلخل الأسنان، وانتفاخ شديد في المعدة، وبطء دقّات القلب، وربما السفلس، وربما أيضاً ضخامة النهايات التي تحثّ على الهمود والتفاؤل المفرط، ونوبات الصرع بالتأكيد، حيث شهد حالة حادة أخرى في تشرين الأول/ أكتوبر 1805 خلال الأيام العصيبة قبل الانتصار في أولم. في أثناء هذه النوبة سقط على الأرض وانتابته الاختلاجات، وأخذ يتنفّس بصعوبة، ويقيء، وغطّى الزبد شفتيه. وعندما أفاق بعد ربع ساعة، أمر من شهد هذه الحالة، الكونت دي ريموسا، كبير خدمه، وتاليران الذي أصيب بالهلع، ألا ينبسا ببنت شفة عن ذلك أمام أحد.

في أعقاب رحيل أوميرا عن الجزيرة، تعاقب على علاج نابليون عدة أطبّاء، أحدهم، وهو جرّاح في الجيش البريطاني، وُجه إليه عدد من الأسئلة غير المترابطة في موضوعات تافهة:

«ماذا يشرب بحّارتك»؟

«الجعة».

«لكن عندما يتسلّمون رواتبهم يشربون الخمر على أعتقد»؟

«لا، يشربون البراندي أو الجعة».

«ما نوع البراندي؟ فرنسي»؟

«براندي إنجليزي عادة، من كحول القمح».

«هل مذاقه مختلف كثيراً»؟

«نعم، مختلف جداً».

«هل زرت باريس»؟

«نعم».

«كم طالت إقامتك هناك»؟

«خمسة أسابيع».

«هل زرت لورد ونتوُرث»؟

«نعم».

«هل شاهدت ليدي دورسيه»؟

«نعم».

هل تناولت العشاء معهما»؟

«لا».

«أين نزلت»؟

«في فندق سان توماس».

«أين كنت تأكل»؟

«في مطاعم مختلفة».

«كم كلفتك... هل تكلّف ضعف الثمن في لندن»؟

«نعم».

«ما حصيلة الأرض في إنكلترا»؟

«ثلاثة إلى أربعة في بالمئة».

وهكذا كان الاستجواب يستمرّ على نحو مرهق.

تعرّض طبيب آخر من أطباء نابليون، فرانسيسكو أنتومارشي، لهذه الأسئلة. وقد أوصى الكاردينال فِش بهذا الطبيب، وهو مساعد في مشرحة كورسيكية. وأرسل هو والسيدة الوالدة، التي وجّهت العديد من الرسائل إلى الوصي على العرش بخصوص ابنها من دون جدوى، كاهنين كورسيكيين، أحدهما صغير جداً وغير متعلّم بحيث إنه يكتب بصعوبة، والآخر مسنّ نادراً ما يتحدّث بانسجام بسبب سكتة أصيب بها مؤخّراً. في أحد الصناديق التي أحضرها هذان الكاهنان الكورسيكيان إلى الجزيرة كان يوجد صورة منمنمة لملك روما. وذكر مارشان أن «الإمبراطور ابتسم فرِحاً على شاهد هذه المنمنمة لابنه. واغرورقت الدموع في عينيه. وقال'مسكين، يا له من مصير!' ثم ناولني الصورة وقال، 'ضعها على مكتبي كي أراها كل يوم'».

في أواسط نيسان/أبريل 1821 اتضح أن نابليون يُحتضر، ولم تُفد الجرعات الكبيرة من الكالاميل التي أعطيت له، بالإضافة إلى دواء الدردري المقيء، إلا في تسريع موته.

أصبح من الصعب الآن إقناعه بالنهوض من الفراش في الصباح. وعندما يفعل ذلك، يسير، أو بالأحرى يترنّح في المشي مسافة قصيرة مرتدياً لباس نوم متسخاً ويتنفّس بصعوبة. ذات يوم قال، إنني أحتّضر. أستطيع أن أشعر بذلك. لقد جاء أجلي... لم يتبقّ لي شيء... هجرتني قوتي وقدراتي». كان ذلك حديثاً نادراً: أصبح قليل الكلام الآن يسيطر

عليه الصمت في غرفته، حيث يوجد برتران برفقته طوال ساعات. ولم يعد يشاهد خارج المنزل إلا نادراً. والواقع أنه أصبح كثير التردّد في المشي أو التنزّه منذ حدّد سير لو نزهاته – التي تتم تحت مرأى ضابط بريطاني – ضمن مسافة ثمانية أميال من البيت. في أحدى هذه النزهات النادرة راقبه ضابط إنجليزي كتب أن وجهه كان «أبيض كصحيفة ورق. بدا ضعيفاً ومترنّحاً عند المشي، حاني الجسم وسميناً. كان يرتدي معطفاً كبيراً وبنطلوناً طويلاً».

كتب في نسخة نهائية لوصيته التي خلّف فيها عشرة آلاف فرنك لضابط الصف [ماري أندريه نيكولاس] كانتيون الذي حاول اغتيال لورد ولنغتون: «آن أجلي قبل الأوان. اغتالني الحكم الإنجليزي وقاتله المأجور». وفي نهاية الشهر، بعد أن رفض مقابلة أنتومارشي أو أياً من الأطباء الآخرين الذين استُدعوا للاهتمام به، ازدادت حالته سوءاً، وأصيب بالرعشة والفواق في سريره المعدني. بكى برتران الذي كان يقف بجانبه وهو يطلب تكراراً فنجان قهوة من دون جدوى، «من دون أن يبدي استياء البتة... لقد أصبح من كان مرهوب الجانب ويأمر بثقة مطلقة وديعاً كالطفل الصغير».

في 2 أيار/مايو، مسحه الكاهن الكورسيكي الشاب بالزيت، على الرغم من احتجاج برتران بأن نابليون ما كان ليقبل بذلك كمفكّر حرّ، لكنه أضعف من أن يقاوم. لبث ثلاثة أيام أخرى. امتلأت غرفته بالخدم وأعضاء الحاشية. كانت السيدة برتران هناك. دعت أبناءها الذين أدخلوا الغرفة ليخرجوا منها بعد أن أغمي على الابن البكر. وجاءت خادمتها، ماري هول وسألت إذا كان يسمح لابنتها التي لم تكمل عامها الأول بتقبيل يد الرجل المحتضر. رفع مارشان الصغيرة وانحنى «ليقرّب يد الإمبراطور

منها كي تلامس شفتيها من دون أن يحدث ذلك خوفاً لا داعي له».

عصر يوم 6 أيار/مايو 1821، توفّي نابليون عن واحد وخمسين عاماً. وكان من بين الكلمات الأخيرة التي تمتم بها «جوزفين».

49
إليزا وكارولين

«تتحدّث بحماسة شديدة عن اضطهاد الحلفاء لها».

غادرت إليزا باكيوشي فلورنسا في اليوم التالي على دخول قوات يواكيم مورا إليها، ولم يأسف الفلورنسيون على رحيلها. لقد بذلت ما في وسعها لإقامة علاقات طيّبة معهم، بقدر ما تسمح به التعليمات المرسلة إليها من أخيها الإمبراطور. فأقامت حفلات استقبال كبيرة في قصر بتي الذي أعيدت زخرفته، وأنقذت العديد من البيوتات الدينية من الاندثار، وقدّمت مساعدة قيّمة للعديد من المؤسسات الخيرية. لكن لم يكن لديها السحر الذي تتمتّع به زوجة أخيها جوزفين، فضلاً عن أن زوجها البليد والوديع، فِليتشي باكيوشي، لم يكن أفضل حالاً منها.

استقرّت في تريست في بيت في كامبو مارزيو، واشترت لاحقاً ڤيلا على البحر، وأطلقت على نفسها اسم الكونتيسة دي كُمبنيانو. كانت تريست مدينة كئيبة، لكن جيروم، أمير مونفور، شقيقها المفضّل منذ أن تخاصمت مع لوسيان، قدم للإقامة فيها مع عائلته. كما استقرّ في تريست جوزيف فوشيه، دوق أوتران، بعد أن حصل على ثروة. وكان هو وإليزا يستمتعان بتذكّر أيام الإمبراطورية في حين يقوم زوجها بالتنزّه على شاطئ البحر. وأخذت ابنتهما، نابليون إليزا تتشبّه بالذكور وترتدي ثياب الرجال وتقود عربتها بنفسها. وقد تزوّجت من كونت إيطالي وتحكّمت به وسرعان ما هجرته.

أصبح والد نابليون إليزا شخصية مهيبة، لكن زوجته الكئيبة في

الغالب، سمنت وانحسر شعرها، وأصبحت شديدة الشبه بأخيها نابليون الذي لم يتغلب البتة على كرهه لها. لم تكن في صحة جيدة وفي تموز/ يوليو 1820، في سن الثالثة والأربعين، أصيبت بحمّى لم تتعافَ منها عندما كانت تتفحّص حفريات بدأتها في موقع أكويليا. وكان جيروم معها عندما توفيت: كانت أمنيتها الأخيرة أن يرعى فِليتشي باكيوشي الذي عاش بعدها في الواقع سنوات عديدة عيشة هانئة على ما يبدو.

في سنة 1823، منح مترنيخ الإذن لكارولين مورا بالذهاب إلى ينابيع بتاليا الحارة المالحة قرب البندقية حرصاً على صحتها، ومنها إلى البندقية. أبلغت سكرتيرها لويس فريدريك دي ميرسي أنها مسرورة لتمكّنها من المغادرة والتحدّث بالإيطالية ثانية. وقالت له: «سأتحدّث إلى كل من أجتمع به. لقد كنت صمّاء وبكماء طيلة ثماني سنوات، لأنني لا أتكلم الألمانية كما تعلم».

كانت تود البقاء في إيطاليا أو الذهاب إلى هولندا للإقامة مع زوجة جوزيف، جولي، أو إلى سويسرا. لكن هذه الأماكن اعتُبرت غير ملائمة لسبب أو لآخر، واضطرت للعودة إلى تريست متطلّعة إلى التوجّه إلى أميركا مع ابنها لوسيان الذي قرّر الهجرة مثل أخيه وانضمّ إليه في النهاية من دون أمه.

أرسلت إلى مترنيخ معاتبة: «لقد نفد صبري. إنهم يجبرونني على مغادرة كل بلد قد أجد فيه السلام ويمنعونني من الإقامة في كل مدينة باستثناء تلك التي لا تناسب صحتي أو إمكاناتي». وقالت الشيء نفسه لجولي ريكامييه التي زارت تريست في طريق عودتها من نابولي إلى باريس. «لماذا يمنعونني مما سمحوا به لأفراد آخرين من عائلتي؟ ... إنهم

أحرار في السفر إلى أي مكان، وأنا الوحيدة المضطهدة».

كانت لا تزال تعاني من ضائقة مالية: واجهت صعوبة في بيع عقارها في فرسدورف، وألح عليها ولداها اللذان، لم يكونا على علم بوضعها المالي، بأن ترسل إليهما المال، مع أنه لم يكن لديها أي دخل.

عندما تعثّرت والدتها وهي تسير في حدائق ڤيلا بورغيز في نيسان/أبريل 1830، وكانت في التاسعة والسبعين من العمر، تمكّنت كارولين من الحصول على إذن بالتوجّه إلى روما لرؤية أمها لأول مرة منذ خمس عشرة سنة. لكن ما إن وصلت حتى اشتكى الملك فرديناند في نابولي وسلطات باريس التي طالبت بطردها.

عندما زارها هنري إدوارد فوكس، بارون هولندا الرابع لاحقاً، في قصر راسبولي، وجد خدمها يعدّون للمغادرة القسرية. رأى أنها لا تزال جميلة، على الرغم من أنها بدينة وقصيرة. وكتب: «على الرغم من ذلك إنها رشيقة ووقورة. كانت بشرتها التي سمعت أنها مبقّعة وسيّئة صافية جداً وقسماتها عادية. وارتسم على فمها تعبير غريب جداً ينمّ عن الحزم والحسم، لكنه عندما يرتخي للابتسام يصبح جميلاً ومرحاً. صوتها عذب جداً. تتكلّم الفرنسية بلكنة إيطالية قوية، ولكن بطلاقة... تتحدّث بحماسة شديدة عن اضطهاد الحلفاء لها. غير أن الأهمية التي توليها البلاطات الأجنبية لتحرّكاتها ترضي غرورها... ولم تكفّ عن الاعتقاد بأنها لا تزال موضع إعجاب الرجال».

غير أنها في هذه المناسبة كانت منزعجة جداً وفي مزاج سيئ للغاية، بعد أن أبلغت أن عليها مغادرة الدولة البابوية على الفور. تحدّثت بغضب عن إساءة معاملتها والاضطهاد الذي تتعرّض له. وقالت إنها ترفض المغادرة، وإن على السلطات البابوية إجبارها على الرحيل. لكنها في

النهاية لم تحرجهم أو تحرج نفسها. وبعد الحصول على يوم سماح إضافي، غادرت روما متوجّهة إلى تريست، وزارت في الطريق ابنتها لِتيشيا التي لم تمضِ فترة طويلة على زواجها من الكونت دي كاستليوني.

في تريست واجهت مزيداً من المحن: فقد عاد ابنها أخيل من أميركا وتوجّه إلى إنجلترا عازماً على تحقيق حلم والده الجامح بتحرير إيطاليا وتوحيدها. بيد أن سيرته المهنية في أميركا لم تقنع أحداً بالافتراض بوجود احتمال بعيد لنجاحه في تحقيق طموحه. كان شاباً سميناً أصلع الرأس في الثلاثين من العمر، ذا إصبع مقطوع جزئياً في إحدى المبارزات، ومتزوّجاً من امرأة تمت بصلة قربى بعيدة إلى جورج واشنطن. لم تجلب له زوجته الكثير عن طريق المهر باستثناء بيت في فيرجينيا وعشرة عبيد سود. وقد عمل مزارعاً ومحامياً وعقيداً في الميليشيا، وكان مميّزاً ببعض الأمور الغريبة التي يبدو أنه يفخر بها، مثل رفض الاغتسال والنوم مرتديا جزمته. كما كان يمضغ التبغ ويبصق على كلب طويل الشعر إذا لم توجد متفلة. وأشاع أنه تناول جميع أنواع الطعام التي يقدّمها العالم الجديد، بما في ذلك التماسيح والصقور الحوّامة، وادعى أنه لا ينفر من الهنود إذا تم قليهم جيداً. وكان لديه خطط سخيفة تقضي بتنصيب ابن نابليون، ملك روما، المعروف منذ سنة 1818 بلقب دوق رايشتادت، على عرش فرنسا على أن يكون وصياً عليه.

علمت كارولين بأنشطة أخيل في إنجلترا فانتابها الخوف، كما علمت بأفعال أخيه لوسيان الذي أفيد أنه عاد إلى البيت عارياً قادماً من حانة في عاصفة رعدية وربط ثيابه في صرّة، وأنه أحضر أمام المحكمة لأنه يركل صبي إسطبل باستمرار. بل إن خوفها ازداد عندما علمت أن أخيل توجّه إلى بلجيكا بغية الحصول على مساعدة الملك ليوبولد في إنشاء فيلق أجنبي.

وبعد أن فشل مسعاه بطبيعة الحال، توجّه إلى البرتغال حيث لم ينجح في إثارة الحماسة لحلمه الإيطالي كما كان شأنه في أماكن أخرى. فقفل عائداً إلى لندن وبعد ذلك إلى أميركا.

أضعف القلق والأرق في الليل كارولين فأصيبت بالكوليرا في الوباء الأوروبي في سنة 1831، ولازمت الفراش محمومة ومتألّمة عدة أسابيع، برعاية ابنتيها الحنونتين. وبعدما حصلت في النهاية على إذن بالعيش في إيطاليا، بمساعدة مترنيخ، استقرّت في فلورنسا حيث كان شقيقها جيروم وعائلته يعيشون في ذلك الوقت. أقامت مدة من الوقت في بيت شقيقها الآخر المتنقّل لويس، وكان في ذلك الوقت في كاسا كابوني وأخيراً في بالازو غريفوني.

وفي بالازو غريفوني، أنشأت كارولين صالوناً مثل تلك التي عرفتها زوجة أخيها جوزفين في باريس، وقد وصفه أحد ضيوفها، النحات الأميركي هوراتيو غرينوف:

> هناك عادة أربع أو خمس غرف. في أحدها توجد طاولات للعب الورق، وفي أخرى طاولات للبلياردو، في ثالثة يقدّم الشاي طوال الليل... إنه ممتع جداً.

واعتبره الشاعر والصحافي والروائي فرانسوا جوزيف ميري لطيفاً أيضاً، فكتب يصفه:

> لا يسأل أحد في منزلها عن الآراء السياسية لضيوفها. عند عتبة الباب يقول أحدهم: «أنا فرنسي»، فيفتح الباب على مصراعيه ويرحّب به ترحيباً حاراً. الكون بأكمله ممثّل في صالون الكونتيسة دي ليبونا... لقد مرّ عليها الأسى والسنون من

دون أن يبهت جمال شبابها بفعل الدموع التي ذرفتها. وإذا
دخل غريب صالونها لأول مرة ووجد غرفة مليئة بأجمل نساء
فلورنسا، فإنه لن يتردّد في اختيار الكونتيسة دي ليبونا.

وكتب ضيف آخر من ضيوفها: «عند منتصف الليل، نتجمّع للحديث حتى الصباح في الغالب. ثمة سحر لا يمكن التعبير عنه في تلك السهرات. تكون الغرفة في حالة فوضى بعد حفل موسيقي أو حفلة راقصة: وعلى الرغم من رحيل الموسيقيين تاركين أوراق الموسيقى منثورة على المنصات، وإطفاء المصابيح الموضوعة على طاولات الورق، وفراغ الكراسي الأربعة المحيطة بكل منها. يتواصل الحديث حتى الصباح، ويقدّم الشاي والبسكويت الشهي الممهور بذراعي ملكة نابولي».

كان ضيوفها يدهشون من حيويتها، إذ تبقى مستيقظة حتى الصباح الباكر، تستمع إلى الموسيقى، وتتحدّث، وتقول إنها لا تحتاج إلى أكثر من ثلاث ساعات من النوم. وادعت: «أنها عادة جيدة. إنني مدينة بها لأخي الإمبراطور». لكنها لم تكن سعيدة.

لم تشاهد لويس كثيراً عندما كانت في فلورنسا، وتشاجرت مع جيروم الذي قالت ابنته ماتيلد دي مونفور إنها عندما شاهدتها تقترب من حديقة كاسين: «اضطررنا إلى إعطائها ظهرنا كي لا نوجّه التحية إليها. عليَّ أن أقول إننا لم نكن على وفاق معها... ولم تكن لطيفة معنا البتة... ودائماً ما كانت تدلي بملاحظات فظّة مثل 'أخذت ماتيلد تصبح سمينة' أو 'لم يزدد نابليون طولاً، ولو إنشاً واحداً'».

ازدادت كارولين تعاسة وميلاً للشجار بمرور الشهور. وكانت تعاني من سرطان المعدة وغالباً ما ينتابها ألم شديد. مع ذلك تحاملت في صيف

سنة 1836 للحصول على إذن بالسفر إلى باريس سعياً وراء تسلّم الأموال التي تحقّ لها بموجب معاهدة فونتنبلو. حصلت على إذن بالقيام بذلك بعد التفاهم على ألا تقيم أكثر من شهر وأن تلتزم أقصى الحذر في سلوكها في أثناء وجودها هناك. لكن الإذن الذي تتطلّع إلى الحصول عليه منذ مدة طويلة أثار حماستها بحيث مرضت وشعرت بضعف شديد منعها من التحرّك أو إجراء أي خطط. وفي بداية أيلول/سبتمبر، أبحرت من لغهورن إلى مرسيليا على الرغم من أنها لا تزال تشعر بالتوعّك، وبعد بضعة أيام نزلت في شارع رويال في باريس في منزل سكرتير نابليون السابق، كلود فرانسوا دي مينڤال. ومن هناك انتقلت إلى شقة في شارع دي لا ڤيل لكسشيك حيث زارها أصدقاء سابقون وصفها أحدهم بأنها لم تتغيّر كثيراً بعد غيابها أكثر من عشرين سنة عن فرنسا، ولا تزال تمتلك تلك «الابتسامة الرائعة».

تمكّنت من انتزاع معاش مقداره مئة ألف فرنك سنوياً قبل العودة إلى فلورنسا، لكن المال لم يجلب لها سوى قليل من الرضا. ولم يجلبه الاهتمام العفوي الذي أولاه لها سكرتيرها وحبيبها الفرنسي، وهو متبطّل وسيم يدعى شيڤال، بعد وفاة الجنرال مكدونالد في سنة 1837.

في شتاء سنة 1837، توفيت أورتنس، ابنة جوزفين في سويسرا في ڤيلا متداعية على شاطئ بحيرة كونستانس. وتوفي الكاردينال فش في روما في 13 أيار/مايو 1839، ولم تعمّر كارولين طويلاً بعد ذلك، وكانت في السابعة والخمسين.

في بداية آذار/مارس 1839، توفيت شارلوت، ابنة أخيها جوزيف فجأة. أخذت كارولين تزور الأم الثكلى بانتظام بعد ذلك بغية تسليتها. لكن البيت كان بارداً والجوّ بائساً جداً فشعرت بعدم القدرة على مواصلة

زياراتها ولازمت الفراش ثانية. فقد بلغ سرطان المعدة مرحلة متقدّمة الآن، وتوفيت في 18 أيار/مايو.

50

بولين ووالدة الإمبراطور

غالباً ما كان مرأى سيّدة جميلة تتجوّل في عربتها تحت ظل أشجار الصنوبر يثير اهتمام الشاعر الشاب ألفونس دي لا مارتين وهو يسير في حدائق بورغيز في روما.

> كان ذلك في أواخر سنيها [على ما يذكر]، ولا تزال رائعة مثل رأس ڤينوس اليونانية... لا أدري ما النزوة التي تدفع امرأة، اتسمت بالمزاجية طوال حياتها، إلى أن تُجلس راهباً مسكيناً إلى جانبها في العربة. كان الاختلاف بين قلنسوته البنية الخشنة ووجه الجمال الذي يذوي الآن بعد كثير من الألق يجعل المرء يبتسم أو تطفر الدموع من عينيه.

وكانت بولين بورغيز تشاهد أيضاً بين الحين والآخر وهي تسير على تلّ بالاتين أو على بقايا الكولوسيوم الخَرِب الذي يغطيه العشب، وتبدو نحيلة وغالباً ما ترتدي «فستاناً صوفياً أسود بسيطاً وقبّعة على الطراز الإمبراطوري». كانت لا تزال متزوّجة من الأمير بورغيز، وتتمتّع بفضل تدخّل البابا بيوس السابع باستخدام قصر بورغيز، على الرغم من محاولات زوجها- الذي يعيش علناً مع الدوقة الجميلة لانت دل روڤير- إبطال زواجهما. إلى جانب ڤيلا باولينا قرب بورتا بيا في روما، كانت الأميرة تمتلك ڤيلا باولينا أخرى في ڤياريغيو. وبعد أن باعت بيتها في باريس (أوتيل دي شارسو) بمبلغ مرضٍ، فإنها لم تعد تعاني من الضائقة المالية التي ألمّت بالعديد من أفراد عائلتها.

كانت تستقبل في بيوتها في روما سيلاً من الزوّار، كثير منهم نبلاء إنجليز يسافرون الآن بحرية في القارّة التي تنعم بالسلام، ومن بينهم دوق ديڤونشير، ومركيز هامِلتون، ولورد كنزنغتون، ولورد هولند. وكما لاحظ كاتب فرنسي: «كانوا يأتون دائماً بأعداد كبيرة، ومعظمهم... أثرياء جداً».

وصفت ليدي مورغان، الروائية الأيرلندية، أحد تلك الاجتماعات في منزل الأميرة بولين:

> في اليوم السابق على مغادرتنا روما، تناولنا طعام الفطور في ڤيلا باولينا مع مجموعة تتكوّن من نبلاء إنجليز، وأمراء وأميرات رومان، وكبراء ألمان، وتجار أميركان– كأنه مؤتمر فريد. كانت تشكيلة الطعام تتكوّن من كعك محلّى، ومثلجات، وخمور خفيفة، وقهوة. والتسلية الرئيسية معاينة الڤيلا الأنيقة، والتجوّل في الحدائق، وزيارة التحف المعروضة بين جدرانها... إنه البيت المميّز بحسن ضيافته في روما... وما من سيّدة حظيت برعاية الكاردينالات كما حظيت الجميلة بولين.

كانت لا تزال جميلة، لكنها تدرك تماماً أن الجمال يذوي ببطء. وعندما قدمت دوقة أبرانتس لرؤيتها في سنة 1817، قالت لها بولين: «لقد تغيّرت كثيراً، أليس كذلك»؟ وأرسلتها لرؤية التمثال الذي نحته كانوڤا ولا يزال موجوداً في قصر بورغيز. ولأنها تدرك تماماً أن جسدها النحيل لم يعد يشبه ذلك الجسد الذي شاهده النحّات وصوّره في ما وصفته لور أبرانتِس بأنه يمثّل «كمالها المثير للشهوة بأكمله»، كتبت إلى الأمير بورغيز بعد ذلك ببضعة أشهر: «أعرف أنك تسمح أحياناً بأن يُشاهد تمثالي الرخامي.

ويسعدني أن تتوقّف عن ذلك بسبب عري الشكل الذي يقترب من انعدام الحشمة. لقد صُنع ليسرّك أنت وحدك. وبما أن الحال لم يعد كذلك، فإنه يجدر ألا يراه أحد».

غالباً ما كان يشاهد في رفقة بولين حبيبها المؤلّف الموسيقي جيوڤاني باشيني. غير أن السعادة التي غمرها بها انقلبت عندما سمعت أن نابليون يُحتضر في جزيرة القديسة هيلانة. كتبت إلى لورد ليڤربول، رئيس الوزراء، في 11 تموز/يوليو 1821 لتطلب «باسم كل أفراد عائلته» تغيير المناخ الذي يوجد فيه. وتابعت: «إذا رفض هذا الطلب المحقّ فسيكون ذلك بمثابة أمر بإعدامه، لذا أطلب السماح لي بالذهاب للانضمام إلى الإمبراطور لأكون معه في شهوره الأخيرة».

كتبت العديد من الرسائل المماثلة إلى وزراء ورؤساء دول، ولم تلقَ عليها أي ردّ. وكان أخوها قد توفي بالفعل قبل شهرين من كتابة آخر هذه الرسائل. وبعد ذلك أغلقت بولين باب غرفتها على نفسها ومكثت فيها أياماً رافضة رؤية أحد.

عندما خرجت توجّهت إلى لوكا مع باشيني الذي عيّن مايسترو للفرقة الموسيقية هناك. وقد مرّا ببيزا حيث زارهما لورد هولند، وكتب في ما بعد:

> لا يمكن أن يكون سلوكها واستقبالها ملكياً أكثر مما لو كان نابليون لا يزال على العرش. كانت مريضة جداً. وجهها جميل لكنه حاد التقاطيع. كانت تعابير وجهها مشرقة ورائعة، وصوتها متأثّر بالزكام لكنه عذب ولم يخب ظني البتة. بدا سلوكها ملكياً، يتسم بكل اللامبالاة التي يجب أن يكون عليها

الأشخاص في مثل مقامها الرفيع، والتي تجعلهم يقولون كلاماً مهذّباً في حوار بينما يكونون منهمكين في حوار آخر... أبدت تهذيباً مدهشاً معي وتحدّثت طويلاً.

صحيح أنها كانت مريضة جداً، وتدرك ذلك جداً، فقد أقنع البابا ليو الثاني عشر، خليفة بيوس السابع، زوجها بأن يهجر الدوقة لانت دل روڤير والقدوم للعيش معها ثانية في قصر بورغيز.

لكن إعادة اجتماعهما لم تدم طويلاً. فقد عانت من سل رئوي ولم تكن تفعل شيئاً سوى القُياء والمعاناة، كما أبلغت أخيها لويس في 13 ايار/مايو 1825.

«لقد أصبحت خيالاً. إنهم يصلحون الشارع ولا أستطيع تحمّل الصوت الرهيب. سيأخذ الأمير ڤيلا في الضواحي هنا حيث نعتزم أن نمضي ما تبقى من الشهر. ومن المستحيل التفكير في الذهاب إلى ڤيلا باولينا في لوكا... عانق أمي. أرسل ألف أمنية طيبة للعائلة». وبعد أقل من شهر توفّيت في ڤيلا ستروزي وهي قلقة، حتى في النهاية، من أنها ستبدو «مخيفة» عندما تموت.

أورثت البيت في لوكا إلى زوجها تقديراً كما قالت: «للرعاية الصادقة التي أبداها لي في مرضي الطويل الأخير... ولأنه طالما أبدى ولاء عظيماً جداً للإمبراطور، شقيقي».

ومن بين آخر طلباتها عدم: «تسجيتها وعرضها في البيت جرياً على العادة. أود أن أحنّط وأنقل إلى روما. إنها محل إقامتي... أرغب في أن أوضع في كنيسة سانتا ماريا ماغيوري في مصلّى بورغيز. إنني أموت فريسة الآلام الشديدة والرهيبة لمرض طويل... أموت من دون مشاعر

بالكراهية أو العداوة لأحد».

في جزيرة القديسة هيلانة البعيدة، تحدّث نابليون عن بولين بحماسة: «ربما تكون بولين أجمل امرأة في زمانها و... أفضل كائن في العالم... لكنها كانت مسرفة جداً وشديدة التهوّر. وربما كان في وسعها أن تجمع ثروة كبيرة بالنظر إلى المبالغ التي منحتها لها، لكنها بدّدتها على الرغم من نصح أمها المتكرّر [أبلغت والدة الإمبراطور ابنها جوزيف 'إنها تسلي نفسها في وضع الموازنات لكنها لا تلتزم بها مدة أطول من شهر']. فقد حذّرت بولين من أنها ستموت في مشغل للفقراء».

عادت والدة الإمبراطور منذ مدة طويلة إلى روما وأقامت في شقتها المفروشة جيداً في الطبقة الأولى من قصر فالكُنييري. وكان الكاردينال فش، الذي تقع شقته في الطبقة الثانية، قد غطى جدران شقتها وشقته بقسم من مجموعته الهائلة من اللوحات، مئات ومئات منها مكدّسة في غرف استأجرها في بيوت قريبة، ومن فرط كثرتها لاحظ فش ذات مرة أن حكومة واحدة فقط قادرة على شرائها.

كتبت ليدي مورغان التي كانت تقيم في روما في ذلك الوقت: «غالباً ما كنا نزور والدة الإمبراطور ونجد عدداً من المواقد المشتعلة في الغرف. الخدم يرتدون بزات زاهية، وثياب السيّدة خضراء وذهبية. والسجاد يملأ المكان».

مع أنها كانت تعيش مرتاحة في روما، فقد كتبت لابنها في جزيرة القديسة هيلانة تعرض المجيء للعيش معه. ووصف لاس كاس ردّ فعل نابليون عندما تسلّم الرسالة:

قرأها بأكملها مرة وتنهّد، وقرأها ثانية، ثم مزّقها ورماها تحت الطاولة. كانت قد وصلت مفتوحة. تناول جريدة ثانية وبعد بضع دقائق رفع عينيه وقال: «إنها من السيّدة المسكينة. هي بخير وتريد الانضمام إليّ». ثم واصل قراءة الجريدة.

كتبت ثانية، أكثر من مرة، لكن عندما لم تتسلّم أي ردّ اشتكت للورد هولند الذي فاتح لورد باثورست في الأمر فلم يجده متعاطفاً. وأرسلت المال إلى جانب الرسائل أيضاً، لكن كثيراً منه لم يصل.

وعندما لم تتسلّم أجوبة من ابنها، توسّلت إلى البابا، فكتب بدوره إلى نائب الملك عن «المناخ القاسي» للجزيرة التي احتُجز فيها «المنفي المسكين». إذا كان نائب الملك فد تسلّم الرسالة، فإنه لم يردّ عليها.

كتبت والدة الإمبراطور إلى لورد ليفربول فضلاً عن لورد هولند:

> إن ما كتبه لي الطبيب أنتومارشي عن حالة ابني نابليون، وأكّدها شاهد عيان، تقضي على كل أمل في أن أشاهد ابني ثانية إذا استمرّ احتجازه في جزيرة القديسة هيلانة... أليس بإمكان إنجلترا الجبّارة إبقاءه في مناخ أوروبي، حيث يمكن أن يستعيد صحّته ويجد العون بالرعاية الطبية والمناخ الجيد، والعزاء باهتمام العائلة به؟ إن مشاعر الأم الآسفة يفضي بهذا القدر، لكنني أريد أن تكون إنسانيتك ومشاعرك الوسيلة...

مع نهاية سنة 1818، انتقلت والدة الإمبراطور إلى قصر رينوتشيني، الذي عُرف في ما بعد باسم قصر بونابرت واليوم باسم قصر ميسياتِلّي، عند ناصية كورسو وساحة ڤينيسيا. كانت شقتها المليئة بالتماثيل النصفية والصور لعائلتها في الطبقة الأولى، في حين نُصب تمثال نابليون الذي نحته

كانوفا عند أسفل الدرج الكبير. ذات يوم وقعت قارئتها على خبر في «جريدة روما» يعلن نبأ موت نابليون. فقالت: «لا يعقل البتة أن تعلم والدة نابليون عن وفاته في الجريدة».

امتقع لونها عندما قرئ عليها الخبر وبدت كما لو أنها ستفقد الوعي. لكنها أصرّت على عدم صحة الخبر وكتبت شاكية إلى السلطات البابوية لسماحها بنشر مثل هذا الخبر من دون التدقيق في صدقيته. وبعد الاحتجاج لدى أمين سرّ الدولة البابوية، قدّمت التماساً من دون جدوى إلى الدول الحليفة، المجتمعة في ذلك الوقت في مؤتمر إكس لا شابل، ترجوها وضع حدّ لعذاب ابنها المريض وإطلاق سراحه.

على الرغم من القلق على حال نابليون في جزيرة القديسة هيلانة، ومع أن بصرها أخذ يضعف بمرور الوقت، فإنها كانت تستمتع بمشاهدة الناس الذين يعبرون الساحة تحت نوافذ منزلها، وبزيارات الكاردينال فش الذي يأتي للاطمئنان عليها كل يوم تقريباً، فيدلي بملاحظة ويغط في النوم على كرسيه، وعندما يستيقظ يطأطئ رأسه ثانية. فقد ضعفت بنيته من جراء صرامة صوم الندم وقسوة الأشكال الأخرى لحرمان الذات وعقابها.

وكانت والدة الإمبراطور تستمتع أيضاً بالاستماع لأجزاء من الكتب والمسرحيات التي تتحدّث عن نابليون وأخذت تظهر الآن في باريس، واستمتعت على وجه الخصوص بمسرحية «نابليون بونابرت» التي كتبها ألكسندر دوما، وطلبت أن تقرأ عليها أكثر من مرة على الرغم من أن فصلها الأخير عن جزيرة القديسة هيلانة يبكيها.

توصّلت والدة الإمبراطور والكاردينال إلى قناعة بأن نابليون لم يعد موجوداً في جزيرة القديسة هيلانة، وهي قناعة توصّلت إليها عن طريق

عرّافة نمساوية، فراو كلاينمولر، ذكر لها أن الإنجليز نقلوه إلى مكان آخر.

كتب فش إلى لاس كاس:

> لا بد أنك فهمت من رسائلنا مقدار اقتناعنا بخلاص... وعلى الرغم من أن الجرائد والإنجليز يؤكدون أنه لايزال في جزيرة القديسة هيلانة، فإن لدينا سبباً وجيهاً للاعتقاد بأنه لم يعد هناك. ومع أننا لا نعرف أين هو أو متى سيعاود الظهور فإن لدينا ما يكفي من الأدلة للإصرار على اعتقادنا... لا شك في أن السجّان في جزيرة القديسة هيلانة يجبر برتران على الكتابة إليك كما لو أن نابليون لا يزال في الأسر.

فزعت بولين من «انخداع أمها وخالها بهذه المرأة النمساوية المتآمرة التي زعمت أنها على اتصال بالعذراء المقدّسة وأقنعتهما بتصديق هذا الهراء الجامح».

وتابعت بولين: «بذلت أنا ولويس كل ما نستطيع للتغلّب على تأثيرات هذه المشعوذة من دون طائل. أمي شديدة الورع وتدفع لها الكثير. كل ذلك مكيدة رهيبة يحرّض عليها كولونا، كبير خدمها. إنه في الكنيسة من الصبح إلى المساء... لقد جنّ الكاردينال لأنه يتحدّث علناً عن أن الإمبراطور لم يعد في جزيرة القديسة هيلانة وأن لديه إيحاءات عن مكان وجوده... خبّأ الرسائل والأخبار التي تلقّاها من جزيرة القديسة هيلانة وأبلغنا أن هذا الصمت يكفي ليقنعنا... لن أتحدّث عن المشاحنات والمشاجرات وعن برود العلاقة بيننا بسبب ذلك.. لقد تشاجرت مشاجرة مريرة مع الكاردينال بحيث لم أعد راغبة في رؤيته ثانية».

كانت والدة نابليون على قناعة شديدة بأن ابنها هرب من جزيرة

القديسة هيلانة فحثّت جولي، زوجة جوزيف، على عدم الذهاب إلى أميركا للانضمام إلى زوجها لأن نابليون سيعاود الظهور عما ريب وسيتمكّنون ثانية من الذهاب إلى حيث يشاؤون.

في 22 تموز/يوليو اقتنعت والدة الإمبراطور بأن ابنها توفي قبل شهرين ونصف تقريباً. لم تبلّغ بالأخبار التي وصلت إلى روما في 16 تموز/يوليو إلا بعد ستة أيام. وأغمي عليها عندما علمت في النهاية. وامتنعت ما يزيد على الأسبوعين عن تقبّل العزاء رافضة إن تقابل أي زائر، بمن في ذلك الكاردينال فش، ولم تردّ على رسائل العزاء أو ترسل إشعاراً باستلامها.

عاشت والدة الإمبراطور في قصر رينوتشيني، مرتدية ثياب الحداد المكوّنة من عباءة قطنية سوداء ذات ياقة سوداء أو بيضاء، ومحاطة بصور عائلتها وتماثيلهم النصفية. ونادراً ما كانت تخرج من البيت إلا للقدّاس، ولم تكن تستقبل زوّاراً كثيرين من خارج العائلة. كانت تستمع لصوت القارئة وهي تحدّق خارج النافذة من دون أن ترى شيئاً، بعد أن استحالت عيناها رماديتين وكدرتين بفعل الماء الزرقاء. وكانت بين الفينة والأخرى تشاهد وهي تتحسّس بأصابعها التمثال النصفي لحفيدها ملك روما السابق.

كتب أحد أحفادها، الابن الأصغر لجيروم بونابرت، عن «الجو غير العادي لأكاليل الغار والنشوق» في قصر رينوتشيني حيث يعي المرء دائماً «الظلال القوية العابرة. ثمة كآبة فريدة تسيطر على الجوّ المحلي والملحمي في آن معاً. لقد كان من المميّز أن تسمع صوت [جدتي] في بعض الأحيان تتحدّث عن أشياء تتباين كثيراً مع جلال المكان».

قالت ذات يوم: «لقد سبّب لي أولادي كثيراً من المتاعب، لكنني كنت أصفعهم على الكفل على الأقل». وقالت متحدّثة عن زمن متأخّر: «كلما دخلت قصر تويليري قبل عشرين عاماً، كانت تقرع الطبول، ويقدّم الجنود سلاحهم، وتتحلّق الحشود حول عربتي. اليوم ينظر الناس إليّ من خلف الستائر ويخشون التعبير عن فضولهم من دون تحفّظ».

ذات يوم، عندما كانت تسير في حدائق ڤينيا بالاتينا، التقت بها الليدي بلسنغتون. كان يرعاها كاهنها وآخرون من أفراد حاشيتها. عندما عرفت الليدي بلسنغتون أن «والدة الإمبراطور لا تحب الاجتماع بغرباء، انتحيت في جانب بعيد من الحديقة».

> لكن عندما عرف ملك وستفاليا السابق [جيروم بونابرت] عربتي في الساحة أرسل يطلب منا الانضمام إليهم وقدّمنا إلى والدته. تتسم السيدة لتيزيا بونابرت بالطول والنحافة، وقد انحنى جسدها بفعل السن، لكنها وقورة رغم ذلك... كان سلوكها لطيفاً ومهذّباً... ولا يزال وجهها جميلاً جداً ما يثبت دقّة التمثال الذي نحته كانوڤا لها... إنها شاحبة تنمّ تعابير وجهها عن الانشغال بالتفكير، ما لم تنفرج أساريرها لملاحظة ما وتلتمع عيناها، لكنها لا تلبث أن تعود إلى شخصيتها الكئيبة ثانية... قدماها صغيرتان ويداها تبعثان على الإعجاب. صوتها خفيض وعذب... عندما تتحدّث عن الإمبراطور نابليون ترتجف شفتاها وتغرورق عيناها بالدموع. قالت: «سأجتمع به في ذلك العالم الأفضل الذي لا تنهمر فيه الدموع»، ومسحت الدموع التي طفرت من عينيها وسالت على وجنتيها. «كان يجب أن توافيني المنية قبل مدة طويلة، لكن الله يعرف ما

الأفضل لي»...

دعتنا والدة الإمبراطور لزيارتها، وعند الافتراق لثمت جبهتي بشفتيها، وصافحت لورد بلسنغتون وأثنت على كلينا.

في سنة 1830، سنة الثورة في فرنسا، سقطت والدة الإمبراطور وكسرت فخذها. كانت قد تخطّت سن الثمانين الآن ولا ينتظر أن تبقى على قيد الحياة. جاء العديد من أبنائها وأحفادها ممن استطاعوا الوصول إليها مع زوجاتهم وأزواجهن إلى قصر رينوتشيني لرؤيتها والحصول على رضاها قبل أن تتوفّى. لكنها عاشت وكانت تدفع من غرفة إلى أخرى على كرسي المقعدين، يرعاها عدد منخفض من الخدم لكنه لا يزال كبيراً، ويضمّ كبير الخدم، ومرافقتها، والقارئة، وسكرتيرتها، وحاجبها، وقائد العربة، والطاهي، وخادماتها. وبناء على نصح طبيبها، كانت تخرج في معظم الأيام في جولة في العربة التي تميّزها شعارات النبالة الزاهية الألوان على أبوابها. أصبحت العربة وراكبتها الشاحبة المتشحة بالسواد من المشاهد المألوفة في روما في ذلك الوقت. وكان يسمع أدلّة السيّاح وهم يعلنون لأتباعهم: «إليكم أيها السيدات والسادة، والدة نابليون». وقد رأت زوجة الرسام الفرنسي لويس بولاجيه أن المناظر التي لا تُنسى في إيطاليا هي بركان ڤيسوف عند ثورانه، وكرنڤال البندقية، ووالدة نابليون.

عاشت والدة الإمبراطور في الماضي بعد أن فقدت بصرها. وعندما جاء ابنها جيروم لرؤيتها ذات يوم، أخبرها أن تمثال نابليون في الطابور العسكري في قصر ڤاندوم سيستبدل. وبما أنها لم تردّ، ظن جيروم أنها لم تسمع ما قال فكرّره. لكنها سمعته في المرة الأولى، لكن مشاعرها تغلّبت عليها فلم تتمكّن من الردّ. أخيراً شدّت على يده وكرّرت الكلمات التي

قالها: «تمثال الإمبراطور، تمثال الإمبراطور».

دنا أجلها الآن، ولم تعمّر طويلاً بعد صدمة الحزن الذي كابدته عندما علمت بوفاة حفيدها، دوق رايشتادت، بينما كان صديقه، أنطون بروكِش ڤون أوستن، في زيارة لها، من دون أن يعرفا أن الدوق يُحتضر في شونبررون. نهضت بصعوبة كبيرة لتحية الزائر وألحّت عليه في السؤال عن صديقه، وعن مرضه وعلاجه وإذا كان يتحدّث عن جدته. وعندما أكّد لها أنه يتحدّث عنها طفرت الدموع من عينيها وسقطت على فستانها. أخبرها بروكِش عن ذكاء الشاب وصفاته العظيمة، ملاحظاً أيضاً أنه بطيء التفكير في بعض الأحيان. فقالت: «إن والده كان كذلك في صغره، لذلك كنت أعلّق عليه آمالاً أقل مما أعلّق على إخوته عندما التحق بالمدرسة. ومضى وقت طويل قبل أن يحرز أي نجاح. لكن عندما تسلّم أول تقرير جيد سارع في عرضه عليَّ، ثم وضعه على كرسي وجلس عليه مزهوّاً بانتصاره». وقالت إن وقت الدوق سيحين أيضاً: «وسيجلس على عرش والده».

أبلغ اللورد هاوتون، كاتب سيرة حياة الشاعر كيتس، أغسطس هير أنها كانت «تُحتضر منذ وقت طويل. كانت في حالة رقاد وقد سمح البوّاب للناس بالدخول مقابل سكودو لإلقاء نظرة عليها من خلال مفصّلات حجاب موضوع عند قوائم السرير. كنت صبياً في ذلك الوقت، واعتقدت أن هناك كثيراً من الوقت. لكنها ماتت ذات يوم [2 شباط/فبراير 1836] عندما كانت أجراس الكنائس تقرع من أجل صلاة المساء». وبعيد وفاتها أرسل في طلب النحّات الدنمركي بِرتل ثورڤالدسن، ليصنع صبّة من قسماتها الهادئة التي لا تزال مميّزة.

وبعد بضعة أيام، قدم زائر فرنسي إلى القصر ووجد جميع الأبواب

مفتوحة ولم يكن هناك أحد ليأخذ رسم الدخول. كانت والدة الإمبراطور ممدّدة على سرير مغطى بمخمل أسود ذي أهداب فضية، وتعلو قبّته أربعة صقور فضية. بدا له أن وجه المتوفّاة أجمل وجه رآه في حياته.

قبل أن يتوفّى نابليون بوقت قصير امتدح تأثير والدته عليه قائلاً: «والدتي العظيمة امرأة تتميّز بالشجاعة والمهارة، وبطبيعة ذكورية أكثر منها أنثوية، وباعتزاز بالنفس ومبادئ أخلاقية عالية... وأنا أدين بارتقائي اللاحق إلى طريقة تربيتها لي في سنّي المبكّرة. وفي اعتقادي أن سلوك الطفل يتوقّف تماماً على أمه».

خاتمة

العودة إلى باريس

«حان الآن وقت الذهاب إلى البيت للموت».

دُفن نابليون في الجزيرة قرب النبع الذي تنقل منه المياه مرتين إلى لونغ وود هاوس. لكن في أعقاب ثورة تموز/يوليو، 1830، وإقامة الملكية البورجوازية للملك لويس فيليب، انتشرت أسطورة نابليون ثانية وتعالت المطالب بإعادة رفات الإمبراطور عند ضفاف نهر السين، حيث طلب أن يُدفن. وبناء على ذلك، أرسل ابن الملك، فرانسوا، أمير جوانفيل، في سنة 1840 لاستعادة الرفات من جزيرة القديسة هيلانة. قال الأب كوكِرو، الذي كان حاضراً عند إخراج الجثّة ورشّ الرفات بالماء المقدّس، إنه كان «مغطى برغوة رقيقة» ناجمة عن التعفّن. وقد كتب كوكِرو:

> كانت وجنتاه منتفختين، وكشف فمه نصف المفتوح عن ثلاثة أسنان شديدة البياض. وبدت آثار لحيته على ذقنه بوضوح، ويديه كأنهما تعودان لامرئ حي بلونهما النضر. وكانت أظافره طويلة بيضاء، وقد تفسّخت إحدى جزمتيه وكشفت عن أربع أصابع بيضاء باهتة.

رافق الجثمان في طريق العودة إلى باريس برتران وغورغو ولويس مارشان وإيمانويل لاس كاس، وأقيمت جنازة ضخمة في باريس في كانون الأول/ديسمبر. نُقل جثمان الإمبراطور عبر قوس النصر إلى القبر تحت قبّة لِزِنْفاليد Les Invalides حيث كانت تنتظر لتلاوة الرقيم جيوديتا غريسي،

ابنة أخت عشيقة الإمبراطور السابقة غويسِبينا غراسيني.

وكان ينتظر هناك أيضاً ثلاثة من مارشالات الإمبراطور السابق وحاكم لِزِنڤاليد المسنّ والعليل بون أدريان جِن ودي مونسي الذي طلب من طبيبه أن يبقيه حياً إلى هذا اليوم «كي يستقبل الإمبراطور». بعد مشاهدة الجنرال برتران وهو يضع سيف نابليون على نعشه والجنرال غورغو وهو يضع قبّعته المثلّثة إلى جانب السيف، وبعد الاستماع إلى رئيس أساقفة باريس وأربعة أساقفة وهم يتلون صلاة الشفاعة، وتحمّل القربان المقدّس الذي استغرق ساعتين، يليه غناء الجوقة الموسيقية لرقيم موزارت، طلب مونسي من الجنود الذين حملوه وهو داخل أن يخرجوه، وقال لهم: «حان الآن وقت الذهاب إلى البيت للموت».

بعد خمس عشرة سنة، في آب/أغسطس 1855، وصلت الملكة ڤيكتوريا والأمير ألبرت إلى باريس في زيارة دولة لفرنسا نابليون الثالث، خليفة لويس فيليب، ابن شقيق نابليون، لويس، وابنة جوزفين، أورتنس. وكان أمير ويلز الذي يبلغ عمره ثلاث عشرة سنة برفقة والديه في زيارة ضريح نابليون الكبير، عدوّ بلده السابق في لِزِنْڤاليد.

لم ينسَ قط بعد ذلك أنه ركع بلباسه الاسكتلندي بناء على طلب والدته ليتلو الصلاة أمام قبر الإمبراطور، فيما الرعد يهدر فوقهم في السماء العاصفة والجنرالات الفرنسيون المرافقون يبكون.

الملحق

بعد الوفاة

عزا نابليون تدهور صحته إلى «المناخ المقيت»، وكان يشتكي بين الحين والآخر من ألم بطني في منطقة الكبد، شخّص في ما بعد بأنه التهاب الكبد. كما أصيب بألم في كتفه الأيمن، وتعرّض لما وصفه مارشان «بقياء حادّ» وصداع، وانتفاخ البطن، وبرود القدمين الدائم، وإمساك بين الحين والآخر اعتاد أن يعالجه بوضع العلق، والتهاب المثانة. وأوحى بعضهم بأن سقوطه من عربة جوزفين قبل نفيه ربما أصابه بمرض فروليخ، وهو حالة تصيب الأطفال عادة نتيجة اضطراب في وظيفة الغدّة النخامية، ويتميّز بالبدانة والنعاس ونقص الشهوة.

في 25 نيسان/أبريل 1821، أصيب بقياء شديد وشعر بأنه سيموت من سرطان المعدة مثل والده. وبعد يومين عاوده القياء الشديد، وعلى الرغم من أنه كان يعترض دائماً على تناول الأدوية، فقد تناول جرعة من شراب ماء زهر البرتقال وزيت اللوز المرّ. وفي 3 أيار/مايو، أعطي جرعة قوية جداً من الكالوميل باعتباره مسهلاً فنجم عن ذلك ضيق في التنفّس وفقدان للوعي. وتوفي بعد يومين.

أجرى الطبيب فرانشسكو أنتومارشي فتحاً للجثة في اليوم التالي بحضور جرّاحين بريطانيين. ولوحظ أن الكبد متضّخم كثيراً وأن المعدة متقرّحة ومثقوبة، وأن الكبد يغطي قرحة معدية كبيرة مثقوبة، في حين أفاد أحد الأطباء، والتر هنري، بأن الجسم خالٍ من الشعر وتضفي عليه البشرة الرقيقة البيضاء والثديان الكبيران سمات أنثوية، والأعضاء

التناسلية صغيرة جداً. ومنذ ذلك الحين رأى كبار اختصاصيي الأورام أن الأعراض التي عاني منها نابليون لا تعود إلى سرطان المعدة كما افُترض سابقاً وإنما إلى تسمّم بالزرنيخ، حيث الزرنيخ عنصر معدني سام متوافر في الجزيرة باعتباره سمّاً للجرذان. لو كان السرطان سبباً للوفاة لهزل الجسم وانكمش، وزال الشحم الذي وصف بأنه «وافر». ومن المرجّح أن يكون هناك نموّ ثانوي في الكبد.

في السنوات الأخيرة، أجري فحص لعيّنات من شعر نابليون وتبيّن أنه يحتوي على الأنتيمون، وكميات كبيرة من الزرنيخ، توحي مستوياتها بأن السمّ جُرع بكميات مختلفة في أوقات مختلفة. لذا اقتُرح أن نابليون سُمّم عن طريق أحد في حاشيته قادر على دس السم في الخمر المخصص له لأنه ممزوج بالماء، في حين أن الطعام يتناوله الجميع. واستنتج الدكتور ستِن فورشوڤولد Forshufvold، وهو طبيب أسنان سويدي ومرجع في السموم، وبن ويدر Wieder، رئيس الجمعية النابليونية الدولية، أن نابليون «توفي من تسمّم مزمن بالزرنيخ بالإضافة إلى تسمّم حادّ بالسيانيد». وأشير إلى أنه عانى من ثمانية وعشرين عارضاً من عوارض التسمّم بالزرنيخ الإحدى والثلاثين المعروفة.

غير أن هناك من رأى أن الزرنيخ الذي عُثر عليه في شعر نابليون لم يأت من سمّ دسّ له عمداً، وإنما من خضاب أخضر شيلي، وهو خضاب يستعمل في ورق الجدران كان شائعاً في ذلك الوقت ويحتوي على زرنيخيت النحاس. وأثبت فحص ورق الجدران في لونغ وود أنه يحتوي على الزرنيخ ويصدر أبخرة سامة عندما تجتمع مع العفن الموجود في الأجواء الرطبة للبيت، ربما تكون مسؤولة أيضاً عن أمراض حاشية نابليون وخدمه المتكرّرة الذين عولجوا من علل ذات أعراض مماثلة. ولعل تحسّن

صحة نابليون عندما أمضى أياماً خارج لونغ وود يعتني بالحديقة يقدّم دليلاً مهماً على أنه كان للأبخرة داخل البيت تأثير مضرّ.

ويشير من يشكّون بأن السمّ أعطي لنابليون عن عمد إلى أن الزرنيخ كان مستعملاً على نطاق في عصره لمعالجة العديد من العلل التي عانى منها، بما في ذلك الصرع، والأمراض الجلدية، وأن العلامات الملحوظة على التسمّم بالزرنيخ، مثل الملمس الجلدي للراحتين وباطن القدمين، لم تسجّل في تقرير فتح الجثّة. غير أنه تم التشديد على أن جثة نابليون عندما نُبشت في سنة 1840 كانت محفوظة على نحو استثنائي وتخلو من الشعر، ما يشير إلى التسمّم بالزرنيخ. وربما كانت جرعة الزرنيخ التي أعطيت له قبيل وفاته ممزوجة بالزرنيخ لتنتج جرعة مميتة من الستركنين.

حدّد فورشوفولد ويدر أن من دسّ السمّ هو شارل، كونت دي مونثولون الذي كان والد زوجته صديقاً للويس الثامن عشر، كما أنه كان على ما يبدو عميلاً بوربونياً، وربما ابتزّه كونت أرتوا، لاحقاً الملك شارل العاشر، الذي خشي من عودة نابليون إلى فرنسا وتدبير انقلاب آخر، ودفعه إلى ارتكاب الجريمة. كان دي مونثولون مثقلاً بالديون يلاحقه الدائنون في فرنسا، وأمل من تشارك المنفى مع نابليون، أن يرث جزءاً من ثروته. وبما أنه المسؤول عن خدم نابليون، فقد كان خمر نابليون والزرنيخ المستخدم سمّاً للجرذان في متناوله.

اتفّق كاتبان حديثان لسيرة حياة نابليون نُشر كتاباهما في سنة 1998، وهما فرانك ماكلين McLynn وألن شوم Schom، على أن دي مونثولون هو الذي سمّ نابليون. وكذا المؤرّخ والمستشار التاريخي الخاص للجمعية النابليونية الدولية، ديفيد تشانلدر Chandler.

في كتاب «حل لغز نابليون» *L'énigme Napoléon résolue* الصادر

في سنة 2001، طرح رينيه موري Maury وفرانسوا دي كونديه مونثولون de Condé-Montholon، سليل رفيق نابليون في المنفى، أن شارل دي مونثولون أعطى نابليون جرعاً منخفضة من الزرنيخ على أمل أن يصبح مريضاً بالقدر الذي يجعل الإنجليز يوافقون على السماح بعودته إلى فرنسا. غير أن الزرنيخ تفاعل بعنف مع الكالوميل الذي يأخذه وقتله. وأكّد المؤلّفان على أن شارل دي مونثولون كان مخلصاً لنابليون، واقتبسا من رسالة كتبها لزوجته يؤكّد لها فيها حبه لنابليون ويطمئنها إلى أنه سيبقى دائماً «صديقه الوفي».

ويقول رينيه موري وفرانسوا دي كونديه مونثولون أيضاً إن دي مونثولون، الشهير بأنه عاشق ماهر يتميّز بالفحولة، تقاسم طوعاً زوجته مع نابليون الذي كان في ذلك الوقت «نصف عاجز». لكنه اكتشف عندما عاد إلى الوطن أن زوجته أغرمت بالإمبراطور فانفصلا بعيد ذلك.

مصير الشخصيات التي لم ترد نهايتها في النص

أنتومارشي، فرانشيسكو Antommachi. Francesco

بعد دفن نابليون في وادي جيرانيوم في جزيرة القديسة هيلانة، ظهر أنتومارشي في بارما. وكان يحمل، على ما يزعم، قلب الإمبراطور، الذي ورثته ماري لويز إلى جانب سوار وبعض خصلات من شعره. وكان يأمل بأن تمنحه أرملة نابليون معاشاً تقاعدياً، لكنها رفضت مقابلته واستقبله نيبرغ بدلاً من ذلك. وقد نصحته سلطات بارما بمغادرة البلاد ورفضت طلبه وعرض تقديم القلب، وبالتالي جعل بارما مزاراً يؤمّه أنصار بونابرت. وآخر أخباره أنه مارس الطب في كوبا حيث توفي في سنة 1838.

أوغيرو، بيار فوانسوا شارل، دوك كاستيليون Augereau. Pierre-Francois-Charles

كان أوغيرو مؤيّداً متحمّساً للملكية عندما رحّب بعودة لويس الثامن عشر، مع ذلك عرض خدماته على نابليون في سنة 1815. لكن تم تجاهله، ولم يطلب الملك خدماته بعد ذلك. تقاعد في الريف وتوفي في ضيعته في لاهوساي في حزيران/يونيو 1816.

بالكومب، بتسي Balcombe. Betsy

بعد أن رافقت عائلتها إلى أستراليا، حيث تقلّد والدها منصباً حكومياً، تزوّجت من رجل يدعى آبل في طريق العودة إلى إنجلترا. ولم تلبث طويلاً حتى ترمّلت، فنشرت كتابها «ذكريات عن الإمبراطور نابليون» *Recollections of the Emperor Napoleon* في سنة 1848. منحها نابليون

الثالث عقاراً في الجزائر تقديراً للطف الذي أبدته تجاه عمّه. توفيت في لندن في سنة 1873.

بارا، بول فرانسوا جان نيكولا Barras. Paul-Francois-Jean-Nicolas

بعد أن فقد نفوذه وسلطته في أعقاب انقلاب نابليون في تشرين الثاني/ نوفمبر 1799، اصطُحب من لوكسمبورغ إلى ضيعته في غروسبوا. وعند استعادة لويس الثامن عشر الملك، سعى إلى الحصول على عفو عن أنشطته السابقة المعادية للملكية وسُمح له بالعيش من دون إزعاج في ضيعته حتى وفاته في سنة 1829. وقد نشرت ذكرياته Mémoires غير الموثوقة في سنة 1895—1896.

بوهارنيه، يوجين روز دي Beauharnais. Eugéne-Rose De

بعد أن أجبر على قبول هدنة شيارينو ريزينو في نيسان/أبريل 1814، غادر إيطاليا إلى ميونيخ وبلاط حميه، الملك ماكسميليان الأول، الذي أنعم عليه بلقب دوق لوختنبرغ وأمير آيشتادت. عاش قانعاً وثرياً في آيشتادت مع زوجته المحبّة أميليا أوغستا التي توفيت بالسرطان في سنة 1824 عن عمر يناهز واحداً وأربعين عاماً، وتركت له ابنين وثلاث بنات. تزوّجت إحدى هذه البنات، الأميرة جوزفين، الأمير أوسكار، ابن برنادوت.

بوهارنيه، أورتنس – يوجين دي Beauharnais. Hortense- Eugéne De

أبعدت عن فرنسا بسبب دعمها لنابليون، فاستقرّت في أرِنبرغ على شواطئ بحيرة كونستانس في سويسرا حيث توفيت في سنة 1837. نشرت

مذكّراتها التي كتبت بين سنتي 1816 و1820 في ثلاثة أجزاء في سنة 1927.

أصبح ابنها من لويس بونابرت، شارل لويس نابليون، الإمبراطور نابليون الثالث في سنة 1852. في سنة 1814، تقدّم عشيقها، المغامر الجنسي والدبلوماسي، الكونت فلوهو دي لا بِلارديري، العشيق السابق لكارولين مورا والكونتيسة بوتوكا ووالد ابن أورتنس الذي أصبح في ما بعد دوق مورني، بطلب الزواج منها. لكنها رفضت ذلك لعدم رغبتها في الطلاق من لويس بونابرت وخسارة أبنائها منه. وتزوّج فلوهو في النهاية من ابنة الأميرال لورد كيث.

برنادوت، ديزيريه Bernadotte. Désiré

اختير زوجها، جان برنادوت ولياً لعهد السويد في سنة 1810، وأصبح ملكاً للسويد والنرويج في سنة 1818 وحكم باسم شارل الرابع عشر جون لمدة تزيد على خمس وعشرين سنة حتى وفاته في سنة 1844. تزوّج ديزيريه كلاري في 17 آب/أغسطس 1798. كانت تكره جوزفين كثيراً وتقلّد صوتها وعاداتها الشخصية المتميّزة. طلبت من نابليون أن يكون عرّاب ابنها أوسكار الذي اختار اسمه بنفسه. وأكّد أيضاً، وذلك مستبعد جداً: «جعلت برنادوت مارشالاً ثم ملكاً لأنني فضضت بكارة ديزيريه في مارسيليا». أمضت الملكة ديزيريه أقل قدر ممكن من الوقت في اسكندنافيا، متذرّعة بأن السويد «مجرد بلد آخر» اضطرت هي وزوجها «إلى الحصول على لقبه». وقد أمضت في باريس وقتاً أطول مما أمضته في اسكندنافيا، وعندما أمرها نابليون بمغادرة باريس، تجاهلت أمره. وكان حبها له قد تلاشى منذ مدة طويلة. توفيت في سنة 1860.

الكونت برتران، هنري غاتين Bertrand. Henri-Gatien

عُيّن مارشال القصر في سنة 1813، عاد إلى فرنسا بعد وفاة نابليون في سنة 1831 وانتُخب نائباً عن شاتورو، حيث وُلد وتوفي في سنة 1844. نشر كتابه «دفاتر جزيرة القديسة هيلانة» Cahiers de Sainte-Hélène. 1816–21 في ثلاثة أجزاء في السنوات 1949–59. عاد إلى جزيرة القديسة هيلانة في سنة 1840 لمرافقة بقايا نابليون إلى باريس.

بونابرت، جيروم، ملك وستفاليا Bonaparte. Jérome

عاد إلى فرنسا في سنة 1815 وقاد فرقة في ميسرة نابليون في واترلو. غادر فرنسا إلى ڤيرتمبرغ عندما تنازل أخوه عن العرش للمرة الثانية، وعند عودتهِ في سنة 1847، بعد أن أقام في تريست، في سويسرا، وإيطاليا، عُيّن حاكماً للّيزانفاليد، ومارشالاً لفرنسا، ورئيساً لمجلس الشيوخ. توفي في ڤيليجنيس في سنة 1860 وهو في الخامسة والسبعين. وكانت زوجته المخلصة كاثرين ڤيرتمبرغ قد توفيت في سنة 1835.

بونابرت، جوزيف وجولي Bonaparte. Joseph and Julie

غادر جوزيف فرنسا إلى الولايات المتحدة بعدما تنازل أخوه عن العرش للمرة الثانية، واستقرّ فترة في نيو جيرسي اسم الكونت سيرڤيلييه الواسع الثراء، مالك العديد من مجوهرات التاج الإسباني التي صادرها قبل هربه من مدريد.

بعد قضاء فترة وجيزة في إنجلترا، انتقل إلى جنوا ثم إلى فلورنسا حيث توفي في سنة 1844.

لم تكن زوجته، جولي كلاري سابقاً، امرأة جذّابة: وصفتها ماري

بيري مثلاً بأنها «امرأة سوقية ضئيلة– نحيلة جداً وقميئة، لكنها طيّبة القلب». وكانت المرأة الوحيدة في عائلة بونابرت التي تعامِل جوزفين برقّة واحترام. لم ترافق زوجها إلى الولايات المتحدة، لكنها انضمّت إليه في إيطاليا. وتوفّيت بعد عام من وفاة زوجها.

بونابرت، لويس Bonaparte. Louis

بعد تخليه عن العرش في سنة 1810 باعتباره ملك هولندا، عاش في بوهيميا والنمسا وسويسرا باسم الكونت دي سان لو، ونشر بهذا الاسم عدة كتب قليلة الأهمية. توفي في لِغهورن في سنة 1846.

بونابرت، لوسيان Bonaparte. Lucien

ساند نابليون خلال المئة يوم في سنة 1815، وبعد تخلّي أخيه عن العرش للمرة الثانية، ذهب للعيش في إيطاليا حيث توفي في ڤيتربو في سنة 1840. لم تكتمل مذكّراته Mémoires، التي نُشر جزؤها الأول في سنة 1836.

ظهر كتابه «حقيقة المئة يوم» *la vérité sur les cent-jours* في سنة 1835.

بوريان، لويس أنطوان فوڤيليه Bourrienne. Louis-Antoine Fauvelet De

بعد أن كسب ثروة في تعاملات مريبة في هامبورغ حيث أرسل لبحث تدابير الحرب التجارية على إنجلترا، استُدعي وألحق به العار. ساند لويس الثامن عشر في سنة 1815 وعمل في مجلس النواب لاحقاً. ظهرت مذكّراته في السنوات 1819–31. توفي في ملجأ قرب كين في شباط/فبراير 1834،

بعد معاناته من مرض عقلي لمدة سنتين.

كولانكور، أرمان أوغستين لويس Caulaincourt. Armand-Augustin-Louis

بعدما أصبح وزيراً للخارجية في أعقاب معركة لايبزيغ، عاد إلى منصبه في سنة 1815. وتقاعد بعد هزيمة نابليون في واترلو، ساعياً إلى تبييض صفحته في مقتل دوق إنغهاين. توفي في باريس في سنة 1827. وقد نشرت مذكّراته «مذكرات دوق ڤيشنسي» *Souvenirs du duc de Vicence* في السنوات 1837—40.

كولومبييه، كارولين Colombier. Caroline

تزوّجت أحد ضباط نابليون، الكابتن غارمبل دي برسيو، في سنة 1792. عيّنها نابليون لاحقاً وصيفة لأمه، في حين أصبح زوجها مديراً للغابات. صُدم نابليون من مظهرها عندما رآها ثانية في طريقه للتتويج في إيطاليا. فقد تغيّرت كثيراً.

دينويل، شارل ليون Denuelle. Charles Léon

بعد أن قدّم نابليون مساعدة سخية للصبي في حياته، ترك له في ملحق وصيته ثلاثمئة وعشرين ألف فرنك لشراء عقار. كان يحبه كثيراً، وغالباً ما يرسل في طلبه عندما يرتدي ملابسه أو يتناول طعام الفطور ويلاعبه. كبر الصبي وأصبح مسرفاً مشاكساً، وصُرف من قيادة مفرزة من الحرس الوطني. تحسّنت حظوظه خلال الإمبراطورية الثانية عندما حصل على معاش قدره ستة آلاف فرنك وسُدّدت ديونه من اللائحة المدنية.

على الرغم من أنه سجّل عند مولده ابن امرأة عانس ووالد مجهول، فقد تزايد شبهه بنابليون بمرور السنين لدرجة أن المارّين به كانوا يتوقّفون للتحديق به في الشارع.

عاش متبطّلاً غير متوازن علياً، واعتاد ارتياد بيوت القمار والدعارة ومات فقيراً بسبب سرطان في المعدة في بُنتواز في 15 نيسان/أبريل 1881.

دينويل، إيليونور Denuelle. Eléonore

منحها نابليون دخلاً يساوي اثنين وعشرين ألف ليرة في شباط/فبراير 1808 بالإضافة إلى منزل في شارع النصر. تزوّجت ملازماً في المشاة، بيار فيليب أوغييه، في سنة 1808، وبعد وفاته في سنة 1814، تزوّجت رائداً في الجيش الباڤاري، شارل أوغست إميل، كونت لوكسمبورغ. توفّيت في سنة 1868.

دوشسنوا، جوزفين Duchesnois. Josephine

بعد أن مثّلت في المسرح الكوميدي الفرنسي لمدة ثمانٍ وعشرين سنة، أجبرت على التقاعد من المسرح بسبب اعتلال صحتها، وتوفيّت في ظروف سيّئة في سنة 1835، مخلّفة ثلاثة أبناء، ولدين وبنتاً، كل منهم من رجل مختلف. كان والد الابن الأكبر الابن بالتبني للكاتبة مدام دي غنليس، ولابن الأصغر حفيدها.

إليوت، غريس دالريمبل Grace Dalrymple

بعد عودتها من إنجلترا إلى فرنسا، ذهبت في نهاية حياتها للعيش في ڤيل داڤري حيث توفيت في أواسط الستينيات من العمر في أيار/مايو 1823.

وقد نشرت مذكّراتها غير الموثوقة «حياتي إبّان الثورة الفرنسية» *Journal of my Life During the French Revolution* بعد وفاتها.

فش، جوزيف Fesch. Joseph

بعد أن جنى ثروة كبيرة عن طريق مشاريع تجارية مريبة، عُين خال نابليون مطراناً على ليون في سنة 1802. وبعد سنة أصبح كاردينالاً وسفير فرنسا في روما. وبعد ذلك أصبح أقرب إلى البابوية من قربه من ابن أخته. وقد أورث عدداً من الأعمال الفنية في مجموعته الكبيرة إلى مدينة ليون. توفي في روما في سنة 1839.

فوشيه، جوزيف، دوق أوترانت Fouché. Joseph

قال نابليون: «لو أنني شنقت رجلين اثنين، تاليران وفوشيه، لبقيت على العرش حتى الآن». بعدما ساعد تاليران في إعادة لويس الثامن عشر إلى العرش بعد أن ترأس الحكومة الانتقالية، ندّد به الملكيون العائدون في سنة 1816 باعتباره قاتلاً للملك. وقد جمع ثروة كيرة وعاش في المنفى في براغ ولينتز قبل أن ينتقل إلى تريست حيث مات يوم عيد الميلاد في سنة 1820. نشرت مذكّراته في جزءين في سنة 1824.

فرانسيس الأول، إمبراطور النمسا Francis I

توفي في سنة 1835 بعد أن أيّد مؤتمر ڤيينا سياسات مترنيخ المحافظة، إن لم تكن القمعية.

غوريكير، غيديون Gorrequer. Gideon

بعد أن عاد إلى إنجلترا في أعقاب وفاة نابليون، رقّي إلى رتبة مقدّم في سنة 1826. خدم لمدة ثلاثين سنة في الفوج الأيرلندي الملكي ثم في فوج الملك. توفي فجأة بعد أن انهار في شارع جيرمين في لندن في تموز/يوليو 1841.

غورغو، غاسبار Gourgaud. Gaspard

عاد من جزيرة القديسة هيلانة إلى فرنسا في سنة 1821، وعاد إلى مهنته العسكرية وكتب عدداً من الأعمال التاريخية بما في ذلك دحضاً مفصّلاً لكتاب السير والتر سكوت عن حياة نابليون وكتاباً من جزءين بعنوان: «جزيرة القديسة هيلانة: سجلات يومية غير منشورة» *Saint Hélène: Journal inédit*. انتُخب عضواً في الجمعية التشريعية، وأصبح مؤيّداً قوياً لنابليون الثالث. توفي في باريس في سنة 1852.

غراسيني، غيوسبينا Grassini. Giuseppina

عندما كان نابليون في ميلانو في أثناء حملته الأولى في إيطاليا، سعت غراسيني جاهدة لإغوائه. لكنه كان مشغولاً في التفكير بجوزفين في ذلك الوقت، فحافظ على «برودته». لكن في طريق العودة من مارنغو، «استسلم نابليون لسحرها». عرفت في ما بعد بلقب «مطربة الإمبراطور»، وتوفيت في سنة 1850 عن عمر يناهز خمسة وسبعين عاماً.

جونو، أندوش، دوق أبرانتس Junot. Andouche

أرسل إلى إسبانيا، فهزمه وِلنغتون في ڤيميرو في آب/أغسطس 1808.

وخدم من دون تميّز في الحملة الروسية. أصيب بالجنون بعد تعيينه حاكماً للمقاطعات الإيليرية في سنة 1813. وفي تموز/يوليو من تلك السنة، انتحر برمي نفسه من النافذة.

جونو، لور، دوقة أبرانتس Junot. Laure

انضمّت «حشرة» نابليون الصغيرة إلى زوجها أندوش في البرتغال بعد أن دخل لشبونة ظافراً في سنة 1807، وأظهرت ميلها الشديد للإسراف هناك. وبعد أن أقامت علاقات مع مترنيخ وموريس دي بالِنكور، طلب منها نابليون مغادرة باريس معترضاً على ملاحظاتها اللاذعة ومرافقتها للاجئين السياسيين السابقين. لم تساند نابليون في سنة 1815 وأمضت بعد ذلك كثيراً من وقتها في روما.

كتبت تاريخاً من ستة أجزاء عن صالونات باريس، ورواية عن حياتها في إسبانيا، وذكريات حيوية من ثمانية أجزاء تتسم بالسخرية والخبث في الغالب، وظهر الجزء الأخير منها في سنة 1835. توفيت في باريس بعد ذلك بثلاث سنوات.

لاس كاس، إيمانويل أوغستين ديو دونّيه مارين جوزيف، الكونت Las Cases. Emmanuel-Augustin-Dieu-Donné-Marin-Jpseph

نُقل من جزيرة القديسة هيلانة بعد أن كتب رسالة يدين فيها طريقة معاملة نابليون، ومُنع من العودة إلى فرنسا، فسافر إلى ألمانيا وبلجيكا إلى أن سُمح له بالعودة إلى فرنسا في أعقاب وفاة نابليون. اختير نائباً عن سان دنيس في سنة 1831 وأصبح خصماً بارزاً للويس فيليب. وبعد أن استعاد مخطوط «ذكريات جزيرة القديسة هيلانة» *Mémorial de St-*

Hélène الذي استولت عليه الحكومة البريطانية، نشره في سنة 1823. وفي سنة 1840، رافق بقايا نابليون من جزيرة القديسة هيلانة إلى باريس. توفي في باسي في أيار/مايو 1842.

لاو، سير هدسون Lowe. Sir Hudson

غادر جزيرة القديسة هيلانة بعد وفاة نابليون بثلاثة أشهر، وسلّم الحكم إلى العميد جون باين كوفِن. في سنة 1823، عُيّن حاكماً لأنتيغا، وخدم لاحقاً في سيلان، وعاد إلى إنجلترا بعد أن رقّي إلى فريق في السنة السابقة. على الرغم من أنه كان ثرياً جداً عندما غادر جزيرة القديسة هيلانة، فإن المصاريف التي تكبّدها على الإجراءات القانونية ضدّ باري أوميرا وسير والتر سكوت، وكان كلاهما قد كتب روايات معادية لحكمه في جزيرة القديسة هيلانة، أنقصت ثروته كثيراً. وعندما عرضت مسرحية عن نابليون في جزيرة القديسة هيلانة، شُتم الممثّل الذي أدّى دور لاو ورُشق بالحجارة عندما غادر المسرح وكان لا بد من تزويده بحرّاس شخصيين في طريق عودته إلى البيت كل ليلة. توفي في منزله في تشلسي في كانون الثاني/يناير 1844. وكانت زوجته قد توفيت قبله في سنة 1832.

مارشان، لويس Machand. Louis

خلف لويس كونستان واري باعتباره خادماً أول لنابليون. عيّن منفّذاً لوصية سيّده التي أمر فيها بأن «يتزوّج أرملة ضابط أو جندي في حرسي القديم أو أخته أو ابنته». وقد نفّذ الأمر بعد سنتين من عودته إلى فرنسا بالزواج من ميشيل ماتيلد براير، ابنة جنرال في الحرس. وكتب نابليون، «لقد خدمني كصديق». وتُرك له ما يكفي من المال ليعيش مرتاحاً ما تبقى

من عمره، بعد أن ورث مبلغاً من المال لرعاية طفل ولدته إستير ڤيزي في جزيرة القديسة هيلانة. توفي عن عمر يناهز الرابعة والثمانين.

ماري لويز Marie-Louise

بعدما عرفت ماري لويز، التي مُنحت دوقيات بارما وبياشنزا وقشتالة، بنبأ وفاة نابليون، تزوّجت سراً من عشيقها آدم أدالبير، غراف ڤون نيبرغ، بعد أن ولدت بالفعل اثنين من أبنائه، فتاة أسميت ألبرتينا ماريا في القصر الدوقي في بارما في سنة 1817، وصبي، غوغليمو ألبرتو، في آب/أغسطس 1819. وصار في وسع ماري لويز أن «تقول بحق إنها تعيش أسعد أوقاتها» وأن حياتها «مفعمة بالسعادة. ولو لم أرتكب خطيئة الكبرياء لكنت أستحقّ تلك السعادة لأن الله يعلم كم عانيت في حياتي». وقد حكمت دوقياتها حكماً مستنيراً بمساعدة نيبرغ، وعُرفت باسم «الدوقة الرشيدة».

بعد وفاة نيبرغ في سنة 1829، عُهد بالشؤون السياسية في بارما لسكرتيره الأول، البارون جوزيف وركلين، الذي غادر المدينة في أوقات الاضطرابات السياسية التي أجبرت فيها ماري لويز على أخذ طفليها إلى بياشنزا. وأصبحت موضوع الكثير من القصص عن المغامرات الجنسية الطائشة مع العديد من العشاق، بمن فيهم الحرس. لكنها تزوّجت في شباط/فبراير 1834 المسؤول عن قصرها، وهو كونت فرنسي يدعى شارل دي بومبِل، واستقرّت حياتها. توفيت في سن السادسة والخمسين في سنة 1847، ودُفنت إلى جانب أبيها وابنها نابليون الثاني، في قبو قرب كابوزينركيرش.

مترنيخ، كليمنس فورست فون Metternich. Klemense Fürst von

بقي واسع النفوذ في الحكومة النمساوية حتى سنة 1848 عندما أجبر على الاستقالة واللجوء إلى إنجلترا باعتباره رمزاً للقمع. عاد إلى ڤيينا في سنة 1851. توفيت زوجته الأولى في سنة 1825، وزوجته الثانية في سنة 1829، والثالثة في سنة 1854. وتوفي هو في سنة 1859.

دي مونثولون، شارل تريستان De Montholon. Charles Tristan

أمضى مونثولون عدة سنوات في بلجيكا بعد عودته من جزيرة القديسة هيلانة. نشرت مذكّراته «مذكرات في تاريخ فرنسا تحت حكم نابليون» *Mémoires pour servir à l)histoire de France sous Napoléon* (كتبت بالتعاون مع الجنرال غورغو) في سنة 1823. وفي سنة 1840، شارك في حملة لويس نابليون على بولون وسُجن في هان في أعقاب ذلك. وعند إطلاق سراحه في سنة 1847 انتقل إلى إنجلترا ونشر «روايات احتجاز نابليون في جزيرة القديسة هيلانة» Récits de la captivité de Napoléon à Ste Hélène في جزءين في تلك السنة. وبعد سنتين انتخب نائباً في الجمعية التشريعية. توفي في آب/أغسطس 1853. ونشرت ذكريات المركيز دي مونثولون «ذكريات جزيرة القديسة هيلانة، 1815–16» *Souvenirs de Ste Hélène* في سنة 1901.

نابليون الثاني Napoleon II

استُثني من وراثة ممتلكات ماري لويز في إيطاليا بموجب معاهدة باريس في سنة 1817، وحصل على لقب دوق رايخشتادت في السنة التالية، لكن لم يسمح له بممارسة دور سياسي في النمسا. توفي بالسل في شونبرون في

تموز/يوليو 1832 وهو في الحادية والعشرين.

في سنة 1940، نُقل جثمانه، بأمر من هتلر، إلى باريس ليدفن إلى جانب والده.

نابليون الثالث Napoleon III

انتُخب لويس نابليون بونابرت، ابن لويس وأورتنس، رئيساً للجمهورية الفرنسية في سنة 1848. اتخذ لقب نابليون الثالث في سنة 1852 في أعقاب انقلاب. وبعد هزيمة فرنسا في الحرب الفرنسية البروسية، توفي في شيزلهورست، كنت، في سنة 1873.

باترسون، إليزابيث Patterson. Elizabeth

بقيت مقيمة في إنجلترا بعد أن أبطل نابليون زواجها من جيروم بونارت، حيث قيل إنها وشقيقتيها، لويزا وماريان، خطين «بإعجاب عام» في مجتمع لندن. ويعتقد أن ماريان أقامت علاقة قصيرة مع وشلنغتون، بعد أن تزوّجت من أخيه الداعر، ريتشارد، مركيز وِلزلي، أو قبل ذلك. وتزوّجت أختها لويزا من العقيد فِلتون هارفي، أحد مساعدي وِلنغتون، وبعد وفاة هارفي، تزوّجت من مركيز كارمارثِن. عادت إليزابيث إلى بلتيمور وتوفيت في سنة 1879، وهي تعاني من كآبة شديدة وتنعم بثروة عظيمة، في سن الرابعة والتسعين. وأصبح حفيدها، تشارل بونابرت باترسون نائباً عاماً في عهد تيودور روزفلت.

بِلابرا، إميلي دي Pellapra. Emilie De

رغم أن نابليون اعترف ضمناً بأنها ابنته من مدام بِلابرا، فإن ادّعاء

إميلي بأنها كذلك استند إلى حدّ كبير شبهها الوهمي به. أصبحت أميرة كامي. ظهرت مذكّراتها «ابنة نابليون: مذكرات إميلي دي بِلابرا، كونيسة برغود، وأميرة كامي» *A Daughter of napoleon: Memoires of Emilie de Pellapra. countesse de Brigode. princess de Chimay* في سنة 1922. ونشرت الأميرة بيبسكو مراسلاتها في سنة 1950.

ريكامييه، جين فرانسواز جولي أديليد Récamier. Jeanne-Francoise-Julie-Adelaide

تزوّجت وهي في الخامسة عشرة من المصرفي الثري والمسنّ، جاك ريكامييه، وكانت جميلة وطاهرة. رفضت تودّد نابليون، وكذا تودّد لوسيان، وعندما تعرّض زوجها لضائقة مالية وفاتح مصرف فرنسا لمنحه قرضاً، حرص نابليون على أن يُرفض طلبه. فأدى ذلك إلى خراب مصرف ريكامييه.

عندما توجّهت مدام ريكامييه للإقامة مع صديقتها، مدام دي ستال، في سويسرا، أمر نابليون بنفيها مسافة لا تقل عن أربعين فرسخاً عن باريس. وقد عادت إلى باريس بعد نفي نابليون إلى جزيرة القديسة هيلانة، ومع أنها كانت تعاني من ضائقة، فقد ترأست صالوناً أنشئ في آبي أوكس بوا. وكان صديقها فرانسوا شاتوبريانو شخصية بارزة فيه. وقد ظهرت كشخصية في رواية مدام دي ستال «كورين» *Corrine*. توفيت في باريس في سنة 1849.

ريموسا، كلير Rémusat. Claire

مولودة كلير إليزابيث جين غراڤييه دي ڤيرجن، تزوّجت في سن

السادسة عشرة من أوغست لوران دي رموسا، كبير خدم نابليون. وعُيّنت وصيفة لجوزفين في سنة 1802. توفيت في سنة 1821. نشر حفيدها الصحافي، بول دي ريموسا، مذكّراتها في ثلاثة أجزاء في سنة 1879–80. ونُشرت رسائلها التي تشمل الفترة 1804–14 في سنة 1881.

ستال، آن لويز جيرمين، مدام دي Staël. Anne-Louise-Germaine. Madame De

عندما استعاد آل بوربورن الملك في سنة 1814، رجعت إلى باريس، لكنها عادت إلى كوبيه، منزل عائلتها في سويسرا خلال المئة يوم، وفي أيلول/سبتمبر ذهبت إلى إيطاليا، لترجع ثانية إلى كوبيه في السنة التالية. وعندما رجعت إلى باريس للمرة الأخيرة، كانت في حالة صحية سيّئة وتوفّيت هناك في سنة 1817. وقد استمرّت «تلك العاهرة» كما كان يسمّيها نابليون في تروّس صالونها حتى النهاية «واستقبال الضيوف ليل نهار».

تاليران، شارل موريس دي تاليران Talleyrand. Charles-Maurice De Talleyrand-Perigord

عيّنه لويس الثامن عشر وزيراً للخارجية في سنة 1814، وقد مثّل فرنسا بفعالية في مؤتمر ڤيينا. عُيّن سفيراً لفرنسا في بلاط سانت جيمس بين سنتي 1830 و1834. توفي في باريس في سنة 1838.

تاليان، جان لامبرت Tallien. Jean-Lambert

ساند تاليان عودة البوربون الأولى، ثم نابليون خلال المئة يوم، ولم يكن

يحظى بثقة جميع الأطراف. وعند عودة البوربون الثانية، فشلت مساعيه في الحصول على معاش وتوفي فقيراً في باريس في تشرين الثاني/نوفمبر 1820، بعد أن باع كتبه لشراء الطعام. وفي ذلك الوقت أصيب بتشوّه من الجرب، وفقد عيناً من الحمّى الصفراء، وطلّق زوجته التي هجرته.

تاليان، تريزا Tallien. Thérésia

زوجة كونت دي فونتاني المطلّقة، وابنة المصرفي الإسباني فرانسوا كاباراس. أصبحت عشيقة جان لامبرت تاليان، وزوجته لاحقاً. عُرفت باسم «سيدتنا في تيرميدور» تقديراً للأرواح التي أنقذتها بتوسّلاتها لزوجها. وفي النهاية أصبحت عشيقة المصرفي أوڤارد وهجرت زوجها الذي طلّقها. وبعد ذلك تزوّجت الكونت دي كارامان، أمير كماي لاحقاً. رافقت زوجها عندما عيّن كبير الخدم في بلاط بروكسل، لكن استُبعدت من وظائف القصر بسبب ماضيها الداعر. وكانت سمعتها كذلك، إذ إنها عندما زارت اللوڤر مع مجموعة من أبنائها من أربعة رجال مختلفين، أحاط بها حشد مهدّد وأجبرت على المغادرة. توفيت في سنة 1835.

والوڤسكا، ماري Walewska. Marie

توفي زوجها المسنّ كونت والوڤسكي في سنة 1814، فتزوّجت الكونت دورانو، وهو ضابط سابق في الحرس الإمبراطوري، في لييج في سنة 1816. حملت منه طفلاً في السنة التالية، لكنها لم تتعافِ من مخاضها وتوفيت في منزلها في شارع النصر في 15 كانون الأول/ديسمبر 1817. استاء نابليون عندما عرف بأمر زواجها الثاني. لم يكن من «طبعه أن يسمح

لمن أحبها بأن تحبّ أحداً غيره».

والوفسكين ألكسندر فلوريان جوزيف كولونا Walewski. Alexandre Florian Joseph Colonna

ابن نابليون من مدام والوفسكا. استصدر أوراق الجنسية في فرنسا والتحق بالجيش الفرنسي. استقال من مهمته في سنة 1837، وأصبح صحافياً وكاتباً مسرحياً في ما بعد.

بعد أن تبوّأ لويس نابليون السلطة، أرسل مبعوثاً إلى فلورنسا ونابلولي ولندن. وفي لندن، وصفه الكاتب شارل غريفيل بأنه «شهير في المجتمع» و«وسيم جداً». اصبح وزيراً للخارجية في سنة 1855 وعضواً في مجلس الشيوخ ورئيساً للمجلس في وقت لاحق. توفي في ستراسبورغ في سنة 1868.

قال لورد بالمرستون إن خطأه الوحيد افتقاره إلى روح الفكاهة. رُزق بابن من الممثّلة التراجيدية راشيل (الاسم الفني لإليزابيث فيلكس). وفي كانون الأول/ديسمبر 1831، تزوّج الابنة الثانية لإيرل ساندويش السادس، ليدي كاثرين مونتاغو التي توفيت في سنة 1834.

واري، لويس كونستان Wary. Luois Constant

ابن صاحب نزل بلجيكي، لويس كونستان، عمل خادماً لنابليون من سنة 1800 حتى تنحيه الأول، عندما خلفه لويس مارشان. تقاعد بعد ذلك في بيكاردي حيث أقنعه كتاب أشباح بتقديم مضمون مذكّراته التي نشرت في سنة 1830.

فايمر، مارغريت جوزفين (الآنسة جورج) Weimer. Marguerite-Josephine

كانت الآنسة جورج عشيقة لنابليون، وبعد أن نبذها توجّهت إلى سان بطرسبرج معتقدة خطأ أنها ستتزوّج من الكونت موريس بنكندورف. وبقيت هناك لمدة خمس سنوات إلى أن غزا نابليون روسيا، عندما غادرت البلد عن طريق السويد. وفي طريق عودتها إلى باريس، أعيدت بطلب من نابليون إلى المسرح الكوميدي لتبعد منه في سنة 1817 بسبب سلوكها المستبد والمزاجي. وبعد أن أصبحت عشيقة جان فرانسوا شارل هارِل، الذي ولدت له الآنسة دوشسنوا طفلاً، انضمت إلى شركة أوديون حيث حقّقت جديداً.

في متوسّط عمرها، أصبحت بدينة جداً بحيث عرفت باسم «الحوت».

جالت في المقاطعات ومثّلت في الخارج، ووجدت عملاً بين الحين والآخر عند عودتها إلى باريس مسرح بور سان مارتان والمسرح الإيطالي. لكن سمنتها في ذلك الوقت «بلغت حداً سخيفاً» وفقاً لڤيكتوريان ساردو.

جرت محاولات عديدة لمساعدتها مالياً، لكن إسرافها أدى إلى وفاتها فقيرة قبل بضعة أسابيع من عيد ميلادها الثمانين في سنة 1867.

الترتيب الزمني للأحداث

1763	23 كانون الثاني/يناير	مولد جان برنادوت (لاحقاً شارل الرابع عشر جون السويد والنرويج) في باو
	23 حزيران/يونيو	مولد ماري جوزيف روز تاشر دي لا باغيري، لاحقاً الإمبراطورة جوزفين، في «تروا أيلتس»، المارتينيك
1767	25 آذار/مارس	مولد يواكيم مورا في لا باستيد فورتونير
1768	7 كانون الثاني/يناير	مولد غيسيب (جوزيف) بونابرت في كورت، كورسيكا جمهورية كورسيكا
1769	15 آب/أغسطس	مولد نابليون بونابرت في أجاكسيو
1774	10 أيار/مايو	لويس السادس عشر يعتلي عرش فرنسا
1775	23 أيار/مايو	مولد لوتشيانو (لوسيان) بونابرت في أجاكسيو
1777	3 كانون الثاني/يناير	مولد ماريا آنا (إليزا) بونابرت في أجاكسيو
1778	2 أيلول/سبتمبر	مولد لويجي (لويس) بونابرت في أجاكسيو
1779	13 أيار/مايو	نابليون يلتحق بالكلية الحربية في بريان
1780	20 تشرين الأول/أكتوبر	مولد ماريا باولا (بولين) بونابرت في أجاكسيو
1781	3 أيلول/سبتمبر	مولد يوجين دي بوهارنيه
1782	25 آذار/مارس	مولد ماريا أنوزياتا (كارولين) بونابرت في أجاكسيو
1783	10 نيسان/أبريل	مولد أورتنس دي بوهارنيه
1784		نابليون ينتقل إلى الكلية الحربية في باريس

	6 تشرين الثاني/نوفمبر	مولد لور بيرمون، دوقة أبرانتِس لاحقاً في مونبيلييه
	15 تشرين الثاني/نوفمبر	مولد غيرولامو (جيروم) بونابرت
1785		وفاة والد نابليون، كارلو بونابرت، بسرطان المعدة
1786		مولد ماري والوفسكا
1787		مولد إيليونور دينويل دي لا بلاين
1789	5 أيار/مايو	اجتماع المجلس التشريعي في ڤرساي
	14 تموز/يوليو	سقوط الباستيل عودة نابليون إلى كورسيكا في إجازة
1790		نابليون ينشط سياسياً في كورسيكا
1791		نابليون يعاود الالتحاق بمفرزته
	20 حزيران/يونيو	هرب العائلة المالكة إلى ڤارِن
	تشرين الأول/أكتوبر	نابليون يعود إلى كورسيكا
	كانون الأول/ديسمبر	مولد الإمبراطورة ماري لويز في ڤيينا
1792	20 نيسان/أبريل	فرنسا تعلن الحرب على النمسا
	8 تموز/يوليو	فرنسا تعلن الحرب على بروسيا
	آب/أغسطس	القوات البروسية والنمساوية تغزو فرنسا
	10 آب/أغسطس	اقتحام قصر تويليري ومذبحة الحرس السويسري
	13 آب/أغسطس	سجن العائلة الملكية
	22 أيلول/سبتمبر	إعلان الجمهورية الفرنسية
1793	21 كانون الثاني/يناير	إعدام لويس السادس عشر بالمقصلة
	1 شباط/فبراير	فرنسا تعلن الحرب على بريطانيا وهولندا
	7 آذار/مارس	فرنسا تعلن الحرب على إسبانيا

	11 حزيران/يونيو	آل بونابرت يبحرون من كورسيكا إلى فرنسا
	سبتمبر – ديسمبر	نابليون يشتهر كضابط مدفعية في حصار طولون
	22 كانون الأول/ديسمبر	ترقية نابليون إلى لواء
1794	فبراير	تعيين نابليون قائداً للمدفعية في جيش إيطاليا
	22 نيسان/أبريل	اعتقال جوزفين وسجنها في لي كارم
	23 تموز/يوليو	إعدام ألكسندر دي بوهارنيه
	28 تموز/يوليو	إعدام روبسبيير بالمقصلة في رد الفعل التيرميدوري
	1 آب/أغسطس	جوزيف بونابرت يتزوّج جولي كلاري
	8 آب/أغسطس	اعتقال نابليون
1795	5 تشرين الأول/أكتوبر	نابليون يقصف المتمرّدين الذين حاصروا المؤتمر الوطني في باريس بالمدافع ويخمد التمرّد
1796	9 آذار/مارس	نابليون يتزوج جوزفين دي بوهارنيه
	11 آذار/مارس	تعيين نابليون قائداً عاماً لجيش إيطاليا
	تموز/يوليو	تعيين تاليران وزيراً للخارجية في حكومة الإدارة
	15–17 تشرين الثاني/نوفمبر	نابليون يهزم النمساويين في أركولا
1797	4 كانون الثاني/يناير	هزيمة النمساويين في ريفُولي
	2 شباط/فبراير	استسلام مانتوا
	5 أيار/مايو	إليزا بونابرت تتزوج فِليتشي باكيوشي وبولين بونابرت تتزوّج الجنرال لوكليرك
	1 حزيران/يونيو	نابليون يستقبل أمه عند بوابات ميلانو
	9 تموز/يوليو	الإعلان عن جمهورية سيسالبين

	4 أيلول/سبتمبر	نجاح انقلاب 18 فروكتيدور (الشهر الثاني عشر)
	17 تشرين الأول/أكتوبر	معاهدة كامبو فورميو تنهي حملة إيطاليا الأولى نابليون يعين قائداً لقوات غزو إنجلترا
1798	3 كانون الثاني/يناير	جوزفين تعود إلى باريس قادمة من إيطاليا
	19 أيار/مايو	نابليون يبحر إلى مصر
	10–12 حزيران/يونيو	احتلال مالطا
	1 تموز/يوليو	احتلال الإسكندرية
	19 تموز/يوليو	جونو يبلغ نابليون عن علاقة جوزفين بالكابتن شارل
	1 آب/أغسطس	نلسون يدمّر الأسطول الفرنسي في معركة النيل
	17 آب/أغسطس	جان برنادوت (شارل الرابع عشر جون السويد والنرويج لاحقاً) يتزوّج ديزيريه كلاري
1799	شباط/فبراير	نابليون يزحف على سورية
	21 نيسان/أبريل	شراء مالميزو
	10 أيار/مايو	صدّ هجوم نابليون على عكا
	25 تموز/يوليو	هزيمة الأتراك في أبي قير
	22 آب/أغسطس	نابليون يبحر إلى الإسكندرية
	14 تشرين الأول/أكتوبر	نابليون يعود إلى باريس
	9–10 تشرين الثاني/ نوفمبر	انقلاب يطيح بحكومة الإدارة وينشئ حكم القناصل

	10 تشرين الثاني/نوفمبر	مرافقة بارا من لوكسمبورغ إلى ضيعته في غروبوا
1800		أندوش جونو يتزوّج لور بيرمون
	19 شباط/فبراير	نابليون يستقر في تويليري باعتباره قنصلاً أول
	أيار/مايو– حزيران/ يونيو	حملة نابليون الثانية على إيطاليا
	14 حزيران/يونيو	هزيمة النمساويين في مارنغو
	24 كانون الأول/ديسمبر	نابليون ينجو من الاغتيال في باريس
1801	9 شباط/فبراير	توقيع معاهدة لونيڤيل مع النمسا
	16 تموز/يوليو	إبرام اتفاقية مع البابا بيوس السابع
1802	4 كانون الثاني/يناير	لويس بونابرت يتزوّج أورتنس دي بوهارنيه
	25 آذار/مارس	توقيع معاهدة أميان مع بريطانيا العظمى
	2 آب/أغسطس	تعيين نابليون قنصلاً أول مدى الحياة
	نوفمبر	وفاة ڤيكتور إيمانويل لوكليرك
1803		بولين بونابرت، لوكليرك لاحقاً، تتزوّج الأمير كاميلو بورغيز
	18 أيار/مايو	إنجلترا تعلن الحرب نابليون يعدّ العدة لغزو إنجلترا نابليون يقابل مارغريت جوزفين ڤيمر (الآنسة جورج)
1804	20–21 آذار/مارس	اختطاف دوق إنيان وإعدامه
	21 آذار/مارس	الإعلان عن القانون المدني
	28 أيار/مايو	نابليون يصبح إمبراطوراً
	2 كانون الأول/ديسمبر	نابليون يتوّج نفسه وجوزفين في نوتردام

السنة	التاريخ	الحدث
1805		جيروم بونابرت يحضر زوجته الأميركية، إليزابيث باترسون، إلى إنجلترا
	23 آذار/مارس	منح لقب والدة الإمبراطور الرسمي على والدة نابليون
	26 أيار/مايو	تتويج نابليون ملكاً على إيطاليا في كاتدرائية ميلانو
	تموز/يوليو– آب/أغسطس	بريطانيا والنمسا والسويد وروسيا تنشئ ائتلافاً مناهضاً لفرنسا
	20 تشرين الأول/أكتوبر	هزيمة النمساويين في أولم
	21 تشرين الأول/أكتوبر	نلسون يهزم الأسطول الفرنسي في الطرف الأغرّ
	13 تشرين الثاني/نوفمبر	نابليون يدخل ڤيينا
	2 كانون الأول/ديسمبر	انتصارات نابليون في أوسترليتز
1806	30 آذار/مارس	جوزيف بونابرت يصبح ملك نابولي
	5 حزيران/يونيو	لويس بونابرت يصبح ملك هولندا
	12 تموز/يوليو	تشكيل اتحاد الراين الكونفدرالي تحت الحماية الفرنسية من دول جنوب ألمانيا
	14 تشرين الأول/أكتوبر	نابليون يهزم بروسيا وساكسونيا في جينا وأورستادت
	13 كانون الأول/ديسمبر	مولد شارل ليون دينويل، ابن نابليون من دون زواج
	15 كانون الأول/ديسمبر	نابليون يدخل وارسو
1807	1 كانون الثاني/يناير	ماري والوڤسكا تقابل نابليون في بروني
	8 شباط/فبراير	معركة إيلاو غير الحاسمة بين فرنسا وجيش روسي بروسي مشترك

	14 حزيران/يونيو	فرنسا تهزم الجيش الروسي البروسي المشترك في فريدلند
	7 تموز/يوليو	نابليون يوقّع معاهدة تلسيت مع روسيا بعد لقائه القيصر الروسي ألكسندر وفريدريك ويليام الثالث عند نهر نيمن، وبموجب هذه المعاهدة توافق روسيا على إنشاء دوقية وارسو وتعترف باتحاد الراين
	آب/أغسطس	تسمية جيروم بونابرت ملك وستفاليا
	2–5 أيلول/سبتمبر	البريطانيون يقصفون كوبنهاغن لمنع نابليون من استخدام الأسطول الدنمركي
	27 تشرين الأول/أكتوبر	بموجب معاهدة فونتنبلو، فرنسا وإسبانيا تتفقان على فتح البرتغال
	19 تشرين الثاني/نوفمبر	الجيش الفرنسي يغزو البرتغال
	29 تشرين الثاني/نوفمبر	العائلة المالكة البرتغالية تفرّ إلى البرازيل
1808	16 شباط/فبراير	فرنسا تغزو إسبانيا
	آذار/مارس	تعيين جوزيف بونابرت ملكاً على إسبانيا
	20 نيسان/أبريل	مولد شارل لويس نابليون بونابرت، نابليون الثالث لاحقاً، في باريس
	أيار/مايو	الآنسة جورج تغادر باريس إلى روسيا
	19 تموز/يوليو	استسلام الجنرال دوبون في بيلان
	21 آب/أغسطس	ولزلي يهزم الفرنسيين في ڤيميرو
	4 كانون الأول/ديسمبر	نابليون يدخل مدريد ليعيد جوزيف إلى العرش
1809	22 نيسان/أبريل	نابليون يهزم النمساويين في إكمول
	أيار/مايو	تسمية إليزا بونابرت دوقة توسكانيا

	5–6 تموز/يوليو	هزيمة النمساويين في ڤاغرام
	28 تموز/يوليو	ولزلي يهزم الفرنسيين في تالڤيرا
	8 تشرين الأول/أكتوبر	فرانسيس الأول يعيّن مترنيخ وزيراً للخارجية
	14 كانون الأول/ديسمبر	نابليون يوقّع إعلاناً أولياً بالانفصال عن جوزفين
1810	1–2 نيسان/أبريل	نابليون يتزوّج ماري لويز
	4 أيار/مايو	مولد ابن نابليون من دون زواج، ألكسندر والوڤسكي، في والوڤيس قرب وارسو
	27 أيلول/سبتمبر	ولنغتون يهزم الفرنسيين في بوساكو
1811	20 آذار/مارس	مولد ابن نابليون، ملك روما، في باريس
1812	24 حزيران/يونيو	نابليون يعبر نهر نيمن ويدخل روسيا
	12 آب/أغسطس	ولنغتون يدخل مدريد
	7 أيلول/سبتمبر	الروس يهجرون موسكو بعد هزيمتهم في بورودينو
	14 أيلول/سبتمبر	نابليون يدخل موسكو التي تشتعل حتى 19 أيلول/سبتمبر
	19 تشرين الأول/أكتوبر	بدء الانسحاب من موسكو
	5 كانون الأول/ديسمبر	نابليون يترك قيادة الجيش لمورا ويعود إلى باريس
1813	2 أيار/مايو	نابليون يهزم البروسيين والروس في لوتزن
	22 أيار/مايو	إصابة صديق نابليون، الجنرال دوروك، بجراح قاتلة
	21 حزيران/يونيو	ولنغتون يهزم الفرنسيين في ڤيتوريا
	16–19 تشرين الأول/ أكتوبر	هزيمة نابليون في معركة ليبزيغ

1814	1 كانون الثاني/يناير	الحلفاء يغزون فرنسا
	11 كانون الثاني/يناير	مورا يهجر نابليون
	30–31 آذار/مارس	الحلفاء يدخلون باريس
	11 نيسان/أبريل	نابليون يتنازل عن العرش في فونتنبلو
	13 نيسان/أبريل	نابليون يحاول الانتحار
	20 نيسان/أبريل	نابليون يبحر إلى جزيرة إلبا
	3 أيار/مايو	وصول الملك لويس الثامن عشر إلى باريس
	29 أيار/مايو	وفاة الإمبراطورة جوزفين في مالميزو
	1 تشرين الثاني/نوفمبر	افتتاح مؤتمر ڤيينا
1815	26 شباط/فبراير	نابليون يهرب من جزيرة إلبا
	1 آذار/مارس	نابليون ينزل في خليج جوان
	20 آذار/مارس	نابليون يعود إلى باريس ولويس الثامن عشر يهرب إلى غنت
	3 أيار/مايو	هزيمة مورا أمام النمساويين في تالنتينو
	18 حزيران/يونيو	هزيمة نابليون في واترلو
	22 حزيران/يونيو	نابليون يتنازل عن العرش للمرة الثانية
	8 تموز/يوليو	لويس الثامن عشر يعود إلى قصر تويليري
	25 تموز/يوليو	نابليون يستسلم للبريطانيين ويركب على متن السفينة «بلْروفون»
	7 آب/أغسطس	نابليون يغادر إلى جزيرة القديسة هيلانة على متن السفينة «نورثُمبرلَاند»
	13 تشرين الأول/أكتوبر	إعدام مورا رمياً بالرصاص بعد فشله في استعادة نابولي
	15 تشرين الأول/أكتوبر	نابليون ينزل في جزيرة القديسة هيلانة

1816	4 نيسان/أبريل	وصول السير هودسون لاو إلى جزيرة القديسة هيلانة
1817	15 أيلول/سبتمبر	وفاة ماري والوفسكا في باريس
1818		نابليون الثاني يحصل على لقب دوق رايخشتادت
1819	تموز/يوليو	مدام دي بونثولون تحصل على إذن بمغادرة جزيرة القديسة هيلانة
1820	6 آب/أغسطس	وفاة إليزا بونابرت
1821	6 أيار/مايو	وفاة نابليون في جزيرة القديسة هيلانة
	7 أيلول/سبتمبر	ماري لويز تتزوّج الكونت ڤون نيبرغ
1825		وفاة بولين بونابرت بالسرطان
1829		آدم، كونت ڤون نيبرغ يصاب بنوبة قلبية قاتلة
1830	2 آب/أغسطس	تنازل شارل العاشر عن العرش
1832	22 تموز/يوليو	وفاة نابليون الثاني، دوق رايخشتادت، من السل في شونبرون
1834	شباط/فبراير	ماري لويز تتزوّج شارل دي بومبل
1835		وفاة جوزفين دوشسنوا
1836	2 شباط/فبراير	وفاة والدة الإمبراطور في روما
1837		وفاة أورتنس، المولودة دي بوهارنيه، في أرينبرغ في سويسرا
1838	7 حزيران/يونيو	وفاة لور أبرانتس في باريس
1839	13 أيار/مايو	وفاة الكاردينال فش
	18 أيار/مايو	وفاة كارولين مورا
1840	29 حزيران/يونيو	وفاة لوسيان بونابرت في روما
1844	28 تموز/يوليو	وفاة جوزيف بونابرت في روما

1846	25 تموز/يوليو	وفاة لويس بونابرت
1847	17 كانون الأول/ديسمبر	وفاة الإمبراطورة ماري لويز في بارما
1850		وفاة غيوسبينا غراسيني
1852		لويس نابليون يعتمد لقب نابليون الثالث
1860	24 حزيران/يونيو	وفاة جيروم بونابرت
1867		وفاة الآنسة جورج، إحدى عشيقات نابليون سابقاً
1868	27 تشرين الأول/أكتوبر	وفاة ألكسندر والوفسكي وفاة إليونور دينويل دي لا بلاين، إحدى عشيقات نابليون سابقاً
1869		وفاة بولين رانشوب، «كليوباترا» نابليون، في التسعين من العمر
1873	9 كانون الثاني/يناير	وفاة نابليون الثالث في المنفى في تشيزلهيرست في إنجلترا
1881	15 نيسان/أبريل	وفاة ابن نابليون من دون زواج، شارل ليون دينويل، بسرطان المعدة في بنتواز

ثبت بالمراجع

Abell, Mrs L. E., *Recollections of the Emperor Napoleon* (London, 1848)
Abrantès, la Duchesse d', *Mémoires de Madame la duchesse d'Abrantès* (10 vols, Paris, 1893)
Ain, Gabriel Girod del', *Désirée Clary d'après sa correspondance inédite avec Bonaparte, Bernadotte et sa famille* (Paris, 1959)
Aldington, Richard, *Wellington* (London, 1946)
Alméras, Henri d', *Barras et son temps* (Paris, 1930)
—— *La vie parisienne sous le Consulat et l'Empire* (Paris, n.d.)
—— *La vie perisienne sous la Révolution et la Directoire* (Paris, n.d.)
Antommarchi, François, *Les Derniers Moments de Napoléon, 1819–21* (Paris, 1898)

—— *Lettres inédite de Napoléon Ier 1799–1815*, (3 vols, Paris 1897)
—— *Correspondance inédite de Napoléon Ier* (3 vols, Paris, 1912–13)
Bourgeat, Jacques (ed.), *Napoléon: Lettres à Joséphine* (Paris, 1941)
Bourrienne, Louis A. F. de, *Mémoires* (10 vols, Paris, 1829)
Boycott-Brown, Martin, *The Road to Rivoli: Napoleon's First Campaign* (London, 2001)
Brent, Harrison, *Pauline Bonaparte: A Woman of Affairs* (New York, 1946)
Breton, Guy, *Napoleon and his Ladies* (trs. Frederick Holt, London, 1965)
Bretonne, L. de, *Les Bonapartes et leurs alliances* (Paris, 1901)
Brett-James, Antony, *The Hundred Days: Napoleon's Last Campaign from Eye-Witness Accounts* (London, 1964)
Broglie, Victor, duc de, *Souvenirs* (Paris, 1886)
Brookes, Dame Mabel, *St Helena Story* (London, 1960)
Bruce, Evangeline, *Napoleon and Josephine: An Improbable Marriage* (London, 1995)
Campbell, Neil, *Napoleon at Fontainebleau and Elba* (London, 1869)
Carrington, Dorothy, *Napoleon and His Parents: On the Threshold of History* (London, 1988)
Casanova, Marthe Arrighi de, *Letizia Bonaparte a été calomneé* (Brussels, 1954)
Castelnau, Jacques, *Madame Tallien* (Paris, 1967)
Castelot, André, *Napoleon's Son* (London, 1960)
—— *Joséphine* (Paris, 1964)
—— *Bonaparte* (Paris, 1967)
—— *Fouché* (Paris, 1990)
Caulaincourt, Louis de, *Memoirs of General de Caulaincourt, Duke of Vicenza, 1812–13* (trs. Hamish Miles, London, 1935)
Cerf, Leon, *Lettres de Napoléon à Joséphine* (Paris, 1929)
Chandler, David, *The Campaigns of Napoleon* (London, 1967)
—— *Napoleon* (London, 1973)
—— *Waterloo: The Hundred Days* (London, 1994)
Chaptal, Baron, *Mes souvenirs de Napoléon* (Paris, 1893)
Chardigny, Louis, *L'homme Napoléon* (Paris, 1987)
Chastenay, comtesse Victorine de, *Mémoires* (Paris, 1896)
Chastenet, Geneviève, *Marie-Louise, l'Impératrice oubliée* (Paris, 1983)
Chateaubriand, vicomte François René de, *Mémoires d'outre-tombe* (Paris, 1951–2)
Chevallier, Bernard and Christophe Pincemaille, *L'Impératrice Joséphine* (Paris, 1936)
Chimay, princesse de, *Madame Tallien* (Paris, 1936)

Aretz, Gertrude, *Napoleon and his Women Friends* (trs. Eden and Cedar Paul, London, 1927)
Arnault, Antoine, *Souvenirs d'un sexagènaire* (Paris, 1833)
Arnott, Archibald, *An Account of the Last Illness, Disease and Post-Mortem Examination of Napoleon Bonaparte* (London, 1822)
Aronson, Theo, *The Golden Bees* (London, 1964)
—— *Napoleon and Josephine* (London, 1990)
Atteridge, A. H., *Joachim Murat: Marshal of France and King of Naples* (London, 1911)
Aubenas, Joseph, *Histoire de l'Impératrice Joséphine* (2 vols, Paris, 1859)
Aubry, Octave, *St Helena* (trs. Arthur Livingston, London, 1937)
Avrillon, Marie-Jeanne, *Mémoires* (Paris, 1833)
Bainville, Jacques, *Le 18 Brumaire* (Paris, 1925)
Barnett, Correlli, *Bonaparte* (London, 1978)
Barras, Paul, *Mémoires de Barras, membre du Directoire* (ed. G. Drury, 3 vols, Paris, 1829)
Bartel, P., *La jeunesse inédite de Napoléon* (Paris, 1961)
Bausset, Baron Louis-F-J de, *Mémoires anecdotiques* (4 vols, Paris, 1827–9)
Beaucourt, Fernand, *Napoléon à l'isle d'Elba* (Paris, 1991)
Beauharnais, Hortense de, *Mémoires de la reine Hortense, publiés par le prince Napoléon* (3 vols, Paris, 1927)
Beauharnais, prince Eugène de, *Mémoires et correspondance politiquese et militaires* (Paris, 1958–60)
Bergeron, Louis, *France under Napoleon* (Princeton, 1981)
Bernardy, F. de, *Eugène de Beauharnais* (Paris, 1973)
Bertaut, Jules, *Le roi Jérôme* (Paris, 1954)
Bertrand, Général comte, *Journal de Général Bertrand, grand maréchal du palais: Cahiers de Sainte-Hélène* (Paris, 1951–59)
Bibesco, princesse, *Lettres d'une fille de Napoléon* (Paris, 1933)
Bingham, Captain D. A., *A Selection from the Letters and Despatches of the First Napoleon* (3 vols, London, 1884)
Blackburn, Julia, *The Emperor's Last Island* (London, 1991)
Boigne, comtesse de, *Mémoires* (Paris, 1971)
Bonaparte, Joseph, *Mémoires et correspondance* (Paris, 1861–5)
Bonaparte, Louis, *Documents historiques et réflexions sur le gouvernemont de la Hollande* (3 vols, Paris, 1820)
Bonaparte, Lucien, *Mémoires secrètes sur la vie privée, publique et littéraire* (2 vols, Paris, 1816)
Bonaparte, Napoléon, *Correspondance. de Napoléon Ier* (32 vols, Paris, 1858–70)

Gavoty, André, *Les amoureux de l'Impératrice Joséphine* (Paris, 1961)
Geer, Walter, *Napoleon III* (London, 1921)
—— *Napoleon and his Family* (3 vols, London, 1929)
Geyl, Peter, *Napoleon For and Against* (London, 1949)
Giles, Frank, *Bonaparte: England's Prisoner: The Emperor in Exile* (London, 2001)
Girardin, Stanislas de, *Mémoires* (Paris, 1824)
Girod de l'Ain, Gabriel, *Désirée Clary* (Paris, 1959)
—— *Joseph Bonaparte, le roi malgré lui* (Paris, 1970)
Gobineau, Marcel, *Pauline Borghese, soeur fidèle* (Paris, 1958)
Goldsmith, Lewis, *Histoire secrète du cabinet de Napoléon* (Paris, 1814)
Goodspeed, Donald, *Bayonets at St Cloud* (London, 1965)
Gourgaud, General Baron Gaspard, *Sainte-Hélène: Journal inédit de 1815 à 1818* (Paris, 1899)
Granville, Castalia, Countess (ed.), *Lord Granville Leveson-Gower: Private Correspondence 1781–1812* (2 vols, London, 1911)
Gronow, R. H., *The Reminiscences and Recollections of Captain Gronow* (2 vols, London, 1889)
Guedella, Philip, *The Hundred Days* (London, 1934)
Guillemin, Henri, *Madame de Staël, Benjamin Constant, et Napoléon* (Paris, 1959)
Gunn, Peter, *Napoleon's Little Pest* (London, 1983)
Hamilton, Jill, *Marengo: The Myth of Napoleon's Horse* (London, 2000)
Hamilton-Williams, David, *The Fall of Napoleon* (London, 1994)
Hanoteau, Jean, *Le Ménage Beauharnais* (Paris, 1955)
Hapgood, *see* Weider
Hastier, Louis, *Le grand amour de Joséphine* (Paris, 1955)
Haythornthwaite, Philip J., *et al. Napoleon: The Final Verdict* (London, 1996)
Herold, J. Christopher, *Mistress to an Age: A Life of Madame de Staël* (London, 1958)
—— *Bonaparte in Egypt* (London, 1963)
Hibbert, Christopher, *Waterloo: Napoleon's Last Campaign* (New York, 1967)
Hillemand, P., *Pathologie de Napoléon* (Paris, 1970)
Hochschild, Baron, *Désirée, reine de Suède et de Norvège* (Paris, 1888)
Holland, Henry Edward Fox, Baron, *Journal 1818–30* (London, 1923)
Horne, Alistair, *Napoleon: Master of Europe, 1805–7* (London, 1979)
—— *How Far From Austerlitz? Napoleon, 1805–15* (London, 1996)
Hortense, Reine, *Mémoires* (Paris, n.d.)
Howarth, David, *A Near Run Thing: The Day of Waterloo* (London, 1968)

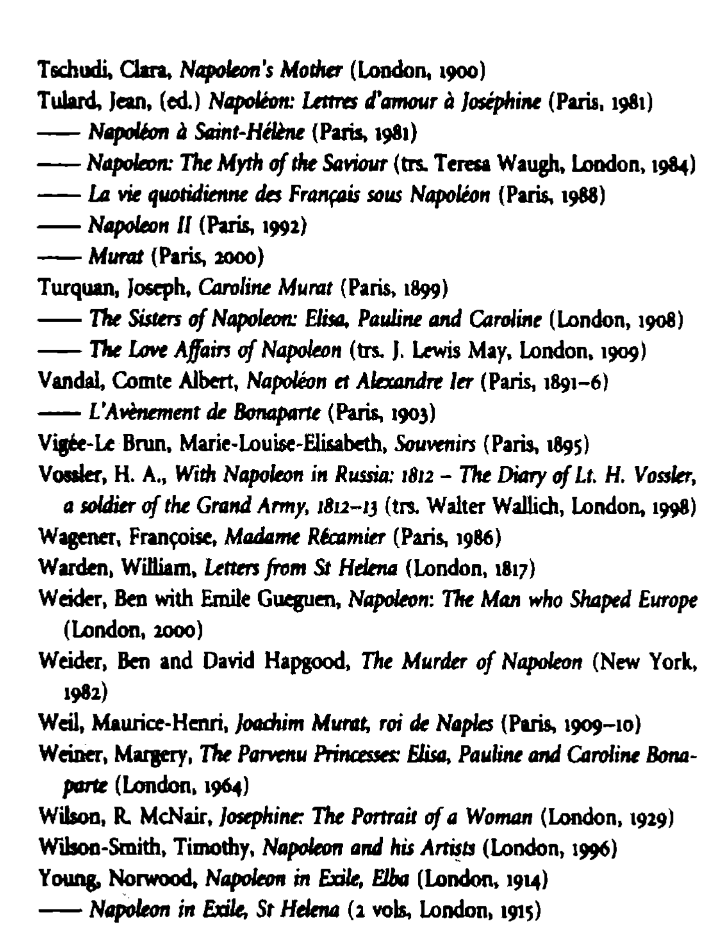
Chuquet, Arthur, *La jeunesse de Napoléon* (3 vols, Paris, 1897–8)
Cockburn, Sir George, *Napoleon's Last Voyage* (London, 1888)
Cole, Hubert, *The Betrayers: Joachim and Caroline Murat* (London, 1972)
—— *Josephine* (New York, 1963)
Connelly, Owen, *The Gentle Bonapàrte: A Biography of Joseph, Napoleon's Elder Brother* (London, 1968)
Consalvi, Cardinal, *Mémoires* (2 vols, Paris, 1864)
Constant, Benjamin, *Mémoires sur les Cent Jours* (Paris, 1820–22)
Constant, Louis, *Mémoires de Constant, premier valet de chambre de l'Empereur* (6 vols, Paris, 1830)
Cooper, Alfred Duff, *Talleyrand* (London, 1932)
Correspondance de Napoléon Ier (32 vols, Paris, 1858–70)
Correspondance inédite de Napoléon Ier (3 vols, Paris, 1912–13)
Corti, E., *Metternich und die Frauen* (Vienna, 1948)
Creston, Dormer, *In Search of Two Characters: Some Intimate Aspects of Napoleon and his Son* (London, 1947)
Cronin, Vincent, *Napoleon* (London, 1971)
Davout, Maréchal, Louis-Nicolas, duc d'Auerstädt et prince d'Eckmühl, *Correspondance* (Paris, 1885)
De Chair, Somerset (ed.), *Napoleon's Memoirs* (London, 1986)
Decaux, Alain, *Letizia: Mère de l'Empereur* (Paris, 1983)
Deschamp, Léonce, *Pauline Fourès, Notre Dame de l'orient* (Paris, n.d.)
Dixon, Pierson, *Pauline: Napoleon's Favourite Sister* (London, 1964)
Ducrest, Georgette, *Mémoires sur l'Impératrice Joséphine* (3 vols, Paris, 1823–9)
Duhourcau, François, *La Mère de Napoléon* (Paris, 1921)
Durand, Général, *Mémoires sur Napoléon et Marie-Louise*, 1810–14 (Paris, 1886)
Ellis, Geoffrey, *Napoleon* (London, 1997)
Epton, Nina, *Josephine: The Empress and Her Children* (London, 1975)
Erickson, Carolly, *Josephine: A Life of the Empress* (London, 1999)
Fain, Baron Agathon, *Mémoires* (Paris, 1908)
Farinelle, Leonardo, *Maria Luigia: Duchesa di Parma* (Parma, 1983)
Fleuriot de Langle, Paul, *La Paolina, soeur de Napoléon* (Paris, 1944)
—— *Elisa: soeur de Napoléon* (Paris, 1947)
Forsyth, William, *History of the Captivity of Napoleon at St Helena* (3 vols, London, 1853)
Fouché, Joseph, duc d'Otrante, *Mémoires* (Paris, 1957)
Frémaux, Paul, *With Napoleon at St Helena* (London, 1902)
Frugier, Raymond, *Napoléon, essai médico-psychologique* (Paris, 1895)

Manceron, Claude, *Napoleon Recaptures Paris* (London, 1969)
Mansel, Philip, *The Eagle in Splendour: Napoleon I and his Court* (London, 1987)
Marchand, Louis-Joseph, *Mémoires* (2 vols, Paris, 1952)
—— *In Napoleon's Shadow: Being the First English Language Edition of the Complete Memoirs of L.-J. Marchand* (produced by Proctor Jones, San Francisco, 1996)
Markham, Felix, *Napoleon* (London, 1963)
—— *The Bonapartes* (London, 1975)
Marmont, Auguste, Marshal de, duc de Raguse, *Mémoires* (Paris, 1857)
Marmottan, P., *Elisa Bonaparte* (Paris, 1898)
Marquiset, Alfred, *Une merveilleuse: Fortunée Hamelin* (Paris, 1909)
Marshall-Cornwall, Sir James, *Massena* (London, 1965)
—— *Napoleon as Military Commander* (London, 1967)
Martin, Andy, *Napoleon the Novelist* (London, 2000)
Martineau, Gilbert, *Napoleon's St Helena* (trs. Frances Partridge, London, 1968)
—— *Napoleon Surrenders* (London, 1971)
—— *Napoleon's Last Journey* (London, 1976)
—— *Madame Mère* (Paris, 1980)
—— *Marie-Louise* (Paris, 1985)
Masson, Frédéric, *Napoléon et les femmes* (3 vols, 1893–1902)
—— *Napoléon chez lui* (2 vols, 1894)
—— *Napoléon Inconnu* (2 vols, Paris, 1895)
—— *Joséphine: Impératrice et reine* (Paris, 1907)
—— (ed.) *Private Diaries of the Empress Marie-Louise* (London, 1922)
—— *Napoleon at St Helena* (trs. L.B. Frewer, Oxford 1949)
—— *Napoleon's St Helena* (trs. Frances Partridge, London, 1968)
—— *Joséphine répudiée* (Paris, n.d.)
—— *Madame Bonaparte* (Paris, n.d.)
—— *Napoléon et sa famille* (13 vols, Paris, n.d.)
Mauguin, Georges, *L'Impératrice Joséphine: Anecdotes et curiosités* (Paris, n.d.)
Maury, René, *L'assassin de Napoléon* (Paris, 1994)
Melchior-Bonnet, Bernardine, *Jérôme Bonaparte* (Paris, 1979)
Méneval, Baron de, *Napoléon et Marie-Louise: Souvenirs historiques de Baron Méneval* (3 vols, Paris, 1844)
Metternich, Prince Klemens, *Mémoires, documents et écrits divers* (Paris, 1880–84)
Meynell, Henry, *Conversations with Napoleon at St Helena* (London, 1911)

Jackson, Basil, *Notes and Reminiscences of a Staff Officer* (London, 1903)
Janssens, Jacques, *Joséphine de Beauharnais et son temps* (Paris, 1903)
Jones, Procter Paterson (ed.), *Napoleon: An Intimate Account of the Years of Supremacy, 1800–14* (San Francisco, 1992)
Kauffmann, Jean-Paul, *The Dark Room at Longwood: A Voyage to St Helena* (trs. Patricia Clancy, London, 1999)
Kelly, Linda, *Women of the French Revolution* (London, 1987)
Kemble, James, *Napoleon Immortal* (London, 1950)
—— *St Helena during Napoleon's Exile: Correquer's Diary* (London, 1969)
Kircheisen, F. M., *Napoléon* (Paris, 1931)
Knapton, Ernest John, *Empress Josephine* (Cambridge, Mass., 1964)
Korngold, Ralph, *The Last Years of Napoleon* (London, 1960)
Kunstsler, Charles, *La vie privée de l'Impératrice Joséphine* (Paris, 1939)
La Tour du Pin, marquise de, *Mémoires* (Paris, 1914)
Lacout-Gayet, Michel, *Marie Caroline, reine de Naples: une adversaire de Napoléon* (Paris, 1990)
Laflandre-Linden, Louise, *Napoléon et l'île d'Elba* (Paris, 1990)
Larrey, Baron, *Madame Mère* (2 vols, Paris, 1892)
Las Cases, Emmanuel, comte de, *Memorial de Sainte-Hélène: Journal de la vie privée et les conversations de l'Empereur Napoléon à Sainte-Hélène* (Paris, 1823)
Lavalette, A. D. Chamas de, *Mémoires et Souvenirs* (2 vols, Paris, 1831)
Lean, Tangye, *The Napoleonists* (Oxford, 1970)
Lefebvre, Georges, *Napoléon, 1807–1815* (2 vols, London, 1969)
Lentz, Thierry *Lettres inédites de Napoléon Ier* (3 vols, Paris, 1997)
—— *Le Grand Consulat* (Paris, 2000)
Levy, Arthur, *Napoléon et Eugène de Beauharnais* (Paris, 1926)
Leys, Simon, *The Death of Napoleon* (London, 1991)
Macdonald, Marshal E-J-J-A., duc de Tarante, *Souvenirs* (Paris, 1892)
Mackenzie, Norman, *The Escape from Elba: The Fall and Flight of Napoleon, 1814–15* (Oxford, 1982)
McLynn, Frank, *Napoleon: A Biography* (London, 1997)
Madelin, Louis (ed.), *Lettres inédites de Napoléon à Marie-Louise* (Paris, 1935)
Mahan, Alexandre, *Marie-Louise: Le nemésis de Napoléon* (Paris, 1933)
Maitland, F.L., *The Narrative of the Surrender of Bonaparte and of His Residence on Board* H.M.S. *Bellerophon* (London, 1826)
Malcolm, Lady, *A Diary of St Helena: The Journal of Lady Malcolm, 1816–17* (ed. Sir Arthur Wilson, 2 vols, 1846).
Mallet du Pin, *Mémoires* (2 vols, Paris, 1851)

Robiquet, J., *La vie quotidienne au temps de Napoléon* (Paris, 1943)
Roederer, comte Pierre-Louis de, *Journal* (Paris, 1909)
Roncière, C. de la (ed.), *Letters of Napoleon to Marie-Louise* (London, n.d.)
Rose, J. Holland, *The Personality of Napoleon* (London, 1912)
—— *The Life of Napoleon* (London, 1913)
Rosebery, Lord, *Napoleon: The Last Phase* (London 1900)
Saint-Armand, Imbert de, *The Memoirs of the Empress Marie-Louise* (London, 1886)
Saint-Denis, Louis Etienne, *From the Tuileries to St Helena* (trs. E. S. Stokes, London, 1902)
Saint-Elme, Ida, *Mémoires* (Paris, 1827–9)
Saunders, Edith, *Napoleon and Mademoiselle George* (London, 1958)
Savant, Jean, *Napoléon et Joséphine* (Paris, 1955)
Schom, Alan, *One Hundred Days: Napoleon's Road to Waterloo* (London, 1993)
—— *Napoleon Bonaparte* (London, 1997)
Schur, Nathan, *Napoleon in the Holy Land* (London, 1999)
Seward, Desmond, *Napoleon's Family* (London, 1986)
Shaw, Clement, *Letizia Bonaparte* (London, 1928)
Smith, Digby, *1813, Leipzig: Napoleon and the Battle of the Nations* (London, 2001)
Solmi, Angelo, *Maria Luigia, Duchessa di Parma* (Milan, 1985)
Sorokine, Dimitri, *La jeunesse de Napoléon* (Paris, 1976)
Staël, Germaine de, *Mémoires* (Paris, 1818)
Stirling, Monica, *A Pride of Lions: A Portrait of Napoleon's Mother* (London, 1961)
Stokoe, John, *With Napoleon at St Helena* (London, 1902)
Strawson, John, *The Duke and the Emperor* (London, 1994)
Sutherland, Christine, *Marie Walewska: Napoleon's Great Love* (London, 1979)
Talleyrand-Périgord, Charles-Maurice de, *Mémoires* (Paris, 1891–2)
Talma, François-Joseph, *Lettres inédites de Talma à la Princesse Pauline Bonaparte* (Paris, 1911)
Thiébault, Général Baron, *Mémoires* (1895–6)
Thiry, Jean, *Bonaparte en Egypt* (Paris, 1973)
—— *Les années de jeunesse de Napoleon Bonaparte, 1769–96* (Paris, 1975)
Thompson, J. M., *Napoleon Self-Revealed* (London, 1934)
—— *Napoleon Bonaparte: His Rise and Fall* (Oxford, 1952)
Thornton, M.J., *Napoleon After Waterloo* (Stanford, 1968)
Trotter, John Bernard, *Memoirs of the Later Years of C. J. Fox* (London, 1811)

Miot de Melito, comte A. F., *Mémoires de comte Miot de Melito* (3 vols, Paris, 1873)
Montholon, comtesse de, *Souvenirs de Sainte-Hélène* (2 vols, 1846)
Montholon, Général comte de, *Récite de la captivité de l'Empereur à Sainte-Hélène* (2 vols, 1846)
Mossiker, Frances, *Napoléon et Joséphine* (New York, 1964)
Mounier, Baron, *Souvenirs intimes* (Paris, 1896)
Narbonne, Bernard, *Pauline Bonaparte: La Venus Impériale* (Paris, 1963)
Nicolson, Nigel, *Napoleon: 1812* (London, 1985)
Ober, Frederick A., *Josephine: Empress of the French* (London, 1901)
Oddie, L. M., *Napoleon II* (London, 1952)
Oman, Carola, *Napoleon's Viceroy: Eugène de Beauharnais* (London, 1966)
O'Meara, Barry Edward, *Napoleon in Exile* (2 vols, London, 1822)
Orieux, Jean, *Talleyrand* (Paris, 1970)
Ortzen, Len, *Imperial Venus: The Story of Pauline Bonaparte Borghese* (London, 1974)
Ouvrard, G. J., *Mémoires* (Paris, 1826)
Palmer, Alan, *Napoleon in Russia* (London, 1967)
—— *An Encyclopaedia of Napoleon's Europe* (London, 1984)
—— *Bernadotte: Napoleon's Marshal, Sweden's King* (London, 1990)
—— *Napoleon and Marie Louise, the Second Empress* (London, 2001)
Palmstierna, C. F. (ed.), *Lettres de Marie-Louise à Napoléon* (Paris, 1965)
Papillard, François, *Cambacérès* (Paris, 1961)
Park, Julian (ed.), *Napoleon in Captivity: The Reports of Count Balmain, Russian Commissioner on the Island of St Helena* (London, 1928)
Péretti, Lydie, *Letizia Bonaparte* (Paris, 1922)
Piétri, François, *Lucien Bonaparte* (Paris, 1930)
Pincemaille, Christophe *see* Chevallier
Poniatowski, Michel, *Talleyrand et le Consulat* (Paris, 1954)
—— *Talleyrand et le Directoire* (Paris, 1982)
Potocka, Countess Anna *Mémoires* (Paris, 1897)
Pougin, Arthur, *Giuseppina Grassini* (Paris, 1923)
Ratcliffe, Bertram, *Prelude to Fame: An Account of the Early Life of Napoleon up to the Battle of Montenotte* (London, 1981)
Récamier, J-F-J-A, *Souvenirs et correspondance* (Paris, 1859)
Rémusat, Mme Claire de *Mémoires* (3 vols, Paris, 1880)
—— *Lettres de Madame de Rémusat* (2 vols, Paris, 1881)
Richardson, Frank, *Napoleon: Bisexual Emperor* (London, 1972)
—— *Napoleon's Death: An Inquest* (London, 1974)
Roberts, Andrew, *Napoleon and Wellington* (London, 2001)



Tschudi, Clara, *Napoleon's Mother* (London, 1900)

Tulard, Jean, (ed.) *Napoléon: Lettres d'amour à Joséphine* (Paris, 1981)

—— *Napoléon à Saint-Hélène* (Paris, 1981)

—— *Napoleon: The Myth of the Saviour* (trs. Teresa Waugh, London, 1984)

—— *La vie quotidienne des Français sous Napoléon* (Paris, 1988)

—— *Napoleon II* (Paris, 1992)

—— *Murat* (Paris, 2000)

Turquan, Joseph, *Caroline Murat* (Paris, 1899)

—— *The Sisters of Napoleon: Elisa, Pauline and Caroline* (London, 1908)

—— *The Love Affairs of Napoleon* (trs. J. Lewis May, London, 1909)

Vandal, Comte Albert, *Napoléon et Alexandre Ier* (Paris, 1891–6)

—— *L'Avènement de Bonaparte* (Paris, 1903)

Vigée-Le Brun, Marie-Louise-Elisabeth, *Souvenirs* (Paris, 1895)

Vossler, H. A., *With Napoleon in Russia: 1812 – The Diary of Lt. H. Vossler, a soldier of the Grand Army, 1812–13* (trs. Walter Wallich, London, 1998)

Wagener, Françoise, *Madame Récamier* (Paris, 1986)

Warden, William, *Letters from St Helena* (London, 1817)

Weider, Ben with Emile Gueguen, *Napoleon: The Man who Shaped Europe* (London, 2000)

Weider, Ben and David Hapgood, *The Murder of Napoleon* (New York, 1982)

Weil, Maurice-Henri, *Joachim Murat, roi de Naples* (Paris, 1909–10)

Weiner, Margery, *The Parvenu Princesses: Elisa, Pauline and Caroline Bonaparte* (London, 1964)

Wilson, R. McNair, *Josephine: The Portrait of a Woman* (London, 1929)

Wilson-Smith, Timothy, *Napoleon and his Artists* (London, 1996)

Young, Norwood, *Napoleon in Exile, Elba* (London, 1914)

—— *Napoleon in Exile, St Helena* (2 vols, London, 1915)

نبذة عن المؤلف:

كرستوفر هيبرت (1924 - 2008) مؤرّخ وكاتب سير بريطاني، درس في كلية رادلي وجامعة أكسفورد. خدم في إيطاليا في الحرب العالمية الثانية، حيث أصيب مرتين ونال وسام الصليب العسكري في سنة 1945. ألف ما يزيد على 40 كتاباً، منها (صعود آل ميدتشي وسقوطهم)، و(استيقاظ التنين: الصين والغرب)، و(التمرّد العظيم: الهند، 1857)، و(الفرسان وحليقو الرؤوس: الحرب الأهلية الإنجليزية، 1642-1649). كما كتب سيراً عن لندن وروما والبندقية وفلورنسا، فضلاً عن صموئيل جونسون، وإليزابيث الأولى، ونلسون، وولِنغتون، والملكة فيكتوريا.

نبذة عن المترجم:

يعمل في الترجمة والتحرير منذ أكثر من خمس وعشرين سنة. ترجم ما يزيد على مئة كتاب، منها من منشورات «كلمة»: «الاستراتيجية التنافسية: أساليب تحليل الصناعات والمنافسين» لمايكل بورتر، و«خرافة التنمية: الاقتصادات غير القابلة للحياة في القرن الحادي والعشرين» لأزوالدو دي ريفيرو، و«ملفات المستقبل: موجز في تاريخ السنوات الخمسين المقبلة» لرتشارد واطسون، و«فن الحدائق الإسلامية» لإيما كلارك.

المرأة في حياة نابليون

يورد كرستوفر هيبِرت في هذا الكتاب رواية حديثة عن مختلف مراحل حياة نابليون وتطوّر سيرته المهنية غير العادية. فيبرز صورة مغايرة لا تظهره بمظهر القائد المظفّر، أو الإمبراطور، أو حتى البطل المهزوم. وإنما يكشف عن الرجل في علاقاته مع العديد من النساء من اللواتي أحطن به وأثّرن في حياته: زوجتاه، وعشيقاته وأمه وشقيقاته. نتعرّف في هذه الرواية إلى شخصيته المزاجية، واهتماماته وأذواقه، والانطباعات التي تركها لدى معاصريه بعيداً عن ميدان القتال. وتتداخل في هذه السيرة العداوات والعلاقات الغرامية، وعلاقاته مع أفراد عائلته. كما يُسلّط الضوء على حياته الخاصة في أثناء المعارك، وفي زمن السلم، وفي المنفى، والغموض الذي يكتنف وفاته.





